أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجكني الشنقيطي

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ

محمد بن عوض بن لادن

رحمه الله

وقفاً لله على طلبة العلم

الجزء السابع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾

قرأه الجمهور : صٓ بالسكون منهم القراء السبعة ، والتحقيق أن ص من الحروف المقطعة فى أوائل السورة كص فى قوله تعالى (آلمص) ، وقوله تعالى : (كهيعص) .

وقد قدمنا الكلام مستوفىً على الحروف المقطعة فى أوائل السور فى أول سورة هود ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وبذلك التحقيق المذكور ، تعلم أن قراءة من قرأ صَ بكسر الدال غير منونة ، ومن قرأها بكسر الدال منونة ، ومن قرأها بفتح الدال ، ومن قرأها بضمها غير منونة ، كلها قراءات شاذة لا يعول عليها .

وكذلك تفاسير بعض العلماء المبنية على تلك القراءات ، فإنها لا يعوّل عليها أيضاً .

كما روى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : إن صاد بكسر الدال فعل أمر من صادى يصادى مصاداة إذا عارض ، ومنه الصدى . وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الصلبة الخالية من الأجسام ، أى عارض بعملك القرآن وقابله به ، يعنى امتثل أوامره واجتنب نواهيه واعتقد عقائده واعتبر بأمثاله واتعظ بمواعظه .

وعن الحسن أيضاً : أن ص بمعنى حادث وهو قريب من الأول .

وقراءة ص بكسر الدال غير منونة : مروية عن أبى بن كعب ، والحسن

وابن أبي إسحاق وأبي السمال وابن أبي عيلة ونصر بن عاصم .

والأظهر في هذه القراءة الشاذة ، أن كسر الدال سببه التخفيف لالتقاء الساكنين وهو حرف هجاء لافعل أمر من صادى .

وفي رواية عن ابن أبي إسحاق ، أنه قرأ (ص) بكسر الدال مع التنوين على أنه مجرور بحرف قسم محذوف ، وهو كما ترى ، فسقوطه ظاهر .

وكذلك قراءة من قرأ (ص) بفتح الدال من غير تنوين ، فهي قراءة شاذة والتفاسير المبنية إليها ساقطة .

كقول من قال : صاد محمد قلوب الناس واستمالهم حتى آمنوا به .

وقول من قال : هو منصوب على الإغراء .

أي الزموا صاد ، أي هذه السورة ، وقول من قال معناه اتل ، وقول من قال : إنه منصوب بنزع الخافض ، الذي هو حرف القسم المحذوف .

وأقرب الأقوال على هذه القراءة الشاذة ، أن الدال فتحت تخفيفاً لالتقاء الساكنين ، واختير فيها الفتح إتباعا للصاد ، ولأن الفتح أخف الحركات ، وهذه القراءة المذكورة قراءة عيسى بن عمر ، وتروى عن محبوب عن أبي عمرو .

وكذلك قراءة من قرأ صاد بضم الدال من غير تنوين ، على أنه علم للسورة ، وأنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هذه صاد وأنه منع من الصرف للعلمية والتأنيث لأن السورة مؤنثة لفظاً .

وهذه القراءة مروية عن الحسن البصري وابن السميقع وهرون الأعور .

ومن قرأ صاد بفتح الدال قرأ : ق ، و ن كذلك ، وكذلك من قرأها (ص) بضم الدال فإنه قرأ (قُ) : و (نُ) بضم الفاء والنون

والحاصل أن جميع هذه القراءات ، وجميع هذه التفاسير المبنية عليها ، كلها ساقطة ، لامعوّل عليها .

وإنما ذكرناها لأجل التنبيه على ذلك .

ولاشك أن التحقيق هو ماقدمنا من أن (ص) من الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وأن القراءة التى لا يجوز العدول عنها هى قراءة الجمهور التى ذكرناها .

وقد قال بعض العلماء : إن ص مفتاح بعض أسماء الله تعالى كالصبور والصمد .

وقال بعضهم معناه : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن الله ، إلى غير ذلك من الأقوال .

وقد ذكرنا أنا قدمنا الكلام على ذلك مستوفًى فى أول سورة هود .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (والقرآن ذى الذكر) ، قد قدمنا أن أصل القرآن مصدر ، زيد فيه الألف والنون . كما زيدتا فى الطغيان ، والرجحان ، والكفران ، والخسران ، وأن هذا المصدر أريد به الوصف .

وأكثر أهل العلم ، يقولون : إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول .

وعليه فالقرآن بمعنى المقروء من قول العرب : قرأت الشىء إذا أظهرته وأبرزته ، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين إذا أظهرته وأبرزته من بطنها ، ومنه قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

على إحدى الروايتين فى البيت .

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذى يظهره القارىء ، ويبرزه من فيه ، بعباراته الواضحة .

وقال بعض أهل العلم : إن الوصف المعبر عنه بالمصدر ، هو اسم الفاعل . وعليه فالقرآن بمعنى القارىء ، وهو اسم فاعل قرأت ، بمعنى جمعت . ومنه قول العرب : قرأت الماء فى الحوض أى جمعته فيه .

وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارىء أى الجامع لأن الله جمع فيه جميع مافى الكتب المنزلة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ذى الذكر) فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء .

أحدهما : أن الذكر بمعنى الشرف ، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر أى شرف .

ومنه قوله تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) أى شرف لكم على أحد القولين .

الوجه الثانى : أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير ، لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ ، وهذا قول الجمهور واختاره ابن جرير .

تنبيـــه

اعلم أن العلماء اختلفوا فى تعيين الشىء الذى أقسم الله عليه فى قوله تعالى : (والقرآن ذى الذكر) ، فقال بعضهم : إن المقسم عليه مذكور ، والذين قالوا إنه مذكور ، اختلفوا فى تعيينه وأقوالهم فى ذلك كلها ظاهرة السقوط .

فمنهم من قال : إن المقسم عليه هو قوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار)

ومنهم من قال هو قوله : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

ومنهم من قال هو قوله تعالى : (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) كقوله (تالله إن كنا لفي ضلال مبين) . وقوله : (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ) .

ومنهم من قال هو قوله : (كم أهلكنا من قبلهم) ، ومن قال هذا قال : إن الأصل لكم أهلكنا ولما طال الكلام ، حذفت لام القسم ، فقال : كم أهلكنا بدون لام .

قالوا : ونظير ذلك قوله تعالى : (والشمس وضحاها) لما طال الكلام بين القسم والمقسم عليه ، الذى هو قد أفلح من زكاها ، حذفت منه لام القسم .

ومنهم من قال : إن المقسم عليه هو قوله : ص قالوا معنى ص صدق رسول الله والقرآن ذى الذكر . وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من قال المعنى : هذه ص أى السورة التى أعجزت العرب ، (والقرآن ذى الذكر) ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا يخفى سقوطها .

وقال بعض العلماء إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا فى تقديره ، فقال الزمخشرى فى الكشاف ، التقدير (والقرآن ذى الذكر) . إنه لمعجز ، وقدره ابن عطيه وغيره فقال : (والقرآن ذى الذكر) ما الأمر كما يقوله الكفار ، إلى غير ذلك من الأقوال .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن : أن جواب القسم محذوف وأن تقديره (والقرآن ذى الذكر) ما الأمر كما يقوله الكفار ، وأن قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة .

الأول : منها أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً وأن الأمر ليس كما يقول الكفار فى قوله تعالى عنهم : (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) .

والثانى : أن الإله المعبود جل وعلا واحد ، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار فى قوله تعالى عنهم : (أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب).

والثالث : أن الله جل وعلا يبعث من يموت ، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار فى قوله تعالى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت). وقوله : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) وقوله تعالى : (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) .

أما الدليل من القرآن على أن المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى : (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) ، لأن الإضراب بقوله بل ، دليل واضح على المقسم عليه المحذوف . أى ما الأمر كما يقوله الذين كفروا ، بل الذين كفروا فى عزة ، أى فى حمية وأنفة واستكبار عن الحق ، وشقاق ، أى مخالفة ومعاندة.

وأما دلالة استقراء القرآن على أن المنفى المحذوف شامل للأمور الثلاثة المذكورة ، فلدلالة آيات كثيرة : أما صحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له فقد أشار لهما هنا .

أما كون الرسول مرسلا حقاً ففى قوله تعالى هنا : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هـذا ساحر كذاب) يعنى أى لا وجه للعجب المذكور . لأن يجىء المنذر الكائن منهم .

لا شك فى أنه بإرسال من الله حقاً .

وقولهم (هذا ساحر كذاب) إنما ذكره تعالى إنكاراً عليهم وتكذيباً لهم.

فعرف بذلك أن فى ضمن المعنى والقرآن ذى الذكر إنك مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم ، وزعموا أنك ساحر كذاب ، أى فهم الذين عجبوا من الحق الذى لا شك فيه ، وزعموا أن خاتم الرسل ، وأكرمهم على الله ، ساحر كذاب .

وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له ، ففى قوله هنا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) ، لأن الهمزة فى قوله : أجعل للانكار المشتمل على معنى النفى ، فهى تدل على نفى سبب تعجبهم من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الإله المعبود واحد .

وهذان الأمران قد دلت آيات أخر من القرآن العظيم ، على أن الله أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى مقسما على أن الرسول مرسل حقاً (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) فهى توضح معنى ص والقرآن ذى الذكر إنك لمن المرسلين .

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة فى آيات كثيرة كقوله تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) ، وأما كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له ، فقد أقسم تعالى عليه فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى (والصافات صفا فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً إن إلهكم لواحد) ونحو ذلك من الآيات . فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أى والقرآن ذى الذكر ، إن إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله (أجعل الآلهة) الآية .

وأما كون البعث حقاً ، فقد أقسم عليه إقساماً صحيحاً صريحاً ، فى آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى (قل بلى وربى لتبعثن) . وقوله تعالى : (قل بلى وربى لتأتينكم) أى الساعة . وقوله : (قل إى وربى إنه لحق) .

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذى هو الاثنان

المذكوران ، وهى كون الرسول مرسلا ، والبعث حقاً ، وأشار إلى ذلك إشارة واضحة ، وذلك فى قوله تعالى (ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) فاتضح بذلك أن المعنى ق والقرآن المجيد ، إن المنذر الكائن منكم الذى عجبتم من مجيئه لكم منذراً رسول منذر لكم من الله حقاً ، وإن البعث الذى أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار ، والاستبعاد ، فى قوله تعالى عنكم (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) أى ذلك الرجع الذى هو البعث .

رجع بعيد فى زعمكم واقع لا محالة وإنه حق لاشك فيه ، كما أشار له فى قوله تعالى : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) إذ المعنى أن ما أكلته الأرض ، من لحومهم ، ومزقته من أجسامهم ، وعظامهم ، يعلمه جل وعلا ، لا يخفى عليه منه شيء فهو قادر على رده كما كان .

وإحياء تلك الأجساد البالية ، والشعور المتمزقة ، والعظام النخرة كما قدمنا موضحاً بالآيات القرآنية ، فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) وكونه صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً ، يستلزم استلزاما لا شك فيه ، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .

ولذلك أقسم تعالى ، فى مواضع كثيرة ، على أن القرآن أيضاً منزل من الله كقوله تعالى فى أول سورة الدخان (حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) الآية ، وقوله تعالى فى أول سورة الزخرف (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾

قد قدمنا الكلام قريباً على الإضراب ببل فى هذه الآية .

وقوله تعالى هنافى عزة أى فى حمية واستكبار عند قبول الحق ،وقد بين جل وعلا فى سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله ، و بين أن تلك العزة التى هى الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم ، وذلك فى قوله عن بعض الكفار الذين يظهرون غير مايبطنون (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار :أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب،القاهر ، وإن كان الأمر ليس كذلك،لأن أصل العزة فى لغة العرب الغلبة والقهر ، ومنه قوله تعالى(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) الآية ،والعرب يقولون:من عز بز ،يعنون من غلب استلب ،ومنه قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يحتشى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

وقوله تعالى عن الخصم الذين تسوروا على داود : وعزنى فى الخطاب أى غلبنى وقهرنى فى الخصومة .

والدليل من القرآن على أن العزة التى أثبتها الله للكفار فى قوله : (بل الذين كفروا فى عزة) الآية . وقوله : (أخذته العزة بالإثم) الآية ،ليست هى العزة التى يراد بها القهر والغلبة بالفعل ، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين ، وذلك فى قوله تعالى : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

ولذلك فسرها علماء التفسير ، بأنها هى الحمية والاستكبار ، عن قبول الحق .

والشقاق : هى المخالفة ، والمعاندة كما قال تعالى (وإن تولوا فإنما هم فى شقاق) الآية . قال بعض العلماء : وأصله من الشق الذى هو الجانب،لأن المخالف

المعاند ، يكون فى الشق أى فى الجانب الذى ليس فيه من هو مخالف له ومعاند .

وقال بعض أهل العلم : أصل الشقاق من المشقة لأن المخالف المعاند يجتهد فى إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند .

وقال بعضهم : أصل الشقاق من شق العصا وهو الخلاف والتفرق .

قوله تعالى : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

كم هنا هى الخبرية، ومعناها الإخبار عن عدد كثير ، وهى فى محل نصب ، على أنها مفعول به لأهلكنا وصيغة الجمع فى أهلكنا للتعظيم ، ومن فى قوله : من قرن ، مميزة لكم ، والقرن يطلق على الأمة وعلى بعض من الزمن ، أشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة ، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم السالفة من أجل الكفر ، وتكذيب الرسل فعليكم أن تحذروا يا كفار مكة من تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكفر بما جاء به لئلا نهلككم بسبب ذلك كما أهلكنا به القرون الكثيرة الماضية .

وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولى : أنه أهلك كثيراً من القرون الماضية ، يهدد كفار مكة بذلك .

الثانية : أنهم نادوا أى عند معاينة أوائل الهلاك .

الثالثة : أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاينة العذاب ليس وقت نداء ، أى فهو وقت لا ملجأ فيه ، ولا مفر من الهلاك بعد معاينته .

وقد ذكر جل وعلا هذه المسائل الثلاث المذكورة هنا موضحة فى آيات كثيرة من كتابه .

أما المسألة الأولى وهى كونه أهلك كثيراً من الأمم ، فقد ذكرها فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) وقوله تعالى :

(فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) الآية . وقوله تعالى (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد ذكر جل وعلا فى آيات كثيرة أن سبب إهلاك تلك الأمم الكفر بالله وتكذيب رسله كقوله فى هذه الآية الأخيرة مبيناً سبب إهلاك تلك الأمم التى صرح بأنها (لا يعلمها إلا الله) (جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) .

وقد قدمنا فى الكلام على هذه الآية من سورة إبراهيم ، أقوال أهل العلم فى قوله تعالى : (فردوا أيديهم فى أفواههم)، وبينا دلالة القرآن على بعضها ، وكقوله تعالى (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسوله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا) وقوله تعالى : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) إلى قوله : (وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكلا ضربنا الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً) وقوله تعالى : (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . وقوله تعالى (كل كذب الرسل فحق وعيد) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد بين تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة ، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه صلى الله عليه وسلم .

ذكر تعالى ذلك فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) لأن قوله تعالى : (وللكافرين أمثالها) تهديد عظيم بذلك .

وقوله تعالى : (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ، منضود مسومة عند ربك ، وماهى من الظالمين ببعيد) فقوله : وماهى من الظالمين ببعيد فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم ، وفواحشهم المعروفة ، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم ، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، كقوله فى قوم لوط : (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) وقوله تعالى : (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) . وقوله فيهم (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) . وقوله فيهم : (وإنها لبسبيل مقيم) . وقوله فيهم وفى قوم شعيب (وإنهما لبإمام مبين) والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما المسألة الثانية : وهى نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب فقد ذكر تعالى فى آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء .

أحدهما : نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين ، وذلك فى قوله تعالى : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) إلى قوله (قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فمازالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) وقوله تعالى : (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) .

الثانى : من نوعى النداء المذكور نداؤهم بالإيمان بالله مستغيثين من ذلك العذاب الذى أحسوا أوائله ، كقوله تعالى : (فما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام ، لدلالة قوله : (ولات حين مناص) عليه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولات حين مناص) الذى هو المسألة الثالثة ، معناه : ليس الحين الذى نادوا فيه ، وهو وقت معاينة العذاب ، حين مناص ، أى ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذى عاينوه .

فقوله : ولات هى لا النافية زيدت بعدها تاء التأنيث اللفظية كما زيدت فى ثم ، فقيل فيها ثمت ، وفى رب ، فقيل فيها ربت .

وأشهر أقوال النحويين فيها ، أنها تعمل عمل ليس وأنها لاتعمل إلا فى الحين خاصة ، أو فى لفظ الحين ونحوه من الأزمنة ، كالساعة والأوان ، وأنها لابد أن يحذف اسمها أو خبرها والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب ، وربما عكس ، وهذا قول سيبويه وأشار إليه ابن مالك فى الخلاصة بقوله :

فى النكرات أعملت كليس « لا » وقد تلى « لات » و « إن » ذا العملا
وما للات فى سوى حين عمل وحذف ذى الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعل من النوص ، والعرب تقول : ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه ، ويطلق المناص على التأخر لأن من تأخر ومال إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد المناص .

والمناص والملجأ والمفر والموئل معناها واحد ، والعرب تقول : استناص إذا طلب المناص ، أى السلامة والمفر مما يخافه ، ومنه قول حارثة بن بدر :

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدى استناص ورام جرى السيل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم ، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شىء واحد ؛ لأن المناص مصدر ميمى معناه المنطبق على جزئياته ، أن يكون صاحبه فى كرب وضيق ، فيعمل عملا يكون به خلاصه ونجاته من ذلك .

فتارة يكون ذلك العمل بالجرى والإسراع أمام من يريده بالسوء، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك .

والعرب تطلق النوص على التأخر . والبوص بالباء الموحدة التحتية على التقدم ، ومنه قول امرىء القيس :

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خلوة وتبوص

وأصوب الأقوال فى لات أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافا لمن قال: إنها تعمل عمل إن، ولمن قال: إن التاء متصلة بحين وأنه رآها فى الإمام وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه متصلة بها .

وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة ، أن التاء ليست موصولة بحين ، فالوقف على لات بالتاء عند جميعهم ، إلا الكسائى فإنه يقف عليها بالهاء .

أما قراءة كسر التاء وضمها فكلتاهما شاذة لا تجوز القراءة بها ، وكذلك قراءة كسر النون من حين ، فهى شاذة لا تجوز ، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل .

وتعسف له الزمخشرى وجها لا يخفى سقوطه ، ورده عليه أبو حيان فى البحر المحيط ، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فنادوا) أصل النداء : رفع الصوت، والعرب تقول: فلان أندى صوتا من فلان، أى أرفع ، ومنه قوله

فلت ادعى وأدعو إن أندا لصوت أن ينادى داعيان

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم العاصية الهالكة ينادون عند معاينة العذاب ، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء إذ لا ملجأ فيه ولا مفر ولا منجى بينه فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (فلما رأوا بأسنا قالوا

آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) الآية . وقوله تعالى: (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك فى يوم القيامة فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) . وقوله تعالى : (فإذا برق البصر وخسف القمر، وجمع الشمس والقمر، يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر) والوزر: الملجأ ، ومنه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

والناس إلب علينا فيك ليس لنا إلا الرماح وأطراف القنا وزر

وكقوله تعالى : (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) والموئل اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به ، ومنه قول الأعشى ميمون ابن قيس :

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم مايئل

أى ثم ماينجو .

[illegible]

وقال تعالى فى إنكاره عليهم فى أول سورة يونس (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ، أن أنذر الناس) وذكر مثل عجبهم المذكور فى سورة الأعراف عن قوم نوح وقوم هود ، فقال عن نوح مخاطباً لقومه (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) .

وقال عن هود مخاطباً لعاد : (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) الآية ، وبين أن سبب عجبهم من كون المنذر منهم أنه بشر مثلهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من جنسهم . وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحداً لأرسل إليهم ملكا لأنه ليس بشراً مثلهم وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشى فى الأسواق .

والآيات فى ذلك كثيرة كقوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وقوله تعالى : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقوله تعالى : (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل [illegible] مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) . وقوله تعالى : (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) . وقوله تعالى : (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا) الآية . وقوله تعالى : (كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر) وقوله تعالى : (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) الآية . وقوله تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه ملك

ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ، ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون) وقوله تعالى : (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لوشاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) . وقوله تعالى : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) . وقوله تعالى : (وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) . وقوله تعالى : (وقالوا لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) . وقوله تعالى : (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً . يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين) الآية . وقوله تعالى عن فرعون مع موسى : (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) .

وقد رد الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر فى آيات من كتابه .

كقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) وقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقوله تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون وما جعلناهم جسداً لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين) وقوله تعالى : (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) أى بالرسالة والوحى ولو كان بشراً مثلكم إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبر نا عليها) .

قوله تعالى : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ الآية

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن كفار مكة ، أنكروا أن الله خص نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه وحده ، ولم ينزله على أحد آخر منهم ، ومادلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء فى آيات أخر ، مع الرد على الكفار فى إنكارهم خصوصه صلى الله عليه وسلم بالوحى ، كقوله تعالى عنهم : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنون بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة فى مكة ، وعروة بن مسعود فى الطائف زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه .

وقد رد جل وعلا ذلك عليهم فى قوله تعالى : (أهم يقسمون رحمة ربك) لأن الهمزة فى قوله : أهم يقسمون ، للإنكار المشتمل على معنى النفى ، وكقوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) .

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم فى قوله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) وأشار إلى رد ذلك عليهم فى آية ص هذه فى قوله : (بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما) الآية . لأنه لايجعل الرسالة حيث يشاء ، ويخص بها من يشاء ، إلا من عنده خزائن الرحمة . وله ملك السموات والأرض .

وقوله تعالى : (أأنزل عليه الذكر من بيننا) قد بين فى موضع آخر أن ثمود قالوا مثله لنبي الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وذلك فى قوله تعالى عنهم : (أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وقد رد الله تعالى عليهم ذلك فى قوله : (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) .

قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ الآية .

قد قدمنا بعض الكلام عليه فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) الآية وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (ماعندى ماتستعجلون به) . وفى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (أثم إذا ماوقع آمنتم به) الآية . وفى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الآية . وفى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب) الآية .

وقد قدمنا أن القط ، النصيب من الشيء ، أى عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدنا به .

وأن أصل القط كتاب الجائزة لأن الملك يكتب فيه النصيب الذى يعطيه لذلك الإنسان ، وجمعه قطوط ، ومنه قول الأعشى :

ولا الملك النعمان حين لقيته بغبطته يعطى القطوط ويأفق

وقوله : ويأفق أى يفضل بعضهم على بعض فى العطاء المكتوب فى القطوط .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ — إلى قوله — أَوَّابٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى سورة الأنبياء ، فى الكلام على قوله تعالى: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام على مثل هذه الآية ، من الآيات القرآنية التى يفهم منها صدور بعض الشيء ، من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وبينا كلام أهل الأصول فى ذلك فى سورة طه ، فى الكلام على قوله تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى) .

واعلم أن مايذكره كثير من المفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة ، مما لايليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، كله راجع إلى الإسرائيليات ، فلا ثقة به ، ولا معوّل عليه ، وماجاء منه مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم لايصح منه شيء .

قوله تعالى . ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية .

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) ، قد بينا الحكم الذى دل عليه ، فى سورة البقرة ، فى الكلام على قوله تعالى :(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) الآية . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) قد أمر نبيه داود فيه ، بالحكم بين الناس بالحق ونهاه فيه عن اتباع الهوى ، وأن اتباع الهوى ، علة للضلال عن سبيل الله ، لأن الفاء فى قوله فيضلك عن سبيل الله تدل على العلّية .

وقد تقرر فى الأصول ، فى مسلك الإيماء والتنبيه ، أن الفاء من حروف التعليل كقوله : سهى فسجد ، وسرق فقطعت يده ، أو لعلة السهو فى الأول ، ولعلة السرقة فى الثانى ، وأتبع ذلك بالتهديد الشديد لمن اتبع الهوى ، فأضله ربنا عن سبيل الله ، فى قوله تعالى بعده يليه : (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

ومعلوم أن نبى الله داود ، لا يحكم بغير الحق ، ولا يتبع الهوى ، فيضله عن سبيل الله ، ولكن الله تعالى ، يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ، وينهاهم ، ليشرع لأممهم .

ولذلك أمر نبينا صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أمر به داود ، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك ، فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) . وقوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) وكقوله تعالى : (ولا تطع

الكافرين والمنافقين) وقوله تعالى : (ولا تطع منهم آثماً أو كفورا) وقوله تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) الآية .

وقد قدمنا الكلام على هذا ، فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموماً مخذولا) .

وبينا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبى يخاطب بخطاب ، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما) الآية ، ومن المعلوم أن أباه صلى الله عليه وسلم توفى قبل ولادته ، وأن أمه ماتت وهو صغير ، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما ، ولا كلاهما لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان .

فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له فى قوله (ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) الآية : إنما يراد به التشريع على لسانه لأمته ، ولا يراد به هو نفسه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا هناك أن من أمثال العرب . إياك أعنى واسمعى ياجارة ، وذكرنا فى ذلك رجز سهل بن مالك الفزارى الذى خاطب به امرأة ، وهو يقصد أخرى وهى أخت حارثة بن لأم الطائى وهو قوله :

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين فى فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعنى واسمعى ياجاره

وذكرنا هناك الرجز الذى أجابته به المرأة ، وقول بعض أهل العلم إن الخطاب فى قوله : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) الآية ،

هو الخطاب بصيغة المفرد ، الذى يراد به عموم كل من يصح خطابه . كقول طرفة بن العبد فى معلقته :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبـــار من لم تزود

أى ستبدى لك ويأتيك أيها الإنسان الذى يصح خطابك ، وعلى هذا فلا دليل فى الآية ، غير صحيح ، وفى سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم وعليه فالاستدلال بالآية، استدلال قرآنى صحيح ، والقرينة القرآنية المذكورة ، هى أنه تعالى قال فى تلك الأوامر والنواهى التى خاطب بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، التى أولها (وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر) الآية . ما هو صريح ، فى أن المخاطب بذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم ، لا عموم كل من يصح منه الخطاب ، وذلك فى قوله تعالى : (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحورا) .

قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْنا السَّماءَ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى آخر سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفى آخر سورة قد أفلح المؤمنون . فى الكلام على قوله : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) الآية.

قوله تعالى : ﴿ ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ :

الإشارة فى قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن فى الفعل الصناعى، ذلك أى خلقنا السماوات والأرض باطلا هو ظن الذين كفروا بنا ، والنفى فى قوله

ما خلقنا ، منصب على الحال لا على عاملها الذى هو خلقنا ، لأن المنفى بأداة النفى التى هى ما : ليس خلقه للسماوات والأرض ، بل هو ثابت ، وإنما المنفى بها ، هو كونه باطلا ، فهى حال شبه العمدة وليست فضلة صريحة ، لأن النفى منصب عليها هى خاصة ، والكلام لا يصح دونها . والكلام فى هذا معلوم فى محله ، ونفى كون خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلا نزه عنه نفسه ونزهه عنه عباده الصالحون ، لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى .

أما تنزيهه نفسه عنه ففى قوله تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) .

ثم نزه نفسه ، عن كونه خلقهم عبثا ، بقوله تعالى : (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) أى تعالى وتقدس وتنزه عن كونه خلقهم عبثا .

وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك ، ففى قوله تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ، فقوله تعالى عنهم سبحانك أى تنزيهاً لك ، عن أن تكون خلقت السماوات والأرض باطلا . فقولهم سبحانك تنزيه له ، كما نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى : (فتعالى الله الملك الحق) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية : (فويل للذين كفروا من النار) يدل على أن من ظن بالله مالا يليق به جل وعلا ، فله النار .

وقد بين تعالى فى موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرداه وجعله من الخاسرين ، وجعل النار مثواه . وذلك فى قوله تعالى : (بل ظننتم أن الله

لا يعلم كثيراً مما تعملون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) الآية .

وقولنا فى أول هذا المبحث الإشارة فى قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن فى الفعل الصناعى قد قدمنا إيضاحه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ، وبينا هناك أن الفعل نوعان ، أحدهما الفعل الحقيقى ، والثانى الفعل الصناعى ، أما الفعل الحقيقى ، فهو الحدث المتجدد المعروف عند النحويين بالمصدر .

وأما الفعل الصناعى ، فهو المعروف فى صناعة علم النحو بالفعل الماضى ، والفعل المضارع ، وفعل الأمر على القول بأنه مستقل عن المضارع .

ومعلوم أن الفعل الصناعى ينحل عند النحويين ، عن مصدر وزمن ، كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولى الفعل كأمن من أمن

وعند جماعات من البلاغيين ، أنه ينحل عن مصدر ، وزمن ونسبة ، وهو الأقرب ، كما حرره بعض علماء البلاغة فى مبحث الاستعارة التبعية ، وبذلك تعلم أنه لا خلاف بينهم فى أن المصدر ، والزمن كامنان فى الفعل الصناعى فيصح رجوع الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامنين فى الفعل الصناعى كما أوضحنا ذلك .

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن فى الفعل ، قوله هنا (ذلك ظن الذين كفروا) الآية ، فإن المصدر الذى هو الخلق ، كامن فى الفعل الصناعى الذى هو الفعل الماضى فى قوله : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) : قيد الخلق بالعلة فى قوله

وما بينهما باطلا ذلك) أى خلق السماوات المذكور الكامن فى مفهوم خلقنا ظن الذين كفروا .

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن فى مفهوم الفعل الصناعى ، قوله تعالى : (ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) أى ذلك الزمن الكامن فى الفعل هو يوم الوعيد .

ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن فى مفهوم الفعل قوله تعالى : (اعدلوا هو أقرب للتقوى) فقوله : هو ، أى العدل الكامن فى مفهوم اعدلوا ، كما تقدم إيضاحه .

قوله تعالى ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾

أم فى قوله : أم نجعل الذين ، وقوله ، أم نجعل المتقين ، كلتاهما ، منقطعة وأم المنقطعة ، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب :

الأول : أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار .

الثانى : أنها بمعنى بل الإضرابية .

والثالث : أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معا ، وهو الذى اختاره بعض المحققين

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالى لا إبطالى ووجه الإنكار عليهم واضح ، لأن من ظن بالله الحكيم الخبير ، أنه يساوى بين الصالح المصلح ، والمفسد الفاجر ، فقد ظن ظنا قبيحا جديرا بالإنكار

وقد بين جل وعلا هذا المعنى ، فى غير هذا الموضع ، وذم حكمه من يحكم به ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الجاثية : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات

أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) .

قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ .

قوله تعالى : كتاب خبر مبتدأ محذوف أى هذا كتاب ، وقد ذكر جل وعلا ، فى هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا الكتاب ، معظماً نفسه جل وعلا ، بصيغة الجمع ، وأنه كتاب مبارك وأن من حكم إنزاله ، أن يتدبر الناس آياته ، أى يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها ، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى ، وأن يتذكر أولوا الألباب ، أى يتعظ أصحاب العقول السليمة ، من شوائب الاختلال .

وكل ما ذكره فى هذه الآية الكريمة جاء واضحا فى آيات أخر .

أما كونه جل وعلا ، هو الذى أنزل هذا القرآن ، فقد ذكره فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقوله تعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وقوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما كون هذا الكتاب مباركا ، فقد ذكره فى آيات من كتابه كقوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) الآية ، وقوله تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) ، وقوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) ، والمبارك كثير ، والبركات تتضمن خيرها الدنيا والآخرة ، والعلم عند الله تعالى . وقوله تعالى (ليدبروا آياته) أى ليتفهموا معانيها ، والعلم عند الله تعالى . وقوله تعالى (وليتذكر أولوا الألباب) أى ليتعظ أصحاب العقول السليمة ، والعلم عند الله تعالى .

ونرجو الله القريب المجيب ، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك ، أن يجعلنا ممن يتدبر آياته كما ، وأن يباركه لنا وعلينا ، وأن يتقبل منا بركاته العظيمة

فى الدنيا والآخرة ، وأن يعم جميع إخواننا المسلمين ، الذين يأتمرون بأوامره بالبركات والخيرات ، فى الدنيا والآخرة ، إنه قريب مجيب .

وأما كون تدبر آياته ، من حكم إنزاله : فقد أشار إليه فى بعض الآيات ، بالتحضيض على تدبره ، وتوبيخ من لم يتدبره ، كقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على القلوب أقفالها) . وقوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا) وقوله تعالى : (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) .

وأما كون تذكر أولى الألباب ، من حكم إنزاله ، فقد ذكره فى غير هذا الموضع ، مقترناً ببعض الحكم الأخرى ، التى لم تذكر فى آية ص هذه كقوله تعالى فى سورة إبراهيم (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) فقد بين فى هذه الآية الكريمة ، أن تذكر أولى الألباب ، من حكم إنزاله مبيناً منها حكمتين أخريين ، من حكم إنزاله ، وهما إنذار الناس به ، وتحقيق معنى لا إله إلا الله ، وكون إنذار الناس وتذكر أولى الألباب ، من حكم إنزاله ، ذكره فى قوله تعالى : (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) لأن اللام فى قوله لتنذر ، متعلقة بقوله : أنزل ، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير ، والمؤمنون فى الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الألباب

ما مع ذكر الحكمة الإنذار فى آيات كثيرة كقوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) . وقوله تعالى : (تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم) الآية . وقوله تعالى : (لينذر من كان حياً) الآية .

تميز فى ذكر فى آيات أخر ، أين من حكم إنزاله ، الإنذار والتبشير معاً

كقوله تعالى : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً) . وقوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية .

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله أن يبين صلى الله عليه وسلم للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا ، وذلك قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) .

وقد قدمنا مراراً كون لعلّ من حروف التعليل ، وذكر حكمة التبيين المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة، فى قوله تعالى : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

وبين أن من حكم إنزاله ، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين فى قوله تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) .

وبين أن من حكم إنزاله ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يحكم بين الناس بما أراه الله ، وذلك فى قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) الآية .

والظاهر أن معنى قوله : (بما أراك الله) أى بما علمك من العلوم فى هذا القرآن العظيم ، بدليل قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) الآية . وقوله تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله إخراج الناس من الظلمات إلى النور

وذلك فى قوله تعالى : (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) الآية .

وبيَّن أن من حِكَم إنزاله التذكرة لمن يخشى فى قوله تعالى : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) أى ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى .

وهذا القصر على التذكرة إضافى ، وكذلك القصر فى قوله تعالى الذى ذكرناه قبل هذا (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) الآية ، بدليل الحِكَم الأخرى التى ذكرناها .

وبين أن من حكم إنزاله قرآنا عربياً وتصريف الله فيه من أنواع الوعيد أن يتقى الناس الله ، أو يحدث لهم هذا الكتاب ذكراً ، أى موعظة وتذكرا ، يهديهم إلى الحق ، وذلك فى قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ الآية .

ذكر فى هذه الآية الكريمة ، أنه وهب سليمان لداود ، وقد بين فى سورة النمل أن الموهوب ورث الموهوب له ، وذلك فى قوله تعالى : (وورث سليمان داود).

وقد بينا فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى عن زكريا (فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب) الآية أنها وراثة علم ودين لا وراثة مال.

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام على هذه الآية ، وعلى ما يذكره المفسرون فيها ، من

الروايات التى لايخفى سقوطها ، وأنها لا تليق بمنصب النبوة ، فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولاتقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) . وما روى عنه من السلف من جملة تلك الروايات ، أن الشيطان أخذ خاتم سليمان ، وجلس على كرسيه وطرد سليمان إلى آخره يوضح بطلانه ، قوله تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) واعتراف الشيطان بذلك فى قوله : (إلا عبادك منهم المخلصين) .

قوله تعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾

قد قدمنا الكلام عليه موضحاً بالآيات القرآنية فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) الآية .

وفسرنا هناك قوله هنا حيث أصاب وذكرنا هناك أوجه الجمع ، بين قوله هنا : (رخاء) ، وقوله هناك : (ولسليمان الريح عاصفة) ووجه الجمع أيضاً بين عموم الجهات المفهوم من قوله هنا (حيث أصاب) أى حيث أراد وبين خصوص الأرض المباركة المذكور هناك فى قوله (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) الآية .

قوله تعالى : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ الآية .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) .

قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ

الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ - إلى قوله - لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة مافيه من الإشكال فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (وأيوب إذ نادى ربه) إلى قوله : (وذكرى للعابدين) .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ الآية .

أمر الله جل وعلا ، نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة ، أن يذكر عبده إبراهيم ولم يقيد ذلك الذكر بكونه فى الكتاب ، مع أنه قيده بذلك فى سورة مريم ، فى قوله تعالى (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ﴾ الآية .

أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر إسماعيل وقيده فى سورة مريم بكونه فى الكتاب فى قوله تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد) الآية ، وفى ذلك إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور أيضاً بذكر جميع المذكورين فى الكتاب . ولذلك جاء ذكرهم كلهم فى القرآن العظيم كما لايخفى .

قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه ، فى سورة الصافات فى الكلام على قوله تعالى : (وعندهم قاصرات الطرف عين) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن نعيم الجنة ، لانفاد له ، أى لاانقطاع له ولا زوال ، ذكره جل وعلا فى آيات أخر كقوله تعالى فيه : (عطاء غير مجذوذ) . وقوله تعالى: (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾

قد قدمنا ما يوضحه ، من الآيات القرآنية فى مواضع متعددة ، من هذا الكتاب المبارك ، ذكرنا بعضها فى سورة البقرة ، فى الكلام على قوله تعالى: (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين إتبعوا) الآية ، وذكرنا بعضه فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى: (حتى إذا اداركوا فيها جميعاً) الآية . وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

قد تقدم إيضاحه ، مع بعض المباحث فى سورة البقرة ، فى الكلام على قوله تعالى(إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة هود ، وذكرنا الأحكام المتعلقة بالآيات ، فى الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح، (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾

الحين المذكور هنا ، قال بعض العلماء : المراد به بعد الموت ، ويدل له

ما قدمنا فى سورة الحجر ، فى الكلام على قوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

وقال بعض العلماء : الحين المذكور هنا ، هو يوم القيامة ولا منافاة بين القولين ، لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال .

واللام فى لتعلمن موطئة للقسم ، وقد أكد فى هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبأ القرآن أى صدقه ، وصحة جميع مافيه بعدحين بالقسم ، ونون التوكيد.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نبأه بعد حين ، قد أشار إليه تعالى ، فى سورة الأنعام ، فى قوله تعالى : (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون) .

قال غير واحد من العلماء : لكل نبإ مستقر ، أى لكل خبر حقيقة ووقوع ، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين ، وإن كان كذباً تبين كذبه ، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتٰبِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله جل وعلا ، إذا ذكر تنزيله لكتابه ، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة صفاته العليا .

ففي أول هذه السورة الكريمة ، لما ذكر تنزيله كتابه ، بين أنَّ مبدأ تنزيله كائن منه جل وعلا ، وذكر اسمه الله ، واسمه العزيز ، والحكيم ، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية ، في قوله تعالى : (حٰمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إن في خلق السموات والأرض لآيات للمؤمنين) ، وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى : (حٰمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) الآية .

وقد تكرر كثيراً في القرآن، ذكره بعض أسمائه وصفاته ، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم ، كقوله في أول سورة (حٰمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير)، وقوله تعالى في أول فصلت (حٰمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم) . وقوله تعالى في أول هود (الٓرٰ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وقوله في فصلت (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله تعالى في صدر يس (تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) وقوله تعالى : (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين) الآية . وقوله تعالى : (تنزيل من رب العالمين ولو تقول علينا بعض الأقاويل) الآية .

ولا يخفى أن ذكره جل وعلا هذه الأسماء الحسنى العظيمة ، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم ، يدل بإيضاح ، على عظمة القرآن العظيم ،وجلالةشأنه وأهمية نزوله ، والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى : ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلاَ لِلّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم . فى هذه الآية الكريمة ، أن يعبده فى حال كونه ، مخلصاً له الدين ، أى مخلصاً له فى عبادته ،من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها ، كما هو واضح من لفظ الآية .

والإخلاص ، إفراد المعبود بالقصد ، فى كل ما أمر بالتقرب به إليه ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون الإخلاص فى العبادة لله وحده ، لا بد منه ، جاء فى آيات متعددة ،وقد بين جل وعلا ، أنه ما أمر بعبادة ،إلا عبادة يخلص له العابد فيها .

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك ، جاء به من تلقاء نفسه، لا بأمر ربه ، قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) الآية ،وقال جل وعلا (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين) إلى قوله تعالى : (قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه) .

وقد قدمنا الكلام على العمل الصالح ، وأنه لا بد فيه من الإخلاص ،فى أول سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية . وفى غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ألا لله الدين الخالص)أى التوحيد الصافىمن شوائبُ الشرك ، أى هو المستحق لذلك وحده ، وهو الذى أمر به.

وقول من قال من العلماء : إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله موافق لما ذكرناه . والعلم عند الله تعالى .

ثم لما ذكر جل وعلا إخلاص العبادة له وحده ، بين شبهة الكفار التى احتجوا بها ، للإشراك به تعالى ، فى قوله تعالى هنا :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ .

فبين أنهم يزعمون أنهم ما عبدوا الأصنام ، إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى ، والزلفى القرابة .

فقوله : زلفى ، ما ناب عن المطلق من قوله ليقربونا ، أى ليقربونا إليه قرابة تنفعنا بشفاعتهم فى زعمهم .

ولذا كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .

وقد قدمنا فى سورة المائدة ، فى الكلام على قوله تعالى: (وابتغوا إليه الوسيلة) أن هذا النوع من ادعاء الشفعاء ، واتخاذ المعبودات من دون الله وسائط من أصول كفر الكفار .

وقد صرح تعالى بذلك فى سورة يونس فى قوله جل وعلا(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) .

فصرح تعالى بأن هذا النوع ، من ادعاء الشفعاء شرك بالله ، ونزه نفسه الكريمة عنه ، بقوله جل وعلا (سبحانه وتعالى عما يشركون)وأشار إلى ذلك فى آية الزمر هذه ، لأنه جل وعلا لما قال عنهم : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله

زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) أتبع ذلك بقوله تعالى : (إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) .

وقوله : كفار ، صيغة مبالغة ، فدل ذلك على أن الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى جامعون بذلك ، بين الكذب والمبالغة فى الكفر بقولهم ذلك ، وسيأتى إن شاء الله لهذا زيادة إيضاح فى سورة الناس .

قوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة ، بكثرة فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه خلق بنى آدم من نفس واحدة هى أبوهم آدم ، ثم جعل من تلك النفس ، زوجها يعنى حواء . أى وبث جميع بنى آدم منهما ، وأوضح هذا فى مواضع أخر من كتابه ، كقوله تعالى فى أول سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) وقوله فى الأعراف : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) الآية ، وتأنيث الوصف ، بقوله واحدة ، مع أن الموصوف به مذكر ، وهو آدم نظراً إلى تأنيث لفظ النفس ، وإن كان المراد بها مذكراً ، ونظير ذلك من كلام العرب قوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ .

قد قدمنا إيضاح هذه الأزواج الثمانية بنص القرآن العظيم ، فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى (والخيل المسومة والأنعام والحرث)

قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحج ، فى الكلام على قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) الآية ، وبينا هناك المراد بالظلمات الثلاث المذكورة هنا .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ .

قد بين جل وعلا ، فى هذه الآية الكريمة ، أنه غنى عن خلقه الغنى المطلق ، وأنه لا يضره كفرهم به ، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة ، كقوله تعالى (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد) . وقوله تعالى : (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) ، وقوله تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى) الآية . وقوله تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) وقوله تعالى : (والله الغنى وأنتم الفقراء) ، وقد أوضحنا هذا بالآيات فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ الآية .

قد قدمنا إيضاحه مع إزالة الإشكال ، والجواب عن الأسئلة الواردة ، على تلك الآيات فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ، وأوضحنا ذلك ،

مع إزالة الإشكال فى بعض الآيات ، فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس ، فى الكلام على قوله تعالى: (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الإشارة إلى بحث أصوله فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ .

الظاهر أن معنى الآية ، أن الإنسان إذا كان فى محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب ، فعليه أن يهاجر منه ، فى مناكب أرض الله الواسعة ، حتى يجد محلا تمكنه فيه إقامة دينه .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) . وقوله تعالى : (ياعبادى

الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) ، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء فى قوله : (فإياى فاعبدون) على قوله : (إن أرضى واسعة) دليل واضح على ذلك.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، من أوجه فى سورة يونس ، فى الكلام على قوله تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) .

قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى سورة الأنبياء ، فى الكلام على قوله تعالى : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) الآية ، وذكرنا طرفا من ذلك ، فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الآية .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من تحقيق معنى لا إله إلا الله ، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة الفاتحة ، فى الكلام على قوله تعالى : (إياك نعبد) .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ .

أظهر الأقوال فى الآية الكريمة ، أن المراد بالقول ، ما جاء به النبى

صلى الله عليه وسلم ، من وحى الكتاب والسنة ، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى (أفلم يدبروا القول) الآية . وقوله تعالى : (إنه لقول فصل وما هو بالهزل) . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فيتبعون أحسنه) أى يقدمون الأحسن ، الذى هو أشد حسناً ، على الأحسن الذى هو دونه فى الحسن ، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن . ويدل لهذا آيات من كتاب الله .

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع . ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحى ، فهو فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما فى التوراة (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) .

وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن ، فقد دلت عليه آيات من كتابه .

واعلم أولا أنه لا شك فى أن الواجب أحسن من المندوب ، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن ، فإذا سمعوا مثلا قوله تعالى : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) قدموا فعل الخير الواجب ، على فعل الخير المندوب ، وقدموا هذا الأخير ، على مطلق الحسن الذى هو الجائز ، ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذى هو الواجب والمندوب ، لا على مطلق الحسن ، كما قال تعالى : (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) كما قدمنا إيضاحه فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) ، وبينا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن ، كما قال صاحب المراقى :

ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

ومن أمثلة الترغيب فى الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن

قوله تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فالأمر فى قوله : (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) للجواز ، والله لا يأمر إلا بحسن . فدل ذلك على أن الانتقام حسن ، ولكن الله بين أن العفو والصبر، خير منه وأحسن فى قوله : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى فى إباحة الانتقام ، (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه ، فى قوله بعده : (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) ، وكقوله فى جواز الانتقام (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه ، وأنه من صفاته جل وعلا مع كمال قدرته وذلك فى قوله بعده: (إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً) . وكقوله جل وعلا مثنيا على من تصدق ، فأبدى صدقته (إن تبدوا الصدقات فنعما هى) ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء ، خير من إبدائها الذى مدحه بالفعل الجامد ، الذى هو لإنشاء المدح الذى هو نعم ، فى قوله (إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم)

وكقوله فى نصف الصداق اللازم ، للزوجة بالطلاق،قبل الدخول،فنصف ما فرضتم ، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن ، لأن الله شرعه فى كتابه فى قوله : (فنصف ما فرضتم) مع أنه رغب كل واحد منهما ، أن يعفو للآخر عن نصفه ، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك فى قوله بعده (وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم) .

وقد قال تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ثم أرشد إلى الأحسن بقوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقال تعالى : (والجروح قصاص) ثم أرشد إلى الأحسن ، فى قوله : (فمن تصدق به فهو كفارة له) .

واعلم أن فى هذه الآية الكريمة أقوالا غير الذى اخترنا .

منها ما روى عن ابن عباس ، فى معنى (فيتبعون أحسنه) قال « هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن ، وينكف عن القبيح ، فلا يتحدث به » .

وقيل يستمعون القرآن وغيره ، فيتبعون القرآن .

وقيل : إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله ، وبعض من يقول بهذا يقول : إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كزيد بن عمرو بن نفيل العدوى ، وأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، إلى غير ذلك من الأقوال .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ .

أظهر القولين فى الآية الكريمة ، أنهما جملتان مستقلتان ، فقوله أفمن حق عليه كلمة العذاب جملة مستقلة ، لكن فيها حذفاً ، وحذف ما دل المقام عليه واضح ، لا إشكال فيه .

والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ، تخلصه أنت منه ، والاستفهام مضمن معنى النفى ، أى لا تخلص أنت يا نبى الله أحداً سبق فى علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب ، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده (أفأنت تنقذ من فى النار) .

وقد قدمنا مراراً قولى المفسرين فى أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وثم كقوله :

هنا : (أفمن حق) . وقوله : (أفأنت تنقذ) .

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية ، كما قال الزمخشرى : أصل الكلام : أمن حق عليه كلمة العذاب ، فأنت تنقذه جملة شرطية ، دخل عليها همزة الإنكار ، والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هى الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من فى النار موضع الضمير ، فالآية على هذا جملة واحدة ، فإنه لا يظهر كل الظهور .

واعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى أول سورة يس فى الكلام على قوله تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم) الآية ، وبينا دلالة الآيات على المراد بكلمة العذاب .

قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ الآية .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية ، ذكره جل وعلا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى سورة سبأ (إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) . وقوله تعالى فى سورة التوبة : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن) الآية . وقوله تعالى فى سورة الصف : (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) ، لأن المساكن الطيبة المذكورة فى التوبة والصف صادقة بالغرف المذكورة فى الزمر وسبأ ، وقد قدمنا طرفاً من هذا فى سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى : (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾.

الينابيع : جمع ينبوع ، وهو الماء الكثير .

وقوله : فسلكه أى أدخله ، كما قدمنا إيضاحه بشواهده العربية ، والآيات القرآنية فى سورة هود ، فى الكلام على قوله تعالى : (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) الآية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة الزمر ، قد أوضحناه فى أول سورة سبأ فى الكلام على قوله تعالى : (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) الآية .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ .

قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات فى سورة الروم فى الكلام على قوله تعالى : (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم)، وأحلنا عليه فى سورة فاطر ، فى قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله ثم يهيج : أى ثم بعد نضارة ذلك الزرع وخضرته ييبس ، ويتم جفافه ويثور من منابته فتراه أيها الناظر مصفراً يابساً ، قد زالت خضرته ونضارته . ثم يجعله حطاماً أى فتاتاً ، متكسراً ، هشيما ، تذروه الرياح، إن فى ذلك المذكور من حالات ذلك الزرع ، المختلف الألوان ، لذكرى أى عبرة وموعظة وتذكيراً

لأولى الألباب ، أى لأصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال ، فقد ذكر جل وعلا مصير هذا الزرع على سبيل الموعظة والتذكير ، وبين فى موضع آخر ، أن ما وعظ به خلقه هنا من حالات هذا الزرع شبيه أيضاً بالدنيا . فوعظ به فى موضع وشبه به حالة الدنيا فى موضع آخر ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحديد (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد . كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً) . ويبين فى سورة الروم أن من أسباب اصفراره المذكور إرسال الريح عليه ، وذلك فى قوله : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) .

قوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ .

قد تقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

قوله تعالى : ﴿ومَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) الآية ، وفى غير ذلك من الموضع .

قوله تعالى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولم يجعل له عوجاً قيما) الآية . وقوله فى هذه الآية الكريمة : قرآناً

انتصب على الحال وهى حال مؤكدة ، والحال فى الحقيقة هو عربياً ، وقرآناً توطئة له وقيل انتصب على المدح .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : عربيا ، أى لأنه بلسان عربى كما قال تعالى : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . وقال تعالى فى أول سورة يوسف (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) . وقال فى أول الزخرف (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) . وقال فى طه (وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) وقال تعالى فى فصلت : (ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) وقال تعالى فى الشعراء (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وقال تعالى فى سورة شورى (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) الآية . وقال تعالى فى الرعد (وكذلك أنزلناه حكما عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق) إلى غير ذلك من الآيات .

وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمها ، دلالة لا ينكرها إلا مكابر .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ ﴾ الآية .

أوضح جل وعلا ، أن الذى فى هذه الآية بمعنى الذين ، بدليل قوله بعده (أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) .

وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع أن الذى تأتى بمعنى الذين ، فى القرآن وفى كلام العرب ، فمن أمثلة ذلك فى القرآن ، قوله تعالى فى آية الزمر هذه :

(والذى جاء بالصدق) الآية . وقوله تعالى فى سورة البقرة (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) أى الذين استوقدوا بدليل قوله بعده (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) وقوله فيها أيضاً (كالذى ينفق ماله رئاء الناس) أى كالذين ينفقون بدليل قوله بعده (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) الآية . وقوله تعالى فى التوبة (وخضتم كالذى خاضوا) على القول بأن الذى موصولة لا مصدرية ، ونظيره من كلام العرب قول أشهب بن رميلة :

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عديل بن الفرخ العجلى :

فبت أساقى القوم إخوتى الذى غوايتهم غىٌّ ورشدهم رشد

وقول الراجز :

يارب عبس لا تبارك فى أحد فى قائم منهم ولا فيمن قعد

﴿ إلا الذى قاموا بأطراف المسد ﴾

قوله تعالى ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى هذه السورة الكريمة ، فى الكلام على قوله تعالى : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون).

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنفال ، فى الكلام على قوله تعالى : (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وعلى قراءة الجمهور بكاف عبده ، بفتح العين وسكون الباء ، بإفراد العبد ، والمراد به ، النبى صلى الله عليه وسلم ، كقوله : (فسيكفيكهم الله) وقوله تعالى : (يا أيها النبى حسبك الله) الآية .

وأما على قراءة حمزة والكسائى عِبادَهُ بكسر العين وفتح الباء بعدها ألف على أنه جمع عبد ، فالظاهر أنه يشمل عباده الصالحين من الأنبياء وأتباعهم .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن الكفار عبدة الأوثان ، يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم ، بالأوثان التى يعبدونها من دون الله ، لأنهم يقولون له : إنها ستضره وتخبله ، وهذه عادة عبدة الأوثان لعنهم الله ، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها ستضرهم وتصل إليهم بالسوء .

ومعلوم أن أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه ، لا يخافون غير الله ولا سيما الأوثان ، التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوَّفوه بها (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانًا فأى الفريقين أحق بالأمن) الآية .

وقال عن نبيه هود وما ذكره له قومه من ذلك (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) .

وقال تعالى فى هذه السورة الكريمة ، مخاطباً نبينا صلى الله عليه وسلم ، بعد أن ذكر تخويفهم له بأصنامهم (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) .

ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله .

وقد بين جل وعلا فى موضع آخر ، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضاً ، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه من الكفار ، كما قال تعالى : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

والأظهر أن قوله (يخوف أولياءه) حذف فيه المفعول الأول ، أى يخوفكم أولياءه ، بدليل قوله بعده : (فلا تخافوهم وخافون) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ الآية .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، من أن المعبودات من دونه ، لاتقدر أن تكشف ضراً أراد الله به أحداً ، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : (لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وقوله تعالى : (قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) . وقوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو

العزيز الحكيم) وقوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الصافات ، فى الكلام على قوله تعالى (إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار ، لو كان لهم فى الآخرة ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ، لفدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذى عاينوه يوم القيامة ، وبين هذا المعنى فى مواضع أخر وصرح فيها بأنه لافداء ألبتة يوم القيامة كقوله تعالى : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) . وقوله تعالى (إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) وقوله تعالى (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) . وقوله تعالى : (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا

يكفرون) . فقوله (وإن تعدل كل عدل) أى وإن تفتد كل فداء ، وقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) . وقوله (ولا يقبل منها عدل) الآية ، والعدل الفداء وقوله تعالى (والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) .

وقد قدمنا طرفاً من هذا فى سورة آل عمران ، فى الكلام على قوله تعالى (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ .

قوله وبدا لهم أى ظهر لهم سيئات ما كسبوا ، أى جزاء سيئاتهم التى اكتسبوها فى الدنيا ، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مراداً بها جزاؤها .

ونظيره من القرآن قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ونظير ذلك أيضاً إطلاق العقاب ، على جزاء العقاب ، فى قوله تعالى (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله) الآية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أنهم يبدوا لهم يوم القيامة ، حقيقة ما كانوا يعملونه فى الدنيا جاء موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى (هنا لك تبلوا كل نفس ما أسلفت) وقوله تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) . وقوله تعالى (علمت نفس ما قدمت وأخرت) . وقوله تعالى (ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً) الآية . وقوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس ، فى الكلام على قوله تعالى (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه) الآية .

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى هذه السورة الكريمة فى قوله تعالى (فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقدمنا طرفاً منه فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له من جهات فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) .

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه وعلى ما يماثله من الآيات فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية ، مع بيان جملة من آثار الكِبْر السيئة، فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) .

قوله تعالى :﴿ ولقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآية .

تقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) .

وقد ذكرنا فى سورة المائدة الآية المتضمنة للقيد الذى لم يذكر فى هذه الآيات على قوله تعالى (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) الآية) .

قوله تعالى :﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يس ، فى الكلام على قوله تعالى (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) .

قوله تعالى :﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه ، بالآيات القرآنية ، فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) وفى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) .

قوله تعالى :﴿ وجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ الآية

اختلف العلماء فى المراد بالشهداء فى هذه الآية الكريمة ، فقال بعضهم : هم الحفظة من الملائكة الذين كانوا يحصون أعمالهم فى الدنيا ، واستدل من قال هذا بقوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) .

وقال بعض العلماء : الشهداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يشهدون على الأمم ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس . ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

وقيل : الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ، وأظهر الأقوال فى الآية عندى ، أن الشهداء هم الرسل من البشر ، الذين أرسلوا إلى الأمم ، لأنه لا يقضى بين الأمة حتى يأتى رسولها ، كما صرح تعالى بذلك فى سورة يونس فى قوله تعالى : (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) فصرح جل وعلا بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم ، كما قال تعالى : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) وقال تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) لأن كونه صلى الله عليه وسلم هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته ، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها .

وقد بين تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنفس الأمة ، فدل على أنه ليس من الملائكة ، وذلك فى قوله تعالى : (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم) والرسل من أنفس الأمم كما قال تعالى فى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وقال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) الآية .

والمسوغ للايجاز بحذف الفاعل فى قوله تعالى : (وجىء بالنبيين) هو

أنه من المعلوم الذى لانزاع فيه ، أنه لايقدر على المجىء بهم إلا الله وحده جل وعلا .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير الكسائى وهشام عن ابن عامر ، وجىء بكسر الجيم كسرة خالصة .

وقرأه الكسائى وهشام عن ابن عامر بإشمام الكسرة الضم .

وإنما كان الإشمام هنا جائزاً ، والكسر جائزاً ، لأنه لايحصل فى الآية البتة ، لبس بين المبنى للفاعل ، والمبنى للمفعول ، إذ من المعلوم أن قوله هنا : وجىء مبنى للمفعول ولا يحتمل البناء للفاعل بوجه ، وما كان كذلك جاز فيه الكسر الخالص وإشمام الكسرة الضم كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

وا كسر أو أشمم فاثلاثى أعل عينا وضم حاء كبوع فاحتمل

أما إذا أسند ذلك الفعل إلى ضمير الرفع المتصل ، فإن ذلك قد يؤدى إلى اللبس ، فيشتبه المبنى للمفعول ، بالمبنى للفاعل ، فيجب حينئذ اجتناب الشكل الذى يوجب اللبس ، والإتيان بما يزيل اللبس من شكل أو إشمام كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

* وإن بشكل خيف لبس يجتنب *

ومن أمثلة ذلك قول الشاعر ، وقد أنشده صاحب اللسان :

وإنى على المولى وإن قل نفعه دفوع إذا ماصمت غير صبور

فقوله صمت أصله صيمت بالبناء للمفعول فيجب الإشمام أو الضم لأن الكسر الخالص يجعله محتملا للبناء للفاعل كبعت وسرت . وقول جرير يرثى المزار بن عبد الرحمن بن أبى بكرة :

وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عينى فى الرداء غزار

للدافنين أخا المكارم والندا لله ما ضمنت بك الأحجار

أصله فوتنا بالبناء للمفعول فيجب الكسر أو الإشمام لأن الضم الخالص يجعله محتملا للبناء للفاعل، كقلنا وقمنا .

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ .

الزمر الأفواج المتفرقة ، واحده زمرة ، وقد عبر تعالى عنها هنا بالزمر ، وعبر عنها فى الملك بالأفواج فى قوله تعالى : (كلما ألقى فيها فوج) الآية، وعبر عنها فى الأعراف بالأمم فى قوله تعالى : (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادارکوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم) الآية .

وقال فى فصلت (وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) وقال تعالى : (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالو النار) .

ومن إطلاق الزمر على ما ذكرنا قوله :

وترى النـــاس إلى منزله زمراً تنقابه بعـــد زمر

وقول الراجز :

إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمراً بعد زمر

قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

لم يبين جل وعلا هنا عدد أبوابها المذكورة ، ولكنه بين ذلك ، فى سورة الحجر فى قوله (وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) .

وقوله تعالى (فتحت أبوابها) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : (فُتِّحت) بتشديد التاء دلالة على التكثير . وقرأه عاصم وحمزة والكسائى (فُتِحَت) بتخفيف التاء .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا دخلوها وعاينوا مافيها من النعيم ، حمدوا ربهم وأثنوا عليه ، ونوهوا بصدق وعده لهم ، وذكر هذا المعنى فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا

وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) . وقوله تعالى : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا) الآية .

وقوله تعالى : (جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾

جمع جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، لأن مطامع العقلاء محصورة فى أمرين ، هما جلب النفع ودفع الضر ، وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) وقوله تعالى : (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) الآية . وقوله تعالى فى آخر الأنعام : (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) . وقوله فى الأعراف : (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

ذكر جل وعلا ، فى هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجادل فى آيات الله ، أى لا يخاصم فيها محاولا ردها ، وإبطال ما جاء فيها ، إلا الكفار .

وقد بين تعالى فى غير هذا الموضع الغرض الحامل لهم على الجدال فيها مع بعض صفاتهم ، وذلك فى قوله (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) وأوضح ذلك الغرض ، فى هذه السورة الكريمة ، فى قوله (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) .

وقد قدمنا فى سورة الحج أن الذين يجادلون فى الله منهم ، أتباع يتبعون رؤساءهم المضلين ، من شياطين الإنس والجن ، وهم المذكورون فى قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

وأن منهم قادة هم رؤساؤهم المتبوعون وهم المذكورون فى قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله) الآية .

وبين تعالى فى موضع آخر أن من أنواع جدال الكفار ، جدالهم للمؤمنين الذين استجابوا لله وآمنوا به وبرسوله ، ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان ، وبين بطلان حجة هؤلاء ، وتوعدهم بغضبه عليهم ، وعذابه الشديد وذلك فى قوله تعالى : (والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ .

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة ، ليشرع لأمته عن أن يغره تقلب الذين كفروا فى بلاد الله ، بالتجارات والأرباح ، والعافية وسعة الرزق ، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات ، وغيرها من رحلة الشتاء والصيف المذكورة فى قوله تعالى : (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) أى إلى اليمن والشام وهم مع ذلك كفرة فجرة ، يكذبون نبى الله ويعادونه .

والمعنى : لا تغتر بإنعام الله عليهم وتقلبهم فى بلاده ، فى إنعام وعافية فإن الله جل وعلا يستدرجهم بذلك الإنعام ، فيمتعهم به قليلا ، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار .

وقد أوضح هذا المعنى فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) . وقوله تعالى : (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقوله تعالى : (قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) وقوله تعالى (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) إلى غير ذلك من الآيات .

والفاء فى قوله : فلا يغررك ، سببية أى لا يمكن تقلبهم فى بلاد الله ؛ متنعمين بالأموال والأرزاق ، سبباً لاغترارك بهم ، فتظن بهم ظناً حسناً لأن ذلك التنعم ، تنعم استدراج ، وهو زائل عن قريب ، وهم صائرون إلى الهلاك والعذاب الدائم .

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر (كَلِمَات) بصيغة الجمع المؤنث السالم وقرأه الباقون (كلمة ربك) بالإفراد .

وقد أوضحنا معنى الكلمة والكلمات فيما يماثل هذه الآية فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى ؛ (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾

لم يبين هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات ، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم

ولكنه جل وعلا أوضح وعده إياهم بذلك فى سورة الرعدفى قوله تعالى: (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) الآية .

قوله تعالى : ﴿قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾

التحقيق الذى لا ينبغى العدول عنه ، أن المراد بالإماتتين فى هذه الآية الكريمة ، الإماتة الأولى ، التى هى كونهم فى بطون أمهاتهم نطفاً وعلقاً ، ومضغاً . قبل نفخ الروح فيهم ، فهم قبل نفخ الروح فيهم لاحياة لهم ، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم الموت .

والإماتة الثانية هى إماتتهم وصيرورتهم إلى قبورهم عند انقضاء آجالهم فى دار الدنيا .

وأن المراد بالإحياءتين ، الإحياءة الأولى فى دار الدنيا ، والإحياءة الثانية ، التى هى البعث من القبور إلى الحساب ، والجزاء والخلود الأبدى ،الذى لا موت فيه ، إما فى الجنة وإما فى النار .

والدليل من القرآن على أن هذا القول فى الآية هو التحقيق ، أن الله صرح به واضحاً فى قوله جل وعلا (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) وبذلك تعلم أن ما سواه من الأقوال الآية لا معوّل عليه .

والأظهر عندى أن المسوغ الذى سوغ إطلاق اسم الموت على العلقة ، والمضغة مثلا ، فى بطون الأمهات ، أن عين ذلك الشىء ، الذى هو نفس العلقة والمضغة ، له أطوار كما قال تعالى : (وقد خلقكم أطواراً) (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) ، ولما كان ذلك الشىء ، تكون فيه الحياة فى بعض تلك الأطوار ، وفى بعضها لا حياة له ، صح إطلاق الموت والحياة عليه من حيث إنه شىء واحد ، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه أخرى ، وقد ذكر له الزمخشرى مسوغاً غير هذا ، فانظره إن شئت .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾

قد بين جل وعلا فى غير هذا الموضع ، أن الاعتراف بالذنب فى ذلك الوقت لا ينفع ، كما قال تعالى : (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) وقال تعالى (قالوا ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : فهل إلى خروج من سبيل، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ الآية

قد تقدم الكلام عليه فى سورة الصافات ، فى الكلام على قوله تعالى (إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يشرك فى حكمه أحداً) .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه جل وعلا هو الذى يرى خلقه آياته ، أى الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته ، واستحقاقه العبادة وحده ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر كما قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) الآية .

ومنها السماوات والأرضون ، وما فيهما والنجوم ، والرياح والسحاب ، والبحار والأنهار ، والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا ، كما قال تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار) إلى قوله (لآيات لقوم يعقلون) . وقال تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) . وقال تعالى (إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) وقال تعالى (إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) .

وما ذكره جل وعلا فى آية المؤمن هذه ، من أنه هو الذى يُرِى خلقه آياته ، بينه وزاده إيضاحاً فى غير هذا الموضع ، فبين أنه يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد

صلى الله عليه وسلم حق ، كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

والآفاق جمع أفق وهو الناحية ، والله جل وعلا قد بين من غرائب صنعه ، وعجائبه ، فى نواحى سماواته وأرضه ، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده . كما أشرنا إليه ، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال ، والدواب والبحار ، إلى غير ذلك .

وبين أيضاً أن من آياته التى يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها ، وينتفعوا بألبانها ، وزبدها وسمنها ، وأقطها ويلبسوا من جلودها ، وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، كما قال تعالى : (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون) .

وبين فى بعض المواضع ، أن من آياته التى يريها بعض خلقه ، معجزات رسله ، لأن المعجزات آيات ، أى دلالات ، وعلامات على صدق الرسل ، كما قال تعالى فى فرعون (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) وبين فى موضع آخر ، أن من آياته التى يريها خلقه ، عقوبته المكذبين رسله ، كما قال تعالى فى قصة إهلاكه قوم لوط (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) .

وقال فى عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل الخ : (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾

أطلق جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، الرزق وأراد المطر ، لأن المطر

سبب الرزق ، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملابسة بينهما ، أسلوب عربي معروف ، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب وإرادة المسبب كقوله :

أكلت دماً إن لم أرُعْكِ بضَرّةٍ بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فأطلق الدم وأراد الدية ، لأنه سببها .

وقد أوضحنا في رسالتنا للسماة : منع جواز المجاز ، في المنزل للتعبد والإعجاز ، أن أمثال هذا أساليب عربية ، نطقت بها العرب في لغتها ، ونزل بها القرآن ، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية ، لا داعي إليه ، ولا دليل عليه ، يجب الرجوع إليه .

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله ، في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أول سورة الجاثية (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيي به الأرض بعد موتها) فأوضح بقوله (فأحيي به الأرض بعد موتها) أن مراده بالرزق المطر ، لأن المطر هو الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها .

وقد أوضح جل وعلا ، أنه إنما سمى المطر رزقاً ، لأن المطر سبب الرزق ، في آيات كثيرة من كتابه ، كقوله تعالى في سورة البقرة (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) الآية ، والباء في قوله فأخرج به سببية كما ترى .

وكقوله تعالى في سورة إبراهيم : (الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك) الآية . وقوله تعالى في سورة قٓ : (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد) .

وبين فى آيات أخر أن الرزق المذكور ، شامل لما يأكله الناس ، وما تأكله الأنعام ، لأن ما تأكله الأنعام ، يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها ، وجلودها وألبانها ، وأصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، كما تقدم كقوله تعالى : (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) وقوله تعالى (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) الآية .

فقوله : فيه تسيمون ، أى تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن تتكلفوا لها مؤونة العلف كما تقدم إيضاحه بشواهده العربية ، فى سورة النحل وكقوله تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم) الآية . وقوله تعالى (أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن الناس ما يتذكر منهم ، أى ما يتعظ بهذه الآيات المشار إليها فى قوله : (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب) أى من رزقه الله الإنابة إليه .

والإنابة : الرجوع عن الكفر والمعاصى ، إلى الإيمان والطاعة .

وهؤلاء المنيبون ، المتذكرون ، المتعظون ، هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال ، المذكورون فى قوله تعالى فى أول سورة آل عمران (وما يذكر إلا أولوا الألباب) وفى قوله تعالى فى سورة إبراهيم (وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد دلت آية المؤمن هذه ، وما فى معناها من الآيات ، على أن غير أولى الألباب المتذكرين المذكورين آنفا ، لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات ، بل يعرض عنها أشد الإعراض .

وقد جاء هذا المعنى موضحاً ، فى آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى : (وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون). وقوله تعالى : (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وقوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) . وقوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقوله (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) فى الأنعام ويأتى إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾

قد قدمنا الكلام على نحوه من الآيات فى أول سورة الزمر ، فى الكلام على قوله (فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص) .

قوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى أول سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) . وقوله تعالى فى آية المؤمن هذه (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء) جاء مثله فى آيات كثيرة ، كقوله فى بروزهم ذلك اليوم (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله

الواحد القهار) وقوله تعالى (وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً) الآية .

وكقوله فى كونهم لا يخفى على الله منهم شىء ذلك اليوم (يومئذ تعرضون لا يخفى منكم خافية) . وقوله تعالى (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) . وقوله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بيناها فى أول سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) الآية ، وذكرنا طرفاً من ذلك ، فى أول سورة سبأ ، فى الكلام على قوله تعالى (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾

الإنذار ، والإعلام المقترن بتهديد خاصة ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذاراً .

وقد أوضحنا معنى الإنذار وأنواعه فى أول سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به) الآية .

والظاهر أن قوله هنا (يوم الآزفة) هو المفعول الثانى للإنذار لا ظرف له لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة ، واقع فى دار الدنيا .

والآزفة القيامة . أى أنذرهم يوم القيامة ، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك فى الدنيا بالإيمان والطاعة .

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أى قربها ، والعرب تقول : أزف الترحل بكسر الزاى ، يأزف بفتحها ، أزفا بفتحين ، على القياس ، وأزوفا فهو آزف ، على غير قياس ، فى المصدر الأخير ، والوصف بمعنى قرب وقته وحان وقوعه ، ومنه قول نابغة ذبيان :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

ويروى أفد الترحل ، ومعناهما واحد .

والمعنى (وأنذرهم يوم الآزفة) أى يوم القيامة القريب مجيؤها ووقوعها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من اقتراب قيام الساعة ، جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى (أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) وقوله تعالى (اقتربت الساعة) الآية . وقوله تعالى (اقترب للناس حسابهم) الآية . وقوله تعالى فى الأحزاب (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) وقوله تعال فى شورى (وما يدريك لعل الساعة قريب)

وقد قدمنا هذا فى أول سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) الظاهر فيه ، أن إذ ، بدل من يوم ، وعليه فهو من قبيل المفعول به ، لا المفعول فيه ، كما بينا آنفا .

والقلوب : جمع قلب وهو معروف .

ولدى : ظرف بمعنى عند .

والحناجر : جمع حنجرة وهى معروفة .

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر ، فى ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان .

أحدها : ما قاله قتادة وغيره ، من أن قلوبهم يومئذ ، ترتفع من أماكنها فى الصدور ، حتى تلتصق بالحلوق ، فتكون لدى الحناجر ، فلا هى تخرج من أفواههم فيموتوا ، ولا هى ترجع إلى أماكنها فى الصدور فيتنفسوا . وهذا القول هو ظاهر القرآن .

والوجه الثانى : هو أن المراد بكون القلوب ، لدى الحناجر ، بيان شدة الهول ، وفظاعة الأمر ، وعليه فالآية كقوله تعالى : (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) وهو زلزال خوف وفزع لازلزال حركة الأرض .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (كاظمين) معناه مكروبين ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً .

والكظم : تردد الخوف والغيظ والحزن فى القلب حتى يمتلىء منه ، ويضيق به .

والعرب تقول : كظمت السقاء إذا ملأته ماء ، وشددته عليه .

وقول بعضهم كاظمين ، أى ساكتين ، لاينافى ماذكرنا ، لأن الخوف والغم الذى ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام ، فلا يقدرون عليه ، ومن إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج :

وربّ أسراب حجيج كظّم عن اللّغا ورفَثِ التكلُّمِ

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال : كاظمين أى لا يتكلمون إلا من أذن له الله ، وقال الصواب ، كما قال تعالى : (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) .

وقوله : (كاظمين) حال من أصحاب القلوب على المعنى . والتقدير إذ القلوب لدى الحناجر أى إذ قلوبهم لدى حناجرهم فى حال كونهم كاظمين ، أى ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً ، ولا يبعد أن يكون حالا من نفس القلوب ، لأنها وصفت بالكظام الذى هو صفة أصحابها .

ونظير ذلك فى القرآن : (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) فإنه أطلق فى هذه الآية الكريمة ، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء فى قوله تعالى : (رأيتهم لى ساجدين) ، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التى هى السجود .

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) وقوله تعالى : (قالتا أتينا طائعين) .

قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة البقرة وسورة الأعراف ، وأحلنا عليه مراراً .

قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ .

قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات فى أول سورة هود ، وفى غيرها وأحلنا عليه أيضاً مراراً .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه أرسل نبيه موسى عليه

وعلى نبينا الصلاة والسلام ، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه ، وزعموا أنه ساحر .

وأوضح هذا المعنى ، فى آيات كثيرة كقوله تعالى عن فرعون وقومه : (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها) ، وقوله تعالى عن فرعون (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) . وقوله تعالى : قال الملأ حوله : (إن هذا لساحر عليم) والآيات بمثل ذلك كثيرة . وقد بيناها فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، عاذ بربه ، أى اعتصم به ، وتمنع من كل متكبر ، أى متصف بالكبر ، لا يؤمن بيوم الحساب ، أى لا يصدق بالبعث والجزاء .

وسبب عياذ موسى بربه المذكور ، أن فرعون قال لقومه : (ذرونى ، أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد) .

فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو فى الحقيقة من فرعون ، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون ، لأن فرعون لاشك أنه متكبر ، لا يؤمن بيوم الحساب فهو داخل فى الكلام دخولا أولياً ، وهو المقصود بالكلام .

وما ذكره جل وعلا فى آية المؤمن هذه ، من عياذ موسى بالله من كل

متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون ، وعتاة قومه ، ذكر نحوه فى سورة الدخان فى قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه : (وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون) الآية .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن رجلا مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه ، أى يخفى عنهم أنه مؤمن ، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبى الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حين قال فرعون (ذرونى أقتل موسى وليدع ربه) الآية . مع أنه لا ذنب له ، يستحق به القتل ، إلا أنه يقول : ربى الله .

وقد بين فى آيات أخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين ، والتنكيل بهم ، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب ، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون: ربنا الله ، كقوله تعالى فى أصحاب الأخدود ، الذين حرقوا المؤمنين (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذهم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) . وقوله تعالى : عن الذين كانوا سحرة لفرعون ، وصاروا من خيار المؤمنين ، لما هددهم فرعون قائلا: (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) أنهم أجابوه ، بما ذكره الله عنهم ، فى قوله : (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) إلى غير ذلك من الآيات .

والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور فى هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى : « من آل فرعون » .

فدعوى أنه إسرائيلى ، وأن فى الكلام تقديما وتأخيرا . وأن من آل فرعون متعلق بيكتم ، أى وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون أى يخفى إيمانه عن فرعون وقومه خلاف التحقيق كما لايخفى .

وقيل : إن هذا الرجل المؤمن هو الذى قال لموسى (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج) . وقيل غيره .

واختلف العلماء فى اسمه اختلافا كثيراً فقيل : اسمه حبيب ، وقيل اسمه شمعان ، وقيل اسمه حزقيل ، وقيل غير ذلك ولا دليل على شىء من ذلك.

والظاهر فى إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها فى قوله تعالى ، فى هذه الآية الكريمة ، أن يقول ربى الله ، أنه مفعول من أجله .

وقال البخارى رحمه الله فى صحيحه فى تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا على بن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى قال حدثنى يحيى بن أبى كثير قال حدثنى محمد بن إبراهيم التيمى حدثنى عروة بن الزبير قال قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد ماصنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم».

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

الظاهر أن أرى فى هذه الآية الكريمة علمية ، عرفانية ، تتعدى لمفعول واحد ، كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

لعلم عرفان وظن تهمه تعدية لواحد ملتزمه

وعليه فالمعنى : قال فرعون ما أعلمكم وأعرفكم ، من حقيقة موسى وأنه ينبغى أن يقتل ، خوف أن يبدل دينكم ، ويظهر الفساد فى أرضكم ، إلا ما أرى أى أعلم وأعرف أنه الحق والصواب فما أخفى عنكم خلاف ما أظهره لكم ، وما أهديكم بهذا إلا سبيل الرشاد ، أى طريق السداد والصواب .

وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما فى هذه الآية الكريمة ، قد بين فى آيات أخر أن فرعون كاذب فى كل واحد منهما

أما الأول منهما وهو قوله : (ما أريكم إلا ما أرى) فقد بين تعالى كذبه فيه فى آيات من كتابه وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التى جاءه بها موسى حق ، وأنها ما أنزلها إلا الله ، وأنه جحدها هو ومن استيقنها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم كقوله تعالى فى سورة النمل (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) .

فقوله تعالى : فى هذه الآية (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا دليل واضح على أن فرعون كاذب فى قوله : « ما أريكم إلا ما أرى » .

وكقوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل : (قل لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا) فقول نبى الله موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض)

مؤكدا إخباره بأن فرعون عالم بذلك بالقسم ، وقد دل أيضاً على أنه كاذب فى قوله: ما أريكم إلا ما أرى.

وكان غرض فرعون بهذا الكذب ، التدليس والتمويه ليظن جهلة قومه، أن معه الحق ، كما أشار تعالى إلى ذلك فى قوله : (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين) .

وأما الأمر الثانى وهو قوله : (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) فقد بين تعالى كذبه فيه فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) . وقوله تعالى : (وأضل فرعون قومه وما هدى) .

وقال بعض العلماء فى قوله : (ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسى ، من قتل موسى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ .

هذه الآية الكريمة ، وأمثالها من الآيات الدالة عن أن السيئات لا تضاعف ، ولا تجزى إلا بمثلها بينها وبين الآيات الأخرى الدالة على أن السيئات ربما ضوعفت فى بعض الأحوال ، كقوله تعالى فى نبينا ﷺ (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) وقوله تعالى فى نسائه رضى الله عنهن (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) إشكال معروف . وقد قدمنا الجواب عنه موضحاً فى سورة النمل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

قدأوضحنامعنى هذه الآية الكريمة ، وبينا العمل الصالح بالآيات القرآنية، وأوضحنا الآيات المبينة لمفهوم المخالفة ، فى قوله : (وهو مؤمن) فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الآية . وفى أول سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ما كثين فيه أبداً) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

الظاهر أن جملة قوله تدعوننى لأكفر بالله ، بدل من قوله : وتدعوننى إلى النار ، لأن الدعوة إلى الكفر بالله والإشراك به دعوة إلى النار .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفر والإشراك بالله مستوجب لدخول النار ، بينه تعالى فى آيات كثيرة من كتابه كقوله : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) ، وقد قدمنا مافيه كفاية من ذلك، فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ . فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ ﴾

التحقيق الذى لاشك فيه ، أن هذا الكلام ، من كلام مؤمن آل فرعون الذى ذكر الله عنه ، وليس لموسى فيه دخل .

وقوله (فستذكرون ما أقول لكم) ، يعنى أنهم يوم القيامة ، يعلمون صحة ما كان يقول لهم ، ويذكرون نصيحته ، فيندمون حيث لا ينفع الندم ، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به فى الدنيا كثيرة ، كقوله تعالى : (وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون) وقوله تعالى : (ولتعلمن نبأه بعد حين) . وقوله تعالى : (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) وقوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) . وقوله تعالى : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا) دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله ، وتفويض الأمور إليه ، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء ، وقد تقرر فى الأصول أن الفاء من حروف التعليل ، كقولهم سها فسجد ، أى سجد لعلة سهوه ، وسرق فقطعت يده ، أى لعلة سرقته ، كما قدمناه مرارا .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون التوكل على الله سبباً للحفظ ، والوقاية من السوء ، جاء مبينا فى آيات أخر ، كقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) . وقوله تعالى : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) .

وقد ذكرنا الآيات الدالة على ذلك بكثرة ، فى أول سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى (ألا تتخذوا من دونى وكيلا) .

والظاهر أن ما فى قوله (سيئات ما مكروا) مصدرية ، أى فوقاه الله سيئات مكرهم ، أى أضرار مكرهم وشدائده ، والمكر : الكيد .

فقد دلت هذه الآية الكريمة ، على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه ، أى حفظه ونجاه ، من أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على الله ، وتفويضه أمره إليه .

وبعض العلماء يقول : نجاه الله منهم مع موسى وقومه وبعضهم يقول : صعد جبلا فأعجزهم الله عنه ونجاه منهم ، وكل هذا لا دليل عليه ، وغاية مادل عليه القرآن أن الله وقاه سيئات مكرهم ، أى حفظه ونجاه منها .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن ، وقاه الله مكرهم ، ورد العاقبة السيئة عليهم ، فرد سوء مكرهم إليهم ، فكان المؤمن المذكور ناجيا ، فى الدنيا والآخرة وكان فرعون وقومه هالكين ، فى الدنيا والآخرة والبرزخ .

فقال فى هلاكهم فى الدنيا : (وأغرقنا آل فرعون) الآية ، وأمثالها من الآيات .

وقال فى مصيرهم فى البرزخ (النار يعرضون عليها غدوا وعشياً) .

وقال فى عذابهم فى الآخرة : (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من حيق المكر السيء ، بالماكر أوضحه تعالى فى قوله (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) .

والعرب تقول حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً ، إذا نزل به وأحاط به ، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة .

يقال حاق به السوء والمكروه ، ولا يقال حاق به الخير ، فمادة الحيق من الأجوف الذى هو يائى العين ، والوصف منه حائق على القياس ، ومنه قول الشاعر :

فأوطأ جُرْد الخيل عقر دِيارِهم وحاقَ بهمْ من يأس ضبَّة حائقُ

وقد قدمنا أن وزن السيئة بالميزان الصرفى ، فيعلة من السوء فأدغمت ياء الفيعلة الزائدة فى الواو ، التى هى عين الكلمة ، بعد إبدال الواو ياء على القاعدة التصريفية المشار إليها ، فى الخلاصة بقوله :

إن يسكن السابق من وَاوٍ وَيَا واتصلا ومن عروض عَرِيَا
فياءِ الواو فليِّنْ مدغماً وشذَّ معطى غيرُ ما قد رسما

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ . قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ .

قوله تعالى (يتحاجون فى النار) أصله يتفاعلون من الحجة أى يختصمون ، ويحتج بعضهم على بعض ، وما تضمنته هذا الآية الكريمة ، جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) وقوله تعالى (لو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) . وقوله تعالى : (كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادارکوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم

عذاباً ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وقوله تعالى، (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا) وقوله تعالى : (وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) والآيات بمثل هذا كثيرة ، وقد قدمنا الكلام عليها فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار .

وقد بين فى سورة الزخرف أنهم نادوا مالكا خاصة ، من خزنة أهل النار ، ليقضى الله عليهم ، أى ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار .

وقد أوضح جل وعلا فى آيات من كتابه ، أنهم لا يجابون فى واحد من الأمرين .

فلا يخفف عنهم العذاب ، الذى سألوا تخفيفه ، فى سورة المؤمن هذه .

ولا يحصل لهم الموت الذى سألوه فى سورة الزخرف ، فقال تعالى فى عدم تخفيف العذاب عنهم فى هذه الآية . (قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) وقال تعالى (ولا يخفف

عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور) وقال تعالى : (فلن نزيدكم إلا عذاباً) : وقال تعالى (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) : وقال تعالى (إن عذابها كان غراما) وقال تعالى : (فسوف يكون لزاماً) وقال تعالى (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) . وقال تعالى : (ولهم عذاب مقيم) .

وقال تعالى فى عدم موتهم فى النار : (لا يقضى عليهم فيموتوا) . وقال تعالى : (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) . وقال تعالى . (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) . وقال تعالى : (إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) . وقال تعالى : (ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) ولما قالوا ليقض علينا ربك) أجابهم بقوله : (قال إنكم ماكثون) .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه مع الآيات التى بمعناه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) الآية ، وذكرنا طرفاً من ذلك فى الصافات ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) وستأتى له زيادة إيضاح إن شاء الله فى سورة المجادلة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

اللام فى قوله : (ولقد آتينا موسى الهدى) موطئة للقسم وصيغة الجمع فى آتينا وأورثنا للتعظيم .

والمراد بالهدى ماتضمنه التوراة من الهدى فى العقائدوالأعمال : وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة ، وقوله : هدى وذكرى لأولى الألباب مفعول من أجله أى لأجل الهدى والتذكير .

وقال بعضهم : هدى حال ، وورود المصدر المنكر حالا معروف ، كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

ومصدر منكر حالا يقع بكثرة كبغتة زيد طلع

وقال القرطبى : هدى بدل من الكتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الله أنزل التوراة على موسى وأنزل فيها الهدى لبنى إسرائيل جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) . وقوله تعالى :(ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) الآية . وقوله تعالى : (إنا أنزلنا التوراة فيهاهدى ونوريحكم بهاالنبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار) وقوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) وقوله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) . وقوله تعالى : (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى: ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾

قد قدمنا إيضاحه فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى : (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) ، وذكرنا هناك بعض النتائج السيئة الناشئة عن الكبر .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ .

قدقدمنا أن هذه الآية من البراهين الدالة على البعث ، وأوضحنا كل البراهين الدالة على البعث بالآيات القرآنية بكثرة فى سورة البقرة ، وسورة النحل ، وأحلنا على مواضع ذلك مراراً .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ الآية .

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ، وما يستوى الأعمى والبصير ، قدقدمنا الكلام عليه فى سورة هود ، فى الكلام على قوله تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) قدقدمنا إيضاح معناه بالآيات القرآنية ، فى سورة ص فى الكلام على قوله تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى: بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

قال بعض العلماء (ادعونى أستجب لكم) : اعبدونى أثبكم من عبادتكم ، ويدل لهذا قوله بعده : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) .

وقال بعض العلماء : (ادعونى أستجب لكم) أى اسألونى أعطكم .

ولا منافاة بين القولين ، لأن دعاء الله من أنواع عبادته .

وقد أوضحنا هذا المعنى ، وبينا وجه الجمع بين قوله تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) مع قوله تعالى : (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشورا)، وفى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟

شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . وبينا أوجه القراءة فى قوله : فيكون هناك .

قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

لم يبين هنا جل وعلا عدد أبواب جهنم ، ولكنه بين ذلك فى سورة الحجر ، فى قوله تعالى : (وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الله تبارك وتعالى قص على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أنباء بعض الرسل ، أى كنوح وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين ، بينه فى فى غير هذا الموضع ، كقوله فى سورة النساء : (ورسلا قد قصصناهم عليك من

قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما)، وأشار إلى ذلك فى سورة إبراهيم فى قوله : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات) الآية. وفى سورة الفرقان فى قوله تعالى : (وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

قوله هنا : فإذا جاء أمر الله أى قامت القيامة ، كما قدمنا إيضاحه فى قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أى فإذا قامت القيامة ، قضى بين الناس بالحق الذى لا يخالطه حيف ولا جور ، كما قال تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق) الآية.

وقال تعالى : (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق) .

والحق المذكور فى هذه الآيات : هو المراد بالقسط المذكور فى سورة يونس فى قوله تعالى: (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط).

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أنه إذا قامت القيامة يخسر المبطلون ، أوضحه جل وعلا فى سورة الجاثية فى قوله تعالى : (ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) .

والمبطل هو : من مات مصراً على الباطل .

وخسران المبطلين المذكور هنا ، قد قدمنا بيانه فى سورة يونس ، فى الكلام على قوله تعالى: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين).

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا أن لفظة جعل ، تأتى فى اللغة العربية لأربعة معان ، ثلاثة منها فى القرآن .

الأول : إتيان جعل بمعنى اعتقد ، ومنه قوله تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) أى اعتقدوهم إناثاً ، ومعلوم أن هذه تنصب المبتدأ والخبر .

الثانى : جعل بمعنى صيَّر ، كقوله : (حتى جعلناهم حصيداً خامدين) ، وهذه تنصب المبتدأ والخبر أيضاً .

الثالث ، جعل بمعنى خلق ، كقوله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) أى خلق السماوات والأرض و خلق الظلمات والنور .

والظاهر ، أن منه قوله هنا : (الله الذى جعل لكم الأنعام) أى خلق لكم الأنعام ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم) ، وقوله : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) الآية .

والرابع : وهو الذى ليس فى القرآن جعل بمعنى شرع ، ومنه قوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلنى ثوبى فأنهض نهض الشارب السَّكِرِ

وما ذكره الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة ، التى أنعم عليهم بها ، بسبب خلقه لهم الأنعام وهى الذكور والإناث ، من الإبل والبقر والضأن والمعز ، كما قدمنا إيضاحه فى سورة آل عمران فى

الكلام على قوله : والأنعام والحرث بينه أيضاً فى مواضع أخر ، كقوله تعالى: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) . والدفء ما يتدفئون به فى الثياب المصنوعة من جلود الأنعام وأوبارها وأشعارها وأصوافها .

وقوله تعالى : (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين) . وقوله تعالى : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون. وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) ، وقوله تعالى : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين) . وقوله تعالى : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون. وعليها وعلى الفلك تحملون). وقوله تعالى : (ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ـ إلى قوله : ـ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) وقوله تعالى: (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) : وقوله تعالى: (جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا) الآية . وقوله تعالى: (والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

قد ذكرنا الآيات الموضحة له فى مواضع متعددة من هذا الكتاب

المبارك ، وبينا مواضعها فى سورة الروم ، فى الكلام على قوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون) ، وفى سورة ص فى الكلام على قوله تعالى (فنادوا ولات حين مناص) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ حٰمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه وعلى نظائره من الآيات ، فى أول سورة الزمر

قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ .

كتاب خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا كتاب ، والكتاب ، فعال بمعنى مفعول ، أى مكتوب .

وإنما قيل له كتاب ، لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) .

ومكتوب أيضاً فى صحف عند الملائكة كما قال تعالى : (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام برررة) .

وقال تعالى فى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ، لما تضمنته الصحف المكتوب فيها القرآن : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة).

وقوله تعالى : فى هذه الآية الكريمة : (فصلت آياته) .

التفصيل ضد الإجمال ، أى فصل الله آيات هذا القرآن ، أى بينها وأوضح فيها ما يحتاج إليه الخلق ، من أمور دينهم ودنياهم .

والمسوغ لحذف الفاعل فى قوله تعالى : (فصلت آياته) هو العلم بأن تفصيل آيات هذا القرآن ، لا يكون إلا من الله وحده .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب ، جاء موضحاً

فى آيات أخر ، مبيناً فيها أن الله فصله على علم منه وأن الذى فصله حكيم خبير ، وأنه فصله ليهدى به الناس ويرحمهم ، وأن تفصيله شامل لكل شىء ، وأنه لا شك أنه منزل من الله كقوله تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . وقوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) وقوله تعالى (وما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقوله تعالى . (أفغير الله أبتغى حكما هو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

قوله : قرآنا عربياً قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التى بمعناه فى القرآن فى سورة الزمر ، فى الكلام على قوله تعالى : (قرآنا عربياً غير ذى عوج) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (لقوم يعلمون) ، أى فصلت آياته ، فى حال كونه قرآناً عربياً لقوم يعلمون .

وإنما خصهم بذلك ، لأنهم هم المنتفعون بتفصيله ، كما خصهم بتفصيل الآيات فى سورة يونس فى قوله تعالى : (ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون) ، وفى سورة الأنعام فى قوله تعالى : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا وجه تخصيص المنتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم فى سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا

الصلاة) وبينا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم ، فى آية فاطر هذه ، وفى قوله تعالى فى يس (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) وقوله فى النازعات ، (إنما أنت منذر من يخشاها) وقوله فى الأنعام (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) الآية. مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) .

وإنما خص المذكورين بالإنذار ، لأنهم هم المنتفعون به ، لأن من لم ينتفع بالإنذار ، ومن لم ينذر أصلا سواء فى عدم الانتفاع ، كما قال الله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) .

وقوله تعالى ، فى هذه الآية الكريمة (بشيرا ونذيراً) حال بعد حال . وقد قدمنا الكلام عليه وبعض شواهده العربية ، فى أول سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى (لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين) الآية . وبسطنا الكلام عليه فى أول سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فأعرض أكثرهم) .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) وفى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فهم لا يسمعون) أى لا يسمعون سماع قبول وانتفاع .

وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ .

ذكر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن الكفار صرحوا للنبى ﷺ ، بأنهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به ، ولا يقبلون منه ما جاءهم به فقالوا له قلوبنا التى نعقل بها ، ونفهم فى أكنة ، أى أغطية .

والأكنة ، جمع كنان ، وهو الغطاء والغلاف الذى يغطى الشىء ويمنعه من الوصول إليه .

ويعنون أن تلك الأغطية ، مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه ﷺ ، وقالوا إن فى آذانهم التى يسمعون بها وقراً أى : ثقلا وهو الصمم . وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن يسمعوا من النبى ﷺ شيئاً ، ومما يقول ، كما قال تعالى عنهم : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) .

وأن من بينهم وبينه حجابا ، مانعاً لهم من الاتصال والاتفاق ، لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر ، ويحول بينهم وبين رؤية ما يبديه ﷺ من الحق .

والله جل وعلا ، ذكر عنهم هذا الكلام فى معرض الذم ، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة ، وفى آذانهم الوقر ، وجعل بينهم وبين رسوله حجابا ، عند قراءته القرآن ، قال تعالى فى سورة بنى إسرائيل : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) . وقال تعالى فى الأنعام (ومنهم

من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) وقال تعالى فى الكهف : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعوهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا)

وهذا الإشكال الذى أشرنا إليه فى هذه الآيات قوى ، ووجه كونه مشكلا ظاهر ، لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب فى هذه الآية الكريمة من فصلت ، وبين فى الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلا ، وأنه تعالى هو الذى جعله فيهم .

فيقال : فكيف يذمون على قول شىء ، هو حق فى نفس الأمر .

والتحقيق فى الجواب عن هذا الإشكال ، هو ماذكرناه مراراً ، من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة ، وطبع عليها وختم عليها ، وجعل الوقر فى آذانهم ، ونحو ذلك من الموانع من الهدى ، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر ، وتكذيب الرسل طائعين مختارين ، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم ، طمس البصيرة ، والعمى عن الهدى ، جزاء وفاقا .

فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم ، مجازاة لكفرهم الأول .

ومن جزاء السيئة ، تمادى صاحبها فى الضلال ، ولله الحكمة البالغة فى ذلك .

والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة فى القرآن ، كقوله تعالى : (وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) .

فقول اليهود فى هذه الآية (قلوبنا غلف) كقول كفار مكة : (قلوبنا)

(فى أكنة) لأن الغلف ، جمع أغلف وهو الذى عليه غلاف ، والأكنة جمع كنان ، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر .

وقد رد الله على اليهود دعواهم ببل التى هى للإضراب الإبطالى ، فى قوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) .

فالباء فى قوله : بكفرهم سببية ، وهى دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم ، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد .

وكقوله تعالى : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) ، والفاء فى قوله : فطبع سببية أى ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر .

وقد قدمنا مراراً أنه تقرر فى الأصول أن الفاء من حروف التعليل ، ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعى .

وكذلك الفاء فى قوله : (فهم لا يفقهون) فهى سببيه أيضاً ، أى فطبع على قلوبهم ، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون أى لا يفهمون من براهين الله وحججه شيئاً .

وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناها إلى شىء واحد ، وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم .

لأنه قال فى الطبع : (فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) .

وقال فى الأكنة : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) أى كراهة أن يفقهوه ، أو لأجل ألا يفقهوه ، كما قدمنا إيضاحه .

وكقوله تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فبين أن زيغهم الأول ،

كان سبباً لإزاغة الله قلوبهم ،وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب .

وكقوله تعالى : (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقوله تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية . وقوله تعالى : (أما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) الآية .

وإيضاح هذا الجواب : أن الكفار قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب) يقصدون بذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بأنهم لا يؤمنون به بوجه ، ولا يتبعونه بحال ، ولا يقرون بالحق الذى هو كون كفرهم هذا هو الجريمة ، والذنب الذى كان سببا فى الأكنة، والوقر والحجاب .

فدعواهم كاذبة ، لأن الله جعل لهم قلوبا يفهمون بها ، وآذانا يسمعون بها ، خلافا لما زعموا ، ولكنه ، سبب لهم الأكنة ، والوقر والحجاب ، بسبب مبادرتهم إلى الكفر ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا المعنى أوضحه رده تعالى على اليهود فى قوله عنهم :(وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) .

وقد حاول الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية الكريمة ، الجواب على الإشكال المذكور فقال : فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فى فى معرض الذم ، وذكر أيضاً ما يقرب منه فى معرض الذم ، فقال : (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها فى معنى التقرير والإثبات فى سورة الأنعام،فقال : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : إنه لم يقل هاهنا إنهم كذبوا فى ذلك ، إنما الذى ذمهم عليه ، أنهم

قالوا إنا إذا كنا كذلك ، لم يجز تكليفنا و توجيه الأمر والنهى علينا ، وهذا الثانى باطل .

أما الأول : فلأنه ليس فى الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه . اهـ منه . والأظهر : هو ماذكرنا .

قال صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى : (ومن بيننا وبينك حجاب).

فإن قلت : هل لزيادة : من فى قوله : ومن بيننا وبينك حجاب فائدة ؟ قلت : نعم ؛

لأنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب ، لكان المعنى أن حجابا حاصل وسط الجهتين .

وأما بزيادة « مِنْ » فالمعنى : أن حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك .

فالمسافة المتوسطة لجهتنا ، وجهتك مستوعبة بالحجاب ، لافراغ فيها . انتهى منه .

واستحسن كلامه هذا الفخر الرازى وتعقبه ابن المنير على الزمخشرى ، فأوضح سقوطه والحق معه فى تعقبه عليه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ومن بيننا وبينك حجاب) ، وقد قدمنا تفسيره وإيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ .

أمر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقول للناس : (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) .

والقصر فى قوله : (إنما أنا بشر) ، إضافى أى لا أقول لكم إنى ملك ، وإنما أنا رجل من البشر .

وقوله : (مثلكم) فى الصفات البشرية ، ولكن الله فضلنى بما أوحى إلىّ من توحيده .

كما قال تعالى عن الرسل فى سورة إبراهيم : (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده) أى كما منّ علينا بالوحى والرسالة .

وما ذكره الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ذكره فى آخر سورة الكهف فى قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) الآية .

وقد أوضحنا وجه حصر ما أوحى إليه ﷺ ، فى مضمون لا إله إلا الله ، فى قوله تعالى (قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

وبينا فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك إنكار المشركين كون الرسل من البشر ، وأنهم ينبغى أن يكونوا من الملائكة ، وما رد الله عليهم به ذلك من الآيات القرآنية ، أوضحنا ذلك فى سورة ص ، فى الكلام على قوله تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) وفى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا) إلى قوله : (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) .

قوله تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ .

قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة ، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه تعالى صرح فى هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء قلنا إن الزكاة فى الآية هى زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصى .

ورجح بعضهم القول الأخير لأن سورة فصلت هذه ، من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة ، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين ، كما قدمناه فى سورة الأنعام ، فى الكلام على قوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

وعلى كل حال ، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام .

أعنى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومادلت عليه هذه الآية الكريمة ، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر ، ويعذبون على المعاصى ، جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى عنهم مقرراً له : (ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) .

فصرح تعالى عنهم ، مقرراً له أن من الأسباب التى سلكتهم فى سقر ، أى أدخلتهم النار ، عدم الصلاة ، وعدم إطعام المسكين ، وعد ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين .

ونظير ذلك قوله تعالى : (خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) ثم بين سبب ذلك فقال : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) الآية - إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

الأجر جزاء العمل ، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، هو نعيم الجنة وذلك الجزاء غير ممنون ، أى غير مقطوع ، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه ، ومنه قول لبيد بن ربيعة فى معلقته :

لمعفر فهـــد تنازع شِلْوَهُ غُبْسٌ كواسِبُ ما يمن طعامها

فقوله : ما يمن طعامها أى ما يقطع ، وقول ذى الأصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ولا خيرى بِمْمنونِ

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن أجرهم غير ممنون ، نص الله تعالى عليه فى آيات أخر من كتابه ، كقوله تعالى فى آخر سورة الانشقاق (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) . وقوله تعالى فى سورة التين (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) وقوله تعالى فى سورة هود (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) .

فقوله : غير مجذوذ أى غير مقطوع ، وبه تعلم أن غير مجذوذ وغير ممنون ، معناهما واحد .

وقوله تعالى فى ص (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) أى ماله من انتهاء ولا انقطاع . وقوله فى النحل (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

وهذا الذى ذكرنا هو الذى عليه الجمهور خلافا لمن قال : إن معنى غير ممنون ، غير ممنون عليهم به .

وعليه ، فالمن فى الآية من جنس المن المذكور ، فى قوله تعالى : (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) .

ومن قال : إن معنى غير ممنون ، غير منقوص ، محتجاً بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص ، قالوا : ومنه قول زهير :

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطى بذلك مَمْنوناً ولا نَزَقَا

فقوله ممنونا أى منقوصاً .

وهذا وإن صح لغة ، فالأظهر أنه ليس معنى الآية .

بل معناها : هو ما قدمنا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

الظاهر أن معنى قوله هنا فى أربعة أيام : أى فى تتمة أربعة أيام .

وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط ، لأنه تعالى قال : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) ثم قال فى أربعة أيام ، أى فى تتمة أربعة أيام .

ثم قال : (فقضاهن سبع سماوات فى يومين) فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة ، فيكون مجموع الأيام التى خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما ، ستة أيام .

وهذا التفسير الذى ذكرنا فى الآية لا يصح غيره بحال ، لأن الله تعالى صرح فى آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام كقوله فى الفرقان : (الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فأسأل به خبيرا) . وقوله تعالى فى السجدة (الله الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) الآية . وقوله تعالى فى قّ . (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) وقوله تعالى فى الأعراف (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

فلو لم يفسر قوله تعالى (فى أربعة أيام) بأن معناه فى تتمة أربعة أيام ، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ثمانية أيام ، لأن قوله تعالى : (فى أربعة أيام) إذا فسر بأنها أربعة كاملة ثم جمعت مع اليومين الذين خلقت فيهما الأرض المذكورين فى قوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) ، واليومين الذين خلقت فيهما السماوات المذكورين فى قوله تعالى : (فقضاهن سبع سماوات فى يومين) لكان المجموع ثمانية أيام .

وذلك لم يقل به أحد من المسلمين .

والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام ، فعلم بذلك صحة التفسير الذى ذكرنا وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وجعل فيها رواسى من فوقها) قد قدمنا الكلام على أمثاله من الآيات ، فى سورة النحل فى الكلام على

قوله تعالى : (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) الآية ، وقوله تعالى : (وبارك فيها) أى أكثر فيها البركات ، والبركة الخير ، وقوله تعالى : (وقدر فيها أقواتها) .

التقدير والخلق فى لغة العرب معناهما واحد .

والأقوات جمع قوت ، والمراد بالأقوات أرزاق أهل الأرض ومعايشهم وما يصلحهم .

وقد ذكرنا فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب :

أن آية فصلت هذه ، أعنى قوله تعالى : (وقدر فيها أقواتها) يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كقوله هنا (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) ثم رتب على ذلك بثم ، قوله (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) إلى قوله (فقضاهن سبع سماوات فى يومين) مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض ، كقوله تعالى فى النازعات : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها) إلى قوله : (والأرض بعد ذلك دحاها) .

فقلنا فى كتابنا المذكور ما نصه : قوله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء) الآية ، هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء ، بدليل لفظة ثم التى هى للترتيب والانفصال .

وكذلك آية حم السجدة ، تدل أيضاً على خلق الأرض قبل السماء ، لأنه قال فيها : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى أن قال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) الآية .

مع أن آية النازعات تدل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء ، لأنه قال فيها . (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها) ، ثم قال : (والأرض بعد ذلك دحاها) .

اعلم أولا أن ابن عباس رضى الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات ، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولا قبل السماء غير مدحوة ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً فى يومين ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغير ذلك .

فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك ، بعد خلق السماء .

ويدل لهذا أنه قال : (والأرض بعد ذلك دحاها) ولم يقل خلقها ثم فسر دحوه إياها بقوله : (أخرج منها ماءها ومرعاها) وهذا الجمع الذى جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه . مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه .

وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء ، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء .

وفى هذه الآية التصريح بأن جميع ما فى الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء) الآية.

وقد مكثت زمناً طويلا أفكر فى حل هذا الإشكال حتى هدانى الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم .

وإيضاحه : أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين ، كل منهما تدل عليه آية من القرآن .

الأول : أن المراد بخلق ما فى الأرض جميعاً قبل خلق السماء : الخلق اللغوى الذى هو التقدير لا الخلق بالفعل ، الذى هو الإبراز من العدم إلى الوجود ، والعرب تسمى التقدير خلقاً . ومنه قول زهير :

ولأنت تفْـــرى ما خلقت وبعض القوم يخلُقُ ثم لا يفْرى

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير . أنه تعالى نص على ذلك فى سورة فصلت . حيث قال : (وقدر فيها أقواتها) ثم قال : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) الآية .

الوجه الثانى : أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهى أهل لكل ، مافيها كان كل مافيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلا .

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع ، وإن لم يكن موجوداً بالفعل ، قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة) الآية ، فقوله (خلقناكم ثم صورناكم) أى بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذى هو أصلكم .

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله (والأرض بعد ذلك دحاها) أى مع ذلك ، فلفظة بعد ، بمعنى مع .

ونظيره قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم) وعليه فلا إشكال فى الآية.

ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد ، والأرض مع ذلك دحاها

وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة . لأنها مبنية على أن خلق السماء قبل الأرض وهو خلاف التحقيق .

منها أن ثم : بمعنى الواو .

ومنها : أنها للترتيب الذكرى كقوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ﴾ الآية .

المصابيح :النجوم .

وما تضمنته هذه الآية من تزيين السماء الدنيا بالنجوم ، قدقدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، فى سورة الأنعام ، فى الكلام على قوله تعالى (وهوالذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها)الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وحفظاً) قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة الحجر ، فى الكلام على قوله تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية فى سورة ص ، فى الكلام على قوله تعالى . (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) .

قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾

الصرصر : وزنه بالميزان الصرفى فعفل ، وفى معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان

أحدهما : أن الريح الصرصر هى الريح العاصفة الشديدة الهبوب ، التى يسمع لهبوبها صوت شديد ، وعلى هذا فالصرصر من الصرة ، التى هى الصيحة المزعجة .

ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة) أى فى صيحة ، ومن هذا المعنى . صرير الباب والقلم ، أى صوتهما .

الوجه الثانى : أن الصرصر من الصر الذى هو البرد الشديد المحرق ، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى : (كمثل ريح فيها صر) الآية . أى فيها برد شديد محرق ، ومنه قول حاتم الطائى :

أوقـــد فإن الليل ليل قر والريح يا واقـد ريح صرُّ
علَّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

فقوله : ريح صر ، أى باردة شديدة البرد .

والأظهر أن كلا القولين صحيح ، وأن الريح المذكورة . جامعة بين الأمرين ، فهى عاصفة شديدة الهبوب ، باردة شديد البرد .

وما ذكره جل وعلا من إهلاكه عاداً بهذه الريح الصرصر ، فى تلك الأيام النحسات ، أى المشئومات النكدات ، لأن النحس ضد السعد ، وهو الشؤم جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله .

وقد بين تعالى فى بعضها عدد الأيام والليالى التى أرسل عليهم الريح فيها ، كقوله تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية) وقوله تعالى : (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) : وقوله تعالى : (إنا أرسلنا عليهم صرصراً فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وقوله تعالى : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها) الآية .

وهذه الريح الصرصر هى المراد بصاعقة عاد فى قوله تعالى : (فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد) الآية .

وقرأ هذا الحرف نافع ، وابن كثير ، وأبو عمر ، نَحْسات ، بسكون الحاء ، وعليه فالنحس ، وصف أو مصدر ، نزل منزلة الوصف .

وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى ، نَحِسات بكسر الحاء ووجهه ظاهر .

وقد قدمنا أن معنى النحسات : المشئومات النكدات .

وقال صاحب الدر المنثور : وأخرج الطستى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له أخبرنى عن قوله عز وجل : (فى يوم نحس). قال : النحس ، البلاء والشدة ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت زهير بن أبى سلمى يقول :

سواء عليه أى يوم أتيته أساعة نحس تتقى أم بأسعد

وتفسير النحس بالبلاء والشدة تفسير بالمعنى ، لأن الشؤم بلاء وشدة. ومقابلة زهير النحس بالأسعد فى بيته يوضح ذلك ، وهو معلوم .

ويزعم بعض أهل العلم ، أنها من آخر شوال ، وأن أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء ، ولا دليل على شىء من ذلك .

وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر ، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر ، أو يوم الأربعاء مطلقا ، حتى إن بعض المنتسبين لطلب العلم وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر ، حتى إنهم لا يقدمون على السفر ، والتزوج ونحو ذلك فيه ، ظانين أنه يوم نحس وشئوم ، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق فى جميع الزمن ، لا أصل له ولا معول عليه ، ولا يلتفت إليه ، من عنده علم ، لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه ، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة ، بعذاب الدنيا ، فصار ذلك الشؤم مستمراً عليهم استمراراً لا انقطاع له .

أما غير عاد فليس مؤاخذاً بذنب عاد ، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها ، من ظن استمرار نحس ذلك اليوم ، لنبين أنها لا معول عليها .

قال صاحب الدر المنثور : وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبيش (في يوم نحس مستمر) « قال يوم الأربعاء » .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لي جبريل أقض بالبين مع الشاهد. وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » .

وأخرج ابن مردويه عن علي قال « نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بالبين مع الشاهد والحجامة ويوم الأربعاء يوم نحس مستمر » .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يوم نحس يوم الأربعاء » .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأيام، وسئل عن يوم الأربعاء قال : يوم نحس ، قالوا كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : أغرق فيه الله فرعون وقومه ، وأهلك عاداً وثمود » .

وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر » .

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها ، فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم .

فالحاصل أن النحس والشؤم إنما منشأه وسببه الكفر والمعاصى .

أما من كان متقيا الله مطيعاً له ، فى يوم الأربعاء المذكور فلا نحس ، ولا شؤم فيه عليه . فمن أراد أن يعرف النحس والشؤم والنكد ، والبلاء والشقاء على الحقيقة ، فليتحقق أن ذلك كله فى معصية الله وعدم امتثال أمره ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فهديناهم) المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان ، والإرشاد ، لا هدى التوفيق والاصطفاء .

والدليل على ذلك قوله تعالى بعده (فاستحبوا العمى على الهدى) ، لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروه عليه ، وتعوضوه منه .

وهذا المعنى الذى ذكرنا يوضحه قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) فقوله فى آية التوبة هذه : (إن استحبوا الكفر على الإيمان) موافق فى المعنى لقوله هنا : فاستحبوا العمى على الهدى .

ونظير ذلك فى المعنى قوله تعالى : (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) الآية .

فلفظة استحب فى القرآن كثيراً ما تتعدى بعلى ، لأنها فى معنى اختار وآثر .

وقد قدمنا فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى) الآية . أن العمى الكفر ، وأن المراد بالأعمى فى آيات عديدة الكافر.

وما تضمنته هذة الآية الكريمة ، من أن الهدى يأتى فى القرآن بمعناه العام ، الذى هو البيان ، والدلالة ، والإرشاد ، لا ينافى أن الهدى قد يطلق فى القرآن فى بعض المواضع ، على الهدى الخاص الذى هو التوفيق ، والاصطفاء ، كقوله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا : (وأما ثمود فهديناهم) أى بينا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها ، وطرق الشر ونهيناهم عن سلوكها على لسان نبينا صالح ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم .

ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى : (إنا هديناه السبيل) بدليل قوله بعده (إما شاكراً وإما كفورا) ، لأنه لو كان هدى توفيق لما قال : (وإما كفورا) .

ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى : (فبهداهم اقتده) . وقوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى) . وقوله : (من يهد الله فهو المهتد) .

وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآنى : وهو أنه تعالى : أثبت الهدى لنبينا صلى الله عليه وسلم فى آية ، وهى قوله تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ونفاه عنه فى آية أخرى وهى قوله تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت) .

فيعلم مما ذكرنا : أن الهدى المثبت له صلى الله عليه وسلم ، هو الهدى العام

الذى هو البيان ، والدلالة والإرشاد ، وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم فبين لحجة البيضاء ، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها هالك .

والهدى المنفى عنه فى آية : (إنك لا تهدى من أحببت) هو الهدى الخاص الذى هو التفضل بالتوفيق ، لأن ذلك بيد الله وحده ، وليس بيده صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) الآية . وقوله تعالى : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وكذلك قوله تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس) الآية ، لا منافاة فيه بين عموم الناس فى هذه الآية . وخصوص المتقين فى قوله تعالى : (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) ، لأن الهدى العام للناس هو الهدى العام ، والهدى الخاص بالمتقين ، هو الهدى الخاص كما لا يخفى .

وقد بينا هذا فى غير هذا الموضع . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ الآية .

الفاء فى قوله : فأخذتهم سببية ، أى فاستحبوا العمى على الهدى ، وبسبب ذلك ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون

واعلم أن الله جل وعلا عبر عن الهلاك الذى أهلك به ثمود ، بعبارات مختلفة ، فذكره هنا باسم الصاعقة فى قوله: (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) وقوله : (فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

وعبر عنه أيضاً بالصاعقة فى سورة الذاريات فى قوله تعالى : (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) وعبر عنه بالصيحة فى آيات من كتابه ، كقوله تعالى فى سورة هود ،

فى إهلاكه ثمود : (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودًا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) وقوله تعالى فى الحجر : (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين). وقوله تعالى فى القمر : (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) . وقوله تعالى فى العنكبوت (ومنهم من أخذته الصيحة) يعنى به ثمودًا المذكورين فى قوله قبله : (وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) الآية .

وعبر عنه بالرجفة ، فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة) الآية .

وعبر عنه بالتدمير فى سورة النمل ، فى قوله تعالى : (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) .

وعبر عنه بالطاغية فى الحاقة فى قوله تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية).

وعبر عنه بالدمدمة فى الشمس فى قوله تعالى : (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) .

وعبر عنه بالعذاب ، فى سورة الشعراء ، فى قوله تعالى : (فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية) الآية .

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شىء واحد ، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم ، والصيحة الصوت المزعج المهلك .

والصاعقة تطلق أيضاً على الصوت المزعج المهلك ، وعلى النار المحرقة ، وعليهما معاً ، ولشدة عظم الصيحة وهو لها من فوقهم ، رجفت بهم الأرض من

تحتهم ، أى تحركت حركة قوية ، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة ، وكون ذلك تدميرا واضح . وقيل لها طاغية ، لأنها واقعة مجاوزة للحد فى القوة وشدة الإهلاك .

والطغيان فى لغة العرب : مجاوزة الحد .

ومنه قوله تعالى : (إنا لما طغا الماء) الآية . أى جاوز الحدود التى يبلغها الماء عادة .

واعلم أن التحقيق ، أن المراد بالطاغية فى قوله تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) أنها الصيحة التى أهلكهم الله بها ، كما يوضحه قوله بعده : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) .

خلافاً لمن زعم أن الطاغية ، مصدر كالعاقبة ، والعافية ، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم ، أى بكفرهم وتكذيبهم نبيهم ، كقوله : (كذبت ثمود بطغواها) .

وخلافا لمن زعم أن الطاغية هى أشقاهم ، الذى انبعث فعقر الناقة ، وأنهم أهلكوا بسبب فعله وهو عقره الناقة ، وكل هذا خلاف التحقيق .

والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا . والسياق يدل عليه واختاره غير واحد.

وأما قوله تعالى : (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) فإنه لا يخالف ماذكرنا ، لأن معنى دمدم عليهم ربهم بذنبهم ، أى أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه ، بسبب ذنبهم .

قال الزمخشرى فى معنى دمدم : وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة ، إذا ألبسها الشحم .

وأما إطلاق العذاب عليه فى سورة الشعراء فواضح ، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شىء واحد .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (صاعقة العذاب الهون) من النعت بالمصدر ، لأن الهون مصدر بمعنى الهوان ، والنعت بالمصدر أسلوب عربى معروف ، أشار إليه فى الخلاصة بقوله :

ونعتوا بمصـــدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وهو موجه بأحد أمرين :

أحدهما : أن يكون على حذف مضاف . أى العذاب ذى الهون .

والثانى : أنه على سبيل المبالغة ، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه ، صار كأنه نفس الهوان ، كما هو معروف فى محله .

وقوله تعالى : (بما كانوا يكسبون) كالتوكيد فى المعنى لقوله (فاستحبوا العمى على الهدى) لأن كلا منهما سبب لأخذ الصاعقة إياهم ، فالفاء فى قوله : فأخذتهم سببية ، والباء فى قوله بما كانوا سببية ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه أهلك ثمود بالصاعقة ، ونجى من ذلك الإهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله ، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء مبينا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى سورة هود (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة) الآية ، وقوله تعالى فى النمل : (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون) إلى قوله تعالى فى ثمود (فتلك بيوتهم

خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى وهم صالح ومن آمن معه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع (يحشر) بضم الياء وفتح الشين مبنيا للمفعول (أعداء الله) بالرفع على أنه نائب الفاعل .

وقرأه نافع وحمزة ، من السبعة (نحشر أعداء الله) بالنون المفتوحة الدالة على العظمة ، وضم الشين مبنيا للفاعل ، (أعداء الله) بالنصب على أنه مفعول به ، أى واذكر (يوم يحشر أعداء الله) أى يجمعون إلى النار .

ومادلت عليه هذه الآية ، من أن لله أعداء ، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار . جاء مذكوراً فى آيات أخر .

فبين فى بعضها أن له أعداء وأن أعداءه هم أعداء المؤمنين وأن جزاءهم النار كقوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) وقوله تعالى : (ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم) الآية . وقوله تعالى : (فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له) وقوله تعالى (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فهم يوزعون) أى يرد أولهم إلى آخرهم ، ويلحق آخرهم بأولهم ، حتى يجتمعوا جميعاً ، ثم يدفعون فى النار ، وهو من قول العرب : وزعت الجيش ، إذا حبست أوله على آخره حتى يجتمع . وأصل الوزع الكف ، تقول العرب وزعه ، يزعه وزعا ، فهو وازع له ،

إذا كفه عن الأمر ، ومنه قول نابغة ذبيان :

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما أصح والشيب وازع

وقول الآخر :

ولن يزع النفس اللجوج عن الهوى من الناس إلا وافر العقل كامله

وبما ذكرنا تعلم أن أصل معنى يوزعون . أى يكف أولهم عن التقدم وآخرهم عن التأخر حتى يجتمعوا جميعاً .

وذلك يدل على أنهم يساقون سوقاً عنيفاً ، يجمع به أولهم مع آخرهم .

وقد بين تعالى أنهم يساقون إلى النار فى حال كونهم عطاشاً فى قوله تعالى : (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) ، ولعل الوزع المذكور فى الآية يكون فى الزمرة الواحدة من زمر أهل النار ، لأنهم يساقون إلى النار زمرا زمرا كما قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزمر فى الكلام على قوله تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى : (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم) الآية ، وفى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يكتمون الله حديثا) .

وبينا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى : (ولا يكتمون الله حديثا) مع قوله (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة ص فى الكلام على قوله تعالى : (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

قوله تعالى : ﴿ وإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ .

قد بينا معناه مع شواهده العربية فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون)

قوله تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

لعلماء التفسير فى تفسير قوله : (قيضنا) عبارات يرجع بعضها ، فى المعنى إلى بعض .

كقول بعضهم : (قيضنا لهم قرناء) أى جئناهم بهم : وأتحناهم لهم .

وكقول بعضهم : (قيضنا) أى هيأنا .

وقول بعضهم : (قيضنا) أى سلطنا .

وقول بعضهم : أى بعثنا ووكلنا .

وقول بعضهم : (قيضنا) أى سببنا

وقول بعضهم : قدرنا ونحو ذلك من العبارات ، فإن جميع تلك العبارات راجع إلى شىء واحد ، وهو أن الله تبارك وتعالى هيأ للكافرين قرناء من الشياطين يضلونهم عن الهدى ويزينون لهم الكفر والمعاصى وقدرهم عليهم .

والقرناء : جمع قرين وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق .

وقوله (فزينوا لهم ما بين أيديهم) أى من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة : (وما خلفهم) أى من أمر الآخرة ، فدعوهم إلى التكذيب به ، وإنكار البعث .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين ، يضلونهم عن الهدى ، بينه فى مواضع أخر من كتابه .

وزاد فى بعضها سبب تقييضهم لهم ، وأنهم مع إضلالهم لهم ، يظنون أنهم مهتدون ، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من الشياطين بعد عظيم ، وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) .

فترتيبه قوله : نقيّض له شيطانا ، على قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن ، ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضه له ، هو غفلته عن ذكر الرحمن .

ونظير ذلك قوله تعالى : (من شر الوسواس الخناس) لأن الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس ، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس ، من قولهم : خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر .

فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن ، خناس عند ذكر الرحمن ، كما دلت عليه آية الزخرف المذكورة ، ودل عليه قوله تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) لأن الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ، غافلون عن ذكر الرحمن ، وبسبب ذلك قيضه الله لهم فأضلهم .

ومن الآيات الدالة على تقييض الشياطين للكفار ليضلوهم ، قوله تعالى

(إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) ، وقد أوضحنا الآيات الدالة على ذلك فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) الآية . وبينا هناك أقوال أهل العلم فى معنى « تؤزهم أزاً » .

وبينا أيضا هناك أن من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:(ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) أى استكثرتم من إضلال الإنس فى دار الدنيا ، وقوله : (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) .

ومنها أيضاً قوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) إلى قوله : (ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد دل قوله فى آية الزخرف : (فبئس القرين) على أن قرناء الشياطين المذكورين فى آية فصلت ، وآية الزخرف وغيرهما ، جديرين بالذم الشديد ، وقد صرح تعالى بذلك فى سورة النساء فى قوله : (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) لأن قوله : (فساء قرينا) بمعنى (فبئس القرين) ، لأن كلا من ساء وبئس فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره فى الخلاصة بقوله :

واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذى ثلاثة كنعم مسجلا

واعلم أن الله تعالى بين أن الكفار الذين أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى ، فهم يحسبون أشد الضلال ، أحسن الهدى ، كما قال تعالى عنهم : (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقال تعالى : (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون).

وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد هم أخسر الناس أعمالا فى قوله تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذى ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

وقوله تعالى فى آية الزخرف : (ومن يعش عن ذكر الرحمن) من قولهم عشا بالفتح عن الشىء ، يعشو بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه ، لأن الكافر أعمى القلب .

فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن ، وبسبب ذلك يقيض الله له قرناء الشياطين .

قوله تعالى : ﴿ وحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ ﴾ الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَـٰئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

ما تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله فى الآخرة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ذكره الله تعالى فى الجملة ، فى قوله فى الأحقاف (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين

فيها جزاء بما كانوا يعملون) لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق ، بالخلود فى الجنة المذكور فى آية الأحقاف هذه ، يستلزم جميع ما ذكر فى هذه الآية الكريمة ، من سورة فصلت .

قوله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قد أوضحناه مع الآيات التى بمعناه فى آخر سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف) إلى قوله (إنه سميع عليم) .

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴾ الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة النمل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾

قوله تعالى (فإن استكبروا) أى فإن تكبر الكفار عن توحيد الله ، والسجود له وحده ، وإخلاص العبادة له ، فالذين عند ربك وهم الملائكة ، يسبحون له بالليل ، أى يعبدونه وينزهونه دائماً ليلا ونهارا وهم لا يسأمون ،

أى لا يملون من عبادة ربهم ، لا ستلذاذهم لها وحلاوتها عندهم ، مع خوفهم منه جل وعلا كما قال تعالى : (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) .

وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين .

أحدهما : أن الله جل وعلا إن كفر به بعض خلقه ، فإن بعضاً آخر من خلقه يؤمنون به ، ويطيعونه كما ينبغى ، ويلازمون طاعته دائما بالليل والنهار .

والثانى منهما : أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائما لا يفترون عن ذلك .

وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة ، قد جاء كل منهما موضحا فى غير هذا الموضع .

أما الأول منهما : فقد ذكره جل وعلا فى قوله : (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) .

وأما الثانى منهما : فقد أوضحه تعالى فى آيات من كتابه كقوله تعالى فى الأنبياء : (وله من فى السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقوله تعالى فى آخر الأعراف (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عند عبادته ويسبحونه وله يسجدون) إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وهم لا يسأمون) أى لا يملون .

والسآمة الملل ومنه قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا ، لا أبالك ، يسأم

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة قد أوضحنا الكلام عليها ، مع ما فى معناها من الآيات ، وبينا أن تلك الآيات فيها البرهان القاطع على البعث بعد الموت ، وذكرنا معها الآيات التى يكثر الاستدلال بها فى القرآن ، على البعث بعد الموت ، وهى أربعة براهين قرآنية .

ذكرنا ذلك فى سورة البقرة وفى سورة النحل وغيرهما وأحلنا عليه مراراً.

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه ، مع ما يماثله من الآيات ، فى سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى (قل أذلك خير أم جنة الخلد) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سوره البقرة ، فى الكلام على قوله تعالى : (هدى للمتقين) ، وفى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على قوله تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وفى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) .

قوله تعالى : ﴿ مَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

ماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد ،

ذكره فى مواضع أخر ، كقوله تعالى فى سورة آل عمران (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد الذين قالوا إن الله عهد إلينا) الآية . وقوله فى الأنفال (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد كدأب آل فرعون) الآية . وقوله فى الحج : (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ومن الناس من يعبد الله) الآية . وقوله فى سورة ق : (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) .

وفى هذه الآيات سؤال معروف ، وهو أن لفظة ظلام فيها صيغة مبالغة .

ومعلوم أن نفى المبالغة ، لا يستلزم نفى الفعل من أصله .

فقولك مثلا : زيد ليس بقتال للرجال لا ينفى إلا مبالغته فى قتلهم ، فلا ينافى أنه ربما قتل بعض الرجال .

ومعلوم أن المراد بنفى المبالغة ، فى الآيات المذكورة هو نفى الظلم من أصله .

والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه :

الأول : أن نفى صيغة المبالغة فى الآيات المذكورة ، قد بينت آيات كثيرة ، أن المراد به نفى الظلم من أصله .

ونفى صيغة المبالغة ، إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفى أصل الفعل ، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة ، كقوله تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة إن تك حسنة يضاعفها) الآية وقوله تعالى : (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) . وقوله تعالى (ولا يظلم ربك أحداً) وقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) الآية . إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه فى سورة الكهف والأنبياء .

الوجه الثانى : أن الله جل وعلا نفى ظلمه للعبيد . والعبيد فى غاية الكثرة .

والظلم المنفى عنهم تستلزم كثرتهم كثرته ، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفى التابعة لكثرة العبيد ، المنفى عنهم الظلم ، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلا ، كان مجموع ذلك الظلم فى غاية الكثرة ، كما ترى .

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة ، وأن المراد بذلك نفى أصل الظلم ، عن كل عبد من أولئك العبيد ، الذين هم فى غاية الكثرة ، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحداً شيئاً ، كما بينته الآيات القرآنية المذكورة .

وفى الحديث : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » الحديث .

الوجه الثالث : أن المسوغ لصيغة المبالغة ، أن عذابه تعالى بالغ من العظم والشدة ، أنه لولا استحقاق المعذبين لذلك العذاب بكفرهم ، ومعاصيهم لكان معذبهم به ظلاما بليغ الظلم متفاقمه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وهذا الوجه والذى قبله أشار لهما الزمخشرى فى سورة الأنفال .

الوجه الرابع : ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين ، من أن المراد بالنفى فى قوله (وما ربك بظلام للعبيد) نفى نسبة الظلم إليه ، لأن صيغة فعال تستعمل مراداً بها النسبة فتغنى عن ياء النسب كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

ومع فاعل وفعّـــال فعِلْ فى نَسَب أغنى عَنِ اليَا فقبِلْ

ومعنى البيت المذكور ، أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التى هى فاعل كظالم وفعّال كظلام ، وفعِل كفرح ، كل منها قد تستعمل مراداً بها النسبة ، فيستغنى بها عن ياء النسب ، ومثاله فى فاعل قول الحطيئة فى هجوه الزبرقان ابن بدر التميمى :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فالمراد بقوله الطاعم الكاسى النسبة ، أى ذو طعام وكسوة ، وقول الآخر وهو من شواهد سيبويه :

وغررتنى وزعمت أنك لابن فى الصيف تامر

أى ذو لبن وذو تمر ، وقول نابغة ذبيان :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكبي

فقوله : ناصب أى ذو نصب ، ومثاله فى فعال قول امرىء القيس :

وليس بذى رمح فيطعننى به وليس بذى سيف وليس بنبال

فقوله : وليس بنبال أى ليس بذى نبل ، ويدل عليه قوله قبله :

وليس بذى رمح وليس بذى سيف .

وقال الأشمونى بعد الاستشهاد بالبيت المذكور : قال المصنف يعنى ابن مالك : وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) . أى بذى ظلم اهـ .

وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين ، ومثاله فى فعل قول الراجز وهو من شواهد سيبويه :

لست بليلى ولكنى نهر لا أدلج الليل ولكن أبتكر

فقوله نهر بمعنى نهارى ، وقد قدمنا إيضاح معنى الظلم بشواهده العربية ، فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ .

تقدم الكلام على نحوه فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى :

(قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) وفى الأنعام عند قوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

الظن هنا بمعنى اليقين ، لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، وشاهدوا الحقائق ، علموا فى ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص ، أى ليس لهم مفر ولا ملجأ .

والظاهر أن المحيص مصدر ميمى ، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب .

وما ذكرنا من أن الظن فى هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم ، هو التحقيق إن شاء الله ، لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق ، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم فى ذلك شك ، كما قال تعالى عنهم ، إنهم يقولون يوم القيامة (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) . وقال تعالى : (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) . وقال تعالى : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) . وقال تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا) وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (بل ادارك علمهم فى الآخرة) الآية .

ومعلوم أن الظن يطلق فى لغة العرب ، التى نزل بها القرآن على معنيين : أحدهما : الشك كقوله (وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) ، وقوله تعالى عن الكفار : (إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) .

والثانى : هو إطلاق الظن مراداً به العلم واليقين ، ومنه قوله تعالى هنا : (وظنوا ما لهم من محيص) أى أيقنوا ، أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص ، أى لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم ، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) أى أيقنوا ذلك وعلموه ، وقوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) وقوله تعالى : (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة . بإذن الله) ، وقوله تعالى : (وأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هؤم اقرأوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) ، فالظن فى الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين .

ونظير ذلك من كلام العرب قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارسى المسرد

وقول عميرة بن طارق :

بأن تفتروا قومى وأقعد فيكم وأجعل منى الظن غيباً مرجما

والظن فى البيتين المذكورين بمعنى اليقين ، والفعل القلبى فى الآية المذكورة التى هى قوله : (وظنوا ما لهم من محيص) معلق عن العمل فى المفعولين بسبب النفى بلفظة ما فى قوله : (ما لهم من محيص) كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

* والتزم التعليق قبل نفى « ما » *

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ ،

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وبعض الأحاديث الصحيحة ، الموافقة لها فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه).

قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ .

المرية : الشك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شك الكفار فى البعث والجزاء ، قد قدمنا الآيات الموضحة له ، ولما يترتب عليه من الخلود فى النار ، فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّورَىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿حم . عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ .

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة هود .

وقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية (كذلك يوحى إليك) أى مثل ذلك الوحى ، أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل من قبلك الله .

يعنى أن ما تضمنته هذه السورة من المعانى ، قد أوحى الله إليك مثله ، فى غيرها من السور ، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، على معنى أن الله تعالى كرر هذه المعانى ، فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ ، واللطف العظيم ، لعباده من الأولين والآخرين . اهـ منه .

وظاهر كلامه ، أن التشبيه فى قوله : كذلك يوحى بالنسبة إلى الموحى باسم المفعول .

والأظهر أن التشبيه فى المعنى المصدرى الذى هو الإيحاء .

وقوله فى هذه الآية الكريمة (وإلى الذين من قبلك) لم يصرح هنا بشىء من أسماء الذين من قبله الذين أوحى إليهم ، كما أوحى إليه ، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم فى سورة النساء ، وبين فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه ، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق ، فى دار الدنيا وذلك فى قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا

إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) .

وقوله تعالى : (الله العزيز الحكيم) ذكر جل وعلا فيه الثناء على نفسه، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه ، كما قال فى آية النساء المذكورة (وكان الله عزيزاً حكيما) بعد ذكره إيحاءه إلى رسله .

وقد قدمنا فى أول سورة الزمر أن استقراء القرآن . قد دل على أن الله جل وعلا إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وذكرنا كثيراً من أمثلة ذلك .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير (يوحى) بكسر الحاء بالبناء للفاعل ، وعلى قراءة الجمهور هـــذه فقوله : الله العزيز الحكيم فاعل يوحى .

وقرأه ابن كثير (يُوحَى إليك) بفتح الحاء بالبناء للمفعول ، وعلى هذه القراءة ، فقوله : الله العزيز الحكيم ، فاعل فعل محذوف تقديره يوحى كما قدمنا إيضاحه فى سورة النور فى الكلام على قولهٔ تعالى : (يسبح له فيها بالغدو ، والآصال رجال) الآية .

وقد قدمنا معانى الوحى مع الشواهد العربية فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .

وصف نفسه جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، بالعلو والعظمة ، وهما من

الصفات الجامعة كما قدمناه فى سورة الأعراف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال ، جاء مثله فى آيات أخر كقوله تعالى : (ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم) وقوله تعالى : (إن الله كان عليا كبيرا) . وقوله تعالى (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) وقوله تعالى (وله الكبرياء فى السماوات والأرض) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع والكسائى (تكاد) بالتاء الفوقية، لأن السماوات مؤنثة وقرأه نافع والكسائى (يكاد) بالياء التحتية لأن تأنيث السماوات غير حقيقى .

وقرأه عامة السبعة غير أبى عمرو ، وشعبة عن عاصم (يَتَفَطَّرْنَ) بتاء مثناة فوقية مفتوحة بعد الياء وفتح الطاء المشددة مضارع . تفطر أى تشقق

وقرأه أبو عمرو وشعبة عن عاصم (ينفطرن) بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء ، المخففة مضارع انفطرت كقوله : (إذا السماء انفطرت) أى انشقت .

وقوله : تكاد مضارع كاد ، التى هى فعل مقاربة ، ومعلوم أنها تعمل فى المبتدأ والخبر ومعنى كونها فعل مقاربة ، أنها تدل على قرب اتصاف المبتدأ بالخبر .

وإذا ، فمعنى الآية أن السماوات قاربت أن تتصف بالتفطر على القراءة الأولى ، والانفطار على القراءة الثانية .

واعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفطر ، فى هذه الآية الكريمة ، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن .

الوجه الأول : أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفاً من الله ، وهيبة وإجلالاً ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله (وهو العلى العظيم) لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال ، حتى كادت تتفطر .

وعلى هذا الوجه فقوله بعده : (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) مناسبته لما قبله واضحة .

لأن المعنى : أن السماوات فى غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له ، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم أى ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، مع إثباتهم له كل كمال وجلال ، خوفاً منه وهيبة وإجلالا ، كما قال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وقال تعالى (ولله يسجد مافى السماوت ومافى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) .

فهم لشدة خوفهم من الله ، وإجلالهم له يسبحون بحمد ربهم ، ويخافون على أهل الأرض ، ولذا يستغفرون لهم خوفا عليهم من سخط الله ، وعقابه ، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض) إلى قوله : (وأشفقن منها) ، لأن الإشفاق الخوف .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ويستغفرون لمن فى الأرض) يعنى

لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى الله واتبعوا سبيله ، كما أوضحه تعالى بقوله : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) .

فقوله : (للذين آمنوا) يوضح المراد من قوله : (لمن فى الأرض)

ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم إنهم يقولون فى استغفارهم للمؤمنين (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار .

الوجه الثانى : أن المعنى (تكاد السماوات يتفطرن) من شدة عظم الفرية التى افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا ، من كونه اتخذ ولدا ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وهذا الوجه جاء موضحاً فى سورة مريم ، فى قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إدًّا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) كما قدمنا إيضاحه .

وغاية ما فى هـذا الوجه أن آية الشورى هذه فيها إجمال فى سبب تفطر السماوات ، وقد جاء ذلك موضحاً فى آية مريم المذكورة . وكلا الوجهين حق .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (يتفطرن من فوقهن) فيه للعلماء أوجه .

قيل : يتفطرن ، أى السماوات من فوقهن أى الأرضين ، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى .

وقال بعضهم : من فوقهن أى كل سماء تتفطر فوق التى تليها .

وقال الزمخشرى فى الكشاف : فإن قلت لم قال : (من فوقهن) قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات ، وهى العرش والكرسى ، وصفوف الملائكة ، المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال : (يتفطرن من فوقهن) أى يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية .

أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذى تحت السموات ، فكان القياس أن يقال : يتفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة .

ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى وجهة الفوق . كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن ، دع الجهة التى تحتهن

ونظيره فى المبالغة قوله عز وجل (يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم) فجعل الحميم مؤثراً فى أجزائهم الباطنة ا هـ . محل الغرض منه .

وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفطر المذكور هو افتراؤهم على الله فى قولهم (اتخذ الرحمن ولداً) .

وقد قدمنا آنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة وعليه فمناسبة قوله : (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنعه ، فإن الملائكة بخلافهم فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته .

ويوضح ذلك قوله تعالى : (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) وقوله تعالى : (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) ، كما قدمنا إيضاحه فى آخر سورة فصلت.

قوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّ اللهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم ﴾ .

أكد جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه هو الغفور الرحيم ، وبين فيها أنه هو وحده المختص بذلك .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، قد جاءا موضحين فى غير هذا الموضع .

أما اختصاصه هو جل وعلا بغفران الذنوب ، فقد ذكره فى قوله تعالى : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) ، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله ، وفى الحديث « رب إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت » الحديث . وفى حديث سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى » الحديث . وفيه « وأبوء بذنبى فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ووجه دلالة هذه الآية على أن الله وحده هو الذى يغفر الذنوب ، هوأن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه فى قوله : (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) يدل على ذلك كما هو معلوم فى محله ، وأما الأمر الثانى ، هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذى هو ألا ، وحرف التوكيد الذى هو إن .

وقد أوضح ذلك فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) . وقوله تعالى : (وإنى لغفار لمن تاب وآمن) الآية . وقوله تعالى : (إن ربك واسع المغفرة) وقوله فى الكفار : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف) . وقوله فى الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

فنرجو الله جلا وعلا الكريم الرءوف الغفور الرحيم ، أن يغفر لناجميع ذنوبنا ويتجاوز عن جميع سيئاتنا ويدخلنا جنته على ما كان منا ، ويغفر لإخواننا المسلمين . إنه غفور رحيم .

قوله تعالى : ﴿ والَّذين اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أولياءَ اللهُ حَفِظٌ عليهم وما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيل ﴾.

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ، (اتخذوا من دونه أولياء) أى أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه ، كما أوضح تعالى ذلك فى قوله : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار) وقوله تعالى : (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقولة تعالى : (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) وقوله تعالى : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) أى يخوفكم أولياءه . وقوله تعالى : (فقاتلوا أولياء الشيطان) الآية .

وقد ونحهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى فى قوله : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا).

وقد أمر جل وعلا باتباع هذا القرآن العظيم ، ناهيا عن اتباع الأولياء المتخذين من دونه تعالى ، فى أول سورة الأعراف فى قوله تعالى (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون).

وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان :

الأول منهما : الشياطين ، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم ، من الكفر والمعاصى ، فشركهم به شرك طاعة ، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى المذكور كثيرة كقوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى

آدم ألا تعبدوا الشيطان) الآية . وقوله تعالى عن إبراهيم (يا أبت لا تعبد الشيطان) الآية . وقوله تعالى : (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) أى وما يعبدون إلا شيطانا مريدا . وقوله تعالى (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون) وقوله تعالى (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) إلى غير ذلك من الآيات .

والنوع الثانى : هو الأوثان ، كما بين ذلك تعالى بقوله : (وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (الله حفيظ عليهم) .

أى رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصى ، وفى أوله اتخاذهم الأولياء ، يعبدونهم من دون الله .

وفى الآية تهديد عظيم لكل مشرك

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وما أنت عليهم بوكيل) .

أى لست يا محمد ، بموكل عليهم تهدى من شئت هدايته منهم ، بل إنما أنت نذير فحسب ، وقد بلغت ونصحت .

والوكيل عليهم هو الله الذى يهدى من يشاء منهم ويضل من يشاء كما قال تعالى : (إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) . وقال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) وقال تعالى: (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت

أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)، والآيات بمثل ذلك كثيرة . .

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق فى قوله تعالى : (وماأنت عليهم بوكيل) . وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخاً بآية السيف والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾

وقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى (لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين)، وفى المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : (قرآناً عربياً غير ذى عوج) وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

خص الله تبارك و تعالى فى هذه الآية الكريمة إنذاره ، ﷺ بأم القرى ومن حولها ، والمراد بأم القرى مكة حرسها الله .

ولكنه أوضح فى آيات أخر أن إنذاره عام لجميع الثقلين كقوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) وقوله تعالى : (تبارك الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) الآية ، كما أوضحنا ذلك مراراً فى هذا الكتاب المبارك .

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفى سورة الأنعام فى قوله تعالى : (لتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) الآية ، فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، فقلنا فيه : والجواب من وجهين

الأول : أن المراد بقوله : (ومن حولها) شامل لجميع الأرض ، كما رواه ابن جرير وغيره ، عن ابن عباس .

الوجه الثانى : أنا لو سلمنا تسليما جدليا ، أن قوله (ومن حولها) لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة حرسها الله ، كجزيرة العرب مثلا ، فإن الآيات الأخر ، نصت على العموم كقوله (ليكون للعالمين نذيراً) وذكر بعض أفراد العام بحكم العام ، لا يخصصه عند عامة العلماء ، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور .

وقد قدمنا ذلك واضحاً بأدلته فى سورة المائدة ، فالآية على هذا القول كقوله (وأنذر عشيرتك الأقربين) فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم ، كما هو واضح . والعلم عند الله تعالى اهـ منه .

قوله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين :

أحدهما : أن من حكم إلهه تعالى ، إلى نبينا ﷺ هذا القرآن العربى ، إنذار يوم الجمع ، فقوله تعالى : (وتنذر يوم الجمع) معطوف على قوله : (لتنذر أم القرى) أى لأجل أن تنذر أم القرى وأن تنذر يوم الجمع فحذف فى الأول ، أحد المفعولين وحذف فى الثانى أحدهما ، فكان ما أثبت فى كل منهما ، دليلا على ما حذف فى الثانى ، ففى الأول حذف المفعول الثانى ، والتقدير «لتنذر أم القرى » أى أهل مكة ومن حولها ، عذاباً شديداً إن لم يؤمنوا ، وفى الثانى حذف المفعول الأول ، أى وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة أى تخوفهم مما فيه من الأهوال ، والأوجال ليستعدوا لذلك فى دار الدنيا .

والثانى : أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه ، أى لا شك فى وقوعه ،

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، جاءا موضحين في آيات أخر .

أما تخويفه الناس يوم القيامة ، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى : (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية . وقوله تعالى (وأنذرهم يوم الآزفة) الآية . وقوله تعالى : (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به) : وقوله تعالى : (ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وأما الثاني منهما : وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه). وقوله (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) وقوله تعالى : (وإن الساعة آتية لا ريب فيها) الآية . وقوله تعالى (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع ، لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق . والآيات الموضحة لهذا المعنى ، كثيرة كقوله تعالى (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) وقوله تعالى : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين). وقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة) الآية . وقوله تعالى : (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) وقوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) وقوله تعالى (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقوله تعالى : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) .

وقد بين تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطير في قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في

فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) ، والآيات الدالة على الجمع المذكورة كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق ، وجعل منهم فريقا سعداء ، وهم أهل الجنة ، وفريقا أشقياء وهم أصحاب السعير ، جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وقوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) أى ولذلك الاختلاف ، إلى مؤمن وكافر وشقى وسعيد ، خلقهم على الصحيح ، ونصوص الوحى الدالة على ذلك كثيرة جداً .

وقد ذكرنا فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وجه الجمع بين قوله : (ولذلك خلقهم) على التفسير المذكور ، وبين قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، وسنذكر ذلك إن شاء الله فى سورة الذاريات .

وقد قدمنا معنى السعير بشواهده العربية فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (ويهديه إلى عذاب السعير) ، والجنة فى لغة العرب البستان .

ومنه قول زهير بن أبى سلمى :

كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

فقوله : جنة سحقا ، يعنى بستانا طويل النخل ، وفى اصطلاح الشرع هى دار الكرامة التى أعد الله لأوليائه يوم القيامة .

والفريق : الطائفة من الناس ، ويجوز تعدده إلى أكثر من اثنين ، ومنه قول نصيب :

فقال فريق القوم لا ، وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما ندرى

والمسوغ للابتداء بالنكرة فى قوله : فريق فى الجنة ، أنه فى معرض التفصيل .

ونظيره من كلام العرب قول امرىء القيس :

فلما دنوت تسديتها فثوب نسيت وثوب أجر

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ﴾ .

مادلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده ، لا إلى غيره ، جاء موضحا فى آيات كثيرة .

فالإشراك بالله فى حكمه كالإشراك به فى عبادته قال فى حكمه (ولا يشرك فى حكمه أحداً) ، وفى قراءة ابن عامر من السبعة (ولا تشرك فى حكمه أحداً) بصيغة النهى .

وقال فى الإشراك به فى عبادته : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) ، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله .

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله ، والحرام هو ما حرمه الله ، والدين هو ماشرعه الله ، فكل تشريع من غيره باطل ، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه ، كفر بواح لانزاع فيه .

وقد دل القرآن فى آيات كثيرة ، على أنه لاحكم لغير الله ، وأن اتباع

تشريع غيره كفر به ، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه) ، وقوله تعالى : (إن الحكم إلا لله عليه توكلت) الآية . وقوله تعالى : (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) ، وقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، وقوله تعالى : (ولا يشرك فى حكمه أحداً) ، وقوله تعالى : (كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) ، وقوله تعالى (وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد قدمنا إيضاحها فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يشرك فى حكمه أحدا) .

وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير الله المذكور كفر فهى كثيرة جداً ، كقوله تعالى : (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ، وقوله تعالى : (وإن أطعمتموهم إنكم لمشركون) ، وقوله تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، كما تقدم إيضاحه فى الكهف .

مسألة

اعلم أن الله جل وعلا بين فى آيات كثيرة ، صفات من يستحق أن يكون الحكم له ، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة ، التى سنوضحها الآن إن شاء الله ، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية ، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع .

سبحان الله وتعالى عن ذلك .

فإن كانت تنطبق عليهم ولن تكون ، فليتبع تشريعهم .

وإن ظهر يقينا أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك ، فليقف بهم عند حدهم ، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية .

سبحانه وتعالى أن يكون له شريك فى عبادته ، أو حكمه أو ملكه .

فمن الآيات القرآنية التى أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا : (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) ، ثم قال مبينا صفات من له الحكم (ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الأنعام أزواجا ، يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، له مقاليد السماوات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم) .

فهل فى الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية ، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذى تفوض إليه الأمور ، ويتوكل عليه ، وأنه فاطر السماوات والأرض أى خالقهما ومخترعهما ، على غير مثال سابق ، وأنه هو الذى خلق للبشر أزواجا ، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة فى قوله تعالى : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين) الآية ، وأنه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) وأنه (له مقاليد السماوات والأرض) ، وأنه (هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يضيقه على من يشاء (وهو بكل شىء عليم) .

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم ، ولا تقبلوا تشريعا من كافر خسيس حقير جاهل .

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ، فقوله فيها : (فردوه إلى الله) كقوله فى هذه (فحكمه إلى الله) .

وقد عجب نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قوله : (فردوه إلى الله) من الذين

يدّعون الإيمان مع أنهم يريدون التحاكمة ، إلى من لم يتصف بصفات من له الحكم ، المعبر عنه فى الآية بالطاغوت ، وكل تحاكم إلى غير شرع الله فهو تحاكم إلى الطاغوت ، وذلك فى قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) .

فالكفر بالطاغوت ، الذى صرح الله بأنه أمرهم به فى هذه الآية ، شرط فى الإيمان كما بينه تعالى فى قوله : (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) .

فيفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى ، ومن لم يستمسك بها فهو متردد مع الهالكين .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا) .

فهل فى الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السماوات والأرض ؟ وأن يبالغ فى سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات ؟

وأنه ليس لأحد دونه من ولى ؟

سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ؟

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) .

فهل فى الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد ؟ وأن كل شىء هالك إلا وجهه ؟ وأن الخلائق يرجعون إليه ؟

تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أخس خلقه بصفاته .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) .

فهل فى الكفرة الفجرة المشرعين النظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف فى أعظم كتاب سماوى ، بأنه العلى الكبير ؟

سبحانك ربنا وتعاليت عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

فهل فى مشرعى القوانين الوضعية ، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد فى الأولى والآخرة ، وأنه هو الذى يصرف الليل والنهار مبيناً بذلك كمال قدرته ، وعظمة إنعامه على خلقه .

سبحان خالق السماوات والأرض ، جل وعلا أن يكون له شريك فى حكمه أو عبادته ، أو ملكه .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

فهل فى أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده ، وأن عبادته وحده هى الدين القيم ؟

سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ومنها قوله تعالى : (إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) .

فهل فيهم من يستحق أن يتوكل عليه ، وتفوض الأمور إليه ؟

ومنها قوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

فهل فى أولئك المشرعين من يستحق أن يوصف بأن حكمه بما أنزل الله وأنه مخالف لاتباع الهوى ؟ وأن من تولى عنه أصابه الله ببعض ذنوبه ؟ لأن الذنوب لا يؤاخذ بجميعها إلا فى الآخرة ؟ وأنه لا حكم أحسن من حكمه لقوم يوقنون ؟

سبحان ربنا وتعالى عن كل مالا يليق بكماله وجلاله .

ومنها قوله تعالى : (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) .

فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق ، وأنه خير الفاصلين ؟

ومنها قوله تعالى : (أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) الآية .

فهل فى أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذى أنزل هذا الكتاب مفصلا ، الذى يشهد أهل الكتاب أنه منزل من ربك بالحق ،

وبأنه تمت كلماته صدقا وعدلا أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام ، وأنه لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ؟

سبحان ربنا ما أعظمه وما أجل شأنه .

ومنها قوله تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) .

فهل فى أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذى ينزل الرزق للخلائق ، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا بإذنه ؟ لأن من الضرورى أن من خلق الرزق وأنزله هو الذى له التصرف فيه بالتحليل والتحريم ؟

سبحانه جل وعلا أن يكون له شريك فى التحليل والتحريم .

ومنها قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون).

فهل فيهم من يستحق الوصف بذلك ؟

سبحان ربنا وتعالى عن ذلك .

ومنها قوله تعالى . (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) .

فقد أوضحت الآية أن المشرعين غير ماشرعه الله إنما تصف ألسنتهم الكذب ، لأجل أن يفتروه على الله ، وأنهم لا يفلحون وأنهم يتمتعون قليلا ثم يعذبون العذاب الأليم ، وذلك واضح فى بعد صفاتهم من صفات من له أن يحلل ويحرم .

ومنها قوله تعالى : (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم

هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم) الآية .

فقوله : (هلم شهداءكم) صيغة تعجيز ، فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم . وذلك واضح فى أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم. ولما كان التشريع وجميع الأحكام ، شرعية كانت أو كونية قدرية ، من خصائص الربوبية . كما دلت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع ربا ، وأشركه مع الله .

والآيات الدالة على هذا كثيرة ، وقد قدمناها مراراً وسنعيد منها ما فيه كفاية ، فمن ذلك وهو من أوضحه وأصرحه ، أنه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وقعت مناظرة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، فى حكم من أحكام التحريم والتحليل وحزب الرحمن يتبعون تشريع الرحمن ، فى وحيه فى تحريمه ، وحزب الشيطان يتبعون وحى الشيطان فى تحليله .

وقد حكم الله بينهما وأفتى فيما تنازعوا فيه فتوى سماوية قرآنية تتلى فى سورة الأنعام .

وذلك أن الشيطان لما أوحى إلى أوليائه فقال لهم فى وحيه : سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذى قتلها ؟ فأجابوهم أن الله هو الذى قتلها .

فقالوا : الميتة إذا ذبيحة الله ، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حـــلال ، فأنتم إذا أحسن من الله وأحل ذبيحة .

فأنزل الله بإجماع من يعتد به من أهل العلم قوله تعالى: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) يعنى الميتة أى وإن زعم الكفار أن الله ذكاها بيده الكريمة بسكين من ذهب : (وإنه لفسق) والضمير عائد إلى الأكل المفهوم

من قوله : (ولا تأكلوا) وقوله : (لفسق) أى خروج عن طاعة الله ، واتباع لتشريع الشيطان : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) .

أى بقولهم : ماذبحتموه حلال وماذبحه الله حرام ، فأنتم إذاً أحسن من الله ، وأحل تذكية ، ثم بين الفتوى السماوية من رب العالمين ، فى الحكم بين الفريقين فى قوله تعالى : (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) فهى فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله .

وهذه الآية الكريمة مثل بها بعض علماء العربية لحذف اللام الموطئة للقسم ، والدليل على اللام الموطئة المحذوفة عدم اقتران جملة إنكم لمشركون بالفاء ، لأنه لو كان شرطاً لم يسبقه قسم لقيل : فإنكم لمشركون على حد قوله فى الخلاصة:

واقرن بفا حتما جواباً لو جعل شرطاً لإن أو غيرها لم ينجعل

وهو مذهب سيبويه ، وهو الصحيح ، وحذف الفاء فى مثل ذلك من ضرورة الشعر

وما زعمه بعضهم من أنه يجوز مطلقاً ، وأن ذلك دلت عليه آيتان من كتاب الله .

إحداهما قوله تعالى : (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) .

والثانية قوله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم) بحذف الفاء فى قراءة نافع وابن عامر من السبعة خلاف التحقيق .

بل المسوغ لحذف الفاء فى آية : (إنكم لمشركون) تقدير القسم المحذوف قبل الشرط المدلول عليه بحذف الفاء على حد قوله فى الخلاصة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وعليه : فجملة إنكم لمشركون جواب القسم المقدر، وجواب الشرط محذوف فلا دليل فى الآية لحذف الفاء المذكور .

والمسوغ له فى آية (بما كسبت أيديكم) أن ما فى قراءة نافع وابن عامر موصولة كما جزم به غير واحد من المحققين، أى والذى أصابكم من مصيبة كائن وواقع بسبب ما كسبت أيديكم .

وأما على قراءة الجمهور : فما موصولة أيضاً ، ودخول الفاء فى خبر الموصول جائز كما أن عدمه جائز فكلتا القراءتين جارية على أمر جائز .

ومثل دخول الفاء فى خبر الموصول قوله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهو كثير فى القرآن وقال بعضهم : إن ما فى قراء الجمهور شرطية، وعليه فاقتران الجزاء بالفاء واجب أما على قراءة نافع وابن عامر ، فهى موصولة ليس إلا كما هو التحقيق إن شاء الله .

وكون ما شرطية على قراءة وموصولة على قراءة لا إشكال فيه . لما قدمنا من أن القراءتين فى الآية الواحدة كالآيتين .

ومن الآيات الدالة على نحو مادلت عليه آية الأنعام المذكورة قوله تعالى: (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) ، فصرح بتوليهم للشيطان أى باتباع ما يزين لهم من الكفر والمعاصى مخالفاً لما جاءت به الرسل، ثم صرح بأن ذلك إشراك به فى قوله تعالى : (والذين هم به مشركون) وصرح أن الطاعة فى ذلك الذى يشرعه الشيطان لهم ويزينه عبادة للشيطان .

ومعلوم أن من عبد الشيطان فقد أشرك بالرحمن قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى

هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) ، ويدخل فيهم متبعو نظام الشيطان دخولا أولياء (أفلم تكونوا تعقلون) .

ثم بين المصير الأخير لمن كان يعبد الشيطان فى دار الدنيا ،فى قوله تعالى: (هذه جهنم التى كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال تعالى: عن نبيه إبراهيم (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) فقوله : لا تعبد الشيطان : أى باتباع ما يشرعه من الكفر والمعاصى ، مخالفا لما شرعه الله .

وقال تعالى : (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريداً) فقوله : (إن يدعون إلا شيطانا) يعنى مايعبدون إلا شيطانا مريداً .

وقوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إيا كم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) .

فقوله تعالى : (بل كانوا يعبدون الجن) أى يتبعون الشياطين ويطيعونهم فيما يشرعون ويزينون لهم ، من الكفر والمعاصى على أصح التفسيرين .

والشيطان عالم بأن طاعتهم له المذكورة إشراك به كما صرح بذلك وتبرأ منهم فى الآخرة ، كما نص الله عليه فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى : (وقال الشيطان لما قضىء الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) إلى قوله : (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) فقد اعترف بأنهم كانوا مشركين به من قبل أى فى دار الدنيا ، ولم يكفر بشركهم ذلك إلا يوم القيامة.

وقد أوضح النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى الذى بينا فى الحديث لما سأله عدى بن حاتم رضى الله عنه عن قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا)

كيف اتخذوهم أربابا ؟ وأجابه صلى الله عليه وسلم « أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم ، وبذلك الاتباع اتخذوهم أربابا » .

ومن أصرح الأدلة فى هذا أن الكفار إذا أحلوا شيئا ، يعلمون أن الله حرمه وحرموا شيئاً يعلمون أن الله أحله ، فإنهم يزدادون كفراً جديداً بذلك ، مع كفرهم الأول ، وذلك فى قوله تعالى : (إنما النسىء زيادة فى الكفر) إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الكافرين) .

وعلى كل حال فلاشك أن كل من أطاع غير الله ، فى تشريع مخالف لما شرعه الله ، فقد أشرك به مع الله كما يدل لذلك قوله : (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) فسماهم شركاء لما أطاعوهم فى قتل الأولاد .

وقوله تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) فقد سمى تعالى الذين يشرعون من الدين مالم يأذن به الله شركاء ، ومما يزيد ذلك إيضاحا ، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة ، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به فى دار الدنيا ، إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل ، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شىء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك فى قوله تعالى عنه : (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) الآية ، وهو واضح كما ترى .

قوله تعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾.

قوله تعالى : (فاطر السماوات والأرض) تقدم تفسيره فى أول سورة فاطر

وقوله (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً)

أى خلق لكم أزواجا من أنفسكم كما قدمنا الكلام عليه فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) وبينا أن المراد بالأزواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) الآية . وقوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) وقوله : (فخلق منه الزوجين الذكر والأنثى) وقوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى) الآية . وقوله فى آدم : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) الآية . وقوله تعالى فيه أيضا : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) الآية . وقوله تعالى فيه أيضاً : (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) الآية .

وقوله تعالى : (ومن الأنعام أزواجاً) هى الثمانية المذكورة فى قوله تعالى : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين) الآية . وفى قوله : (خلكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهى ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها ، كما قدمنا إيضاحه فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى : (والأنعام والحرث) :

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة :(يذرؤكم فيه) الظاهر أن ضمير الخطاب فى قوله «يذرؤكم» شامل للآدميين والأنعام ، وتغليب الآدميين على الأنعام فى ضمير المخاطبين فى قوله : يذرؤكم واضح لا إشكال فيه .

والتحقيق إن شاء الله أن الضمير فى قوله : « فيه » راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث، من بنى آدم والأنعام فى قوله تعالى : (جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا) سواء قلنا إن المعنى : أنه جعل للآدميين إناثا

من أنفسهم أى من جنسهم ، وجعل للأنعام أيضا إناثا كذلك ، أوقلنا إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهما معا .

وإذا كان ذلك كذلك ،فمعنى الآية الكريمة يذرؤكم أى يخلقكم ويبثكم وينشركم فيه ، أى فيما ذكر من الذكور والإناث ، أى فى ضمنه ، عن طريق التناسل كما هو معروف .

ويوضح ذلك فى قوله تعالى : (اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) فقوله تعالى : (وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) يوضح معنى قوله : (يذرؤكم فيه) .

فإن قيل : ماوجه إفراد الضمير المجرور فى قوله يذرؤكم فيه ، مع أنه على ما ذكرتم ، عائد إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام ؟ .

فالجواب : أن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، رجوع الضمير أو الإشارة بصيغة الإفراد إلى مثنى أو مجموع باعتبار ما ذكر مثلا .

ومثاله فى الضمير : (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غيرالله يأتيكم به) الآية ، فالضمير فى قوله: به مفرد مع أنه راجع إلى السمع والأبصار والقلوب .

فقوله : (يأتيكم به) أى بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم ، ومن هذا المعنى قول رؤبة بن العجاج :

فيها خطوط من سواد وبلق كأن فى الجلد توليع البهق

فقوله : كأنه أى ماذكر من خطوط من سواد وبلق .

ومثاله فى الإشارة (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) أى بين ذلك المذكور ، من فارض وبكر ، وقول عبدالله بن الزبعرى السهمى :

إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أى كلا ذلك المذكور من الخير والشر .

وقول من قال ، إن الضمير فى قوله فيه راجع إلى الرحم ، وقول من قال راجع إلى البطن ، ومن قال راجع إلى الجعل المفهوم من جعل . وقول من قال: راجع إلى التدبير ، ونحو ذلك من الأقوال خلاف الصواب .

والتحقيق إن شاء الله هو ما ذكرنا والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وهو السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

وقد قدمنا الكلام عليه فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى: (ثم استوى على العرش) .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ .

مقاليد السموات والأرض هى مفاتيحهما .

وهو جمع لا واحد له من لفظه ، فمفردها إقليد ، وجمعها مقاليد على غير قياس.

والإقليد المفتاح . وقيل : واحدها مقليد ، وهو قول غير معروف فى اللغة .

وكونه جل وعلا (له مقاليد السماوات والأرض) أى مفاتيحهما كناية عن كونه جل وعلا هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها .

وقد ذكر جل وعلا مثل هذا فى سورة الزمر فى قوله تعالى : (الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل له مقاليد السماوات والأرض) الآية .

وما دلت عليه آية شورى هذه ، وآية الزمر المذكورتان من أنه جل وعلا هو مالك خزائن السماوات والأرض ، جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى: (ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) وقوله تعالى : (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) .

وبين فى مواضع أخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره ، كقوله تعالى : (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) وقوله تعالى (أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون) وقوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا) .

وقوله فى هذه الآية الكريمة (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) جاء معناه موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) الآية . وقوله تعالى(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا) الآية . وقوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) الآية . وقوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) الآية . وقوله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) الآية . وقوله تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) الآية . وقوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق عليه رزقه لقلته . وكذلك قوله (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فى الآيات المذكورة .

أى يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر ، أى يضيق الرزق على من

يشاء تضييقه عليه كما أوضحناه فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (فظن ألن نقدر عليه) .

وقد بين جل وعلا فى بعض الآيات حكمة تضييقه للرزق على من ضيقه عليه .

وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان ، قد يحمله على البغى والطغيان كقولة تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) ، وقوله تعالى: (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الأحزاب فى الكلام على قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ .

الضمير فى قوله : فيه ، راجع إلى الدين فى قوله : أن أقيموا الدين .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهى عن الافتراق فى الدين ، جاء مبيناً فى غير هذا الموضع ، وقد بين تعالى أنه وصى خلقه بذلك ، فمن الآيات الدالة على ذلك ، قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) الآية . وقوله تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وقد بين تعالى فى بعض المواضع

أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهى ، وعددهم على ذلك كقوله تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) ، لأن قوله (لست منهم فى شىء) إلى قوله (يفعلون) فيه تهديد عظيم لهم .

وقوله تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم فى غمرتهم حتى حين) .

فقوله (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أى إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد ، وربكم واحد فلا تتفرقوا فى الدين .

وقوله جل وعلا : (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك .

وقوله تعالى : (فذرهم فى غمرتهم حتى حين) فيه تهديد لهم ووعيد عظيم على ذلك . ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون) ، فقوله تعالى : (كل إلينا راجعون) فيه أيضا تهديد لهم ووعيد على ذلك وقد أوضحنا تفسير هذه الآيات فى آخر سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) الآية .

وقد جاء فى الحديث المشهور « افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافتراق النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، وأن الناجية منها واحدة ، وهى التى كانت على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه » .

قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾

بين جل وعلا أنه كبر على المشركين أى شق عليهم وعظم ما يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم من عبادة الله تعالى وحده ، وطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه ، ولعظم ذلك ومشقته عليهم ، كانوا يكرهون ما أنزل الله ويجتهدون فى عدم سماعه لشدة كراهتهم له ، بل يكادون يبطشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراهتهم لها .

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة فى كتاب الله ، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ .

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم نوح وكبره عليهم فى مواضع من كتابه كقوله تعالى : (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت) الآية . وقوله تعالى عن نوح (وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) .

فقوله تعالى (جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم) يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه نوح ، فهو واضح فى أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به .

وقد بين الله تعالى مثل ذلك فى الكفار الذين كذبوا نبينا محمداً ﷺ فى آيات من كتابه كقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) فقوله تعالى : (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) الآية . يدل دلالة واضحة ، على شدة بغضهم وكراهيتهم لسماع تلك الآيات .

وكقوله تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية . وقوله تعالى فى الزخرف . (لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) ، وقوله تعالى فى قد أفلح المؤمنون (أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) وقوله تعالى فى القتال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) ، وقوله تعالى : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم) وقوله تعالى (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم) . وقوله تعالى : (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

واعلم أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل الله ، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم فى بعض أمرهم ، لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية فى السوء ، كما أوضح تعالى ذلك فى قوله : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر ثم يحذر كل الحذر ، من أن يقول الذين كفروا ، الذين يكرهون ما أنزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر ، لأن ذلك يسبب له ما ذكره الله فى الآيات المذكورة ، ويكفيه زجراً وردعا عن ذلك قول ربه تعالى (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) إلى قوله (فأحبط أعمالهم) .

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾.

الاجتباء فى اللغة العربية معناه الاختيار والاصطفاء.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبى من خلقه من يشاء اجتباءه.

وقد بين فى مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة فى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير) إلى قوله: (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج). وقوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية.

وبين فى موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى: (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى). وذكر أن منهم إبراهيم فى قوله: (إن إبراهيم كان أمة إلى- قوله -: شاكراً لأنعمه اجتباه) الآية. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين.

وقوله تعالى: (ويهدى إليه من ينيب) أى من سبق فى علمه أنه ينيب إلى الله أى يرجع إلى ما يرضيه، من الإيمان والطاعة، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الرعد (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب).

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾

تقدمت الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم).

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ .

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه هو الذى أنزل الكتاب فى حال كونه متلبساً بالحق الذى هو ضد الباطل ، وقوله : (الكتاب) اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية .

وقد أوضحنا فى سورة الحج أن المفرد الذى هو اسم جنس يطلق مراداً به الجمع ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك مع الشواهد العربية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (والميزان) يعنى أن الله جل وعلا هو الذى أنزل الميزان ، والمراد به العدل والإنصاف .

وقال بعض أهل العلم : الميزان فى الآية : هو آلة الوزن المعروفة

ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال ، والمفعال قياسى فى اسم الآلة .

وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف ، فالميزان الذى هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه ، لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذى أنزل الكتاب والميزان أوضحه فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى سورة الحديد (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط ، وهو العدل والإنصاف . وكقوله تعالى فى سورة الرحمن (والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أن الميزان

فى سورة شورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف ، كما قاله غير واحد من المفسرين .

وأن الميزان فى سورة الرحمن هو الميزان المعروف أعنى آلة الوزن التى يوزن بها بعض المبيعات .

ومما يدل على ذلك أنه فى سورة شورى وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه ، وقال فى سورة شورى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) . وقال فى الحديد : (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) .

وأما فى سورة الرحمن فقد عبر بالوضع لا الإنزال ، قال (والسماء رفعها ووضع الميزان) ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة ، وذلك فى قوله : (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ، لأن الميزان الذى نهوا عن إخساره هو أخو المكيال ، كما قال تعالى (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وقال تعالى (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) . وقال تعالى عن نبيه شعيب : (ولا تنقصوا المكيال والميزان) الآية . وقال تعالى عنه أيضاً (قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان) الآية . وقال تعالى فى سورة الأنعام : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها) وقال تعالى فى سورة بنى إسرائيل (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) .

فإن قيل : قد اخترتم أن المراد بالميزان فى سورة شورى وسورة الحديد ، هو العدل والإنصاف ، وأن المراد بالميزان فى سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة ، وذكرتم نظائر ذلك من الآيات القرآنية ، وعلى هذا الذى اخترتم

يشكل الفرق بين الكتاب والميزان ، لأن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف .

فالجواب من وجهين :

الأول منهما هو ما قدمنا مراراً من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه بصفتين مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلا للتغاير بين الصفات منزلة التغاير في الذوات، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى) فالموصوف واحد والصفات مختلفة ، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات . ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتيبة في المزدحم

وأما الوجه الثاني :

فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ، من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان .

وإيضاح ذلك : أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية .

وأما الميزان : فيصدق بالعدل والإنصاف الذى لم يصرح به في الكتب السماوية ، ولكنه معلوم مما صرح به فيها .

فالتأفيف في قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) ، من الكتاب لأنه مصرح به في الكتاب ، ومنع ضرب الوالدين مثلا المدلول عليه بالنهى على التأفيف من الميزان ، أى من العدل والإنصاف الذى أنزله الله مع رسله .

وقبول شهادة العدلين فى الرجعة والطلاق المنصوص فى قوله تعالى : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) من الكتاب الذى أنزله الله ، لأنه مصرح به فيه .

وقبول شهادة أربعة عدول فى ذلك من الميزان الذى أنزله الله مع رسله .

وتحريم أكل مال اليتيم المذكور فى قوله (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا) الآية من الكتاب .

وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه ، المعروف من ذلك من الميزان ، الذى أنزله الله مع رسله .

وجلد القاذف الذكر للمحصنة الأنثى ثمانين جلدة ورد شهادته ، والحكم بفسقه المنصوص فى قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة- إلى قوله - إلا الذين تابوا) الآية من الكتاب الذى أنزله الله .

وعقوبة القاذف الذكر لذكر مثله ، والأنثى القاذفة للذكر أو لأنثى بمثل تلك العقوبة المنصوصة فى القرآن من الميزان المذكور .

وحلّية المرأة التى كانت مبتوتة ، بسبب نكاح زوج ثان وطلاقه لها بعد الدخول المنصوص فى قوله تعالى (فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) أى فإن طلقها الزوج الثانى ، بعد الدخول وذوق العسيلة فلا جناح عليهما أى لا جناح على المرأة التى كانت مبتوتة والزوج الذى كانت حراماً عليه ، أن يتراجعا بعد نكاح الثانى وطلاقه لها ، من الكتاب الذى أنزل الله .

وأما إن مات الزوج الثانى بعد أن دخل بها وكان موته قبل أن يطلقها ،

فليتها للأول الذى كانت حراما عليه ، من الميزان الذى أنزله الله مع رسله .

وقد أشرنا إلى كلام ابن القيم المذكور ، وأكثرنا من الأمثلة لذلك فى سورة الأنبياء فى كلامنا الطويل على قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى أول سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) الآية . وفى سورة الأحزاب فى الكلام على قوله تعالى : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) وفى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : (وأنذرهم يوم الآزفة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ .

ذكر تعالى فى هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولى : أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة ، يستعجلون بها أى يطلبون تعجيلها عليهم ، لشدة إنكارهم لها .

والثانية : أن المؤمنين مشفقون منها ، أى خائفون منها .

والثالثة : أنهم يعلمون أنها الحق ، أى أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه .

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة فى هذه الآية الكريمة جاءت موضحة فى غير هذا الموضع .

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد فى الكلام

على قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) وفى غير ذلك من المواضع .

وأما المسألة الثانية ، التى هى إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة ، فقد ذكره فى مواضع أخر كقوله تعالى (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) وقوله تعالى (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) وقوله تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً) .

وأما المسألة الثالثة : وهى علمهم أن الساعة حق ، فقد دلت عليه الآيات المصرحة بأنها لا ريب فيها ، لأنها تتضمن نفى الريب فيها عن المؤمنين .

والريب : الشك كقوله تعالى عن الراسخين فى العلم : (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) الآية . وقوله تعالى (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) الآية : وقوله تعالى (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) الآية . وقوله تعالى : (وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه) الآية . وقوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (يمارون) ، مضارع مارى ، يمارى مراء ومماراة ، إذا خاصم وجادل .

ومنه قوله تعالى (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) .

وقوله (لفى ضلال بعيد) أى بعيد عن الحق والصواب .

وقد قدمنا معانى الضلال فى القرآن واللغة العربية ، مع الشواهد فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى (قال فعلتها إذن وأنا من الضالين) وفى مواضع أخر من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ .

قد بينا فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) الآية . أن جميع الرسل عليهم الصلوات والسلام ، لا يأخذون أجرا على التبليغ ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك .

وقد ذكرنا فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، وجه الجمع بين تلك الآيات ، وآية شورى هذه فقلنا فيه :

اعلم أولا أن فى قوله تعالى (إلا المودة فى القربى) أربعة أقوال :

الأول : ورواه الشعبى وغيره عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة وأبو مالك والسدى والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير وغيره أن معنى الآية (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) أى إلا أن تودونى فى قرابتى التى بينى وبينكم ، فتكفوا عنى أذاكم وتمنعونى من أذى الناس ، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتى منكم ، وكان ﷺ له فى كل بطن من قريش رحم ، فهذا الذى سألهم ليس بأجر على التبليغ لأنه مبذول لكل أحد ، لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس .

وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجرا على التبليغ لأنه لم يؤمن .

وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذى ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجراً كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وهذا القول هو الصحيح فى الآية ، واختاره ابن جرير ، وعليه فلا إشكال .

الثانى : أن معنى الآية (إلا المودة فى القربى) أى لاتؤذوا قرابتى وعترتى واحفظونى فيهم ، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلى بن الحسين ، وعليه فلا إشكال أيضاً .

لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم ، وأحرى قرابة النبى ﷺ ، قال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وفى الحديث « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » والأحاديث فى مثل هذا كثيرة جداً .

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين ، تبين أنه غير عوض عن التبليغ .

وقال بعض العلماء : الاستثناء منقطع على كلا القولين ، وعليه فلا إشكال .

فمعناه على القول الأول (لا أسألكم عليه أجرا) لكن أذكركم قرابتى فيكم .

وعلى الثانى : لـكن أذكركم الله فى قرابتى فاحفظونى فيهم .

القول الثالث : وبه قال الحسن إلا المودة فى القربى أى إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح ، وعليه فلا إشكال .

لأن التقرب إلى الله ليس أجراً على التبليغ .

القول الرابع : إلا المودة فى القربى ، أى إلا أن تتوددوا إلى قراباتـكم وتصلوا أرحامكم ، ذكر ابن جرير هذا القول عن عبدالله بن قاسم ، وعليه أيضاً فلا إشكال .

لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجراً على التبليغ ، فقد علمت الصحيح فى تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال .

وأما القول بأن قوله تعالى : (إلا المودة فى القربى) منسوخ بقوله تعالى : (قل ما سألتكم من أجر فهو لـكم) فهو ضعيف ، والعلم عند الله تعالى . انتهى منه .

وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح فى معنى الآية .

مع أن كثيراً من الناس يظنون أن القول الثانى هو معنى الآية ، فيحسبون أن معنى (إلا المودة فى القربى) إلا أن تودونى فى أهل قرابتى .

وممن ظن ذلك محمد السجاد حيث قال لقاتله يوم الجمل : أذكرك حم يعنى سورة شورى هذه ، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم حفظه فيهم ، لأن الله تعالى قال فى حم هذه (إلا المودة فى القربى) فهو يريد المعنى المذكور ، يظنه هو المراد بالآية ، ولذا قال قاتله فى ذلك :

يذكرنى حاميم والرمح شاجر فهل لا تلا حاميم قبل التقدم

وقد ذكرنا هذا البيت والأبيات التى قبله فى أول سورة هود ، وذكرنا أن البخارى ذكر البيت المذكور فى سورة المؤمن ، وذكرنا الخلاف فى قائل الأبيات الذى قتل محمداً السجاد بن طلحة بن عبيد الله يوم الجمل ، هل هو شريح بن أبى أوفى العبسى كما قال البخارى ، أو الأشتر النخعى ، أو عصام ابن مقشعر ، أو مدلج بن كعب السعدى ، أو كعب بن مدلج .

وممن ظن أن معنى الآية هو ما ظنه محمد السجاد المذكور الكميت فى قوله فى أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وجدنا لكم فى آل حاميم آية تأولها منا تقى ومعرب

والتحقيق إن شاء الله أن معنى الآية هو القول الأول (إلا المودة فى القربى) أى إلا أن تودونى فى قرابتى فيكم وتحفظونى فيها ، فتكفوا عنى أذاكم وتمنعونى من أذى الناس ، كما هو شأن أهل القرابات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ .

الاقتراف معناه الاكتساب ، أى من يعمل حسنة من الحسنات ، ويكتسبها نزد له فيها حسناً ، أى نضاعفها له .

فمضاعفة الحسنات هى الزيادة فى حسنها ، وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى (وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) وقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقوله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجراً) فكونه خيراً وأعظم أجراً زيادة فى حسنه ، كما لا يخفى إلى غير ذلك من الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾.

بين تعالى، فى هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات . وقد جاء ذلك موضحاً فى مواضع أخر كقوله تعالى : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم) وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم) الآية . وقوله تعالى : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا معنى التوبة وأركانها وإزالة ما فى أركانها من الإشكال ، فى سورة النور فى الكلام على قوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه ينزل ما يشاء تنزيله من الأرزاق وغيرها بقدر ، أى بمقدار معلوم عنده جل وعلا ، وهو جل وعلا أعلم بالحكمة والمصلحة فى مقدار كل ما ينزله . وقد أوضح هذا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله تعالى : (وكل شىء عنده بمقدار) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النور فى الكلام على قوله تعالى :

(لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ .

قوله : ومن آياته أى من علاماته الدالة على قدرته واستحقاقه للعبادة وحده ، الجوارى وهى السفن واحدتها جارية ، ومنه قوله تعالى : (إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية) يعنى سفينة نوح ، وسميت جارية لأنها تجرى فى البحر .

وقوله (كالأعلام) أى كالجبال ، شبه السفن بالجبال لعظمها

وعن مجاهد أن الأعلام القصور ، وعن الخليل : أن كل مرتفع تسميه العرب علما ، وجمع العلم أعلام .

وهذا الذى ذكره الخليل معروف فى اللغة ، ومنه قول الخنساء ترثى أخاها صخراً :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جريان السفن فى البحر ، من آياته تعالى الدالة على كمال قدرته ، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين) وقوله تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وقوله تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) إلى قوله : (لآيات لقوم يعقلون) . وقوله تعالى فى سورة النمل (وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله) الآية . وقوله فى فاطر . (وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله) الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو «الجوارى» بياء ساكنة بعد الراء فى الوصل فقط، دون الوقف وقرأه ابن كثير بالياء المذكور فى الوصل والوقف معاً، وقرأه الباقون الجوار بحذف الياء فى الوصل والوقف معاً.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ الآية.

قرأ هذا الحرف حمزة والكسائى (كبير الإثم)، بكسر الباء بعدها ياء ساكنة وراء على صيغة الإفراد.

وقرأه الباقون بفتح الباء بعدها ألف فهمزة مكسورة قبل الراء على صيغة الجمع.

وقوله (والذين): فى محل جر عطفاً على قوله: (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى وخير وأبقى أيضاً للذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش.

والفواحش جمع فاحشة. والتحقيق إن شاء الله أن الفواحش من جملة الكبائر.

والأظهر أنها من أشنعها، لأن الفاحشة فى اللغة: هى الخصلة المتناهية فى القبح، وكل متشدد فى شىء مبالغ فيه فهو فاحش فيه.

ومنه قول طرفة بن العبد فى معلقته:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

فقوله: الفاحش أى المبالغ فى البخل المتناهى فيه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى الصادق للذين يجتنبون

كبائر الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذى هو خير وأبقى ، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع ، فبين تعالى فى سورة النساء أن من ذلك تكفيره تعالى عنهم سيئاتهم ، وإدخالهم المدخل الكريم وهو الجنة فى قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً) ، وبين فى سورة النجم أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش ، يصدق عليهم اسم المحسنين ووعدهم على ذلك بالحسنى .

والأظهر أنها الجنة ، ويدل له حديث « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم » فى تفسير قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) كما قدمناه .

وآية النجم المذكورة هى قوله تعالى (ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ثم بين المراد بالذين أحسنوا فى قوله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) .

وأظهر الأقوال فى قوله : إلا اللمم ، أن المراد باللمم صغائر الذنوب ، ومن أوضح الآيات القرآنية فى ذلك قوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية . فدلت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر ، وخير ما يفسر به القرآن ، القرآن .

ويدل لهذا حديث ابن عباس الثابت فى الصحيح : قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .

وعلى هذا القول فالاستثناء فى قوله إلا اللمم منقطع ، لأن اللمم الذى

هو الصغائر على هذا القول لا يدخل فى الكبائر والفواحش ، وقد قدمنا تحقيق المقام فى الاستثناء المنقطع . فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) .

وقالت جماعة من أهل العلم : الاستثناء متصل فالواو عليه ، فمعنى إلا اللمم: إلا أن يلم بفاحشة مرة ثم يجتنبها ولا يعود لها بعد ذلك .

واستدلوا لذلك بقول الراجز :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما

وروى هذا البيت ابن جرير والترمذى وغيرهما مرفوعاً . وفى صحته مرفوعاً نظر .

وقال بعض العلماء . المراد باللمم ما سلف منهم من الكفر والمعاصى ،قبل الدخول فى الإسلام ولا يخفى بعده .

وأظهر الأقوال هو ما قدمنا لدلالة آية النساء المذكورة عليه ، وحديث ابن عباس المتفق عليه .

واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة فى عدد معين ، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أى المهلكات لعظمها ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة « أنها الإشراك بالله وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ،والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » وقد جاءت روايات كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تعيين بعض الكبائر « كعقوق الوالدين واستحلال حرمة بيت الله الحرام والرجوع إلى البادية بعد الهجرة وشرب الخمر واليمين الغموس والسرقة ومنع فضل الماء ومنع فضل الكلأ وشهادة الزور » .

وفى بعض الروايات الثابتة فى الصحيح عن ابن مسعود « أن أكبر الكبائر الإشراك بالله الذى خلق الخلق ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه ، ثم زناه بحليلة جاره » . وفى بعضها أيضاً « أن من الكبائر تسبب الرجل فى سب والديه » ، وفى بعضها أيضاً « أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفراً » وذلك يدل على أنهما من الكبائر .

وفى بعض الروايات « أن من الكبائر الوقوع فى عرض المسلم ، والسبتين بالسبة » .

وفى بعض الروايات « أن منها جمع الصلاتين من غير عذر » .

وفى بعضها « أن منها اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله » ويدل عليهما قوله تعالى : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) . وقوله (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

وفى بعضها « أن منها سوء الظن بالله » ويدل له قوله تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) .

وفى بعضها « أن منها الإضرار فى الوصية » .

وفى بعضها أن منها الغلول ، ويدل له قوله تعالى : (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) . وقدمنا معنى الغلول فى سورة الأنفال ، وذكرنا حكم الغال .

وفى بعضها « أن من أهل الكبائر الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا ». ويدل له قوله تعالى : (أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) ولم نذكر

أسانيد هذه الروايات ونصوص متونها خوف الإطالة ، وأسانيد بعضها لاتخلو من نظر لكنها لايكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة ، من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن أهل العلم اختلفوا فى حد الكبيرة .

فقال بعضهم : هى كل ذنب استوجب حداً من حدود الله .

وقال بعضهم : هى كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب .

واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هى كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين .

وعن ابن عباس : أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع ، وعنه أيضاً أنها أقرب إلى سبعمائة منها إلى سبع .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق أنها لا تنحصر فى سبع ، وأن مادل عليه من الأحاديث على أنها سبع لايقتضى انحصارها فى ذلك العدد ،لأنه إنما دل على نفى غير السبع بالمفهوم ، وهو مفهوم لقب ، والحق عدم اعتباره .

ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضاً ، لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق .

وقد جاء منها فى الصحيح عدد أكثر من سبع ، والمنطوق مقدم على المفهوم ، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم .

والأظهر عندى فى ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بمايدل على أنه أعظم من مطلق المعصية سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة

أو عذاب ، أو كان وجوب الحد فيه ، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده .

مع أن بعض أهل العلم قال : إن كل ذنب كبيرة . وقوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) الآية . وقوله : (إلا اللمم) يدل على عدم المساواة، وأن بعض المعاصي كبائر . وبعضها صغائر ، والمعروف عند أهل العلم : أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) الآية . وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في الكلام على آية النحل وآية الزمر المذكورتين آنفاً .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) الآية .

قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ لَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) . يبين الله جل وعلا فيه منته على هذا النبى الكريم ، بأنه علمه هذا القرآن العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك ، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم يكن يعلمها قبل ذلك .

فقوله : ما كنت تدرى ما الكتاب : أى ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذى هو القرآن العظيم ، حتى علمتكه ، وما كنت تدرى ما الإيمان الذى هو تفاصيل هذا الدين الإسلامى ، حتى علمتكه .

ومعلوم أن الحق الذى لا شك فيه الذى هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد .

وذلك ثابت فى أحاديث صحيحة كثيرة ، منها : حديث وفد عبد القيس المشهور ، ومنها حديث : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا » الحديث ، فسمى فيه قيام رمضان إيمانا ، وحديث « الإيمان بضع وسبعون شعبة » ، وفى بعض رواياته « بضع وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

والأحاديث بمثل ذلك كثيرة ويكفى فى ذلك ما أورده البيهقى فى شعب الإيمان فهو صلوات الله وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان ، وما يجوز فيه وما لا يجوز ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ولا الإيمان) .

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن أوحى

إليه هذا النور العظيم الذى هو كتاب الله ، جاء فى غير هـذا الموضع كقوله تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم) الآية . وقوله جل وعلا (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

فقوله فى آية يوسف هذه : (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) كقوله هنا (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقوله تعالى : (ووجدك ضالا فهدى) على أصح التفسيرات كما قدمناه فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى : (قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء) ، الضمير فى قوله : جعلناه راجع إلى القرآن العظيم المذكور فى قوله : (روحا من أمرنا) وقوله : (ما كنت تدرى ما الكتاب) أى ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً نهدى به من نشاء هدايته من عبادنا .

وسمى القرآن نوراً ، لأنه يضىء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك .

وماذكره هنا من أن هذا القرآن نور ، جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا) .

وقوله تعالى (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وقوله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقوله تعالى . (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) .

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نوراً يدل على أنه هو الذى يكشف ظلمات الجهل ، ويظهر فى ضوئه الحق ، وتتميز عن الباطل ويميز به بين الهدى والضلال والحسن والقبيح .

فيجب على كل مسلم أن يستضىء بنوره ، فيعتقد عقائده ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ويمتثل أوامره ويجتنب ما نهى عنه ويعتبر بقصصه وأمثاله .

والسنة كلها داخلة فى العمل به ، لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

الصراط المستقيم ، قد بينه تعالى فى قوله : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقوله فى هذه الآية الكريمة (وإنك لتهدى) الآية ، قد بينا الآيات الموضحة له فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم) الآية ، وبينا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) مع قوله (إنك لا تهدى من أحببت) .

والصراط فى لغة العرب : الطريق الواضح ، والمستقيم . الذى لا اعوجاج فيه ، ومنه قول جرير :

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله ، أى ترجع إليه وحده لا إلى غيره . جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : ﴿

غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله) وقوله تعالى : (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور . كنتم خير أمة أخرجت للناس) إلى غير ذلك من الآيات .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ الآية

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فى أول سورة هود .

وقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآنا عربيا) قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى : (لتكون من المنذرين باسان عربى مبين) وفى سورة الزمر فى الكلام على قوله تعالى : (قرآنا عربيا غير ذى عوج) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

الضمير فى قوله منهم عائد إلى القوم المسرفين ، المخاطبين بقوله : (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوماً مسرفين) ، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

وقوله أشد منهم) مفعول به لأهلكنا ، وأصله نعت لمحذوف ، والتقدير : فأهلكنا قوما أشد منهم بطشا ، على حد قوله فى الخلاصة :

وما من المنعوت والنعت عُقِلْ يجوز حذفه وفى النعت يَقِل

وقوله بطشا : تمييز محول من الفاعل على حد قوله فى الخلاصة :

والفاعل المعنى انصبن بأفعَلا مفضِّلا كأنت أعلا منزِلا

والبطش : أصله الأخذ بعنف وشدة .

والمعنى : فأهلكنا قوماً أشد بطشاً من كفار مكة الذين كذبوا نبينا بسبب تكذيبهم رسلهم فليحذر الكفار الذين كذبوك أن يهلكهم بسبب ذلك كما أهلكنا الذين كانوا أشد منهم بطشا ، أى أكثر منهم عَدداً وعُدداً وجلداً .

فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر .

وقوله فى هذه الآية الكريمة : (ومضى مثل الأولين) أى صفتهم التى هى إهلاكهم المستأصل ، بسبب تكذيبهم الرسل .

وقول من قال : (مثل الأولين) أى عقوبتهم وسنتهم راجع فى المعنى إلى ذلك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، بأن الله أهلك من هم أقوى منهم ، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك ، جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) الآية . وقوله تعالى : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض) الآية . وقوله تعالى: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) إلى قوله : (فأهلكناهم بذنوبهم) الآية . وقوله تعالى : (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) وقوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ومضى مثل الأولين) ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، بصفته إهلاكهم وسنته فيهم التى هى العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون . إلا سنه الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقوله تعالى: (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) وقوله تعالى : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين) الآية . وقوله تعالى: (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) .

وقد قدمنا بعض الآيات الدالة على هذا فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى : (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة بنى إسرائيل ، فى الكلام على وقوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف ، عاصم وحمزة والكسائى (مهدا) بفتح الميم وسكون

الهاء وقرأه باقى السبعة (مِهَاداً) بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف ومعناهما واحد وهو الفراش .

وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه جعل الأرض لبنى آدم مهداً أى فراشا وأنه جعل لهم فيها سبلا أى طرقا ليمشوا فيها ويسلكوها ، فيصلوا بها من قطر إلى قطر وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، من كونه تعالى جعل الأرض فراشا لبنى آدم وجعل لهم فيها الطرق ، لينفذوا من قطر إلى قطر ، جاء موضحا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى:(والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) ، وكقوله تعالى : (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) .

وذكر كون الأرض فراشا لبنى آدم فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) وقوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) . وقوله تعالى : (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خرج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت ، فى قوله تعالى : (كذلك تخرجون) جاء موضحاً فى آيات كثيرة قد قدمناها فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) مع بقية براهين

البعث فى القرآن . وأوضحنا ذلك أيضا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) ، وفى غير ذلك من المواضع ، وأحلنا على ذلك مرارا كثيرة فى هذا الكتاب المبارك .

وقد قدمنا فى سورة الفرقان معنى الإنشاء والنشور وما فى ذلك من اللغات مع الشواهد العربية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة . (بقدر) .

قال بعض العلماء : أى بقدر سابق وقضاء .

وقال بعض العلماء : أى بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفانا فيهلكهم ، ولم يجعله قليلا دون قدر الكفاية ، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة ، كما قال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) . وقال تعالى : (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ـ إلى قوله ـ وما أنتم له بخازنين) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ .

الأزواج الأصناف ، والزوج تطلقه العرب على الصنف

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبنى آدم وما لا يعلمه إلا الله .

قال تعالى : (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) .

وقال تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى)

وقال تعالى : (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أى من كل صنف حسن من أصناف النبات .

وقال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) . ومن إطلاق الأزواج على الأصناف فى القرآن قوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) . وقوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) .

وقد قدمنا طرفا من ذلك فى سورة الصافات فى الكلام على قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) الآية .

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة المؤمن ، فى الكلام على قوله تعالى (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها) الآية . وضمير المفرد المذكر الغائب فى قوله : (لتستووا على ظهوره) ، وقوله : (إذا استويتم عليه) راجع إلى لفظ ما فى قوله : (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ .

يعنى جل وعلا أنه جعل لبنى آدم ما يركبونه من الفلك التى هى السفن ، ومن الأنعام ليستووا أى يرتفعوا معتدلين على ظهوره ثم يذكروا فى قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بألسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .

وقوله : « سبحان » قد قدمنا فى أول سورة بنى إسرائيل معناه ، بإيضاح

وأنه يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله والإشارة فى قوله (هذا) راجعة إلى لفظ (ما) من قوله : (ما تركبون) وجمع الظهور نظرا إلى معنى (ما)، لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع فى الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها .

وقوله : (الذى سخر لنا هذا) أى الذى ذلل لنا هذا الذى هوما تركبه من الأنعام والسفن لأن الأنعام لو لم يذللها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذلله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شىء من ذلك .

وقوله تعالى : (وما كنا له مقرنين) أى مطيقين . والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقا له كفؤا للقيام به من قولهم : أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما فى حبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها، فتجرها لأن الضعيف إذا لز فى القرن أى الحبل، مع القوى جره ولم يقدر على مقاومته، كما قال جرير :

وابن اللبون إذا مالز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وهذا المعنى معروف فى كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب وقد أنشده قطرب لهذا المعنى :

لقد علم القبائل ما عقيل لنا فى النائبات بمقرنينا

وقول ابن هرمة :

وأقرنت ما حملتنى ولقلما يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر

وقول الآخر :

ركبتم صعبتى أشراً وحيفاً ولستم للصعـــاب بمقرنينا

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذلله الله لهم لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبينا فى آيات أخر . قال تعالى فى ركوب الفلك : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) . وقال تعالى : (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) الآية . وقال تعالى : (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله) الآية . وقال تعالى : (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار) . الآية . وقال تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) الآية . وقال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقال تعالى فى تسخير الأنعام : (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال تعالى : (فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ .

قال بعض العلماء (جزءاً) أى عدلا ونظيراً ، يعنى الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله .

وقال بعض العلماء : (جزءاً) أى ولدا .

وقال بعض العلماء : (جزءاً) يعنى البنات .

وذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أن الجزء النصيب ، واستشهد على ذلك بآية الأنعام . أعنى قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) . الآية .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر أن قول ابن كثير هذا رحمه الله غير صواب فى الآية .

لأن المجعول لله فى آية الأنعام ، هو النصيب مما ذرأ من الحرث والأنعام ، والمجعول له فى آية الزخرف هذه ، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام .

وبين الأمرين فرق واضح كما ترى .

وأن قول قتادة ومن وافقه : إن المراد بالجزء العدل والنظير الذى هو الشريك غير صواب أيضا .

لأن إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف فى كلام العرب .

أما كون المراد بالجزء فى الآية الولد ، وكون المراد بالولد خصوص الإناث ، فهذا هو التحقيق فى الآية .

وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين :

أحدهما : ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات ، ويقولون : أجزأت المرأة إذا ولدت البنات ، وامرأة مجزئة أى تلد البنات ، قالوا ومنه قول الشاعر :

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب ... قد تجزىء الحرة المذكار أحيانا

وقول الآخر :

زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج اللدن فى أبياتها زجل

وأنكر الزمخشرى هذه اللغة قائلا إنها كذب وافتراء على العرب .

قال فى الكشاف فى الكلام على هذه الآية الكريمة : ومن بدع التفاسير، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء فى لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتا وبيتا :

* إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب *

زوجتها من بنات الأوس مجزئة اهـ . منه بلفظه .

وقال ابن منظور فى اللسان : وفى التنزيل العزيز : (وجعلوا له من عباده جزءاً) . قال أبو إسحاق يعنى به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افتروا ، قال : وقد أنشدت بيتا يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال : ولا أدرى البيت هو قديم أم مصنوع ؟

* إن أجزأت حرة يوما فلا عجب * البيت

والمعنى فى قوله : (وجعلوا له من عباده جزءا) أى جعلوا نصيب الله من الولد الإناث ، قال ولم أجده فى شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات ، وأجزأت المرأة ولدت الإناث ، وأنشد أبو حنيفة :

* زوجتها من بنات الأوس مجزئة * البيت

انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان .

وظاهر كلامه هذا الذى نقله عن الزجاج أن قولهم : أجزأت المرأة إذا ولدت الإناث معروف ، ولذا ذكره وذكر البيت الذى أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له .

والوجه الثانى : وهو التحقيق إن شاء الله أن المراد بالجزء فى الآية الولد ، وأنه أطلق عليه اسم الجزء ، لأن الفرع كأنه جزء من أصله والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى .

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء فى الآية خصوص الإناث فقرينة السياق دالة عليه دلالة واضحة ، لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذى أنكره الله إنكاراً شديداً وقرع مرتكبه تقريعاً شديداً فى قوله تعالى بعده (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً) . إلى قوله : (وهو فى الخصام غير مبين) .

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم (جزءاً) بضم الزاى وباقى السبعة بإسكانها وحمزة عند الوقف يسقط الهمزة ، بنقل حركتها إلى الزاى مع حذف التنوين للوقف .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾

أم هنا بمعنى استفهام الإنكار ، فالكفار لما قالوا : الملائكة بنات الله أنكر الله عليهم أشد الإنكار ، موبخاً لهم أشد التوبيخ ، حيث افتروا عليه الولد ، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما وهو الأنثى كما قال هنا : (أم اتخذ مما يخلق بنات) وهى النصيب الأدنى من الأولاد ، وأصفاكم أنتم ، أى خصكم وآثركم بالبنين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد .

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله هنا (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) يعنى الأنثى ، كما أوضحه بقوله : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) يعنى فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسوداً يعنى من الكآبة وهو كظيم أى ممتلئ حزناً وغماً ، وكقوله تعالى هنا (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) ففيه إنكار شديد وتقريع عظيم لهم بأنهم مع افترائهم عليه جل وعلا الولد جعلوا له أنقص الولدين الذى لنقصه الخلقى ، ينشأ فى الحلية من الحلى والحلل وأنواع الزينة ، من صغره إلى .

كبره ليجبر بتلك الزينة نقصه الخلقى الطبيعى ، وهو فى الخصام غير مبين، لأن الأنثى غالباً لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها .

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهده العربية غاية الإيضاح فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وكقوله تعالى : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) . وقوله تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون) . وقوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولا عظيما) وقوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى) . وقوله تعالى : (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) .

وقد قدمنا كثيراً من الآيات الموضحة لهذا المعنى فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) ووجه التعبير عن الأنثى بما ضرب مثلا لله فى قوله : (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) الآية ظاهر ، لأن البنات المزعومة يلزم ادعاءها أن تكون من جنس من نسبت إليه ، لان الوالد والولد من جنس واحد ، وكلاهما يشبه الآخر فى صفاته .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر (عند الرحمن) بسكون النون وفتح الدال ظرف كقوله تعالى : (إن الذين عند ربك لا يستكبرون) ، وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى (الذين هم عباد الرحمن) بكسر العين وباء

موحدة بعدها ألف وضم الدال جمع عبد كقوله : (وعباد الرحمن) الآية .

وقوله (أشهدوا خلقهم) . قرأه عامة السبعة غير نافع أشهدوا بهمزة واحدة مع فتح الشين ، وقرأه نافع أأشهد . بهمزتين الأولى مفتوحة محققة ، والثانية مضمومة مسهلة بين بين وقالوا يجعل بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين .

وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أربع مسائل :

الأولى : أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث زاعمين أنهم بنات الله .

الثانية : أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك فى قوله : (أشهدوا خلقهم) يعنى هل حضروا خلق الله لهم فعاينوهم إناثا .

الثالثة : أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم .

الرابعة : أنهم يسألون عنها يوم القيامة .

وهذه المسائل الأربع التى تضمنتها هذه الآية الكريمة ، جاءت موضحة فى غير هذا الموضع .

أما الأولى منها . وهى كونهم اعتقدوا الملائكة إناثا ، فقد ذكرها تعالى فى مواضع من كتابه كقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما) . وكقوله تعالى : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) الآية ، وقوله تعالى (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وأما المسألة الثانية ، وهى سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ والتقريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه ، حتى علموا أنهم خلقوا إناثا فقد ذكرها

فى قوله تعالى : (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون) وبين تعالى أنه لم يشهد الكفار خلق شيء فى قوله : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) الآية .

وأما المسألة الثالثة التى هى كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم ، فقد ذكرها تعالى فى مواضع من كتابه كقوله تعالى: (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون) ، وقوله تعالى : (وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ، وقوله تعالى : (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) ، وقوله تعالى : (إن رسلنا يكتبون ماتمكرون) وقوله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك) الآية . وقوله تعالى . (سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مداً) .

وأما المسألة الرابعة : وهى كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر ، فقد ذكرها تعالى فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) : وقوله تعالى ، (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ، وقوله تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) ، وقوله تعالى :(ويجعلون لما لايعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة إشكال معروف ، ووجهه أن قول الكفار الذى ذكره الله عنهم هنا ، أعنى قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم) ، هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح ، لأن الله لوشاء أن يعبدوهم ماعبدوهم، كما قال تعالى

(ولوشاء الله ما أشركوا) ، وقال تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) ، وقال تعالى : (ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها) الآية . وقال تعالى : (فلوشاء لهداكم أجمعين) ، وقال تعالى : (ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

وهذا الإشكال المذكور فى آية الزخرف هو بعينه واقع فى آية الأنعام ، وآية النحل .

أما آية الأنعام فهى قوله : (سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شىء) .

وأما آية النحل ، فهى قوله : (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا) الآية .

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام ، وآية النحل : أن ماقاله الكفار حق ، وأن الله لوشاء ماعبدوا من دونه من شىء ولا أشركوا به شيئا ، كما ذكرنا فى الآيات الموضحة قريبا .

فاعلم أن وجه الإشكال ، أن الله صرح بكذبهم فى هذه الدعوى التى ظاهرها حق ، قال فى آية الزخرف : (مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) أى يكذبون ، وقال فى آية الأنعام (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعوا إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ، وقال فى آية النحل (كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسول إلا البلاغ المبين) .

ومعلوم أن الذى فعله الذين من قبلهم ، هو الكفر بالله والكذب على الله ، فى جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه .

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم (لوشاء الرحمن ماعبدناهم) وقولهم (لوشاء الله ما أشركنا) مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك ، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك . دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك فى زعمهم .

قالوا لأنه لو لم يكن راضياً به ، لصرفنا عنه ، فتكذيب الله لهم فى الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به ، والله جل وعلا يكذب هذه الدعوى فى الآيات المذكورة وفى قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) .

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية ، تستلزم الرضى وهوزعم باطل ، وهو الذى كذبهم الله فيه فى الآيات المذكورة .

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة ، حيث قال فى آيه الزخرف : (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون) أى آتيناهم كتاباً يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر ، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال مبيناً أن مستندهم فى تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى ، وذلك فى قوله (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة) أى شريعة وملة وهى الكفر وعبادة الأوثان (وإنا على آثارهم مهتدون) .

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب ، لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال .

فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى ، وسيأتى إيضاح رده عليهم قريباً إن شاء الله .

وقال تعالى فى آية النحل بعد ذكره دعواهم المذكورة : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم حقت عليه الضلالة) .

فأوضح فى هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم ، وأنه بعث فى كل أمة رسولا ، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده ، ويجتنبوا الطاغوت أى يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه ،

وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده ، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة أى ثبت عليه الكفر والشقاء .

وقال تعالى فى آية الأنعام (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهدا كم أجمعين)

فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية ، هو الحجة البالغة على خلقه ، يعنى فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق ، فهو فضل منا ورحمة .

ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة ، لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا ، بل إن أعطينا ذلك ففضل ، وإن لم نعطه فعدل .

وحاصل هذا : أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق ، قبل أن يخلق الخلق ، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وأقام الحجة على الجميع ، ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التى لا تترك فى الحق لبساً فقامت عليهم حجة الله فى أرضه بذلك .

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه ، ولم يوفق من سبق لهم فى علمه الشقاء الأزلى ، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر ، وصرف قدرهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ماسبق لهم فى علمه ،

من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء .

فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا ، طائعين مختارين ، غير مجبورين ، ولا مقهورين (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) .

وادعاء أن العبد مجبور لا إرادة له ضرورى السقوط عند عامة العقلاء .

ومن أعظم الضروريات الدالة عليه أن كل عاقل يعلم أن بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية ، كحركة المرتعش فرقاً ضرورياً ، لا ينكره عاقل .

وأنك لو ضربت من يدعى أن الخلق مجبورون ، وفقأت عينه مثلا ، وقتلت ولده واعتذرت له بالجبر ، فقلت له : أنا مجبور ولا إرادة لى فى هذا السوء الذى فعلته بك ، بل هو فعل الله ، وأنا لادخل لى فيه فإنه لا يقبل منك هذه الدعوى بلا شك .

بل يبالغ فى إرادة الانتقام منك قائلا :

إن هذا بإرادتك ومشيئتك .

ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية ، وأن العبد لا يستقل بأفعاله دون قدرة الله ومشيئته ، أنه لا يمكن أحداً أن ينكر علم الله بكل شىء ، قبل وقوعه والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا ينكرها إلا مكابر .

وسبق علم الله بما يقع من العبد قبل وقوعه ، برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى .

وإيضاح ذلك أنك لو قلت للقدرى : إذا كان علم الله فى سابق أزله تعلق

بأنك تقع منك السرقة أو الزنا فى محل كذا فى وقت كذا ، وأردت أنت بإرادتك المستقلة فى زعمك دون إرادة الله ألا تفعل تلك السرقة أوالزنا الذى سبق بعلم الله وقوعه ، فهل يمكنك أن تستقل بذلك ؟ وتُصيِّر علم الله جهلا ، بحيث لايقع ماسبق فى علمه وقوعه فى وقته المحدد له ؟

والجواب بلاشك : هوأن ذلك لايمكن بحال كما قال تعالى: (وماتشاءون إلا أن يشاء الله) ، وقال الله تعالى : (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) .

ولا إشكال البتة فى أن الله يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك ، ثم يصرف الله بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ماسبق به علمه فيأتيه العبد طائعاً مختاراً غير مقهور ولامجبور ، وغير مستقل به دون قدرة الله وإرادته كما قال تعالى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) .

والمناظرة التى ذكرها بعضهم ، بين أبى إسحاق الإسفراييني وعبدالجبار المعتزلى توضح هذا .

وهى أن عبد الجبار قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء يعنى أن السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله ، لأنه فى زعمه أنزه من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته.

فقال أبو إسحاق : كلمة حق أريد بها باطل .

ثم قال : سبحان من لايقع فى ملكه إلا مايشاء .

فقال عبد الجبار : أتراه يشاؤه ويعاقبنى عليه .

فقال أبو إسحاق : أتراك تفعله جبراً عليه ، أأنت الرب وهو العبد ؟

فقال عبد الجبار : أرأيت إن دعانى إلى الهدى ، وقضى على بالردىء ، دعانى وسد الباب دونى ؟ أتراه أحسن أم أساء ؟

فقال أبو إسحاق : أرى أن هذا الذى منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل ، وإن منعك فعدل ، فبهت عبد الجبار ، وقال الحاضرون : والله ماهذا جواب .

ومضمون جواب أبى إسحاق هذا الذى ألجم به عبد الجبار ، هو معنى قوله تعالى . (قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين) .

وذكر بعضهم أن عمرو بن عبيد جاءه أعرابى فشكا إليه أن دابته سرقت وطلب منه أن يدعو الله ليردها إليه .

فقال عمرو مامعناه : اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها ، لأنك أنزه وأجل من أن تدبر هذا الخنا .

فقال الأعرابى : ناشدتك الله ياهذا ، إلا ما كففت عنى من دعائك هذا الخبيث ، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد ، ولاثقة لى برب ، يقع فى ملكه ما لايشاؤه فألقمه حجراً .

وقد ذكرنا هذه المسألة فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى الكلام عن آية الأنعام المذكورة فى هذا البحث ، وفى سورة الشمس فى الكلام عن قوله تعالى (فألهمها فجورها وتقواها) .

قوله تعالى : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ .

أم هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار ، يعنى جل وعلا أن هذا الذى يزعم الكفار من أنهم على حق فى عبادتهم الأوثان ، وجعلهم الملائكة بنات الله ، لادليل لهم عليه . ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً يحل فيه ذلك وأن يكونوا

مستمسكين فى ذلك بكتاب من الله ، فأنكر عليهم هذا هنا إنكاراً دالا على النفى للتمسك بالكتاب المذكور ، مع التوبيخ والتقريع.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من الله ، ولا كتاب أنزله الله بذلك ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى سورة فاطر (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه) الآية .

وقوله تعالى فى الأحقاف (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) .

وقوله تعالى فى الروم : (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) .

وقوله تعالى فى الصافات : (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) .

وقوله تعالى فى النمل : (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

وقوله تعالى فى الحج ولقمان : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) .

وقوله تعالى فى الأنعام : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَذِيرٍ

إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنا عَلَى أُمَّةٍ. وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة قد أفلح المؤمنون ، فى الكلام على قوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه) الآية .

وفى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) ، وقوله تعالى : (قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) .

قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائى وشعبة عن عاصم : قُلْ أو لو جئتكم بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر .

وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم ، قَالَ أولو جئتكم بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضى .

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يانبى الله أتقتدون بآبائكم فى الكفر والضلال ، ولو جئتكم بأهدى ، أى بدين أهدى مما وجدتم عليه آبائكم ، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف لأن آباءهم لا شىء عندهم من الهداية أصلا .

وعلى قراءة ابن عامر وحفص : فالمعنى قال هو : أى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهده العربية مراراً فى هذا الكتاب المبارك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأى الكفار وبيان شدة ضلالهم فى تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى البقرة : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا

أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) ، وكقوله تعالى فى المائدة : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباءهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) .

وأوضح تعالى فى آية لقمان أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير ، وذلك فى قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) كقوله تعالى : (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) ، وقوله تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه : إنه براء أى برىء ، من جميع معبوداتهم التى يعبدونها ، من دون الله أى يعنى أنه برىء من عبادة كل معبود ، إلا المعبود الذى خلقه وأوجده فهو وحده معبوده .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى الذى ذكره عن إبراهيم فى مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى : (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين) الآية . وكقوله تعالى: (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى

برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) .

وزاد جل وعلا فى سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم فى الله ، وذلك فى قوله تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فإنه سيهدين) ذكر نحوه فى قوله: (الذى خلقنى فهو يهدين) وقوله تعالى : (وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) وقوله تعالى : (فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين).

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) أى خلقنى . يدل على أنه لا يستحق العبادة ، إلا الخالق وحده جل وعلا .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم)الآية ، وقوله تعالى : (واتقوا الذى خلقكم و الجبلة الأولين) وقوله تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار) وقوله تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) الآية، وقوله تعالى :(أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون) وقوله تعالى : (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ، واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) الآية إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى :﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . بَلْ

مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ .

الضمير المنصوب فى جعلها على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله ، المذكورة فى قوله (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) لأن لا إله إلا الله نفى وإثبات ، فمعنى النفى منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله فى جميع أنواع العبادات .

وهذا المعنى جاء موضحاً فى قوله (إننى براء مما تعبدون) .

ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذى شرعه على ألسنة رسله .

وهذا المعنى جاء موضحاً فى قوله : (إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) .

وضمير الفاعل المستتر فى قوله (وجعلها) .

قال بعضهم : هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق .

وقال بعضهم : هو راجع إلى الله تعالى .

فعلى القول الأول فالمعنى صيَّر إبراهيم تلك الكلمة باقية فى عقبه أى ولده وولد ولده .

وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين :

أحدهما : وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه ، فيوصى به السلف منهم الخلف ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين ووصى بها

إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين) الآية .

والأمر الثانى هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح ، كقوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى) ، أى واجعل من ذريتى أيضاً أئمة ، وقوله تعالى عنه (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) وقوله عنه (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وقوله عنه هو وإسماعيل (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) إلى قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) .

وقد أجاب الله دعاءه فى بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً صلى الله عليه وسلم .

ولذا جاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنا دعوة إبراهيم » .

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ، كما قال تعالى فى سورة العنكبوت (ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) ، وقال عنه وعن نوح فى سورة الحديد (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) الآية .

وعلى القول الثانى ، أن الضمير عائد إلى الله تعالى ، فلا إشكال .

وقد بين تعالى فى آية الزخرف هذه ، أن الله لم يجب دعوة إبراهيم فى جميع ذريته ، ولم يجعل الكلمة باقية فى جميع عقبه ، لأن كفار مكة الذين كذبوا بنبينا صلى الله عليه وسلم من عقبه بإجماع العلماء ، وقد كذبوه صلى الله عليه وسلم وقالوا إنه ساحر . وكثير منهم مات على ذلك . وذلك فى قوله تعالى (بل متعت هؤلاء) يعنى كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، هو محمد صلى الله عليه وسلم (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) .

ومادلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم ، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله ، كقوله تعالى فى البقرة (قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) أى الظالمين من ذرية إبراهيم .

وقوله تعالى فى الصافات (وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) .

فالمحسن منهم هو الذى الكلمة باقية فيه ، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك .

وقوله تعالى فى النساء (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنم سعيرا) .

وقد بين تعالى فى الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون وذلك فى قوله (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (لعلهم يرجعون) أى جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين المهتدين منهم ، لأن الحق مادام قائما فى جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله (لعلهم يرجعون) .

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بنى آدم ، لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى ، ومن يصير إلى الضلال .

وقال القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وفى الكلام تقديم وتأخير . والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ، أى قال لهم ، يتوبون عن عبادة غير الله . اهـ منه .

وإيضاح كلامه ، أن المعنى أن إبراهيم ، قال لأبيه وقومه : إننى برىء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق .

والضمير فى قوله لعلهم يرجعوا على هذا راجع إلى أبيه وقومه .

وعلى ماذكرناه أولا فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه ،لأن الضالين منهم داخلون فى لفظ العقب .

فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه وهذا القول هوظاهر السياق، والعلم عند الله تعالى .

مسألة

ظاهر هذه الآيات الكريمة التى ذكرنا يدل على اتحاد معنى العقب والذرية والبنين ، لأنه قال فى بعضها عن إبراهيم (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) .

وقال عنه فى بعضها (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) وفى بعضها (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة) الآية ، وفى بعضها قال (ومن ذريتى) وفى بعضها (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) وفى بعضها (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) .

فالظاهر المتبادر من الآيات أن المراد بالبنين والذرية والعقب شىء واحد، لأن جميعها فى شىء واحد وبذلك تعلم أن ظاهر القرآن ، يدل على أن من من وقف وقفاً أو تصدق صدقة على بنيه أو ذريته أو عقبه أن حكم ذلك واحد .

وقد دل بعض الآيات القرآنية على أن أولاد البنات يدخلون فى اسم الذرية واسم البنين .

وإذا دل القرآن على دخول ولد البنت، فى اسم الذرية والبنين والفرض أن العقب بمعناها ، دل ذلك على دخول أولاد البنات فى العقب أيضاً ، فمن الآيات الدالة على دخول ولد البنت فى اسم الذرية قوله تعالى (ومن ذريته داود وسليمان - إلى قوله - وعيسى وإلياس) وهذا نص قرآنى صريح فى دخول ولد البنت فى اسم الذرية ، لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ولد بنت إذ لا أب له .

ومن الآيات الدالة على دخول ولد البنت فى اسم البنين قوله تعالى (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم) وقوله تعالى (وبنات الأخ وبنات الأخت) لأن لفظ البنات فى الألفاظ الثلاثة ، شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين ، وهو نص قرآنى صحيح فى استواء بنات بنيهن وبنات بناتهن.

فتحصل أن دخول أولاد البنات فى الوقف على الذرية والبنين والعقب ، هو ظاهر القرآن ولا ينبغى العدول عنه .

وكلام فقهاء الأمصار من الأئمة الأربعة وغيرهم فى الألفاظ المذكورة معروف ، ومن أراد الاطلاع عليه فلينظر كتب فروع المذاهب ولم نبسط على ذلك الكلام هنا لأننا نريد أن نذكر هنا ما يدل ظاهر القرآن على ترجيحه من ذلك فقط .

أما لفظ الولد فإن القرآن يدل على أن أولاد البنات لا يدخلون فيه . وذلك فى قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم) الآية ، فإن قوله فى أولادكم لا يدخل فيه أولاد البنات ، وذلك لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص صريح قرآنى على عدم دخول أولاد البنات فى اسم الولد .

وإن كان جماهير العلماء على أن العقب والولد سواء

ولاشك أن اتباع القرآن هو المتعين على كل مسلم .

أما لفظ النسل فظاهر القرآن شموله لأولاد البنات لأن قوله تعالى (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) ظاهر فى أن لفظة النسل فى الآية شاملة لأولاد البنات كما لايخفى .

والألفاظ التى يتكلم عليها العلماء فى هذا المبحث هى أحد عشر لفظاً ذكرنا خمسة منها وهى : الذرية والبنون والعقب والولد والنسل . وذكرنا أن أربعة منها يدل ظاهر القرآن على أنها يدخل فيها أولاد البنات وواحد بخلاف ذلك وهو الولد .

وأما الستة الباقية منها فهى الآل والأهل ومعناهما واحد .

والقرابة والعشيرة والقوم والموالى ، وكلام العلماء فيها مضطرب .

ولم يحضرنى الآن تحديد يتميز به ما يدخل فى كل واحد منها وما يخرج عنه إلا على سبيل التقريب إلا لفظين منها وهما القرابة والعشيرة .

أما القرابة فقد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « أنه أعطى من خمس خيبر بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل » مبينا أن ذلك هو معنى قوله تعالى (فأن لله خمسه وللرسول ولذوى القربى) كما تقدم إيضاحه فى سورة الأنفال فى الكلام على آية الخمس هذه .

وأما العشيرة فقد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس أنه لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى « يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا » الحديث . وفيه تحديد العشيرة الأقربين بجميع بنى فهر بن مالك وهو الجد العاشر له صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية أبى هريرة فى الصحيح . أنه لما نزلت الآية المذكورة قال « يامعشر قريش أو كلمة نحوها » الحديث ، وقريش هم أولاد فهر بن مالك. وقيل : أولاد النضر بن كنانة ، والأول هو الأظهر لحديث ابن عباس المذكور وعليه الأكثر .

تنبيه

[فإن قيل] ذكرتم أن ظاهر القرآن يدل على دخول أولاد البنات فى لفظ البنين والشاعر يقول فى خلاف ذلك :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أبناء الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

وكثير من أهل الفقه يذكرون البيت المذكور ، على سبيل التسليم له ، قالوا : ومما يوضح صدقه أنهم ينسبون إلى رجال آخرين ، ربما كانوا أعداء لأهل أمهاتهم وكثيراً ما يتبع الولد أباه وعصبته ، فى عداوة أخواله وبغضهم كما هو معلوم .

[فالجواب] أن الواحد بالشخص له جهتان ، فمعنى لفظ الابن له جهة خاصة هى معنى كونه خلق من ماء هذا الرجل على وجه يلحق فيه نسبه به ، وهذا المعنى منفى عن والد أمه ، فلا يقال له ابن بهذا الاعتبار وثابت لأبيه الذى خلق من مائه ، وله جهة أخرى هى كونه خارجاً فى الجملة من هذا الشخص ، سواء كان بالمباشرة ، أو بواسطة ابنه أو بنته وإن سفل ، فالبنوة بهذا المعنى ثابتة لولد البنت ، وهذا المعنى هو الذى عناه صلى الله عليه وسلم فى قوله فى الحسن ابن على رضى الله عنهما « وإن ابنى هذا سيد » الحديث وهو المراد فى الآيات القرآنية كقوله تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم) وقوله تعالى (وبنات

الأخ وبنات الأخت) وكقوله تعالى : (لاجناح عليهن فى آبائهن ولاأبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) الآية .

فلفظ البنات والأبناء فى جميع الآيات المذكورة شامل لجميع أولاد البنين والبنات وإن سفلوا ، وإنما شملهم من الجهة المذكورة بالاعتبار المذكور ، وهو إطلاق لفظ الابن على كل من خرج من الشخص فى الجملة ، ولو بواسطة بناته .

وأما البيت المذكور فالمراد به الجهة الأولى والاعتبار الأول .

فإن بنى البنات ، ليسوا أبناء لآباء أمهاتهم من تلك الجهة ، ولا بذلك الاعتبار لأنهم لم يخلقوا من مائهم ، وإنما خلقوا من ماء رجال آخرين ، ربما كانوا أباعد وربما كانوا أعداء .

فصح بهذا الاعتبار نفى النبوة عن ابن البنت .

وصح بالاعتبار الأول إثبات البنوة له ولا تناقض مع انفكاك الجهة .

وإذا عرفت معنى الجهتين المذكورتين وأنه بالنظر إلى إحداهما تثبت البنوة لابن البنت وبالنظر إلى الأخرى تنتفى عنه .

فاعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : « إن ابنى هذا سيد » وقوله تعالى : (وبنات الأخ وبنات الأخت) ونحوها من الآيات ينزل على إحدى الجهتين .

وقوله تعالى : (وما كان محمد أبا أحد من رجالكم) يتنزل على الجهة الأخرى . وتلك الجهة هى التى يعنى الشاعر بقوله :

* وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد *

ويزيد ذلك إيضاحا : أن قبائل العرب قد تكون بينهم حروب ومقاتلات ،

فيكون ذلك القتال بين أعمام الرجل وأخواله ، فيكون مع عصبته دائما على أخواله ، كما فى البيت المذكور .

وقد يكون الرجل منهم فى أخواله فيعاملونه معاملة دون معاملتهم لأبنائهم.

كما أوضح ذلك غسان بن وعلة فى شعره حيث يقول :

إذا كنت فى سعد وأمك منهم شطيراً فلا يغررك خالك من سعد
فإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه إذا لم يزاحم خاله بأب جلد

فقوله مصغى إناؤه من الإصغاء وهو الإمالة ، لأن الإناء إذا أميل ولم يترك معتدلا لم يتسع إلا للقليل ، فهو كناية عن نقص نصيبه فيهم وقلته .

وعلى الجهتين المذكورتين يتنزل اختلاف الصحابة فى ميراث الجد والإخوة .

فمن رأى منهم أنه أب يحجب الإخوة ، فقد راعى فى الجد إحدى الجهتين .

ومن رأى منهم أنه ليس بأب وأنه لا يحجب الإخوة فقد لاحظ الجهة الأخرى .

ولم نطل الكلام هنا فى جميع الألفاظ المذكورة التى هى أحد عشر لفظاً خوف الإطالة . ولأننا لم نجد نصوصاً من الوحى تحدد شيئاً منها تحديداً دقيقاً .

ومعلوم أن لفظ القوم منها قد دل القرآن على أنه يختص بالذكور دون الإناث .

وأن الإناث قد يدخلن فيه بحكم التبع إذا اقترن بما يدل على ذلك .

لأن الله تعالى قال : (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم

ولانساء من نساء) الآية . فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن فى لفظ القوم .

ونظيره من كلام العرب قول زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى قـــوم آل حصن أم نساء

وأما دخول النساء فى القوم بحكم التبع عند الاقتران بما يدل على ذلك ، فقد بينه قوله تعالى فى ملكة سبأ : (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين)

وأما الموالى فقد دل القرآن واللغة على أن المولى يطلق على كل من له سبب يوالى ويوالى به .

ولذا أطلق على الله أنه مولى المؤمنين لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء.

ونفى ولاية الطاعة عن الكافرين فى قوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم) .

وأثبت له عليهم ولاية الملك والقهر فى قوله تعالى : (وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) . كما أثبت لهم ولاية النار فى قوله : (مأواكم النار هى مولاكم) الآية .

وأطلق تعالى اسم الموالى على العصبة فى قوله تعالى : (ولكل جعلنا مولى مما ترك الوالدان والأقربون) .

وأطلق اسم المولى على الأقارب ونحوهم فى قوله تعالى : (يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا) .

ويكثر فى كلام العرب إطلاق الموالى على العصبة وابن العم ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة ابن أبى لهب :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لاتظهرن لنا ما كان مدفونا

وقول طرفة بن العبد :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

والحاصل أن من قال هذا وقف ، أو صدقة على قومى . أو موالى أنه إن كان هناك عرف خاص ، وجب اتباعه فى ذلك ، وإن لم يكن هناك عرف فلا نعلم نصاً من كتاب ولا سنة يحدد ذلك تحديداً دقيقاً .

وكلام أهل العلم فيه معروف فى محاله .

والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وقالوا : أى قال كفار مكة ، لولا أى هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين ، أى من إحدى القريتين ، وهما مكة والطائف عظيم يعنون بعظمه . كثرة ماله وعظم جاهه ، وعلو منزلته فى قومه ، وعظيم مكة الذى يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ، وفى مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبى صلى الله عليه وسلم .

وقيل : هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .

وعظيم الطائف . هو عروة بن مسعود . وقيل حبيب بن عمرو بن عمير . وقيل هو كنانة بن عبد ياليل وقيل غير ذلك .

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولا أن يبعث الله رسولا من البشر كما أوضحناه مرارا .

ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولا إلا من البشر تنازلوا عن افتراضهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر ، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين :

وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم ، وسخافة عقولهم ، حيث يجعلون كثرة المال ، والجاه فى الدنيا ، موجبا لاستحقاق النبوة ، وتنزيل الوحى .

ولذا زعموا ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ليس أهلا لإنزال هذا القرآن عليه ، لقلة ماله ، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم .

وقد بين تعالى فى هذه الآية الكريمة ، شدة جهلهم ، وسخافة عقولهم ، بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك النبوة وإنزال الوحى .

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد فى القرآن كقوله تعالى فى الدخان (إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) الآية ، وقوله فى آخر القصص (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) الآية ، وقوله فى آخر الأنبياء (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وقد قدمنا الآيات الدالة ، على إطلاق الرحمة : والعلم على النبوة فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (فوجدوا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا) الآية .

وقدمنا معانى إطلاق الرحمة ، فى القرآن فى سورة فاطر ، فى الكلام على قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) يعنى أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معايشهم وحظوظهم ، فى الدنيا ، بل تولى هو جل وعلا قسمة ذلك بينهم ، فجعل هذا غنيا ، وهذا فقيرا ، وهذا رفيعا ، وهذا وضيعا ، وهذا خادما ، وهذا مخدوما ، ونحو ذلك فإذا لم يفوض إليهم ، حظوظهم فى الدنيا ، ولم يحكمهم فيها .

بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء ، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحى حتى يتحكموا فى من ينزل إليه الوحى ؟

فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبى جاهل كالكفار المذكورين .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) التحقيق إن شاء الله أنه من التسخير .

ومعنى تسخير بعضهم لبعض ، خدمة بعضهم البعض ، وعمل بعضهم لبعض ، لأن نظام العالم فى الدنيا ، يتوقف قيامه على ذلك ، فمن حكمته جل وعلا ، أن يجعل هذا فقيرا مع كونه قويا قادراً على العمل ، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه ، ولكنه تعالى يهيىء له دراهم ، يؤجر بها ذلك الفقير القوى فينتفع القوى بدراهم الضعيف ، والضعيف بعمل القوى فتنتظم المعيشة ، لكل منهما وهكذا .

وهذه المسائل التى ذكرها الله جل وعلا ، فى هذه السورة الكريمة جاءت كلها موضحة فى آيات أخر من كتاب الله .

أما زعمهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أنقص شرفا ، وقدرا من أن ينزل عليه الوحى ، فقد ذكره الله عنهم فى (ص) فى قوله تعالى (أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى) الآية .

فقول كفار مكة (أأنزل عليه الذكر من بيننا) معناه إنكارهم ، أن يخصه الله بإنزال الوحى من بينهم ، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحى منه ، لكثرة ماله ، وجاهه وشرفه فيهم .

وقد قال قوم صالح ، مثل ذلك لصالح ، كما قال تعالى منهم (أنزل الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) .

فقلوب الكفار متشابهة فكانت أعمالهم متشابهة .

كما قال تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) وقال تعالى (أتواصوا به بل هم قوم طاغون) .

وأما اقتراحهم إنزال الوحى على غيره منهم ، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم ، فقد ذكره تعالى فى سورة الأنعام فى قوله تعالى : (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) وقوله تعالى فى المدثر (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة) .

أى تنزل عليه صحف بالوحى من السماء ، كما قاله مجاهد وغير واحد ، وهو ظاهر القرآن .

وفى الآية قول آخر معروف .

وأما إنكاره تعالى عليهم ، اقتراح إنزال الوحى على غير محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى دلت عليه همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم ، وتسفيه عقولهم ، فى قوله : (أهم يقسمون رحمة ربك) . فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد فى الأنعام .

لأنه تعالى لما قال (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أتبع ذلك بقوله ، رداً عليهم ، وإنكاراً لمقالتهم (الله أعلم ، حيث يجعل رسالته) .

ثم أوعدهم على ذلك بقوله (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) .

وأما كونه تعالى هو الذى تولى قسمة معيشتهم بينهم ، فقد جاء فى مواضع أخر كقوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) . وقوله تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وقوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) وقوله تعالى : (ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) وقوله تعالى : (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) الآية .

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل ، والتفاوت فى الأرزاق ، والحظوظ والقوة والضعف ، ونحو ذلك ، بقوله هنا (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ، كما تقدم .

وقوله تعالى هنا (ورحمة ربك خير مما يجمعون) . يعنى أن النبوة ، والاهتداء بهدى الأنبياء ، وما يناله المهتدون يوم القيامة ، خير مما يجمعه الناس فى الدنيا من حطامها .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى ، فى غير هذا الموضع ، كقوله فى سورة يونس (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون). وقوله تعالى فى آل عمران (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما تجمعون) .

مسألة

دلت هذه الآيات الكريمة ، المذكورة هنا ، كقوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم)الآية . وقوله (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) الآية ونحو ذلك من الآيات ، على أن تفاوت الناس فى الأرزاق ، والحظوظ سنة ، من سنن الله السماوية الكونية ، القدرية ، لايستطيع أحد من أهل الأرض ، البتة تبديلها ولا تحويلها ، بوجه من الوجوه ، (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) .

وبذلك تحقق أن مايتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجودالله ،ولجميع النبوات ، والرسائل السماوية ، إلى ابتزاز ثروات الناس ، ونزع ملكهم الخاص ، عن أملاكهم بدعوى المساواة بين الناس ، فى معايشهم أمر باطل. لا يمكن بحال من الأحوال .

مع أنهم لايقصدون ذلك الذى يزعمون ، وإنما يقصدون استئثارهم ، بأملاك جميع الناس ، ليتمتعوا بها ويتصرفوا فيها ، كيف شاءوا ، تحت ستار كثير من أنواع الكذب ، والغرور والخداع ، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم ، وأحوالهم مع المجتمع فى بلادهم .

فالطغمة القليلة الحاكمة ، ومن ينضم إليها ، هم المتمتعون بجميع خيرات البلاد. وغيرهم من عامة الشعب . محرومون من كل خير . مظلومون فى كل شىء . حتى ما كسبوه بأيديهم ، يعلفون ببطاقة ، كما تعلف البغال والحمير .

وقد علم الله جل وعلا فى سابق علمه أنه يأتى ناس يغتصبون أموال الناس بدعوى أن هذا فقير وهذا غنى ، وقد نهى جل وعلا عن اتباع الهوى ، بتلك

الدعوى ، وأوعد من لم ينته عن ذلك ، بقوله تعالى : (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) .

وقوله : (فإن الله كان بما تعملون خبيراً) فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قوله لبيوتهم ، فى الموضعين ، قرأه ورش وأبو عمرو وحفص ، عن عاصم ، بضم الباء على الأصل .

وقرأه قالون ، عن نافع وابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة والكسائى ، وشعبة عن عاصم (لبيوتهم) بكسر الباء لمجانسة الكسرة للياء .

وقوله سقفا : قرأه نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، وعاصم ، سقفاً بضمتين ، على الجمع .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (سقفاً) بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع .

وقوله : (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) قرأه نافع وابن كثير ، وابن عامر ، فى رواية ابن ذكوان ، وإحدى الروايتين عن هشام وأبو عمرو والكسائى (لما متاع الحياة الدنيا) بتخفيف الميم من لما .

وقرأه عاصم ، وحمزة وهشام ، عن ابن عامر ، وفى إحدى الروايتين (لما متاع الحياة الدنيا) بتشديد الميم من لما .

ومعنى الآية الكريمة ، أن الله لما بين حقارة الدنيا ، وعظم شأن الآخرة في قوله : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

أتبع ذلك ببيان شدة حقارتها ، وأنه جعلها مشتركة ، بين المؤمنين ، والكافرين وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين ، دون الكافرين وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر ، في نعيم الدنيا بقوله : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة ، متفقة على الكفر ، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار .

ولكننا لعلمنا ، بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا ، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار ، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً ، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً ، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا .

ثم بين جل وعلا اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله : (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

أي خالصة لهم دون غيرهم .

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في الأعراف : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)

فقوله : (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة .

أي خاصة بهم ، دون الكفار ، يوم القيامة .

إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة .

فقوله فى آية الأعراف هذه (قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) صريح فى اشتراك المؤمنين مع الكفار فى متاع الحياة الدنيا .

وذلك الاشتراك المذكور ، دل عليه حرف الامتناع ، للوجود الذى هو لولا ، فى قوله هنا (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) .

وخصوص طيبات الآخرة ، بالمؤمنين المنصوص عليه فى آية الأعراف بقوله (خالصة يوم القيامة) هو الذى أوضحه تعالى فى آية الزخرف هذه بقوله (والآخرة عند ربك للمتقين) .

وجميع المؤمنين يدخلون فى الجملة فى لفظ المتقين لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله .

ومادلت عليه هذه الآيات . من أنه تعالى يعطى الكفار من متاع الحياة الدنيا ، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى (قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) وقوله (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقول تعالى (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) وقوله (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) والآيات بمثل هذا كثيرة .

وقد بين تعالى فى آيات من كتابه ، أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه ، ولكنه للاستدراج ، كقوله تعالى (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم إن كيدى متين) وقوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله

رب العالمين) وقوله تعالى (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) وقوله تعالى (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) على أظهر التفسيرين . وقوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) وقوله تعالى : (فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير) .

ودعوى الكفار ، أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك ، وأنه إن كان البعث حقا أعطاهم خيراً منه فى الآخرة قد ردها الله عليهم فى آيات كثيره كقوله تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) ، وقوله تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً) ، وقوله تعالى (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) ، وقوله تعالى : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) وقوله تعالى : (وما يغنى عنه ماله إذا تردى)وقوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا طرفا من هذا فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منهما منقلبا) .

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة.فقوله (جعلنا) أى صيرنا،وقوله لبيوتهم . بدل اشتمال مع إعادة العامل ، من قوله لمن يكفر ، وعلى قراءة سقفا بضمتين ، فهو جمع سقف ، وسقف البيت معروف .

وعلى قراءة سقفا بفتح السين ، وسكون القاف : فهو مفرد أريد به الجمع .

وقد قدمنا فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) أن المفرد إذا كان اسم جنس . يجوز إطلاقه مرادا به الجمع وأكثرنا من أمثلة ذلك فى القرآن ، ومن الشواهد العربية . على ذلك .

وقوله (ومعارج) الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء .

والمعرج والمعراج بمعنى واحد وهو الآلة التى يعرج بها أى يصعد بها ، إلى العلو .

وقوله : يظهرون أى يصعدون ويرتفعون ، حتى يصيروا على ظهور البيوت ، ومن ذلك المعنى قوله تعالى (فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) .

والسرر جمع سرير ، والاتكاء معروف .

والأبواب جمع باب وهو معروف ، والزخرف الذهب .

قال الزمخشرى : إن المعارج التى هى المصاعد ، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة ، كأنه يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى ذلك ، وعلى هذا المعنى فقوله زخرفا مفعول، عامله محذوف والتقدير وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا .

وقال بعض العلماء : إن جميع ذلك بعضه من فضة ، وبعضه من زخرف ، أى ذهب .

وقد ذكر القرطبى أن إعراب قوله وزخرفا على هذا القول أنه منصوب بنزع الخافض . وأن المعنى من فضة ، ومن زخرف ، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفا .

وأكثر علماء النحو على أن النصب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسيا، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه .

وعليه درج ابن مالك فى الخلاصة فى قوله : وإن حذف فالنصب للمنجر نقلا . الخ .

وعلى بن سليمان وهو الأخفش الصغير يرى اطراده فى كل شىء أمن فيه اللبس، كما أشار فى الكافية بقوله :

وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى

وقوله تعالى : (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما ، فإن هى المخففة ، من الثقيلة ، واللام هى الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة ، وإن النافية المشار إليها بقوله فى الخلاصة :

وخففت إن فعل العمل وتلزم اللام إذا ماتهمل

وما مزيدة للتوكيد ، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر فى إحدى الروايتين عن هشام لما بتشديد الميم فإن نافية ، ولما حرف إثبات بمعنى إلا .

والمعنى : وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا .

وذكر بعضهم أن تشديد ميم لما على بعض القراءات فى هذه الآية وآية الطارق (إن كل نفس لما عليها حافظ) لغة بنى هذيل ابن مدركة ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى: (وقيضنا لهم قرناء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى الصافات فى الكلام على قوله تعالى : (فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

أمر الله جل وعلا ، نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدى هذا القرآن العظيم ، وبين له أنه على صراط مستقيم أى طريق واضح . لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام الذى تضمنه هذا القرآن العظيم ، الذى أوحى إليه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، قد جاء موضحاً فى آيات أخر ، من كتاب الله .

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم ، فقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة

الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته) .

وأما إخباره له صلى الله عليه وسلم بأنه على صراط مستقيم فمن الآيات التى أوضح ذلك فيها قوله تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) ، وقوله تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) ، وقوله تعالى : (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) . وقوله تعالى : (فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم) وقوله تعالى : (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) إلى غير ذلك من الآيات .

وآية الزخرف هذه تدل على أن التمسك بهذا القرآن على هدى من الله، وهذا معلوم بالضرورة .

قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله ، الذى تضمنته كلمة لا إله إلا الله ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبى أمته .

قال تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ، وقال تعالى : (وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ، وقال تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله

مالكم من إله غيره)، وقال تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام على قصة موسى وفرعون فى سورة الأعراف وسورة طه.

قوله تعالى : ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ .

لم يبين هنا نوع العذاب الذى أخذهم به ، ولكنه أوضحه فى الأعراف فى قوله تعالى: (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات) ، وقوله تعالى: (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ .

ماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أوضحه فى الأعراف بقوله : (ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون) .

والرجز المذكور فى الأعراف هو بعينه العذاب المذكور فى آية الزخرف هذه .

قوله تعالى عن فرعون : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾

قد تقدم الكلام عليه فى طه فى الكلام على قوله تعالى عن موسى (واحلل عقدة من لسانى) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى: (لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً) الآية .

قوله تالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾

آسفونا معناه أغضبونا ، وأسخطونا وكون المراد بالأسف الغضب ، يدل عليه إطلاق الأسف على أشد الغضب فى قوله تعالى : (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) على أصح التفسيرين .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى هذه السورة الكريمة ، فى الكلام على قوله تعالى : (فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ وَقَالُوٓاْ ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائى (يصدون) بضم الصاد .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة (يصدون) بكسر الصاد .

فعلى قراءة الكسر فمعنى يصدون يضجون ويصيحون ، وقيل يضحكون ، وقيل معنى القراءتين واحد . كيعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون .

وعلى قراءة الضم فهو من الصدود والفاعل المحذوف فى قوله (ضرب) .

قال جمهور المفسرين هو عبد الله بن الزبعرى السهمى قبل إسلامه .

أى ولما ضرب ابن الزبعرى المذكور عيسى ابن مريم مثلا فاجأك قومك بالضجيج والصياح والضحك، فرحا منهم وزعما منهم أن ابن الزبعرى خصمك، أو فاجأك صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل .

والظاهر أن لفظة من هنا سببية ، ومعلوم أن أهل العربية ، يذكرون أن من معانى من السببية ، ومنه قوله تعالى : (ممـــا خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً) .

أى بسبب خطيئاتهم أغرقوا .

ومن ذلك قول الحالفين فى أيمان القسامة : أقسم بالله لمن ضربه مات .

وإيضاح معنى ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلا، أن الله لما أنزل قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) ، قال ابن الزبعرى : إن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول إن كل معبود من دون الله فى النار وأننا وأصنامنا جميعاً فى النار ، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان ابن مريم مع النصارى الذين عبدوه فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه .

وقالوا مثل ذلك فى عزير والملائكة لأن عزيرا عبده اليهود ، والملائكة عبدهم بعض العرب .

فاتضح أن ضربه عيسى مثلا ، يعنى أنه على ما يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قاله ، من أن كل معبود وعابده فى النار ، يقتضى أن يكون عيسى مثلا لأصنامهم ، فى كون الجميع فى النار ، مع أن النبى صلى الله عليه وسلم يثنى على عيسى الثناء الجميل ، ويبين للناس أنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

فزعم ابن الزبعرى أن كلام النبى صلى الله عليه وسلم لما اقتضى مساواة

الأصنام مع عيسى فى دخول النار مع أنه صلى الله عليه وسلم يعترف بأن عيسى رسول الله وأنه ليس فى النار ، دل ذلك على بطلان كلامه عنده .

وعند ذلك أنزل الله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لايحزنهم الفزع الأكبر) الآية ، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى : (ولما ضرب ابن مريم مثلا) الآية .

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى : ماضربوه لك إلا جدلا ، أى ماضربوا عيسى مثلا إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل .

وقيل إن جدلا حال وإتيان المصدر المنكر حالا كثير ، وقد أوضحنا توجيهه مراراً .

والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق .

قال جماعة من العلماء : والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشىء يعلمون فى أنفسهم أنه باطل ، أن الآية التى تذرعوا بها إلى الجدل ، لاتدل البتة ، على مازعموه ، وهم أهل اللسان ، ولا تخفى عليهم معانى الكلمات .

والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة « ما » التى هى فى الوضع العربى لغير العقلاء لأنه قال إنكم (وما تعبدون) ولم يقل (ومن) تعبدون وذلك صريح فى أن المراد الأصنام ، وأنه لايتناول عيسى ولا عزيراً ولا الملائكة ، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الآية .

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة ، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربى ، الذى نزل به القرآن ، تحققنا أنهم ماضربوا عيسى مثلا ، إلا لأجل الجدل ، والخصومة بالباطل .

ووجه التعبير فى صيغة الجمع فى قوله (ماضربوه لك إلا جدلا) مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبعرى يرجع إلى أمرين :

أحدهما : أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة ، ومن أصرح الشواهد العربية فى ذلك قوله :

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بنى عبس مع تصريحه بأن السيف فى يد رجل واحد منهم ، وهو ورقاء بن زهير ، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابى لزهير بن جذيمة العبسى ، وأن ورقاء بن زهير ، ضرب بسيف بنى عبس ، رأس خالد بن جعفر الكلابى ، الذى قتل أباه ونبا عنه ، أى لم يؤثر فى رأسه ، فإن معنى : نبا السيف ارتفع عن الضريبة ولم يقطع .

والشاعر يهجو بنى عبس بذلك .

والحروب التى نشأت عن هذه القصة ، وقتل الحارث ابن ظالم المرى لخالد المذكور ، كل ذلك معروف فى محله .

والأمر الثانى : أن جميع كفار قريش ، صوبوا ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلا ، وفرحوا بذلك ، ووافقوه عليه ، فصاروا كالمتمالئين عليه .

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع فى قوله : (فعقروا الناقة) وقوله (فكذبوه فعقروها) وبين صيغة الإفراد فى قوله : (ونادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) .

وقال بعض العلماء : الفاعل المحذوف فى قوله ولما ضرب ابن مريم مثلا هو عامة قريش .

والذين قالوا إن كفار قريش لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر عيسى ، وسمعوا قول الله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ماتريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى .

وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فى عبادة الناس لكل منهما ، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى .

وعلى هذا القول فمعنى قوله (ماضربوه لك إلا جدلا) ، أى ماضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل ، مع أنهم يعلمون أنك لاترضى أن تعبد بوجه من الوجوه .

وقوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) الآية .

وإن كان من القرآن المدنى النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبى صلى الله عليه وسلم كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم .

وكذلك قوله (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) .

ولاشك أن كفار قريش متيقنون ، فى جميع المدة التى أقامها صلى الله عليه وسلم ، فى مكة قبل الهجرة بعد الرسالة ، وهى ثلاث عشرة سنة ، أنه لايدعو إلا إلى عبادة الله ، وحده لاشريك له .

فادعاؤهم ، أنه يريد أن يعبدوه ، افتراء منهم ، وهم يعلمون أنهم مفترون ، فى ذلك .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (أآلهتنا خير أم هو) ؟

التحقيق أن الضمير فى قوله (هو) راجع إلى عيسى ، لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام .

قال بعض العلماء : ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى .

قيل : لأنهم يتخذون الملائكة آلهة ، والملائكة أفضل عندهم من عيسى .

وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله ، ولم يكن ذلك سبباً لكونه فى النار ، ومعبوداتنا خير من عيسى ، فكيف تزعم أنهم فى النار .

وقال بعض العلماء : أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم .

والمعنى على هذا أنهم يقولون : عيسى خير من آلهتنا ، أى فى زعمك وأنت تزعم أنه فى النار ، بمقتضى عموم ماتلوه من قوله (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) .

وعيسى عبده النصارى من دون الله ، فدلالة قولك على أن عيسى فى النار ، مع اعترافك بخلاف ذلك ، يدل على أن ماتقوله ، من أنا وآلهتنا ، فى النار ليس بحق أيضاً .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (بل هم قوم خصمون) أى لد ، مبالغون فى الخصومة ، بالباطل ، كما قال تعالى : (وتنذر به قوما لداً) أى شديدى الخصومة .

وقوله تعالى : (وهو ألد الخصام) ، لأن الفعل بفتح فكسر كخصم ، من صيغ المبالغة ، كما هو معلوم فى محله .

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا (ولما ضرب ابن مريم مثلا) الآية إنما بينته الآيات التى ذكرنا ببيان سببه .

ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها ببيان سببها .

فعلى القول الأول ، أنهم ضربوا عيسى مثلا لأصنامهم ، فى دخول النار ، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) لأنها لما نزلت قالوا إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء .

وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفا .

وعلى القول الثانى أنهم ضربوا عيسى مثلا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فى أن عيسى قد عبد ، وأنه صلى الله عليه وسلم ، يريد أن يعبد كما عبد عيسى ، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) وسماعهم للآيات المكية النازلة فى شأن عيسى يوضح المراد بالمثل .

وأما الآيات التى بينت قوله (ماضربوه لك إلا جدلا) فبيانها له واضح على كلا القولين . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ .

والتحقيق أن الضمير فى قوله : هو عائد إلى عيسى أيضاً لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام .

وقوله هنا : (عبد أنعمنا عليه) لم يبين هنا شيئا من الإنعام الذى أنعم به على عبده عيسى ، ولكنه بين ذلك فى المائدة ، فى قوله تعالى : (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس

تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوارة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيأة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات) وفى آل عمران ، فى قوله تعالى (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) إلى قوله (ومن الصالحين) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ .

التحقيق أن الضمير فى قوله : وإنه راجع إلى عيسى لا إلى القرآن ، ولا إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ومعنى قوله : (لعلم للساعة) على القول الحق الصحيح الذى يشهد له القرآن العظيم ، والسنة المتواترة ، هو أن نزول عيسى فى آخر الزمان ، حيا علم للساعة أى علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراطها الدالة على قربها .

وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى ، جار على أمرين ، كلاهما أسلوب عربى معروف .

أحدهما : أن نزول عيسى المذكور ، لما كان علامة لقربها ، كانت تلك العلامة ، سبباً لعلم قربها ، فأطلق فى الآية المسبب وأريد السبب .

وإطلاق المسبب وإرادة السبب ، أسلوب عربى معروف فى القرآن ، وفى كلام العرب .

ومن أمثلته فى القرآن قوله تعالى : (وينزل لكم من السماء رزقا) .

فالرزق مسبب عن المطر والمطر سببه ، فأطلق المسبب الذى هو الرزق وأريد سببه الذى هو المطر للملابسة القوية التى بين السبب والمسبب .

ومعلوم أن البلاغيين ، ومن وافقهم ، يزعمون أن مثل ذلك ، من نوع ما يسمونه المجاز المرسل ، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم .

والثانى من الأمرين أن غاية مافى ذلك ، أن الكلام على حذف مضاف ، والتقدير ، وإنه لذو علم للساعة ، أى وإنه لصاحب إعلام الناس ، بقرب مجيئها ، لكونه علامة لذلك ، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، كثير فى القرآن ، وفى كلام العرب ، وإليه أشار فى الخلاصة بقوله :

وما يلى المضاف يأت خلفا عنه فى الإعراب إذا ما حذفا

وهذا الأخير أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر كقولك : زيد كرم وعمرو عدل أى ذو كرم وذو عدل كما قال تعالى : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) ، وقد أشار إلى ذلك فى الخلاصة بقوله :

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا

أما دلالة القرآن الكريم على هذا القول الصحيح ، ففى قوله تعالى فى سورة النساء : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك صريح فى أن عيسى حى وقت نزول آية النساء هذه ، وأنه لا يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب

ومعلوم أنهم لا يؤمنون به إلا بعد نزوله إلى الأرض .

فإن قيل قد ذهبت جماعة من المفسرين ، من الصحابة فمن بعدهم إلى أن الضمير فى قوله : قبل موته راجع إلى الكتابى ، أى إلا ليؤمنن به الكتابى قبل موت الكتابى .

فالجواب أن يكون الضمير راجعاً إلى عيسى ،يجب المصير إليه ،دون القول الآخر ، لأنه أرجح منه من أربعة أوجه :

الأول : أنه هو ظاهر القرآن المتبادر منه ، وعليه تنسجم الضمائر بعضها مع بعض .

والقول الآخر بخلاف ذلك .

وإيضاح هذا أن الله تعالى قال : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) ثم قال تعالى : (وماقتلوه) أى عيسى ، (وماصلبوه) أى عيسى (ولكن شبه لهم) أى عيسى (وإن الذين اختلفوا فيه) أى عيسى (لفي شك منه) أى عيسى (مالهم به من علم) أى عيسى ، (وماقتلوه يقيناً) أى عيسى (بل رفعه الله) أى عيسى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به) أى عيسى (قبل موته) أى عيسى (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) أى يكون هو ، أى عيسى عليهم شهيدا .

فهذا السياق القرآنى الذى ترى ، ظاهر ظهوراً لا ينبغى العدول عنه ، فى أن الضمير فى قوله قبل موته ، راجع إلى عيسى .

الوجه الثانى : من مرجحات هذا القول ، أنه على هذا القول الصحيح ، فمفسر الضمير ، ملفوظ مصرح به ، فى قوله تعالى : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) .

وأما على القول الآخر فمفسر الضمير ليس مذكوراً فى الآية أصلا ، بل هو مقدر تقديره : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته ، أى موت أحد أهل الكتاب المقدر .

ومما لا شك فيه ، أن ما لا يحتاج إلى تقدير ، أرجح وأولى ، مما يحتاج إلى تقدير .

الوجه الثالث من مرجحات هذا القول الصحيح ، أنه تشهد له السنة النبوية المتواترة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تواترت عنه الأحاديث بأن عيسى حي الآن ، وأنه سينزل في آخر الزمان حكما مقسطا .

ولا ينكر تواتر السنة بذلك إلا مكابر .

قال ابن كثير في تفسيره ، بعد أن ذكر هذا القول الصحيح ونسبه إلى جماعة من المفسرين ما نصه :

وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله تعالى. اهـ.

وقوله بالدليل القاطع يعني السنة المتواترة ، لأنها قطعية وهو صادق في ذلك.

وقال ابن كثير ، في تفسير آية الزخرف هذه ما نصه :

وقد تواترت الأحاديث ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، «أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلا وحكما مقسطاً» اهـ منه .

وهو صادق في تواتر الأحاديث بذلك .

وأما القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى الكتاب فهو خلاف ظاهر القرآن ، ولم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة .

الوجه الرابع : هو أن القول الأول الصحيح ، واضح لا إشكال فيه ، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص بخلاف القول الآخر ، فهو مشكل لا يكاد يصدق ، إلا مع تخصيص ، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس ، وغيره ، ظاهرة البعد والسقوط لأنه على القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى عيسى فلا إشكال ولا خفاء ، ولا حاجة إلى تأويل ، ولا إلى تخصيص .

وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جداً بالنسبة لكل

من فاجأه الموت من أهل الكتاب، كالذى يسقط من عال إلى أسفل، والذى يقطع رأسه بالسيف وهو غافل والذى يموت فى نومه ونحو ذلك، فلا يصدق هذا العموم المذكور فى الآية على هذ النوع، من أهل الكتاب، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص.

ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن، إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة.

وما يذكر عن ابن عباس من أنه سئل عن الذى يقطع رأسه من أهل الكتاب فقال إن رأسه يتكلم، بالإيمان بعيسى، وأن الذى يهوى من عال إلى أسفل يؤمن به وهو يهوى، لا يخفى بعده وسقوطه، وأنه لا دليل البتة عليه كما ترى.

وبهذا كله تعلم، أن الضمير فى قوله (قبل موته)، راجع إلى عيسى، وأن تلك الآية من سورة النساء تبين قوله تعالى هنا: (وإنه لعلم للساعة) كما ذكرنا.

فإن قيل: إن كثيراً ممن لا تحقيق عندهم يزعمون أن عيسى قد توفى، ويعتقدون مثل ما يعتقده، ضلال اليهود والنصارى، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى: إنى متوفيك ورافعك إلى) وقوله (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم).

فالجواب أنه لادلالة فى إحدى الآيتين البتة على أن عيسى قد توفى فعلاً.

أما قوله تعالى: (إن متوفيك) فإن دلالته المزعومة على ذلك منفية من أربعة أوجه:

الأول: أن قوله: (متوفيك) حقيقة لغوية فى أخذ الشىء كاملا غير ناقص، والعرب تقول: توفى فلان دينه يتوفاه فهو متوف له إذا قبضه وحازه إليه كاملا من غير نقص.

فمعنى : (إنى متوفيك) فى الوضع اللغوى أى حائزك إلى ، كاملا بروحك وجسمك .

ولكن الحقيقة العرفية خصصت التوفى المذكور بقبض الروح دون الجسم ونحو هذا مما دار بين الحقيقة اللغوية والحقيقة العرفية فيه لعلماء الأصول ثلاثة مذاهب .

الأول : هو تقديم الحقيقة العرفية ، وتخصيص عموم الحقيقة اللغوية بها .

وهذا هو المقرر فى أصول الشافعى وأحمد ، وهو المقرر فى أصول مالك إلا أنهم فى الفروع ربما لم يعتمدوه فى بعض المسائل .

وإلى تقديم الحقيقة العرفية ، على الحقيقة اللغوية أشار فى مراقى السعودى بقوله :

واللفظ محمول على الشرعى إن لم يكن فمطلق العرفى
فاللغوى على الجلى ولم يجب بحث عن المجاز فى الذى انتخب

المذهب الثانى : هو تقديم الحقيقة اللغوية على العرفية بناء على أن العرفية وإن ترجحت بعرف الاستعمال ، فإن اللغوية مترجحة بأصل الوضع .

وهذا القول مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

المذهب الثالث : أنه لا تقدم العرفية على اللغوية ، ولا اللغوية على العرفية ، بل يحكم باستوائهما ومعادلة الاحتمالين فيهما ، فيحكم على اللفظ بأنه مجمل ، لاحتمال هذه واحتمال تلك .

وهذا اختيار ابن السبكى ، ومن وافقه ، وإلى هذين المذهبين الأخيرين أشار فى مراقى السعودى بقوله :

ومذهب النعمان عكس ما مضى والقول بالإجمال فيه مرتضى

وإذا علمت هذا ، فاعلم أنه على المذهب الأول ، الذى هو تقديم الحقيقة اللغوية ، على العرفية ، فإن قوله تعالى : (إنى متوفيك) لايدل إلا على أنه قبضه إليه بروحه وجسمه ، ولايدل على الموت أصلا ، كما أن توفى الغريم لدينه لايدل على موت دينه .

وأما على المذهب الثانى : وهو تقديم الحقيقة العرفية على اللغوية ، فإن لفظ التوفى حينئذ ، يدل فى الجملة على الموت.

ولكن سترى إن شاء الله ، أنه وإن دل على ذلك فى الجملة ، لايدل على أن عيسى قد توفى فعلا .

وقد ذكرنا فى كتابنا : دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب ، فى سورة آل عمران ، وجه عدم دلالة الآية ، على موت عيسى فعلا ، أعنى قوله تعالى : (إنى متوفيك) فقلنا ما نصه :

والجواب عن هذا ، من ثلاثة أوجه :

الأول أن قوله تعالى : (متوفيك) لايدل على تعيين الوقت ، ولايدل على كونه قد مضى ، وهو متوفيه قطعا يوما ما ، ولكن لادليل على أن ذلك اليوم قد مضى .

وأما عطفه ورافعك إلى ، على قوله : متوفيك ، فلادليل فيه لإطباق جمهور أهل اللسان العربى ، على أن الواو لاتقتضى الترتيب ولا الجمع ، وإنما تقتضى مطلق التشريك .

وقد ادعى السيرافى والسهيلى ، إجماع النحاة على ذلك ، وعزاه الأكثر للمحققين وهو الحق ، خلافا لما قاله قطرب والفراء وثعلب وأبو عمرو الزاهد وهشام والشافعى من أنها تفيد الترتيب لكثرة استعمالها فيه .

وقد أنكر السيرافى ثبوت هذا القول عن الفراء وقال لم أجده فى كتابه.

وقال ولى الدين : أنكر أصحابنا نسبة هذا القول إلى الشافعى .

حكاه عنه صاحب الضياء اللامع .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أبدأ بما بدأ الله به » يعنى الصفا لادليل فيه على اقتضائها الترتيب .

وبيان ذلك هو ما قاله الفهرى كما ذكره عنه صاحب الضياء اللامع .

وهو أنها كما أنها لاتقتضى الترتيب ولا المعية ، فكذلك لاتقتضى المنع منهما .

فقد يكون العطف بها مع قصد الاهتمام بالأول كقوله : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) الآية بدليل الحديث المتقدم .

وقد يكون المعطوف بها مرتباً كقول حسان :

* هجوت محمداً وأجبت عنه *

على رواية الواو .

وقد يراد بها المعية كقوله : (فأنجيناه وأصحاب السفينة) وقوله (وجمع الشمس والقمر) ولكن لاتحمل على الترتيب ولا على المعية إلا بدليل منفصل.

الوجه الثانى : أن معنى (متوفيك) أى منيمك ورافعك إلى ، أى فى تلك النومة .

وقد جاء فى القرآن إطلاق الوفاة على النوم فى قوله تعالى : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار) ، وقوله : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) ، وعزى ابن كثير هذا القول للأكثرين ،

واستدل بالآيتين المذكورتين .

الوجه الثالث : أن متوفيك ، اسم فاعل توفاه ، إذا قبضه وحازه إليه ، ومنه قولهم : توفى فلان دينه إذا قبضه إليه ، فيكون معنى متوفيك على هذا ، قابضك منهم إلى حياً ، وهذا القول هو اختيار ابن جرير .

وأما الجمع بأنه توفاه ساعات أو أياما ، ثم أحياه فلا معول عليه ، إذ لادليل عليه . اهـ . من دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وقد قدمنا فى هذا البحث أن دلالة قوله تعالى : (متوفيك) على موت عيسى فعلا ، منفية من أربعة أوجه ، وقد ذكرنا منها ثلاثة ، من غير تنظيم ، أولها أن (متوفيك) حقيقة لغوية فى أخذه بروحه وجسمه .

الثانى : أن (متوفيك) وصف محتمل للحال والاستقبال والماضى ، ولا دليل فى الآية على أن ذلك التوفى قد وقع ومضى ، بل السنة المتواترة والقرآن دالان على خلاف ذلك ، كما أوضحنا فى هذا المبحث .

الثالث : أنه توفى نوم ، وقد ذكرنا الآيات الدالة على أن النوم يطلق عليه الوفاة ، فكل من النوم والموت ، يصدق عليه اسم التوفى ، وهما مشتركان فى الاستعمال العرفى .

فهذه الأوجه الثلاثة ذكرناها كلها فى الكلام الذى نقلنا من كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .

وذكرنا الأول منها بانفراده لنبين مذاهب الأصوليين فيه .

وأما قوله تعالى : (فلما توفيتنى) الآية ، فدلالته على أن عيسى مات ، منفية من وجهين :

الأول منها : أن عيسى يقول ذلك يوم القيامة ، ولا شك أنه يموت قبل

يوم القيامة ، فإخباره بموم القيامة بموته ، لايدل على أنه الآن قد مات كما لا يخفى .

والثانى منهما : أن ظاهر الآية أنه توفى رفع وقبض للروح والجسد ، لاتوفى موت .

وإيضاح ذلك أن مقابلته لذلك التوفى بالديمومة فيهم فى قوله : (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى) الآية ، تدل على ذلك لأنه لو كان توفى موت ، لقال مادمت حياً ، فلما توفيتنى لأن الذى يقابل بالموت هو الحياة كما فى قوله : (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) .

أما التوفى المقابل بالديمومة فيهم فالظاهر أنه توفى انتقال عنهم ، إلى موضع آخر .

وغاية مافى ذلك هو حمل اللفظ على حقيقته اللغوية مع قرينة صارفة عن قصد العرفية ، وهذا لا إشكال فيه .

وأما الوجه الرابع ، من الأوجه المذكورة سابقاً ، أن الذين زعموا أن عيسى قد مات ، قالوا إنه لاسبب لذلك الموت ، إلا أن اليهود قتلوه وصلبوه ، فإذا تحقق نفى هذا السبب وقطعهم أنه لم يمت بسبب غيره ، تحققنا أنه لم يمت أصلا ، وذلك السبب الذى زعموه ، منفى يقينا بلاشك ، لأن الله جل وعلا قال : (وما قتلوه وما صلبوه) . وقال تعالى : (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) .

وضمير رفعه ظاهر فى رفع الجسم والروح معاً كما لايخفى .

وقد بين الله جل وعلا مستند اليهود فى اعتقادهم أنهم قتلوه ، بأن الله ألقى شبهه على إنسان آخر فصار من يراه يعتقد اعتقاداً جازماً أنه عيسى .

فرآه اليهود لما أجمعوا على قتل عيسى فاعتقدوا لأجل ذلك الشبه الذى

ألقى عليه اعتقاداً جازماً أنه عيسى فقتلوه .

فهم يعتقدون صدقهم ، فى أنهم قتلوه وصلبوه ، ولكن العليم اللطيف الخبير ، أوحى إلى نبيه، فى الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه .

فمحمد صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوه عندهم علم من الله بأمر عيسى لم يكن عند اليهود ولا النصارى كما أوضحه تعالى بقوله : (وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) .

والحاصل أن القرآن العظيم على التفسير الصحيح والسنة المتواترة عن النبى صلى الله عليه وسلم كلاهما دال على أن عيسى حى ، وأنه سينزل فى آخر الزمان ، وأن نزوله من علامات الساعة ، وأن معتمد الذين زعموا أنهم قتلوه ومن تبعهم هو إلقاء شبهه على غيره ، واعتقادهم الكاذب أن ذلك المقتول الذى شبه بعيسى هو عيسى .

وقد عرفت دلالة الوحى على بطلان ذلك ، وأن قوله (متوفيك) لا يدل على موته فعلا .

وقد رأيت توجيه ذلك من أربعة أوجه ، وأنه على المقرر فى الأصول، فى المذاهب الثلاثة التى ذكرنا عنهم ، ولا إشكال فى أنه لم يمت فعلا .

أما على القول بتقديم الحقيقة اللغوية فالأمر واضح ، لأن الآية على ذلك لا تدل على الموت .

وأما على القول بالإجمال ، فالمقرر فى الأصول أن المجمل ، لا يحمل على واحد من معنييه ، ولا معانيه بل يطلب بيان المراد منه ، بدليل منفصل .

وقد دل الكتاب هنا والسنة المتواترة على أنه لم يمت وأنه حى .

وأما على القول بتقديم الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية ، فإنه يجاب عنه من أوجه :

الأول : أن التوفى محمول على النوم ، وحمله عليه يدخل فى اسم الحقيقة العرفية .

والثانى : أنا وإن سلمنا أنه توفى موت ، فالصيغة لا تدل على أنه قد وقع فعلا .

الثالث : أن القول المذكور بتقديم العرفية ، محله فيما إذا لم يوجد دليل صارف ، عن إرادة العرفية اللغوية ، فإن دل على ذلك دليل وجب تقديم اللغوية قولا واحداً

وقد قدمنا مراراً دلالة الكتاب والسنة المتواترة على إرادة اللغوية هنا دون العرفية .

واعلم بأن القول بتقديم اللغوية على العرفية ، محله فيما إذا لم تتناس اللغوية بالكلية ، فإن أميتت الحقيقة اللغوية بالكلية ، وجب المصير إلى العرفية إجماعاً ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

أجمع إن حقيقة تمـــات على التقدم له الإثبات

فمن حلف ليأكلن من هذه النخلة ، فمقتضى الحقيقة اللغوية ، أنه لا يبر يمينه حتى يأكل من نفس النخلة لا من ثمرتها .

ومقتضى الحقيقة العرفيه أنه يأكل من ثمرتها لا من نفس جذعها .

والمصير إلى العرفية هنا واجب إجماعا ، لأن اللغوية فى مثل هذا أميتت بالكلية .

فلا يقصد عاقل البتة الأكل من جذع النخلة .

أما الحقيقة اللغوية فى قوله تعالى : (إنى متوفيك) فإنها ليست من الحقيقة المماتة كما لا يخفى .

ومن المعلوم فى الأصول أن العرفية تسمى حقيقة عرفية ومجازاً لغوياً ، وأن اللغوية تسمى عندهم حقيقة لغوية ، ومجازاً عرفيا .

وقد قدمنا مرارا أنا أوضحنا أن القرآن الكريم لامجاز فيه على التحقيق فى رسالتنا المسماة « منع جواز المجاز ، فى المنزل للتعبد والإعجاز » .

فاتضح مما ذكرنا كله أن آية الزخرف هذه تبينها آية النساء المذكورة ، وأن عيسى لم يمت وأنه ينزل فى آخر الزمان وإنما قلنا إن قوله تعالى هنا : (وإنه لعلم للساعة) أى علامة ودليل على قرب مجيئها ، لأن وقت مجيئها بالفعل لا يعلمه إلا الله .

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك مرارا .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فلا تمترن بها) أى لا تشكن فى قيام الساعة فإنه لا شك فيه .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى : (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) . وقوله : (وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير) . وقوله : (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) وقوله (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) الآية . وقوله (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ .

قوله هنا (ظلموا) أى كفروا ، بدليل قوله فى مريم ، فى القصة بعينها ، (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

وقوله (من مشهد يوم عظيم) يوضحه قوله هنا : (من عذاب يوم أليم) .

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله : (إن الشرك لظلم عظيم) وقوله: (والكافرون هم الظالمون) وقوله :(ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) وقوله تعالى (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى بشرك ، كما فسره به النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث الثابت فى صحيح البخارى .

قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ .

الاستفهام بهل هنا بمعنى النفى ، وينظرون بمعنى ينتظرون ، أى ما ينتظر الكفار إلا الساعة ، أى القيامة أن تأتيهم بغتة ، أى فى حال كونها مباغتة لهم ، أى مفاجئة لهم ، وهم لا يستغفرون أى بمفاجأتها فى حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها .

والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها فى قوله : (أن تأتيهم) فى محل نصب ، على أنه بدل اشتمال من الساعة ، وكون ينظرون ، بمعنى ينتظرون ، معروف فى كلام العرب ، ومنه قول امرىء القيس :

فإنكما إن تنظرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الساعة تأتيهم بغتة ، جاء موضحا فى آيات من كتاب الله . كقوله تعالى فى الأعراف : (ثقلت فى السماوات

والأرض لاتأتيكم إلا بغتة) . وقوله تعالى فى القتال (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) وقوله تعالى : (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية) الآية .

فالمراد بالصيحة : القيامة .

وقوله . (وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية) الآية ، يدل على أنها تأتيهم وهم فى غفلة ، وعدم شعور بإتيانها ، إلى غير ذلك من الآيات . والعلم عند الله تعالى . هنا آية ناقصة رقم (٦٢)

قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفى عنهم الخوف والحزن يوم القيامة .

فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام ، وذكر بعضاً منها فى غير هذا الموضع .

فمن ذلك الإيمان والتقوى ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة يونس (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

ومن ذلك الاستقامة ، وقولهم : ربنا الله ، وذلك فى قوله فى فصلت : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) الآية : وقوله تعالى فى الأحقاف (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) إلى غير ذلك من الآيات .

والخوف فى لغة العرب : الغم من أمر مستقبل .

والحزن : الغم من أمر ماض .

وربما استعمل كل منهما فى موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربى معروف.

قال بعض العلماء : ومنه قوله تعالى (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) .

قال معناه : إلا أن يعلما.

ومنه قول أبى محجن الثقفى :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى فى الممات عروقها
ولا تدفنى فى الفـــلاة فإننى أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف : أى أعلم لأنه لايشك فى أنه لايشربها بعد موته .

وقوله فى هذه الآية الكريمة (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام .

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) .

ولا منافاة فى ذلك ، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع مايطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل . كما ثبت فى الصحيح ، فى حديث وفد عبد القيس ، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جدا .

ومن أصرحها فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون ».

وفى بعض الروايات الثابتة فى الصحيح « وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

فقد سمى صلى الله عليه وسلم « إماطة الأذى عن الطريق » إيمانا .

وقد أطال البيهقى رحمه الله فى شعب الإيمان ، فى ذكر الأعمال التى جاء الكتاب والسنة تسميتها إيمانا .

فالإيمان الشرعى التام والإسلام الشرعى التام معناهما واحد .

وقد يطلق الإيمان إطلاقا آخر على خصوص ركنه الأكبر الذى هو الإيمان بالقلب ، كما فى حديث جبريل الثابت فى الصحيح .

والقلب مضغة فى الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله فغيره تابع له . وعلى هذا تحصل المغايرة فى الجملة بين الإيمان والإسلام .

فالإيمان ، على هذا الإطلاق ، اعتقاد والاسلام شامل للعمل .

واعلم أن مغايرته تعالى بين الإيمان والإسلام فى قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) .

قال بعض العلماء : المراد بالإيمان هنا ، معناه الشرعى ، والمراد بالإسلام معناه اللغوى .

لأن إذعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لاشرعا .

وقال بعض العلماء : المراد بكل منهما معناه الشرعى ، ولكن نفى الإيمان فى قوله : ولما يدخل الإيمان ، يراد به عند من قال هذا ، نفى كمال الإيمان لانفى أصله ، ولكن ظاهر الآية لايساعد على هذا ، لأن قوله (ولما يدخل) فعل فى سياق النفى وهو صيغة عموم ، على التحقيق ، وإن لم يؤكد بمصدر ، ووجهه واضح جداً ، كما قدمناه مراراً .

وهو أن الفعل الصناعى ينحل ، عن مصدر وزمن عند النحويين ، وعن مصدر وزمن ، ونسبة عند البلاغيين ، كما حرروه فى مبحث الاستعارة التبعية ، وهو أصوب .

فالمصدر كامن فى مفهوم الفعل الصناعى إجماعاً ، وهو نكرة لم تتعرف بشىء فيئول إلى معنى النكرة فى سياق النفى .

وقد أشار صاحب مراقى السعود إلى أن الفعل فى سياق النفى أو الشرط من صيغ العموم بقوله :

ونحو لاشربت أو وإن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

ووجه إهمال لا فى هذه الآية فى قوله تعالى : (لاخوف) أن لا الثانية التى هى (ولاهم يحزنون) بعدها معرفة وهى الضمير ، وهى لاتعمل فى المعارف ، بل فى النكرات ، فلما وجب إهمال الثانية ، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض فى إهمالهما معاً

قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ .

قوله تعالى فى هذه الآية (وأزواجكم) فيه لعلماء التفسير وجهان :

أحدهما ، أن المراد بأزواجهم ، نظرؤاهم وأشباههم فى الطاعة وتقوى الله واقتصر على هذا القول ابن كثير .

والثانى : أن المراد بأزواجهم ، نساؤهم فى الجنة .

لأن هذا الأخير أبلغ فى التنعم والتلذذ من الأول .

ولذا يكثر فى القرآن ، ذكر إكرام أهل الجنة ، بكونهم مع نسائهم دون الامتنان عليهم ، بكونهم مع نظرائهم وأشباههم فى الطاعة .

قال تعالى : (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) .

وقال كثير من أهل العلم : إن المراد بالشغل المذكور فى الآية ، هو افتضاض الأبكار . وقال تعالى : (وزوجناهم بحور عين) . وقال تعالى : (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) . وقال تعالى : (فيهن خيرات حسان) إلى قوله : (حور مقصورات فى الخيام) ، وقال : (وعندهم قاصرات

الطرف عين) وقال تعالى : (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا : أن مفرد الازواج زوج بلا هاء ، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن خلافاً لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء ، وأن ذلك لا أصل له فى اللغة .

والحق أن ذلك لغة عربية ، ومنه قول الفرزدق :

وإن الذى يسعى ليفسد زوجتى كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقول الحماسى :

فبكى بناتى شجوهن وزوجتى والظاعنون إلى ثم تصدع

وفى صحيح مسلم من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى صفية « إنها زوجتى » وقوله (تحبرون) أقوال العلماء فيه راجعة إلى شىء واحد ، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها .

قوله تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وجميع الآيات التى فيها الإنعام على أهل الجنة بأوانى الذهب والفضة ، والتحلى بهما ، ولبس الحرير ، ومنه السندس والاستبرق ، وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) .

قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن كل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، أى تلتذ به الأعين أى برؤيته لحسنه ، كما قال تعالى : (صفراء فاقع

لونها تسر الناظرين) . وأسند اللذة إلى العين ، وهى فى الحقيقة مسندة لصاحب العين ، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية ، وهى مقدم شعر الرأس ، فى قوله تعالى : (ناصية كاذبة خاطئة) وكإسناد الخشوع ، والعمل والنصب ، إلى الوجوه ، فى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة) الآية .

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان فى الحقيقة لصاحب الناصية ، كما أن الخشوع والعمل ، والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة ، فيها كل مشتهى ، وكل مستلذ ، جاء مبسوطاً موضحة أنواعه فى آيات كثيرة ، من كتاب الله ، وجاء مجملا أيضاً إجمالا شاملا لكل شىء من النعيم .

أما إجمال ذلك ففى قوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

وأما بسط ذلك وتفصيله ، فقد بين القرآن ، أن من ذلك النعيم المذكور فى الآية ، المشارب ، والمآكل والمناكح ، والفرش والسرر ، والأوانى ، وأنواع الحلى والملابس والخدم إلى غير ذلك ، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شىء من ذلك .

أما المآكل فقد قال تعالى : (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) ، وقال : (ولحم طير مما يشتهون) وقال تعالى : (وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة) وقال تعالى : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

أما المشارب ، فقد قال تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) . وقال تعالى : (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا عيناً فيها تسمى سلسبيلا) الآية ،

وقوله تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون) . وقال تعالى : (يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) : وقال تعالى: (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات) وقال تعالى (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأوانى والحلى ، فقد قدمنا الكلام عليها مستوفى فى سورة النحل .

وأما المناكح فقد قدمنا بعض الآيات الدالة عليها قريبا .

وهى كثيرة كقوله تعالى : (ولهم فيها أزواج مطهرة) الآية . ويكفى ما قدمنا من ذلك قريبا .

وأما ما يتكئون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك ، ففى آيات كثيرة كقوله تعالى : (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) . وقوله تعالى : (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) وقوله تعالى : (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين) .

والسرر الموضونة هى المنسوجة بقضبان الذهب .

وقوله تعالى (إخوانا على سرر متقابلين) . وقوله تعالى : (وسرر مرفوعة) . وقوله تعالى : (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما خدمهم فقد قال تعالى فى ذلك : (يطوف عليهم ولدان مخلدون) الآية . وقال تعالى فى سورة الإنسان فى صفة هؤلاء الغلمان : (إذا رأيتهم

حسبتهم لؤلؤاً منثوراً)، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة فى قوله تعالى : (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً) .

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف منها بما ذكرنا .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وأنتم فيها خالدون) ، قد قدمنا الآيات الموضحة ، لأن خلودهم المذكور لا انقطاع له البتة كقوله تعالى : (عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع ، وقوله تعالى : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد). وقوله تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة ، ونحوها من الآيات الدالة على أن العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى : (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى : (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً) وقوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

وبينا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها ، مع قوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا : ولا أنت يارسول الله قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

وذكرنا فى ذلك أن العمل الذى بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذى تقبله الله برحمة منه وفضل .

وأن العمل الذى لا يدخل الجنة هو الذى لم يتقبله الله .

والله يقول : (إنما يتقبل الله من المتقين) .

قوله تعالى : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ .

اللام فى قوله (ليقض) لام الدعاء .

والظاهر أن المعنى ، أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار ، أن يدعو الله لهم بالموت .

والدليل على ذلك أمران :

الأول : أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا يا مالك ، ولما خاطبوه فى قولهم : (ربك) .

والثانى : أن الله بين فى سورة المؤمن أن أهل النار ، يطلبون خزنة النار ، أن يدعو الله لهم ليخفف عنهم العذاب ، وذلك فى قوله تعالى : (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) . وقوله (ليقض علينا ربك) أى ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب .

ونظيره قوله تعالى : (فوكزه موسى فقضى عليه) أى أماته .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (قال إنكم ماكثون) دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت بل يمكثون فى النار معذبين إلى غير نهاية .

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت ، ولا تغنى هى عنهم ، ولا يخفف عنهم عذابها ، ولا يخرجون منها .

أما كونهم لا يموتون فيها الذى دل عليه قوله هنا (قال إنكم ماكثون) فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) ، وقوله تعالى : (ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) . وقوله تعالى : (والذين كفروا

لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) الآية . وقوله تعالى : (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) الآية .

وأما كون النار لا تفنى عنهم ، فقد بينه تعالى بقوله : (كلما خبت زدناهم سعيرا) ، فمن يدعى أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنه فقددلت عليه آيات كثيرة جداً كقوله : (ولا يخفف عنهم عذابها) . وقوله تعالى : (لا يخفف عنهم ولاهم ينظرون)، وقوله تعالى : (فلن نزيدكم عذابا) ، وقوله تعالى : (لا يفتر عنهم) الآية . وقوله : (إن عذابها كان غراما) وقوله تعالى : (فسوف يكون لزاما) على الأصح فى الأخيرين .

وأما كونهم لا يخرجون منها فقد جاء موضحا فى آيات من كتاب الله، كقوله تعالى فى البقرة : (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) وقوله تعالى فى المائدة : (يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) ، وقوله تعالى فى الحج : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) الآية . وقوله تعالى فى السجدة : (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) ، وقوله تعالى فى الجاثية :(فاليوم لا يخرجون منها ولاهم يستعتبون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً فى كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى :(قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) وفى سورة النبإ فى الكلام على قوله تعالى : (لابثين فيها أحقابا) وسنوضحه أيضاً إن شاء الله ،فى هذا الكتاب المبارك فى الكلام على آية النبإ المذكورة ، ونوضح هناك إن شاء الله إزالة إشكال يورده الملحدون على الآيات التى فيها إيضاح هذ المبحث .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الشورى فى الكلام على قوله تعالى: (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) . .

قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى هذه السورة الكريمة ، فى الكلام على قوله تعالى : (سنكتب شهادتهم ويسألون) ، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (كلا سنكتب ما يقول) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ .

اختلف العلماء فى معنى (إن) فى هذه الآية

فقالت جماعة من أهل العلم إنها شرطية، واختاره غير واحد ، وممن اختاره ابن جرير الطبرى ، والذين قالوا إنها شرطية ، اختلفوا فى المراد بقوله : فأنا أول العابدين .

فقال بعضهم : فأنا أول العابدين لذلك الولد .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولدا .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد

وقالت جماعة آخرون : إن لفظة (إن) فى الآية نافية .

والمعنى ما كان لله ولد ، وعلى القول بأنها نافية ففى معنى قوله : (فأنا أول العابدين) ثلاثة أوجه .

الأول وهو أقربها : أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله ، المنزهين له عن الولد ، وعن كل مالا يليق بكماله ، وجلاله .

والثانى أن معنى قوله (فإنا أول العابدين) : أى الآنفين المستنكفين من ذلك يعنى القول الباطل المفترى على ربنا الذى هو ادعاء الولد له .

والعرب تقول : عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس ، وعابد أيضاً سماعا ، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه ، ومنه قول الفرزدق :

أولئك قومى إن هجونى هجوتهم وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

فقوله : وأعبد ، يعنى آنف وأستنكف .

ومنه أيضاً قول الآخر :

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما

وفى قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه المشهورة : أنه جىء بامرأة من جهينة تزوجت ، فولدت لستة أشهر ، فبعث بها عثمان لترجم ، اعتقاداً منه أنها كانت حاملا قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر ، فقال له على رضى الله عنهما : إن الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) ، ويقول جل وعلا . (وفصاله فى عامين) فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر .

فما عبد عثمان رضى الله عنه ، أن بعث إليها ، لترد ولا ترجم .

ومحل الشاهد من القصة ، فوالله : [ماعبد عثمان] أى ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق .

الوجه الثالث : أن المعنى (فأنا أول العابدين) أى الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

الذى يظهر لى فى معنى هذه الآية الكريمة : أنه يتعين المصير إلى القول، بأن إن نافية ، وأن القول بكونها شرطية لايمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء .

وإنما اخترنا أن (إن) هى النافية لا الشرطية ، وقلنا إن المصير إلى ذلك متعين فى نظرنا لأربعة أمور :

الأول: أن هذا القول جار على الأسلوب العربى، جرياناً واضحاً، لا إشكال فيه ، فكون إن كان بمعنى ما كان كثير فى القرآن ، وفى كلام العرب كقوله تعالى : (إن كانت إلا صيحة واحدة) أى ما كانت إلا صيحة واحدة .

فقولك مثلا معنى الآية الكريمة : ما كان لله ولد فأنا أول العابدين ، الخاضعين للعظيم الأعظم ، المنزه عن الولد أو الآنفين المستنكفين ، من أن يوصف ربنا بما لايليق بكماله وجلاله ، من نسبة الولد إليه ، أو الجاحدين النافين ، أن يكون لربنا ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً لا إشكال فيه ، لأنه جار على اللغة العربية ، التى نزل بها القرآن ، دال على تنزيه الله ، تنزيها تاما عن الولد ، من غير إيهام البتة لخلاف ذلك .

الأمر الثانى : أن تنزيه الله عن الولد ، بالعبارات التى لاإيهام فيها ، هو الذى جاءت به الآيات الكثيرة ، فى القرآن كما قدمنا إيضاحه ، فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) الآية. وفى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا

لقد جئتم شيئاً إداً) والآيات الكثيرة التى ذكرناها فى ذلك تبين أن (إن) نافية .

فالنفى الصريح الذى لانزاع فيه يبين أن المراد فى محل النزاع النفى الصريح .

وخير ما يفسر به القرآن القرآن فكون المعبر فى الآية (وما كان للرحمن ولد) بصيغة النفى الصريح مطابق لقوله تعالى فى آخر سورة بنى إسرائيل (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية . وقوله تعالى فى أول الفرقان (ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك) الآية . وقوله تعالى : (ماتخذ الله من ولد) الآية . وقوله تعالى : (لم يلد ولم يولد) وقوله تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما على القول بأن إن شرطية وأن قوله تعالى : (فأنا أول العابدين) جزاء لذلك الشرط فإن ذلك لانظير له البتة فى كتاب الله ، ولاتوجد فيه آية تدل على مثل هذا المعنى .

الأمر الثالث : هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى فى اللغة العربية ، إلا معنى محذور ، لا يجوز القول به بحال ، وكتاب الله جل وعلا ، يجب تنزيهه عن حمله على معان محذورة لايجوز القول بها .

وإيضاح هذا أنه على القول بأن (إن) شرطية ، وقوله : (فأنا أول العابدين) جزاء الشرط لامعنى لصدقه ألبتة إلا بصحة الربط بين الشرط والجزاء .

والتحقيق الذى لا شك فيه أن مدار الصدق والكذب فى الشرطية المتصلة ، منصب على صحة الربط بين مقدمها الذى هو الشرط وتاليها الذى هو الجزاء ، والبرهان القاطع على صحة هذا ، هو كون الشرطية المتصلة ، تكون فى غاية

الصدق مع كذب طرفيها معاً ، أو أحدهما لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها ، فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فهذه قضية فى غاية الصدق كما ترى ، مع أنها لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها كان كل واحد من طرفيها ، قضية كاذبة بلاشك ، ونعنى بأداة الربط لفظة لو من الطرف الأول ، واللام من الطرف الثانى ، فإنهما لو أزيلا وحذفا صار الطرف الأول كان فيهما آلهة إلا الله ، وهذه قضية فى منتهى الكذب ، وصار الطرف الثانى فسدتا أى السماوات والأرض ، وهذه قضية فى غاية الكذب كما ترى .

فاتضح بهذا أن مدار الصدق والكذب فى الشرطيات على صحة الربط بين الطرفين وعدم صحته .

فإن كان الربط صحيحاً فهى صادقة ، ولو كذب طرفاها أو أحدهما عند إزالة الربط .

وإن كان الربط بينهما كاذباً كانت كاذبة كما لو قلت : لو كان هذا إنساناً لكان حجراً ، فكذب الربط بينهما وكذب القضية بسببه كلاهما واضح .

وأمثلة صدق الشرطية مع كذب طرفيها كثيرة جداً كالآية التى ذكرنا ، وكقولك لو كان الإنسان حجراً لكان جماداً ، ولو كان الفرس ياقوتا لكان حجراً ، فكل هذه القضايا ونحوها صادقة مع كذب طرفيها لو أزيلت أداة الربط .

ومثال صدقها مع كذب أحدهما ، قولك لو كان زيد فى السماء ناجيا من الموت فإنها شرطية صادقة لصدق الربط بين طرفيها ، مع أنها كاذبة أحد الطرفين دون الآخر ، لأن عدم النجاة من الموت صدق ، وكون زيد فى السماء كذب ، هكذا مثل بهذا المثال البنانى ، وفيه عندى أن هذه الشرطية التى مثل

بها اتفاقيـة لا لزومية ، ولا دخل للاتفاقيات فى هذا المبحث .

والمثال الصحيح : لو كان الإنسان حجراً لكان جسما .

واعلم أن قوماً زعموا أن مدار الصدق والكذب فى الشرطيات منصب على خصوص التالى الذى هو الجزاء ، وأن المقـدم الذى هو الشرط قيد فى ذلك .

وزعموا أن هذا المعنى هو المراد عند أهل اللسان العربى .

والتحقيق الأول .

ولم يقل أحد البتة بقول ثالث فى مدار الصدق والكذب فى الشرطيات .

فإذا حققت هذا ، فاعلم أن الآية الكريمة ، على القول بأنها جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها البتـة بحال على واحد من القولين اللذين لا ثالث لهما إلا على وجه محذور لا يصح القول به بحال .

وإيضاح ذلك أنه على القول الأخير ، أن مصب الصدق والكذب ، فى الشرطيات إنما هو التالى الذى هو الجزاء ، وأن المقدم الذى هو الشرط قيد فى ذلك .

فمعنى الآية عليه باطل بل هو كفر .

لأن معناه أن كونه أول العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد ، لم يكن أول العابدين ، وفساد هذا المعنى كما ترى .

وأما على القول الأول الذى هو الصحيح أن مدار الصدق والكذب فى الشرطيات على صحة الربط بين طرفى الشرطية .

فإنه على القول بأن الآية الكريمة جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها البتة أيضاً ، إلا على وجه محذور لا يجوز المصير إليه بحال ، لأن كون المعبود ذا ولد ، واستحقاقه هو ، أو ولده العبادة ، لا يصح الربط بينهما البتة إلا على معنى هو كفر بالله ، لأن المستحق للعبادة لا يعقل بحال أن يكون ولداً أو والداً .

وبه تعلم أن الشرط المزعوم فى قوله (إن كان للرحمن ولد) إنما يعلق به محال لاستحالة كون الرحمن ذا ولد .

ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال .

فتعليق عبادة الله التى هى أصل الدين على كونه ذا ولد ظهور فساده كما ترى ، وإنما تصدق الشرطية فى مثال هذا لو كان المعلق عليه مستحيلا ، فادعاء أن (إن) فى الآية شرطية مثل ما لو قيل : لو كان معه آلهة لكنت أول العابدين له ، وهذا لا يصدق بحال ، لأن واحدا من آلهة متعددة ، لا يمكن أن يعبد ، فالربط بين طرفيها مثل هذه القضية لا يصح بحال .

ويتضح لك ذلك بمعنى قوله : (وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) الآية .

فإن قوله إذا : أى لو كان معه غيره من الآلهة ، لذهب كل واحد منهم بما خلق واستقل به ، وغالب بعضهم بعضاً ولم ينتظم للسماوات والأرض نظام ولفسد كل شىء .

كما قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، وقوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا) على الصحيح الذى هو الحق من التفسيرين .

ومعنى ابتغائهم إليه تعالى سبيلا هو طلبهم طريقا إلى مغالبته كما يفعله بعض الملوك مع بعضهم .

والحاصل : أن الشرط إن علق به مستحيل فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء ، إلا إذا كان الجزاء مستحيلا أيضاً لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل .

أما كون الشرط مستحيلا والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر ؛ فهذا مما لا يصح بحال .

ومن ذهب إليه من أهل العلم والدين لا شك فى غلطه .

ولا شك فى أن كل شرطية صدقت مع بطلان مقدمها الذى هو الشرط وصحة تاليها الذى هو الجزاء لا يصح التمثيل بها لهذه الآية بوجه من الوجوه ، وأن ماظنه الفخر الرازى من صحة التمثيل لها بذلك غلط فاحش منه بلا شك ، وإيضاح ذلك أن كل شرطية كاذبة الشرط صادقة الجزاء عند إزالة الربط لا بد أن يكون موجب ذلك فيها أحد أمرين لا ثالث لهما البتة .

وكلاهما يكون الصدق به من أجل أمر خاص لا يمكن وجود مثله فى الآية الكريمة التى نحن بصددها ، بل هو مناقض لمعنى الآية .

والاستدلال بوجود أحد المتناقضين على وجود الآخر ضرورى البطلان .

ونعنى بأول الأمرين المذكورين كون الشرطية اتفاقية لا لزومية أصلا .

وبالثانى منهما كون الصدق المذكور ، من أجل خصوص المادة .

ومعلوم أن الصدق من أجل خصوص المادة لا عبرة به فى العقليات ، وأنه فى حكم الكذب لعدم اضطراده ، لأنه يصدق فى مادة ويكذب فى أخرى .

والمعتبر إنما هو الصدق اللازم المضطرد ، الذى لا يختلف باختلاف المادة بحال .

ولاشك أن كل قضية شرطها محال لا يضطرد صدقها إلا إذا كان جزاؤها محالا خاصة .

فإن وجدت قضية باطلة الشرط صحيحة الجزاء ، فلابد أن يكون ذلك ، لكونها اتفاقية أو لأجل خصوص المادة فقط .

فمثال وقوع ذلك لكونها اتفاقية قولك : إن كان زيد فى السماء لم ينج من الموت .

فالشرط الذى هو كونه فى السماء باطل والجزاء الذى هو كونه لم ينج من الموت صحيح .

وإنما صح هذا لكون هذه الشرطية اتفاقية .

ومعلوم أن الاتفاقية لا علاقة بين طرفيها أصلا .

فلا يقتضى ثبوت أحدهما ولا نفيه ثبوت الآخر ولا نفيه ، فلا ارتباط بين طرفيها فى المعنى أصلا وإنما هو فى اللفظ فقط .

فكون زيد فى السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلا ، ولا ارتباط بينهما إلا فى اللفظ .

فهو كقولك : إن كان الإنسان ناطقا فالفرس صاهل .

وقد قدمنا إيضاح الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتفاقية فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً) فراجعه .

ومعلوم أن قوله (قل إن كان للرحمن ولد) لم يقل أحد إنها شرطية اتفاقية ولم يدع أحد ، أنها لاعلاقة بين طرفيها أصلا .

ومثال وقوع ذلك لأجل خصوص المادة فقط ، ما مثل به الفخر الرازى لهذه الآية الكريمة ، مع عدم انتباهه لشدة المنافاة بين الآية الكريمة وبين ما مثل لها به ، فإنه لما قال : إن الشرط الذى هو (إن كان للرحمن ولد) باطل ، والجزاء الذى هو : (فأنا أول العابدين) صحيح .

مثل لذلك بقوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم ، يعنى أن قوله : إن كان الإنسان حجراً شرط باطل فهو كقوله تعالى (إن كان للرحمن ولد) ، فكون الإنسان حجراً وكون الرحمن ذا ولد كلاهما شرط باطل .

فلما صح الجزاء المرتب على الشرط الباطل فى قوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم دل ذلك على أن الجزاء الصحيح فى قوله : (فأنا أول العابدين) يصح ترتيبه على الشرط الباطل الذى هو (إن كان للرحمن ولد) .

وهذا غلط فاحش جدا ، وتسوية بين المتنافيين غاية المنافاة ، لأن الجزاء المرتب على الشرط الباطل فى قوله : إن كان الإنسان حجراً فهو جسم إنما صدق لأجل خصوص المادة لا لمعنى اقتضاه الربط البتة .

وإيضاح ذلك أن النسبة بين الجسم والحجر ، والنسبة بين الإنسان والجسم هى العموم والخصوص المطلق فى كليهما .

فالجسم أعم مطلقاً من الحجر ، والحجر أخص مطلقا من الجسم ، كما أن الجسم أعم من الإنسان أيضاً عموما مطلقا ، والإنسان أخص من الجسم أيضاً خصوصا مطلقاً : فالجسم جنس قريب للحجر ، وجنس بعيد للإنسان ، وإن شئت قلت : جنس متوسط له .

وإيضاح ذلك أن تقول فى التقسيم الأول :

الجسم إما نام أى يكبر تدريجاً أو غير نام ، فغير النامى كالحجر مثلا ، ثم تقسم النامى تقسيما ثانياً ؟ فتقول :

النامى إما حساس أو غير حساس ، فغير الحساس منه كالنبات .

ثم تقسم الحساس تقسيما ثالثاً فتقول :

الحساس إما ناطق أو غير ناطق ، والناطق منه هو الإنسان .

فاتضح أن كلا من الإنسان والحجر يدخل فى عموم الجسم ، والحكم بالأعم على الأخص صادق فى الإيجاب بلا نزاع ولا تفصيل .

فقولك : الإنسان جسم صادق فى كل تركيب ، ولا يمكن أن يكذب بوجه ، وذلك للملابسة الخاصة بينهما من كون الجسم جنساً للانسان ، وكون الإنسان فرداً من أفراد أنواع الجسم ، فلأجل خصوص هذه الملابسة بينهما ، كان الحكم على الإنسان بأنه جسم صادقاً ، على كل حال ، سواء كان الحكم بذلك ، غير معلق على شىء أو كان معلقاً على باطل أو حق .

فالاستدلال يصدق هذا المثال على صدق الربط بين الشرط والجزاء فى قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) بطلانه كالشمس فى رابعة النهار .

والعجب كل العجب من عاقل يقوله ، لأن المثال المذكور إنما صدق لأن الإنسان يشمله مسمى الجسم .

أما من كان له ولد فالنسبة بينه وبين المعبود الحق هى تباين المقابلة ، لأن المقابلة بين المعبود بحق وبين والد أو ولد هى المقابلة بين الشىء ومساوى نقيضه . لأن من يولد أو يولد له لا يمكن أن يكون معبوداً بحق بحال .

وإيضاح للمنافاة بين الأمرين أنك لو قلت: الإنسان جسم لقلت الحق ولو قلت: المولود له معبود، أو المولود معبود. قلت الباطل الذى هو الكفر البواح.

ومما يوضح ماذكرنا إجماع جميع النظار على أنه إن كانت إحدى مقدمتى الدليل باطلة، وكانت النتيجة صحيحة أن ذلك لايكون إلا لأجل خصوص المادة فقط، وأن ذلك الصدق لاعبرة به، فحكمه حكم الكذب ولا يعتبر إلا الصدق اللازم المضطرد فى جميع الأحوال.

فلو قلت مثلا: كل إنسان حجر، وكل حجر جسم، لأنتج من الشكل الأول كل إنسان جسم، وهذه النتيجة فى غاية الصدق كما ترى.

مع أن المقدمة الصغرى، من الدليل التى هى قولك: كل إنسان حجر فى غاية الكذب كما ترى.

وإنما صدقت النتيجة لخصوص المادة كما أوضحنا، ولولا ذلك لكانت كاذبة لأن النتيجة لازم الدليل والحق لايكون لازما للباطل فإن وقع شىء من ذلك فلخصوص المادة كما أوضحنا.

وبهذا التحقيق تعلم، أن الشرط الباطل لايلزم وتطرد صحة ربطه إلا بجزاء باطل مثله.

وما يظنه بعض أهل العلم من أن قوله تعالى (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) كقوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) فهو غلط فاحش والفرق بين معنى الآيتين شاسع فظن استوائهما فى المعنى باطل.

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى (فإن كنت فى شك) الآية معناه المقصود منه جار على الأسلوب العربى، ولا إبهام فيه، لأنا أوضحنا سابقاً أن مدار

صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزائها ، فهى صادقة ولو كذب طرفاها عند إزالة الربط كما تقدم إيضاحه قريباً .

فربط قوله : (فإن كنت فى شك) بقوله (فاسأل الذين يقرءون الكتاب) ربط صحيح لا إشكال فيه ، لأن الشاك فى الأمر شأنه أن يسأل العالم به عنه كما لايخفى ، فهى قضية صادقة ، مع أن شرطها وجزاءها كلاهما باطل بانفراده، فهى كقوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فهى شرطية صادقة لصحة الربط بين طرفيها ، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط .

أما قوله تعالى (قل لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) على القول بأن إن شرطية لاتمكن صحة الربط بين شرطها وجزائها البتة ، لأن الربط بين المعبود وبين كونه والدا أو ولدا لا يصح بحال .

ولذا جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لاأشك ولا أسأل أهل الكتاب » فنفى الطرفين مع أن الربط صحيح ، ولا يمكن أن ينفى صلى الله عليه وسلم هو ولا غيره الطرفين فى الآية الأخرى ، فلا يقول هو ولا غيره : ليس له ولد ولا أعبده .

وعلى كل حال ، فالربط بين الشك وسؤال الشاك للعالم أمر صحيح، بخلاف الربط بين العبادة وكون المعبود والدا أو ولدا فلايصح .

فاتضح الفرق بين الآيتين وحديث: « لاأشك ولا أسأل أهل الكتاب» رواه قتادة بن دعامة مرسلا .

وبنحوه قال بعض الصحابة . فمن بعدهم ، ومعناه صحيح بلا شك .

وما قاله الزمخشرى فى تفسير هذه الآية الكريمة يستغربه كل من رآه لقبحه وشناعته ، ولم أعلم أحداً من الكفار فى ماقص الله فى كتابه عنهم يتجرأ

على مثله أو قريب منه .

وهذا مع عدم فهمه لما يقول وتناقض كلامه .

وسنذكر هنا كلامه القبيح للتنبيه على شناعة غلطه ، الدينى واللغوى .

قال فى الكشاف مانصه : (قل إن كان للرحمن ولد) وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه.

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة فى نفى الولد والإطناب فيه ، وألا يترك للناطق به شبهة إلا مضمحلة ، مع الترجمة عن نفسه بإثبات القدم فى باب التوحيد ، وذلك أنه عاق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها فهو فى صورة إثبات الكينونة ، والعبادة وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها .

ونظيره أن يقول العدلى للمجبر : إن كان الله تعالى خالقا للكفر فى القلوب ومعذبا عليه عذابا سرمداً فأنا أول من يقول : هو شيطان وليس بإله .

فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر .

وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذى ذكرنا ، مع الدلالة على سماجة المذهب ، وضلالة الذاهب إليه ، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه و وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه .

ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له : « أما والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك » .

وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم لإضافة الولد إليه اهـ . الغرض من كلام الزمخشرى .

وفى كلامه هذا من الجهل بالله وشدة الجراءة عليه ، والتخبط والتناقض فى المعانى اللغوية ما الله عالم به .

ولا أظن أن ذلك يخفى على عاقل تأمله .

وسنبين لك ما يتضح به ذلك فإنه أولا قال : إن كان للرحمن ولد وضح ذلك ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد له كما يعظم الرجل ، ولد الملك لتعظيم أبيه .

فكلامه هذا لا يخفى بطلانه على عاقل ، لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه ، وقيام البرهان الصحيح والحجة الواضحة على أنه له ولد ، فلا شك أن ذلك يقتضى ، أن ذلك الولد لا يستحق العبادة ، بحال ، ولو كان فى ذلك تعظيم لأبيه ، لأن أباه مثله فى عدم استحقاق العبادة والكفر بعبادة كل والد وكل مولود شرط فى إيمان كل موحد ، فمن أى وجه يكون هذا الكلام صحيحاً .

أما فى اللغة العربية فلا يكون صحيحاً البتة .

وما أظنه يصح فى لغة من لغات العجم فالربط بين هذا الشرط وهذا الجزاء لا يصح بوجه .

فمعنى الآية عليه لا يصح بوجه ، لأن المعلق على المحال لا بد أن يكون محالا مثله .

والزمخشرى فى كلامه كلما أراد أن يأتى بمثال فى الآية خارج عنها اضطر إلى أن لا يعلق على المحال فى زعمه إلا محالا .

فضربه الآية المثل بقصة ابن جبير مع الحجاج ،دليل واضح على ما ذكرنا وعلى تناقضه وتخبطه.

فإنه قال فيها إن الحجاج قال لسعيد بن جبير : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى .

قال سعيد للحجاج : لو علمت إن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك .

فهو يدل على أنه علق المحال على المحال،ولو كان غير متناقض للمعنى الذى مثل له به الزمخشرى لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله.

فقوله : لو علمت أن ذلك إليك فى معنى (إن كان للرحمن ولد) ، فنسبة الولد والشريك إليه معناها فى الاستحالة وادعاء النقص واحد .

فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله .

ولكنه لم يقل هذا ، لأنه ليس له معنى صحيح يجوز المصير إليه .

وكذلك تمثيل الزمخشرى للآية الكريمة فى كلامه القبيح البشع الشنيع الذى يتقاصر عن التلفظ به كل كافر .

فقد اضطر فيه أيضاً إلى ألا يعلق على المحال فى زعمه إلا محالا شنيعا فإنه قال فيه :

ونظيره أن يقول العدلى للمجبر : إن كان الله تعالى خالقا للكفر فى القلوب ومعذبا عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله .

فانظر قول هذا الضال فى ضربه المثل فى معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذى يسميه العدلى : إن كان الله خالقا للكفر فى القلوب إلخ .

فخلق الله للكفر فى القلوب وتعذيبه الكفار على كفرهم ، مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد لله ، وهذا المستحيل فى زعمه الباطل ، إنما علق عليه أفظع أنواع المستحيل وهو زعمه الخبيث أن الله إن كان خالقا للكفر فى القلوب ، ومعذبا عليه فهو شيطان لا إله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ،

فانظر رحمك الله فظاعة جهل هذا الإنسان بالله ، وشدة تناقضه فى المعنى العربى للآية .

لأنه جعل قوله : إن كان الله خالقا للكفر ومعذبا عليه بمعنى (إن كان للرحمن ولد) فى أن الشرط فيهما . مستحيل ، وجعل قوله فى الله إنه شيطان لا إله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

كقول النبى صلى الله عليه وسلم : أنا أول العابدين .

فاللازم لكلامه أن يقول : لو كان خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له ، ولا يخفى أن الادعاء على الله أنه شيطان مناقض لقوله : فأنا أول العابدين .

وقد أعرضت عن الإطالة فى بيان بطلان كلامه ، وشدة ضلاله ، وتناقضه لشناعته ووضوح بطلانه ، فهى عبارات مزخرفة ، وشقشقة لا طائل تحتها ، وهى تحمل فى طياتها الكفر والجهل بالمعنى العربى للآية ، والتناقض الواضح وكم من كلام ملىء بزخرف القول ، وهو عقيم لا فائدة فيه ؛ ولا طائل تحته كما قيل :

وإنى وإنى ثم إنى وإننى إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا
فظل يعمل أياماً رويته وشبه الماء بعد الجهد بالماء

واعلم أن الكلام على القدر ، وخلق أفعال العباد ، قدمنا منه جملا كافية فى هذه السورة الكريمة ، فى الكلام على قوله تعالى : (وقالوا لو شاء الرحمن

ما عبدناهم) ، ولا يخفى تصريح القرآن بأن الله خالق كل شيء ، كما قال تعالى : (الله خالق كل شيء) الآية ، وقال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) . وقال : (هل من خالق غير الله) ، وقال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

فالإيمان بالقدر خيره وشره الذى هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشرى يقتضى أن لله شيطان ، سبحان الله وتعالى عما يقوله الزمخشرى علواً كبيراً وجزى الزمخشرى بما هو أهله .

الأمر الرابع : هو دلالة استقراء القرآن العظيم أن الله تعالى إذا أراد أن يفرض المستحيل ليبين الحق بفرضه علقه أولاً بالأداة التى تدل على عدم وجوده وهى لفظة لو ، ولم يعلق عليه البتة إلا محالا مثله ، كقوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، وقوله تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء) ، وقوله تعالى : (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا) الآية .

وأما تعليق ذلك بأداة لا تقتضى عدم وجوده كلفظة إن مع كون الجزاء غير مستحيل فليس معهوداً فى القرآن .

ومما يوضح هذا المعنى الذى ذكرنا ، المحاورة التى ذكرها جماعة من المفسرين ، التى وقعت بين النضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة ، وهى وإن كانت أسانيدها غير قائمة ، فإن معناها اللغوى صحيح .

وهى أن النضر بن الحارث كان يقول :

الملائكة بنات الله فأنزل الله قوله تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد) الآية .

فقال النضر للوليد بن المغيرة : ألا ترى أنه قد صدقنى ؟

فقال الوليد : لا ما صدقك ولكنه يقول :

ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، أى الموحدين ، من أهل مكة

المنزهين له عن الولد . فمحاورة هذين الكافرين ، العالمين بالعربية ، مطابقة لما قررنا .

لأن النضر قال : إن معنى الآية على أن إن شرطية مطابق لما يعتقده الكفار من نسبة الولد إلى الله ، وهو معنى محذور وأن الوليد قال : إن (إن) نافية ، وأن معنى الآية على ذلك هو مخالفة الكفار وتنزيه الله عن الولد .

وبجميع ما ذكرنا يتضح أن إن فى الآية الكريمة نافية .

وذلك مروى عن ابن عباس والحسن والسدى وقتادة وابن زيد وزهير ابن محمد وغيرهم .

تنبيـــــه

اعلم أن ماقاله ابن جرير وغير واحد من أن القول بأن إن نافية يلزمه إيهام المحذور الذى لايجوز فى حق الله .

قالوا : لأنه إن كان المعنى ما كان لله ولد فإنه لايدل على نفى الولد ، إلا فى الماضى ، فللكفار أن يقولوا إذا صدقت لم يكن له فى الماضى ولد . ولكن الولد طرأ عليه ، بعد ذلك لما صاهر الجن ، وولدت له بناته التى هى الملائكة .

وأن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفى لاشك فى عدم صحته لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإيهام لا أثر له ولو كان له أثر لما كان الله يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة كان الدالة على خصوص الزمن فى الماضى فى نحو قوله تعالى (وكان الله عزيزا حكيما) ، (وكان الله عليما حكيما) ، (وكان الله غفورا رحيما) ، (وكان الله على كل شىء قديراً) ، (إن الله كان علياً كبيراً) إلى غير ذلك من الآيات التى يصعب حصرها .

فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل .

فلو كان الكفار يقولون ذلك الذى زعموه الذى هو قولهم : صدقت ما كان له ولد فى الماضى ولكنه طرأ له لقالوا مثله فى الآيات التى ذكرنا

كأن يقولوا (كان عليما حكيما) فى الماضى ولكنه طرأ عليه عدم ذلك وهكذا فى جميع الآيات المذكورة ونحوها .

وأيضاً فإن المحذور الذى زعموه لم يمنع من إطلاق نفى الكون الماضى فى قوله تعالى(وما كان ربك نسيا) ، وقوله (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وقوله(ما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون)، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

ومن أوضحها فى محل النزاع قوله تعالى (وما كان معه من إله) الآية .

ولم يمنع من نفى القرآن للولد فى الزمن الماضى فى قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد) فإن الكفار لم يقولوا يوما ما : صدقت ما اتخذه فى الماضى ولكنه طرأ عليه اتخاذه .

وكذلك فى قوله (لم يتخذ ولدا) وقوله (لم يلد) ، لأن لم تنقل المضارع إلى معنى الماضى .

والكفار لم يقولوا يوما صدقت لم يتخذ ولدا فى الماضى، ولكنه طرأ عليه اتخاذه ولم يقولوا لم يلد فى الماضى ، ولكنه ولد أخيراً .

والحاصل أن الكفار لم يقروا أن الله منزه عن الولد لا فى الماضى ولا فى الحال ، ولا فى الاستقبال .

ومعلوم أن الولادة المزعومة حدث متجدد .

وبذلك تعلم أنما زعموه من إبهام المحذور فى كون إن فى الآية نافية

لا أساس له ولا معول عليه ، وأن ما ادعوه من كونها شرطية ليس له معنى فى اللغة العربية إلا المعنى المحذور الذى لايجوز فى حق الله بحال .

واعلم أن كلام الفخر الرازى فى هذه الآية الكريمة الذى يقتضى إمكان صحة الربط بين طرفيها على أنها شرطية لاشك فى غلطه فيه .

وأما إبطاله لقول من قال : إن المعنى إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين له والمكذبين لكم فى ذلك ، فهو إبطال صحيح ، وكلامه فيه فى غاية الحسن والدقة ، وهو يقتضى إبطاله بنفسه ، لجميع ما كان يقرره فى الآية الكريمة .

والحاصل أن كون معنى إن فى الآية الكريمة هو النفى لا إشكال فيه ، ولا محذور ولا إيهام ، وأن الآيات القرآنية تشهد له لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى فى القرآن .

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء فلايصح له معنى ، غير محذور فى اللغة ، وليس له فى كتاب الله نظير ، لإجماع أهل اللسان العربى على اختلاف المعنى فى التعليق بإن ، والتعليق بلو .

لأن التعليق بلو يدل على عدم الشرط،وعدم الشرط استلزم عدم المشروط بخلاف إن .

فالتعليق بها يدل على الشك فى وجود الشرط بلا نزاع .

وما خرج عن ذلك من التعليق بها مع العلم بوجود الشرط أوالعلم بنفيه، فلأسباب أخر ،وأدلة خارجة ، ولايجوز حملها على أحد الأمرين المذكورين، إلا بدليل منفصل كما أوضحناه ، فى غير هذا الموضع .

تنبيـــــــه

اعلم أن ماذكرنا من أن لو تقتضى عدم وجود الشرط ، وأن إن تقتضى الشك فيه ، لايرد عليه قوله تعالى : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) الآية . كما أشرنا له قريبا .

لأن التحقيق أن الخطاب فى قوله : (إن كنت فى شك) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد به من يمكن أن يشك فى ذلك من أمته .

وقد قدمنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (لاتجعل مع الله إلهاً آخر) الآية . دلالة القرآن الصريحة على أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إليه الخطاب من الله ، والمراد به التشريع لأمته ، ولايراد هو صلى الله عليه وسلم البتة بذلك الخطاب .

وقدمنا هناك أن من أصرح الآيات القرآنية فى ذلك قوله تعالى (وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف) الآية ، فالتحقيق أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لا هو نفسه ، لأنه هو المشرع لهم بأمر الله .

وإيضاح ذلك أن معنى : (إما يبلغن عندك الكبر) أى إن يبلغ عندك الكبر يانبى الله والداك أو أحدهما فلا تقل لهما أف .

ومعلوم أن أباه مات وهو حمل ، وأمه ماتت وهو فى صباه فلايمكن أن يكون المراد : إن يبلغ الكبر عندك هما أو أحدهما والواقع أنهما قد ماتا قبل ذلك بأزمان .

وبذلك يتحقق أن المراد بالخطاب غيره من أمته الذى يمكن إدراك والديه أو أحدهما الكبر عنده .

وقد قدمنا أن مثل هذا أسلوب عربى معروف وأوردنا شاهداً لذلك رجز سهل بن مالك الفزارى فى قوله :

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين فى فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعنى واسمعى يا جاره

وقد بسطنا القصة هناك ، وبينا أن قول من قال : إن الخطاب فى قوله تعالى : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) الآية : لكل من يصح خطابه من أمته ، صلى الله عليه وسلم لا له هو نفسه ، باطل بدليل قوله تعالى بعده فى سياق الآيات : (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) الآية .

والحاصل أن آية (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) الآية . لاينقض بها الضابط الذى ذكرنا لأنها كقوله : (لاتجعل مع الله إلهاً آخر) (لئن أشركت ليحبطن عملك) (فلا تكونن من الممترين) (ولاتطع الكافرين والمنافقين) (ولاتطع منهم آثماً أو كفورا) إلى غير ذلك من الآيات .

ومعلوم أنه هو صلى الله عليه وسلم ،لايفعل شيئاً من ذلك البتة ، ولكنه يؤمر وينهى ليشرع لأمته على لسانه .

وبذلك تعلم اطراد الضابط الذى ذكرنا فى لفظة لو ، ولفظة إن ، وأنه لاينتقض بهذه الآية .

هذا ماظهر لنا فى هذه الآية الكريمة ، ولاشك أنه لامحذور فيه ولا غرر ولا إيهام ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

قد قدمنا معنى لفظة سبحان ، وماتدل عليه من تنزيه الله عن كل مالا

يليق بكماله وجلاله وإعراب لفظة سبحان مع بعض الشواهد العربية فى أول سورة بنى إسرائيل .

ولما قال تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد) الآية . نزه نفسه تنزيهاً تاماً عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات والأرض ، ورب العرش ، جدير بالتنزيه عن الولد ، وعن كل مالا يليق بكماله وجلاله .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة ، من أنه لما ذكر وصف الكفار له ، بمالا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه فى كتابه ، أن ينزهوه عن كل مالا يليق به ، جاء مثله موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد) إلى قوله تعالى : (سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) وقوله تعالى . (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) وقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) . وقوله تعالى : (سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهلهم الأمل) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى: (وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾

قد بينا الآيات الموضحة فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وعندة مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية

وفى الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يقبل منها شفاعة) الآية . وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة ، فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ

قرأ هذا الحرف نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، والكسائ (وقيله) بفتح اللام وضم الهاء ، وقرأه عاصم وحمزة : (وقيله) بكسر اللام والهاء .

قال بعض العلماء إعرابه بأنه عطف محل على الساعة لأن قوله تعالى : (وعنده علم الساعة) مصدر مضاف إلى مفعوله .

فلفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة ، منصوب محلا بالمفعولية ، وما كان

كذلك جاز فى تابعه النصب نظراً إلى المحل ، والخفض نظراً إلى اللفظ ، كما قال فى الخلاصة :

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى فى الاتباع المحل فحسن

وقال فى نظيره فى الوصف :

واخفض أو نصب تابع الذى انخفض كمبتغى جاه ومالا من نهض

وقال بعضهم : هو معطوف على (سرهم) .

وعليه فالمعنى : أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم ، وقيله يارب الآية.

وقال بعضهم : هو منصوب على أنه مفعول مطلق .

أى ، وقال : قيله وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت ، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة .

قالوا : ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير :

تمشى الوشاة جنابيها وقيلهم إنك يا بن أبى سلمى لمقتول

أى ويقولون : قيلهم .

وقال بعضهم : هو منصوب بيعلم محذوفة لأن العطف الذى ذكرنا على قوله : سرهم ، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضى الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لايصلح لكونه اعتراضاً ، وتقدير الناصب إذا دل المقام عليه لا إشكال فيه . كما قال فى الخلاصة :

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزما

وأما على قراءة الخفض ،فهو معطوف على الساعة ، أى وعنده علم الساعة ، وعلم قيله يارب .

واختار الزمخشرى أنه مخفوض بالقسم ، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان .

والتحقيق أن الضمير فى قيله ، للنبى صلى الله عليه وسلم .

والدليل على ذلك ، أن قوله بعد : (فاصفح عنهم وقل سلام) خطاب له صلى الله عليه وسلم بلا نزاع ، فادعاء أن الضمير فى قيله لعيسى لا دليل عليه ولا وجه له .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من شكواه صلى الله عليه وسلم ، إلى ربه عدم إيمان قومه ، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) ، وذكر مثله عن موسى فى قوله تعالى فى الدخان : (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) ، وعن نوح فى قوله تعالى : (قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) إلى آخر الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى : ﴿ فسوف يعلمون) بياء الغيبة ، وقرأ نافع وابن عامر (فسوف تعلمون) بتاء الخطاب .

وهذه الآية الكريمة تضمنت ، ثلاثة أمور :

الأول : أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح عن الكفار .

والثانى : أن يقول لهم سلام .

والثالث : تهديد الكفار ، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار .

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة فى غير هذا الموضع :

كقوله تعالى فى الأول (وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل) ، وقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) .

والصفح الإعراض عن المؤاخذة بالذنب .

قال بعضهم : وهو أبلغ من العفو .

قالوا : لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق ، فكأنه يولى المذنب بصفحة عنقه معرضا عن عتابه فما فوقه .

وأما الأمر الثانى ، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم سيدهم كما قال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) ، وقال تعالى : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) . وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه : (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) قال له (سلام عليك) .

ومعنى السلام فى الآيات المذكورة ، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم ، ومن مجازاتهم لهم بالسوء ، أى سلمتم منا لا نسافهكم ، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملوننا .

وأما الأمر الثالث الذى هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة قد جاء موضحاً فى آيات كتاب الله كقوله تعالى : (ولتعلمن نبأه بعد حين) وقوله تعالى : (لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون) وقوله : (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) . وقوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ثم كلا

سوف تعلمون) . وقوله تعالى :(لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) إلى غير ذلك من الآيات .

وكثير من أهل العلم يقول : إن قوله تعالى : (فاصفح عنهم) وما فى معناه منسوخ بآيات السيف ، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ .

والقتال فى المحل الذى يجب فيه القتال ، والصفح عن الجهلة ، والإعراض عنهم ، وصف كريم ، وأدب سماوى ، لا يتعارض مع ذلك ، والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ .

أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا ، ولكنه بين أنها هى ليلة القدر فى قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وبين كونها (مباركة) المذكورة هنا فى قوله تعالى (ليلة القدر خير من ألف شهر) إلى آخر السورة .

فقوله (فى ليلة مباركة) أى كثيرة البركات والخيرات .

ولاشك أن ليلة هى خير من ألف شهر ، إلى آخر الصفات التى وصفت بها ، فى سورة القدر كثيرة البركات ، والخيرات جداً .

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هى ليلة القدر ، التى أنزل فيها القرآن من شهر رمضان ، فى قوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) .

فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روى عن عكرمة وغيره ، لاشك فى أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح .

ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل .

والأحاديث التى يوردها بعضهم فى أنها من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها ، ولا يصح سند شىء منها ، كما جزم به ابن العربى وغير واحد من المحققين .

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح ، بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة .

قوله تعالى :﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا ﴾

معنى قوله : يفرق ، أى يفصل ويبين ، ويكتب فى الليلة المباركة ، التى هى ليلة القدر ، كل أمر حكيم ، أى ذى حكمة بالغة لأن كل مايفعله الله ، مشتمل على أنواع الحكم الباهرة :

وقال بعضهم : حكيم ، أى محكم ، لاتغيير فيه ، ولاتبديل .

وكلا الأمرين حق لأن ماسبق فى علم الله ، لايتغير ولا يتبدل ، ولأن جميع أفعاله فى غاية الحكمة .

وهى فى الاصطلاح وضع الأمور فى مواضعها وإيقاعها فى مواقعها .

وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى فى كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم ، بالتفصيل والإيضاح جميع مايقع فى تلك السنة ، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة .

فتبين فى ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى ، والخصب والجدب والصحة والمرض ، والحروب والزلازل ، وجميع مايقع فى تلك السنة كائنا ما كان .

قال الزمخشرى فى الكشاف : ومعنى يفرق : يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم فيها ، إلى الأخرى القابلة إلى أن قال : فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبرائيل ، وكذلك الزلازل ، والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت اهـ محل الغرض منه بلفظه .

ومرادنا ببيان معنى الآية ، لا التزام صحة دفع النسخ المذكورة للملائكة المذكورين ، لأنا لم نعلم له مستندا .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هى ليلة القدر فهو بيان قرآنى آخر .

وإيضاح ذلك أن معنى قوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أى فى ليلة التقدير لجميع أمور السنة ، من رزق وموت ، وحياة وولادة ومرض ، وصحة وخصب وجدب ، وغير ذلك من جميع أمور السنة .

قال بعضهم : حتى إن الرجل لينكح ويتصرف فى أموره ويولد له ، وقد خرج اسمه فى الموتى فى تلك السنة .

وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر ، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

وقد قدمنا فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى : (فظن أن لن نقدر عليه) أن قدر بفتح الدال مخففاً يقدر ويقدر بالكسر والضم كيضرب وينصر قدراً بمعنى قدر تقديراً ، وأن ثعلبا أنشد لذلك قول الشاعر :

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أورق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وبينا هناك ، أن ذلك هو معنى ليله القدر ، لأن الله يقدر فيها وقائع السنة .

وبينا أن ذلك هو معنى قوله تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم) وأوضحنا هناك أن القدر بفتح الدال والقدر بسكونها هما ما يقدره الله من قضائه : ومنه قول هدبة بن الخشرم :

ألا يا قومى للنوائب والقدر وللأمر يأتى المرء من حيث لا يدرى

واعلم أن قول من قال: إنما سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها على غيرها من الليالى من قولهم : فلان ذو قدر أى ذو شرف ومكانة رفيعة لا ينافى القول

الأول لاتصافها بالأمرين معاً ، وصحة وصفها بكل منهما كما أوضحنا مثله مراراً.

واختلف العلماء فى إعراب قوله (أمراً من عنـدنا) ، قال بعضهم : هو مصدر منكر فى موضع الحال ، أى أنزلناه فى حال كوننا آمرين به .

وممن قال بهذا الأخفش .

وقال بعضهم : هو ما ناب عن المطلق من قوله (أنزلناه) وجعل (أمراً) بمعنى : إنزالا .

وممن قال به المبرد .

وقال بعضهم هو ما ناب عن المطلق من يفرق ، فجعل (أمراً) بمعنى فرقا أو فرق بمعنى أمراً .

وممن قال بهذا الفراء والزجاج .

وقال بعضهم هو حال من (أمر) أى (يفرق فيها بين كل أمر حكيم) . فى حال كونه أمراً من عندنا ، وهذا الوجه جيد ظاهر ، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهى متأخرة عنها لأن النكرة التى هى (أمر) وصفت بقوله (حكيم) كما لايخفى .

وقال بعضهم (أمراً) مفعول به لقوله (منذرين) وقيل غير ذلك .

واختار الزمخشرى : أنه منصوب بالاختصاص ، فقال : جعل كل أمر جزلا فخماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وأكسبه فخامة ، بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلا من عندنا ، كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا وهذا الوجه أيضاً ممكن ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا) الآية . وفى سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ .

هذا الذى أدعوه على النبى صلى الله عليه وسلم افتراء ، من أنه معلم ، يعنون أن هذا القرآن علمه إياه بشر ، وأنه صلى الله عليه وسلم مجنون ، قد بينا الآيات الموضحة لإبطاله .

أما دعواهم أنه معلم فقد قدمنا الآيات الدالة على تلك الدعوى فى سورة النحل ، فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) وفى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) إلى قوله (فهى تملى عليه بكرة وأصيلا).

وبينا الآيات الموضحة لافترائهم وتعنتهم فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) .

وفى الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) الآية .

وأما دعواهم أنه مجنون ، فقد قدمنا الآيات الموضحة لها . ولإبطالها فى سورة قد أفلح المؤمنون فى الكلام على قوله تعالى : (أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق) الآية .

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ﴾

الرسول الكريم هو موسى ، والآيات الدالة على أن موسى هو الذى أرسل لفرعون وقومه كثيرة ومعروفة .

وقوله : (أدوا إلى) أى سلموا إلى عباد الله يعنى بنى إسرائيل ، وأرسلوهم معى .

فقوله (عباد الله) مفعول به لقوله : (أدوا) .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بنى إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً فى آيات أخر ، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل ، كقوله تعالى فى طه : (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) وقوله تعالى فى الشعراء (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن ارسل معنا بنى إسرائيل) الآية .

والتحقيق أنَّ أنْ فى قوله (أن أدوا) هى المفسرة ، لأن مجىء الرسول يتضمن معنى القول لا المخففة من الثقيلة ، وأن قوله : (عباد الله) مفعول به كما ذكرنا وكما أوضحته آية طه وآية الشعراء لا منادى مضاف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : (وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ .

لم يبين هنا من هؤلاء القوم الذين أورثهم ما ذكره هنا ، ولكنه بين فى سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل وذلك فى قوله تعالى : (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) الآية كما تقدم فى الترجمة ، وفى الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَونَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنه نجى بنى إسرائيل من العذاب المهين الذى كان يعذبهم به فرعون وقومه ، جاء موضحاً فى آيات أخر ، مصرح فيها بأنواع العذاب المذكور ، كقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ إلى قوله (وأنتم تنظرون) . وقوله فى الأعراف (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم) الآية . وقوله تعالى فى المؤمن (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه) الآية . وقوله تعالى فى إبراهيم : (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم) الآية . وقوله فى الشعراء : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) .

فتعبيده إياهم من أنواع عذابه لهم ، إلى غير ذلك من الآيات .

وماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، من أن فرعون كان عالياً من المسرفين ، أوضحه أيضاً فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى يونس : (وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين) وقوله تعالى فى أول القصص (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (يصب من فوق رءوسهم الحميم) .

وقد تركنا إحالات متعددة بينا فيها بعض آيات سورة الدخان هذه خشية الإطالة بكثرة الإحالة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة فى سورة مريم فى الكلام على قوله : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين) الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ذكر جل وعلا، في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى.

الأول: منها خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه، وآياته.

فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم.

ولذا قال: (لآيات للمؤمنين)، ثم قال: (آيات لقوم يوقنون)، ثم قال: (آيات لقوم يعقلون).

وهذه البراهين الستة المذكورة فى أول هذه السورة الكريمة ، جاءت موضحة فى آيات كثيرة جداً كما هو معلوم .

أما الأول منها وهو خلقه السماوات والأرض المذكور فى قوله : (إن فى خلق السماوات والأرض لآيات للمؤمنين) فقد جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وقوله تعالى: (أفلم يروا إلى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض) الآية . وقوله : (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) الآية . وقوله : (أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض) الآية . وقوله : (ومن آياته خلق السماوات والأرض) فى الروم وشورى . وقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء) الآية وقوله تعالى : (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) ، وقوله تعالى: (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون) . وقوله تعالى : (ألم نجعل الأرض مهادا ـ إلى قوله ـ وبنينا فوقكم سبعاً شدادا) والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معروفة .

وأما الثانى منها : وهو خلقه الناس المذكور فى قوله : (وفى خلقكم) ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . وقوله . (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم) الآية . وقوله تعالى عن نبيه نوح : (مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا) ، وقوله تعالى : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون) وقوله (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة .

وأما الثالث منها : وهو خلقه الدواب المذكور فى قوله : (ومايبث من دابة) فقد جاء أيضاً موضحاً فى آيات كثيرة أيضاً من كتاب الله كقوله تعالى فى سورة الشورى : (ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) . وقوله تعالى فى البقرة : (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) الآية. وقوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير) ، وقوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة .

وأما الرابع منها : وهو اختلاف الليل والنهار المذكور فى قوله : واختلاف الليل والنهار . فقد جاء موضحاً أيضاً فى آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى فى البقرة . (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) إلى قوله : (لآيات لقوم يعقلون). وقوله تعالى فى آل عمران : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) . وقوله تعالى فى فصلت : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) الآية ، وقوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها) الآية . وقوله تعالى: (يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) ، وقوله تعالى : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) ، وقوله تعالى : (وهو الذى يحيى

ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما الخامس منها وهو: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور فى قوله : (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) فقد جاء موضحاً أيضاً فى آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى فى البقرة : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) إلى قوله (لآيات لقوم يعقلون) ، وقوله تعالى: (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً) إلى قوله (متاعاً لكم ولأنعامكم) .

وإيضاح هذا البرهان باختصار أن قوله تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه) أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل فى طعامه كالخبز الذى يأكله ، ويعيش به من خلق للماء الذى كان سبباً لنباته .

هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه ؟

الجواب : لا .

ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل ، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض ، على هذا الوجه الذى يحصل به النفع ، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشاً صغيراً ، حتى تروى به الأرض تدريجاً ، من غير أن يحصل به هدم ، ولا غرق كما قال تعالى : (فترى الودق يخرج من خلاله) ؟

الجواب لا

ثم هب أن الماء قد خلق فعلا ، وأنزل فى الأرض ، على ذلك الوجه الأتم الأكمل ، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض ، ويخرج منها مسمار النبات ؟

الجواب : لا .

ثم هب أن النبات خرج من الأرض ، وانشقت عنه فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات ؟

الجواب : لا .

ثم هب أن السنبل خرج من النبات فهل يقدر أحد غير الله أن ينمى حبه وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت ؟

الجواب : لا .

وقد قال تعالى : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، وكقوله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافا) . وقوله تعالى : (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

واعلم أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء ، فى آية الجاثية هذه ، قد أوضحنا وجهه فى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً) الآية .

وأما السادس منها : وهو تصريف الرياح المذكور فى قوله (وتصريف الرياح) فقد جاء موضحاً أيضاً فى آيات من كتاب الله كقوله فى البقرة : (وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) وقوله تعالى : (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) ، وقوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيـــه

اعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة ، فى أول سورة الجاثية ، هذه ثلاثة منها ، من براهين البعث ، التى يكثر فى القرآن العظيم ، الاستدلال بها على البعث ، كثرة مستفيضة .

وقد أوضحناها فى مواضع من هذا الكتاب المبارك فى سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما ، وأحلنا عليها مراراً كثيرة فى هذا الكتاب المبارك وسنعيد طرفا منها هنا لأهميتها إن شاء الله تعالى .

والأول من البراهين المذكورة هو خلق السماوات والأرض المذكور هنا فى سورة الجاثية هذه (إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين) لأن خلقه جل وعلا للسماوات والأرض ، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت لأن من خلق الأعظم الأكبر ، لاشك فى قدرته على خلق الأضعف الأصغر .

والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) أى ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر ، وقوله تعالى : (أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) . وقوله تعالى : (أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير) وقوله تعالى : (أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) الآية . وقوله تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم)

ونظير آية النازعات هذه قوله تعالى فى أول الصافات : (فاستفتهم أهم

أشد خلقاً أمن خلقنا) الآية ، لأن قوله : (أمن خلقنا) يشير به إلى خلق السماوات والأرض ، وما ذكر معهما المذكور فى قوله تعالى : (رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) إلى قوله : (فأتبعه شهاب ثاقب) .

وأما الثانى من البراهين المذكورة : فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى ، لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق ، لاشك فى قدرته على إعادة خلقهم مرة أخرى كما لا يخفى .

والاستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جداً فى كتاب الله كقوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقنا كم من تراب) إلى آخر الآيات . وقوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقوله تعالى : (ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً فور بك لنحشرنهم والشياطين) الآية . وقوله تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية . وقوله تعالى : (فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) وقوله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وقوله تعالى : (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقوله تعالى : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) وقوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى) وقوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) . وقوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) إلى قوله (فما يكذبك بعد بالدين) يعنى أى شىء

يحملك على التكذيب بالدين أى بالبعث والجزاء ، وقد علمت أنى خلقتك الخلق الأول فى أحسن تقويم ، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد الأول لا شك فى قدرته ، على إعادته مرة أخرى إلى غير ذلك من الآيات .

وأما البرهان الثالث منها : وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور فى قوله تعالى فى سورة الجاثية هذه : (وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) ، فإنه يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث فى القرآن العظيم ، لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم ، لأن الجميع أحياء بعد موت .

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (ومن آياته أن ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير) وقوله تعالى : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن هو الله الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) وقوله تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) وقوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) .

فقوله تعالى : (كذلك نخرج الموتى) أى نبعثهم من قبورهم أحياء كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عدمها ، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت ، وقوله تعالى : (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد

موتها وكذلك تخرجون) يعنى تخرجون من قبوركم أحياء بعد الموت . وقوله تعالى : (وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ .

أشار جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى آيات هذا القرآن العظيم ، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه ، متلبسة بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وما ذكره جل وعلا فى آية الجاثية هذه ، ذكره فى آيات أخر بلفظه كقوله تعالى فى البقرة : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) وقوله تعالى فى آل عمران : (وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمه (تلك) بمعنى هذه .

ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله : (ذلك الكتاب) بمعنى هذا الكتاب . كما حكاه البخارى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى ، ومن شواهده قول خفاف بن ندبة السلمى :

فإن تك خيلى قد أصيب صميمها فعمداً على عينى تيممت مالكا
أقول له والرمح يأطر متنه تأمل خفافا إننى أنا ذالكا

يعنى أنا هذا .

وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه فى كتابنا (دفع إيهام الاضطراب ، ـ أضواء البيان ج ٧)

عن آيات الكتاب) فى أول سورة البقرة وقوله تعالى : (نتلوها) أى نقرؤها عليك .

وأسند جل وعلا تلاوتها إلى نفسه لأنها كلامه الذى أنزله على رسوله بواسطة الملك ، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه جل وعلا .

ونظير ذلك قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) .

فقوله : فإذا قرأناه أى قرأه عليك الملك المرسل به ، من قبلنا مبلغاً عنا ، وسمعته منه ، فاتبع قرآنه أى فاتبع قراءته واقرأه كما سمعته يقرؤه .

وقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) .

وسماعه صلى الله عليه وسلم القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله وفهمه له هو معنى تنزله إياه على قلبه فى قوله تعالى : (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) وقوله تعالى : (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وقوله تعالى فى هذه الآية : (تلك آيات الله) يعنى آياته الشرعية الدينية .

واعلم أن لفظ الآية ، يطلق فى اللغة العربية إطلاقين ، وفى القرآن العظيم إطلاقين أيضاً .

أما إطلاقاه فى اللغة العربية .

فالأول منهما وهو المشهور فى كلام العرب ، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة ، وهذا مستفيض فى كلام العرب ، ومنه قول نابغة ذبيان :

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار فى قوله بعده :

رماد كـكحل العين لأياً أبينه ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثانى منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة ، يقولون : جاء القوم بآيتهم أى بجماعتهم .

ومنه قول برج بن مسهر :

خرجنا من النقبين لا حى مثلنا بآيتنا نزجى اللقاح المطافلا

وقوله : بآياتنا يعنى بجماعتنا .

وأما إطلاقاه فى القرآن العظيم :

فالأول منهما إطلاق الآية على الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم ، ومنه قوله هنا : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) الآية .

وأما الثانى منهما : فهو إطلاق الآية على الآية الـكونية القدرية كقوله تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) .

أما الآية الـكونية القدرية فهى بمعنى الآية اللغوية التى هى العلامة ، لأن الآيات الـكونية علامات قاطعة ، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده .

وأما الآية الشرعية الدينية ، فقال بعض العلماء : إنها أيضاً من الآية التى هى العلامة ، لأن آيات هذا القرآن العظيم ، علامات على صدق من جاء بها ، لما تضمنته من برهان الإعجاز ، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنتهاها .

وقال بعض العلماء إنها من الآية بمعنى الجماعة ، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه .

واختار غير واحد أن أصل الآية أيية بفتح الهمزة وفتح الياءين بعدها ،

فاجتمع فى الياءين موجبا إعلال ، لأن كلا منهما متحركة حركة أصلية بعد فتح متصل ، كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

من واو وياء بتحريك أصل ألفاً ابدل بعد فتح متصل

إن حرك التالى ... الخ .

والمعروف فى علم التصريف ، أنه إن اجتمع موجبا إعلال فى كلمة واحدة. فالأكثر فى اللغة العربية تصحيح الأول منهما ، وإعلال الثانى بإبداله ألفا كالهوى والنوى والطوى والشوى ، وربما صحح الثانى وأعل الأول كغاية ، وراية ، وآية على الأصح ، من أقوال عديدة ، ومعلوم أن إعلالهما لا يصح ، ولهذا أشار فى الخلاصة بقوله :

وإن لحرفين ذا الإعلال استحق صحح أول وعكس قد يحق

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله ولم يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله ، وآياته أنه يستبعد ، أن يؤمن بشىء آخر ، لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته لظهور الأدلة على ذلك ، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل ، وأنه أفاك أثيم ، والأفاك : كثير الإفك وهو أسوأ الكذب ، والأثيم : هو مرتكب الإثم بقلبه وجوارحه ، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه ، قد ذكره تعالى فى غير هذا الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن ، بالويل يوم القيامة ، وبين استبعاد إيمانهم ، بأى حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن ،

وذلك بقوله فى آخر المرسلات : (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ويل يومئذ للمكذبين فبأى حديث بعده يؤمنون) فقوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) كقوله هنا (ويل لكل أفاك أثيم) .

وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل فى سورة المرسلات كما هو معلوم وقوله فى آخر المرسلات : (فبأى حديث بعده يؤمنون) كقوله هنا فى الجاثية : (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) .

ومعلوم أن الإيمان بالله على الوجه الصحيح ، يستلزم الإيمان بآياته ، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم الإيمان به تعالى ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم) يدل على أن من يسمع القرآن يتلى ثم يصر على الكفر والمعاصى فى حالة كونه متكبراً عن الانقياد إلى الحق الذى تضمنته آيات القرآن كأنه لم يسمع آيات الله ، له البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود فى النار ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى لقمان : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب) وقوله تعالى فى الحج : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) وقوله تعالى : (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) ، فقوله تعالى عنهم : ماذا قال آنفاً . يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو عليهم النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات والهدى .

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث فى سورة فصلت فى

الكلام على قوله تعالى : (فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية . (كأن لم يسمعها) خففت فيه لفظة كأن ، ومعلوم أن كأن إذا خففت كان اسمها مقدرا وهو ضمير الشأن والجملة خبرها كما قال فى الخلاصة :

وخففت كأن أيضا فنوى منصوبها وثابتا أيضاً روى

وقد قدمنا فى أول سورة الكهف : أن البشارة تطلق غالباً على الإخبار بما يسر ، وأنها ربما أطلقت فى القرآن وفى كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضاً .

وأوضحنا ذلك بشواهده العربية ، وقوله فى هذه الآية الكريمة : (ويل لكل أفاك أثيم) .

قال بعض العلماء : (ويل) واد فى جهنم

والأظهر أن لفظة (ويل) كلمة عذاب وهلاك ، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها فى معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) .

قرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو وحفص ، عن عاصم : يؤمنون بياء الغيبة .

وقرأه ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، وشعبة عن عاصم تؤمنون بتاء الخطاب .

وقرأه ورش عن نافع والسوسى عن أبى عمرو يومنون بإبدال الهمزة واواً وصلا ووقفا .

وقرأه حمزة بإبدال الهمزة واواً فى الوقف دون الوصل .

والباقون بتحقيق الهمزة مطلقا

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة توعد الأفاك الأثيم بالويل ، والبشارة بالعذاب الأليم .

وقد قدمنا قريباً أن من صفاته ، أنه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، وذكر فى هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزوا أى مهزوءا بها ، مستخفا بها ، ثم توعده على ذلك بالعذاب المهين .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزوا ، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة ، قد بينه تعالى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى آخر الكهف : (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) وقوله تعالى فى الكهف أيضاً : (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه) الآية . وقوله تعالى فى سورة الجاثية هذه : (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) الآية .

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة وحفص عن عاصم هزؤا بضم الزاى بعدها همزة محققة .

وقرأه حفص عن عاصم بضم الزاى وإبدال الهمزة واواً .

وقرأه حمزة هزءا بسكون الزاى بعدها همزة محققة فى حالة الوصل .

وأما فى حالة الوقف ، فعن حمزة نقل حركة الهمزة إلى الزاى فتكون الزاى مفتوحة بعدها ألف ، وعنه إبدالها واواً محركة بحركة الهمزة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (لهم عذاب مبين) أى لأن عذاب الكفار الذين كانوا يستهزءون بآيات الله لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم وشدة إيلامهم بأنواع العذاب .

وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم بخلاف عصاة المسلمين فإنهم وإن عذبوا فسيصيرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب .

فليس المقصود بعذابهم مجرد الاهانة بل ليؤلوا بعده إلى الرحمة ودار الكرامة .

قوله تعالى : ﴿ مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُمْ مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : (من ورائهم جهنم) قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الشواهد العربية فى سورة إبراهيم فى الكلام على قوله تعالى . (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم) الآية . وبينا هناك أن أصح الوجهين أن وراء بمعنى أمام .

فمعنى من ورائه جهنم أى أمامه جهنم يصلاها يوم القيامة كما قال تعالى : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى أمامهم ملك .

وذكرنا هناك الشواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام ، وبينا أن هذا هو التحقيق فى معنى الآية وكذلك آية الجاثية هذه ، فقوله تعالى (من ورائهم جهنم) أى مامهم جهنم يصلونها يوم القيامة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) .

أوضح فيه أن ما كسبه الكفار فى دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغنى عنهم شيئاً يوم القيامة أى لا ينفعهم بشىء فلا يجلب لهم بسببه نفع ولا يدفع عنهم بسببه ضر ، وإنما اتخذوه من الأولياء فى دار الدنيا من دون الله ، كالمعبودات التى كانوا يعبدونها ، ويزعمون أنها شركاء لله لا ينفعهم يوم القيامة أيضاً بشىء .

وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة ، قد أوضحهما الله فى آيات كثيرة من كتابه .

أما الأولى منهما : وهى كونهم لا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً فقد أوضحها فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب) وقوله تعالى : (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) وقوله تعالى : (الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة) الآية . وقوله تعالى : (قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) . وقوله تعالى : (ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه) الآية . وقوله تعالى : (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) . وقوله تعالى عن إبراهيم : (ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون) الآية . وقوله تعالى : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) الآية . وقوله تعالى : (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك

هم وقود النار) . وقوله تعالى : (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . وقوله تعالى فى المجادلة (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) الآية .

والآيات بمثل هذا كثيرة جداً ، وقد قدمنا كثيراً منها فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

وأما الثانية منهما ، وهى كونهم لا تنفعهم المعبودات ، التى اتخذوها أولياء من دون الله ، فقد أوضحها تعالى فى آيات كثيره ، كقوله تعالى فى هود : (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) . وقوله تعالى (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) . وقوله تعالى : (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) : وقوله تعالى (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا) وقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) الآية وقوله تعالى: (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) . وقوله تعالى : (اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) ، وقوله تعالى: (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماواكم النار ومالكم من ناصرين) ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) ، الأولياء جمع ولى .

والمراد بالأولياء هنا ، المعبودات التى يوالونها بالعبادة من دون الله ، (وما) فى قوله : (وما كسبوا) ؟ (وما اتخذوا) موصولة وهى فى محل رفع فى الموضعين ، لأن (ما) الأولى فاعل (يغنى) ؟ (وما) الثانية معطوفة عليها وزيادة لا ، قبل المعطوف على منفى معروفة . وقوله : (ولا يغنى) أى لا ينفع. والظاهر أن أصله من الغناء بالفتح والمد وهو النفع .

ومنه قول الشاعر :

وقل غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثا ووارك لاحد

فقوله : قل غناء أى قل نفعا . وقول الآخر :

قل الغنـاء إذا لاقى الفتى تلفا قول الأحبة لاتبعد وقد بعدا

فقوله : الغناء أى النفع .

والبيت من شواهد إعمال المصدر المعرف بالألف واللام ، لأن قوله : قول الأحبة ، فاعل قوله الغناء . وأما الغناء بالكسر والمد فهو الألحان المطربة .

وأما الغنى بالكسر والقصر فهو ضد الفقر .

وأما الغنى بالفتح والقصر فهو الإقامة ، من قولهم غنى بالمكان بكسر النون يغنى بفتحها غنى بفتحتين إذا أقام به .

ومنه قوله تعالى (كأن لم تغن بالأمس) وقوله تعالى (كأن لم يغنوا فيها) كأنهم لم يقيموا فيها .

وأما الغنى بالضم والقصر فهو جمع غنية وهى مايستغنى به الإنسان .

وأما الغناء بالمد والضم فلا أعلمه فى العربية .

وهذه اللغات التى ذكرنا فى مادة غنى كنت تلقيتها فى أول شبابى فى درس من دروس الفقه لقنيها شيخى الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكنى ، وذكر لى بيتى رجز فى ذلك لبعض أفاضل علماء القطر وهما قوله :

وضد فقر كإلى وكسحاب النفع والمطر أيضاً ككتاب

وكفتى إقامة وكهنا جمع لغنية لما به الغنى

قوله تعالى : ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

الإشارة فى قوله (هذا هدى) راجعة للقرآن العظيم المعبر عنه بآيات الله فى قوله (تلك آيات الله) . وقوله (فبأى حديث بعد الله وآياته) الآية . وقوله : (يسمع آيات الله تتلى عليه) وقوله : (وإذا علم من آياتنا شيئاً) .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى ، وأن من كفر بآياته له العذاب الأليم ، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع .

أما كون القرآن هدى ، فقد ذكره تعالى ، فى آيات كثيرة كقوله تعالى (ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) . وقوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وقوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) . وقوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وقوله (آلم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى المتقين) وقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه) الآية :وقوله تعالى (وقد آتيناك من لدنا ذكراً من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة

حملا) وقوله تعالى : (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

وقد قدمنا فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم) الآية . وغير ذلك من المواضع ، أن الهدى يطلق فى القرآن إطلاقاً عاماً ، بمعنى أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق ، كقوله (وأما ثمود فهديناهم) أى بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه ، وكقوله (هدى للناس) وقوله هنا (هذا هدى) وأنه يطلق أيضاً فى القرآن بمعناه الخاص وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والاصطفاء كقوله (هدى للمتقين) وقوله (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) وقوله (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقوله (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا فى سورة فصلت أن معرفة إطلاق الهدى المذكورين ، يزول بها الإشكال الواقع فى آيات من كتاب الله .

والهدى مصدر هداه على غير قياس ، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر ، وبينا فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف إما على حذف مضاف ، وإما على المبالغة .

وعلى الأول فالمعنى هذا القرآن ذو هدى أى يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

وعلى الثانى فالمعنى أن المراد المبالغة فى اتصاف القرآن بالهدى حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى .

وقوله فى هذه الآية الكريمة ، لهم عذاب من رجز أليم ، أصح القولين

فيه أن المراد بالرجز العذاب ، ولا تكرار فى الآية لأن العذاب أنواع متفاوتة والمعنى لهم عذاب ، من جنس العذاب الأليم ، والأليم معناه المؤلم . أى الموصوف بشدة الألم وفظاعته .

والتحقيق إن شاء الله : أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعل ، فما يذكر عن الأصمعى من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه ، لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعل معروف فى القرآن العظيم وفى كلام العرب ، ومن إطلاقه فى القرآن العظيم قوله تعالى : (عذاب أليم) أى مؤلم وقوله تعالى : (بديع السماوات والأرض) أى مبدعهما وقوله تعالى : (إن هو إلا نذير لكم) الآية. أى منذر لكم ، ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

فقوله الداعى السميع يعنى الداعى المسمع . وقوله أيضاً :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أى موجع . وقول غيلان بن عقبة :

ويرفع من صدور شمردلات يصك وجوهها وهج أليم

أى مؤلم . وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم بخفض أليم على أنه نعت لرجز .

وقرأه ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم ، برفع أليم على أنه نعت لعذاب .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى: (هو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) الآية ، وفى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (والذى خلق الأزواج كلها) إلى قوله : (وما كنا له مقرنين) .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه فضل بنى إسرائيل على العالمين.

وذكر هذا المعنى فى موضع آخر من كتابه كقوله تعالى فى سورة البقرة : (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) فى الموضعين . وقوله فى الدخان : (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) ، وقوله فى الأعراف : (قل أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) .

ولكن الله جل وعلا بين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير من بنى إسرائيل وأكرم على الله ، كما صرح بذلك فى قوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف) الآية . فخير صيغة تفضيل والآية نص صريح فى أنهم خير من جميع الأمم ، بنى إسرائيل وغيرهم .

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى أمته « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله » : وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور .

وقال ابن كثير: حسنه الترمذى . ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد نحوه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ولاشك فى صحة معنى حديث معاوية ابن حيدة المذكور رضى الله عنه . لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر فى قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وقد قال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) . وقوله : (وسطا) أى خيارا عدولا .

واعلم أن ماذكرنا من كون أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من بنى إسرائيل كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة لايعارض الآيات المذكورات آنفاً فى تفضيل بنى إسرائيل .

لأن ذلك التفضيل الوارد فى بنى إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعدوم فى حال عدمه ليس بشىء حتى يفضل أو يفضل عليه .

ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم صرح بأنها خير الأمم .

وهذا واضح لأن كل ماجاء فى القرآن من تفضيل بنى إسرائيل. إنما يراد به ذكر أحوال سابقة .

لأنهم فى وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى: (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين).

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم فى القرآن فضلا إلا مايراد به أنه كان فى زمنهم السابق لا فى وقت نزول القرآن .

ومعلوم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن موجودة فى ذلك الزمن السابق الذى هو ظرف تفضيل بنى إسرائيل ، وأنها بعد وجودها ، صرح الله بأنها خير الأمم ، كما أوضحنا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فى هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون .

وقد قدمنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد ملوماً مخذولا) أنه جل وعلا يأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وينهاه ، ليشرع بذلك الأمر والنهى ، لأمته كقوله هنا : (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتبع أهواء الذين لا يعلمون ، ولكن النهى المذكور ، فيه التشريع لأمته كقوله تعالى : (ولا تطع منهم آثماً أو كفورا) . وقوله تعالى : (ولا تطع المكذبين) . وقوله : (ولا تطع كل حلاف مهين) . وقوله : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) . وقوله : (لئن أشركت ليحبطن عملك) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه صلى الله عليه وسلم يخاطب ، والمراد به التشريع لأمته ، فى آية بنى إسرائيل المذكورة .

وما تضمنته آية الجاثية هذه ، من النهى عن اتباع أهوائهم جاء موضحا

فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى الشورى : (ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) وقوله تعالى فى الأنعام :(فإن شهدوا فلاتشهد معهم ولاتتبع أهواء الذين لايؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) . وقوله تعالى فى القصص (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد بين تعالى فى قد أفلح المؤمنون أن الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم وذلك فى قوله تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن) .

والأهواء : جمع هوى بفتحتين وأصله مصدر ، والهمزة فيه مبدلة من ياء كما هو معلوم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ .

قد قدمنا فى هذا الكتاب المبارك مراراً أن الظلم فى لغة العرب أصله وضع الشىء فى غير موضعه .

وأن أعظم أنواعه الشرك بالله لأن وضع العبادة فى غير من خلق ورزق هو أشنع أنواع وضع الشىء فى غير موضعه .

ولذا كثر فى القرآن العظيم ، إطلاق الظلم بمعنى الشرك . كقوله تعالى : (والكافرون هم الظالمون) . وقوله تعالى : (ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) . وقوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) . وقوله تعالى عن لقمان : (يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) . وقد ثبت فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر قوله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم

بظلم) « بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك » .

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض جاء مذكورا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى آخر الأنفال : (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) . وقوله تعالى : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) . وقوله تعالى :(والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات). وقوله تعالى : (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) الآية . وقوله تعالى : (فقاتلوا أولياء الشيطان) الآية . وقوله تعالى : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) ، وقوله (إنما سلطانه على الذين يتولونه) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة، أنه ولى المتقين ،وهم الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه .

وذكر فى موضع آخر أن المتقين أولياؤه فهو وليهم وهم أولياؤه لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان ، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء ، وذلك فى قوله تعالى: (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) .

ثم بين المراد بأوليائه فى قوله (الذين آمنوا وكانوا يتقون)،فقوله تعالى : (وكانوا يتقون) كقوله فى آية الجاثية هذه (والله ولى المتقين) .

وقد بين تعالى فى آيات من كتابه أنه ولى المؤمنين ، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله) الآية . وقوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) . وقوله تعالى : (ذلك بأن الله مولى

الذين آمنوا) الآية . وقوله تعالى (إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقوله تعالى في الملائكة (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) الآية . إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه بأبسط من هذا .

قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

الإشارة في قوله (هذا) للقرآن العظيم .

والبصائر جمع بصيرة والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبسا كقوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة) أي على علم ودليل واضح .

والمعنى أن هذا القرآن براهين قاطعة ، وأدلة ساطعة ، على أن الله هو المعبود وحده ، وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس جاء موضحا في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى في أخريات الأعراف (قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ، وقوله تعالى في الأنعام (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ) .

وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة ، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) .

وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع .

أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريباً .

وأما كونة رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له فى الكهف فى الكلام على قوله تعالى (فوجد عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا) ، وفى أولها فى الكلام على قوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) . وفى فاطر فى الكلام على قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) . وفى الزخرف فى الكلام على قوله : (أهم يقسمون رحمة ربك) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (لقوم يوقنون) ، أى لأنهم هم المنتفعون به .

وفى هذه الآية الكريمة سؤال عربى معروف .

وهو أن المبتدأ الذى هو قوله (هذا) اسم إشارة إلى مذكر مفرد ، والخبر الذى هو بصائر جمع مكسر مؤنث .

فيقال : كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكر ؟ .

والجواب : أن مجموع القرآن كتاب واحد ، تصح الإشارة إليه بهذا ، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة ، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة (ص) فى الكلام على قوله تعالى :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ .

قد أوضحنا معناه فى سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) .

قوله تعالى: ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾.

قد أوضحنا معناه فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ .

ماتضمنته هذه الآية الكريمة ، من إنكار الكفار للبعث بعد الموت ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم (ومانحن بمنشرين) . وقوله (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين)وقوله تعالى عنهم (أئذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) وقوله تعالى عنهم (أئنا لمردودون فى الحافرة أإذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة) . وقوله تعالى : (قال من يحيى العظام وهى رميم) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقد قدمنا البراهين القاطعة القرآنية ، على تكذيبهم فى إنكارهم البعث، وبينا دلالتها على أن البعث واقع لامحالة ، فى سورة البقرة ، وسورة النحل ، وسورة الحج ، وأول سورة الجاثية هذه ، وأحلنا على ذلك مراراً .

وبينا فى سورة الفرقان الآيات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله ، والآيات التى فيها وعيد منكرى البعث بالنار فى الكلام على قوله تعالى : (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة المؤمن فى الكلام على قوله تعالى : (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ الآية .

قد قدمنا إيضاحه فى سورة الكهف ، فى الكلام على قوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم ، فى الكلام على قوله تعالى : (كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا)، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما) .

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

قد أوضحنا معنى قوله : يستعتبون فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : فاليوم لايخرجون منها ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) .

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أتبع الله جلا وعلا فى هذه الآية الكريمة ، حمده جل وعلا بوصفه بأنه رب السماوات والأرض ورب العالمين ، وفى ذلك دلالة على أن رب السماوات والأرض ، ورب العالمين مستحق لكل حمد ولكل ثناء جميل

وماتضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) . وقوله تعالى فى آخر الزمر (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) وقوله تعالى: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) وقوله تعالى فى أول الأنعام (الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور) وقوله تعالى فى أول سبا (الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وهو الحكيم الخبير) ، وقوله فى أول فاطر (الحمد لله فاطر السماوت والأرض) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن له الكبرياء فى السماوات والأرض، يعنى أنه المختص بالعظمة، والكمال والجلال والسلطان ، فى السماوات والأرض ، لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض ، الذى يلزمهم تكبيره وتعظيمه ، وتمجيده ، والخضوع والذل له .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبينا فى آيات أخر كقوله تعالى : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم وتبارك الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما) .

فقوله (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) معناه أنه هو وحده الذى يعظم ويعبد فى السماوات والأرض ويكبر ويخضع له ويذل .

وقوله تعالى : (وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم)

فقوله (وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض) معناه أن له الوصف الأكمل، الذى هو أعظم الأوصاف ، وأكملها وأجلها فى السماوات والأرض .

وفى حديث أبى هريرة وأبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن الله يقول : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فى واحد منهما أسكنته نارى » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ حٰمٓ. تَنزِيلُ الْكِتٰبِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة . فى أول سورة هود ، وقدمنا الكلام على قوله تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم فى أول سورة الزمر .

قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

صيغة الجمع فى قوله : خلقنا للتعظيم .

وقوله : إلا بالحق أى إلا خلقا متلبسا بالحق .

والحق ضد الباطل ، ومعنى كون خلقه للسماوات والأرض متلبسا بالحق أنه خلقهما لحكم باهرة ، ولم يخلقهما باطلا ، ولا عبثا ، ولا لعبا ، فمن الحق الذى كان خلقهما متلبسا به ، إقامة البرهان ، على أنه هو الواحد المعبود وحده جل وعلا ، كما أوضح ذلك فى آيات كثيرة لا تكاد تحصيها فى المصحف الكريم كقوله تعالى فى البقرة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ثم أقام البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله بعده : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح السحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)

فتلبس خلقه للسماوات والأرض بالحق واضح جداً ، من قوله تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض) إلى قوله (لآيات لقوم يعقلون) بعد قوله (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو) ، لأن إقامة البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله هو أعظم الحق .

وكقوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) ، لأن قوله : (اعبدوا ربكم) فيه معنى الإثبات من لا إله إلا الله .

وقوله (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) يتضمن معنى النفى منها على أكمل وجه وأتمه .

وقد أقام الله جل وعلا البرهان القاطع ، على صحة معنى لا إله إلا الله ، نفيا وإثباتاً ، بخلقه للسماوات والأرض ، وما بينهما فى قوله (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء) الآية .

وبذلك تعلم أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بأعظم الحق ، الذى هو إقامة البرهان القاطع ، على توحيده جل وعلا ، ومن كثرة الآيات القرآنية ، الدالة على إقامة هذا البرهان ، القاطع المذكور ، على توحيده جل وعلا ، علم من استقراء القرآن ، أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ، وبين من لا يستحقها ، هى كونه خالقاً لغيره ، فمن كان خالقاً لغيره ، فهو المعبود بحق ، ومن كان لا يقدر على خلق شىء ، فهو مخلوق محتاج ، لا يصح أن يعبد بحال .

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً كقوله تعالى فى آية البقرة المذكورة

آنفا : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم) الآية

فقوله : (الذى خلقكم) يدل على أن المعبود هو الخالق وحده ، وقوله تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء) الآية . يعنى وخالق كل شىء هو المعبود وحده .

وقد أوضح تعالى هذا فى سورة النحل ، لأنه تعالى لما ذكر فيها البراهين القاطعة ، على توحيده جل وعلا ، فى قوله (خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) إلى قوله (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) أتبع ذلك بقوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) .

وذلك واضح جداً فى أن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئاً لا يصح أن يعبد .

ولهذا قال تعالى بعده قريباً منه (إن الذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) . وقال تعالى فى الأعراف (أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون) . وقال تعالى فى الحج (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أى ومن لا يقدر أن يخلق شيئاً لا يصح أن يكون معبوداً بحال وقال تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى) الآية .

ولما بين تعالى فى أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد، ومن لا يستحق ذلك .

قال فى صفات من يستحق العبادة : (الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً) .

وقال فى صفات من لا يصح أن يعبد (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) الآية .

والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً وكل تلك الآيات تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

وقد بين جل وعلا أن من الحق الذى خلق السماوات والأرض وبينهما ، خلقا متلبساً به ، تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شىء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شىء علما ، وذلك فى قوله تعالى : (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) .

فلام التعليل فى قوله : لتعلموا متعلقة بقوله (خلق سبع سماوات) الآية وبه تعلم أنه ما خلق السماوات السبع ، والأرضين السبع ، وجعل الأمر يتنزل بينهن ، إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقاً متلبساً به، هو تكليف الخلق ، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملا ، ثم جزاؤهم على أعمالهم ، كما قال تعالى فى أول سورة هود : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

فلام التعليل فى قوله: ليبلوكم متعلقة بقوله (خلق السماوات الأرض) وبه تعلم أنه ما خلقهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ونظير ذلك قوله تعالى فى أول الكهف (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) . وقوله تعالى فى أول الملك : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

ومما يوضح أنه ما خلق السماوات والأرض إلا خلقاً متلبساً بالحق ، قوله تعالى فى آخر الذاريات (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) .

سواء قلنا : إن معنى إلا ليعبدون أى لآمرهم بعبادتى فيعبدنى السعداء منهم ، لأن عبادتهم يحصل بها تعظيم الله وطاعته ، والخضوع له كما قال تعالى: (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين). وقال تعالى : (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) .

أو قلنا : إن معنى إلا ليعبدون أى إلا ليقروا لى بالعبودية ، ويخضعوا ويذعنوا لعظمتى ، لأن المؤمنين يفعلون ذلك طوعاً ، والكفار يذعنون لقهره وسلطانه تعالى كرها .

ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف لاتتم إلا بالجزاء على الأعمال .

وقد بين تعالى أن من الحق الذى خلق السماوات والأرض خلقاً متلبساً به ، جزاء الناس بأعمالهم ، كقوله تعالى فى النجم (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) .

فقوله تعالى : (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض) أى هو خالقهـا ومن فيهما (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية .

ويوضح ذلك قوله تعالى فى يونس (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) .

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء ، هددهم بالويل من النار ، بسبب ذلك الظن السيء ،

فى قوله تعالى: (وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثا ، لا لتكليف وحساب وجزاء ، وأنكر ذلك على من ظنه ، فى قوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم).

فقوله (فتعالى الله) أى تنزه وتعاظم ، وتقدس ، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث ، وحساب وجزاء .

وهذا الذى نزه تعالى عنه نفسه ، نزهه عنه أولو الألباب ، كما قال تعالى : (إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) إلى قوله : (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ، فقوله عنهم (سبحانك) أى تنزيهاً لك ، عن أن تكون خلقت هذا الخلق ، باطلا لا لحكمة تكليف ، وبعث وحساب وجزاء .

وقوله جل وعلا فى آية الأحقاف هذه : (ماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلا ، ولا لعباً ولا عبثاً .

وهذا المفهوم جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى (وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) الآية ، وقوله تعالى : (ربنا ماخلقت هذا باطلا) ، وقوله تعالى: (وماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ماخلقناهما إلا بالحق) .

وقوله تعالى فى آية الأحقاف هذه (وأجل مسمى) معطوف على قوله : بالحق) أى ماخلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً ملتبساً بالحق ،

وبتقدير أجل مسمى، أى وقت معين محدد ينتهى إليه أمد السماوات والأرض، وهو يوم القيامة كما صرح الله بذلك فى أخريات الحجر فى قوله تعالى (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية) الآية.

فقوله فى الحجر: (وإن الساعة لآتية) بعد قوله (إلا بالحق) يوضح معنى قوله فى الأحقاف (إلا بالحق وأجل مسمى).

وقد بين تعالى فى آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهى إليه أمرهما؛ كما قال تعالى: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه). وقال تعالى: (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب). وقوله تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) وقوله: (وإذا السماء كشطت) وقوله تعالى (يوم ترجف الأرض والجبال) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى البقرة: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وقوله فى يس (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون). وقوله تعالى: (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين)؛ والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والإعراض عن الشىء الصدود عنه؛ وعدم الإقبال إليه.

قال بعض العلماء: وأصله من العرض بالضم؛ وهو الجانب؛ لأن المعرض عن الشىء يوليه بجانب عنقه؛ صادّاً عنه.

والإنذار : الإعلام المقترن بتهديد ؛ فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً .

وقد أوضحنا معانى الإنذار فى أول سورة الأعراف .

(وما) فى قوله (عما أنذروا) قال بعض العلماء هى موصولة ؛ والعائد محذوف ، أى الذين كفروا معرضون عن الذى أنذروه . أى خوفوه من عذاب يوم القيامة ؛ وحذف العائد المنصوب بفعل أو وصف مضطرد كما هو معلوم .

وقال بعض العلماء : هى مصدرية ؛ أى والذين كفروا معرضون عن الإنذار ، ولكليهما وجه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

قدذكرنا قريباً أن قوله : (وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما إلا بالحق) يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله ؛ وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق ؛ وبين غيره هى كونه خالقاً ؛ وأول سورة الأحقاف هذه يزيد ذلك إيضاحاً ؛ لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق ؛ وذكر من المعبودات الأخرى التى عبادتها كفر ؛ مخلد فى النار أنها لاتخلق شيئاً .

فقوله تعالى : (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله) أى هذه المعبودات التى تعبدونها من دون الله . أرونى ماذا خلقوا من الأرض .

فقوله : أرونى ؛ يراد بها التعجيز والمبالغة فى عدم خلقهم شيئاً ؛ وعلى أن (ما) استفهامية ؛ (وذا) موصولة .

فالمعنى أرونى ما الذى خلقوه من الأرض ؛ وعلى أن (ما) و (ذا) بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام .

فالمعنى : أرونى أى شىء خلقوه من الأرض ؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً فى الأرض ولم يكن له شرك فى السماوات ؛ لا يصح أن يكون معبوداً بحال جاء موضحا فى آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى فى فاطر (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات أم آتيناهم كتاباً) الآية . وقوله فى لقمان: (هـذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) وقوله فى سبإ (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقد قدمنا طرفاً منها قريباً .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ائتونى بكتاب من قبل هـذا) ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الجاثية فى الكلام على قوله تعالى:

(ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) الآية . وفى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذى هو الحق ادعوا أنها سحر مبين واضح .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة من افترائهم على القرآن أنه سحر وعلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه ساحر جاء موضحاً فى آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى فى سبأ (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) . وقوله تعالى فى الزخرف (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) . وقوله تعالى : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) إلى قوله (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) . وقوله تعالى : (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ .

أم هذه هى المنقطعة وقد قدمنا أنها تأتى بمعنى الإضراب .

وتأتى بمعنى همزة الإنكار .

وتأتى بمعناها معاً وهو الظاهر فى هذه الآية الكريمة .

فأم فيها على ذلك تفيد معنى الإضراب والإنكار معاً ، فهو بمعنى دع هذا ، واسمع قولهم المستنكر لظهور كذبهم فيه ، أن محمداً افترى هذا القرآن ، وقد كذبهم الله فى هذه الدعوى فى آيات كثيرة كقوله تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله) الآية . وقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) : وقوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) أى إن كنت افتريت هذا القرآن على سبيل الفرض .

والتقدير : عاجلنى الله بعقوبته الشديدة ، وأنتم لاتملكون لى منه شيئا ، أى لاتقدرون أن تدفعوا عنى عذابه إن أراد أن يعذبنى على الافتراء .

فكيف أفتريه لكم ، وأنتم لاتقدرون على دفع عذاب الله عنى ؟

وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) .

فقوله تعالى فى آية الحاقة هذه : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) كقوله فى آية الأحقاف (قل إن افتريته) .

وقوله فى الحاقة : (فما منكم من أحد عنه حاجزين) يوضح معنى قوله : (فلا تملكون لى من الله شيئاً) ، لأن معنى قوله : (فما منكم من أحد عنه

حاجزين) ، أنهم لايقدرون على أن يحجزوا عنه أى يدفعوا عنـه عقاب الله له بالقتل ، لوتقول عليه بعض الأقاويل .

وذلك هو معنى قوله : (فلا تملـكون لى من الله شيئاً) أى لاتقدرون على دفع عذابه عنى .

ونظير ذلك فى المعنى قوله تعالى : (قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) وقوله تعالى : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) .

وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقة المبينة لها من أنه لو افترى على الله أوتقول عليه عاجله بالعذاب ، وأنه لايقدر أحد على دفعه عنه . جاء معناه فى بعض الآيات . كقوله تعالى فى يونس : (وقال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقـاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى إنى أخاف إن عصيت ربى بالافتراء عليه بتبديل قرآنه أو الإتيان بقرآن غيره ؛ عذاب يوم عظيم .

وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل فى آيات أخر كقوله عن صالح (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته) الآية . وقوله تعالى عن نوح : (وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

الأظهر فى قوله (بدعا) أنه فعل بمعنى المفعول فهو بمعنى مبتدع ، والمبتدع هو الذى أبدع على غير مثال سابق .

ومعنى الآية قل لهم يا بنى الله : ما كنت أول رسول أرسل إلى البشر، بل قد أرسل الله قبلى جميع الرسل إلى البشر ، فلا وجه لاستبعادكم رسالتى ، واستنكاركم إياها ، لأن الله أرسل قبلى رسلا كثيرة .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية)وقوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) الآية . وقوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) الآية . وقوله تعالى (حم عسق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) وقوله تعالى : (مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) الآية. وقوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)الآية. وقوله تعالى : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ .

التحقيق إن شاء الله ، أن معنى الآية الكريمة ، ما أدرى مايفعل بى ولا بكم فى دار الدنيا ، فما أدرى أأخرج من مسقط رأسى أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء .

وما أدرى ماينالنى من الحوادث والأمور فى تحمل أعباء الرسالة .

وما أدرى مايفعل بكم أيخسف بكم ، أو تنزل عليكم حجارة من السماء ، ونحو ذلك .

وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين .

وهذا المعنى فى هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى :

(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء) الآية . وقوله تعالى آمراً له صلى الله عليه وسلم : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) الآية .

وبهذا تعلم أن مايروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد ، (وما أدرى مايفعل بى ولابكم) أى فى الآخرة فهو خلاف التحقيق ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله .

فقد روى عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن فى أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى : (وما أدرى مايفعل بى ولابكم) فرح المشركون واليهود والمنافقون ، وقالوا : كيف نتبع نبياً لايدرى مايفعل به ولا بنا . وأنه لافضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذى يقوله ، من عند نفسه ، لأخبره الذى بعثه بما يفعل به .

فنزلت (ليغفرلك الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر) فنسخت هذه الآية .

وقالت الصحابة : هنيئاً لك يارسول الله ، لقد بين لك الله مايفعل بك فليت شعرنا ماهو فاعل بنا

فنزلت (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية ، ونزلت : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً) .

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته صلوات الله وسلامه عليه : وقد قال له الله تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) وأن قوله : (وما أدرى مايفعل بى ولابكم) فى أمور الدنيا كما قدمنا . فإن قيل : قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أم العلاء الأنصارية مايدل على

أن قوله : (ما يفعل بى) أى فى الآخرة فإن حديثها فى قصة وفاة عثمان بن مظعون رضى الله عنه عندهم ، ودخول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، أنها قالت : رحمة الله عليك ، أبا السائب شهادتى عليك لقد أكرمك الله عز وجل تعنى عثمان بن مظعون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : لا أدرى بأبى أنت وأمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى » الحديث .

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله ، فقد قال فى تفسير هذه الآية الكريمة ، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذى رواه به أحمد رحمه الله انفرد به البخارى دون مسلم ، وفى لفظ له « ما أدرى وأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل به » ، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنى ذلك اهـ. محل الغرض منه وهو الصواب إن شاء الله ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ .

جواب الشرط فى هذه الآية محذوف .

وأظهر الأقوال فى تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به ، وجحدتموه فأنتم ضلال ظالمون . وكون جزاء الشرط فى هذه الآية كونهم ضالين ظالمين يبينه قوله تعالى فى آخر فصلت : (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) ، وقوله فى آية الأحقاف هذه (فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

وقال أبو حيان فى البحر : مفعولا أرأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما .

والتقدير : أرأيتم حالكم ، إن كان كذا ألستم ظالمين .

فالأول حالكم ، والثانى ألستم ظالمين ، وجواب الشرط محذوف أى فقد ظلمتم .

ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً .

وبعض العلماء يقول : إن (أرأيتم) بمعنى أخبرونى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ .

التحقيق : إن شاء الله ، أن هذه الآية الكريمة جارية على أسلوب عربى معروف ، وهو إطلاق المثل ، على الذات نفسها ، كقولهم : مثلك ، لا يفعل هذا ، يعنون لا ينبغى لك أنت أن تفعله .

وعلى هذا فالمعنى ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على أن هذا القرآن ، وحى منزل حقاً من عند الله ، لا أنه شهد على شىء آخر مماثل له .

ولذا قال تعالى (فآمن واستكبرتم) .

ومما يوضح هذا ، تكرر إطلاق المثل فى القرآن مراداً به الذات ، كقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات) الآية .

فقوله : كمن مثله فى الظلمات ، أى كمن هو نفسه فى الظلمات وقوله تعالى (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) أى فإن آمنوا بما آمنتم به لا بشىء آخر مماثل له على التحقيق .

ويستأنس له بالقراءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود (فإن آمنوا بما آمنتم به) الآية .

والقول بأن لفظة ما فى الآية مصدرية ،وأن المراد تشبيه الإيمان بالإيمان، أى فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا لايخفى بعده .

والشاهد فى الآية هوعبدالله بن سلام رضى الله عنه كما قال الجمهور،وعليه فهذه الآية مدنية فى سورة مكية .

وقيل : إن الشاهد موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ .

أظهر أقوال العلماء فى هذه الآية الكريمة ، أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين لو كان خيراً ماسبقونا إليه ، أنهم كفار مكة ، وأن مرادهم أن فقراء المسلمين ، وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم،أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التى فيها الخير .

وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير لزعمهم أن الله أكرمهم فى الدنيا بالمال والجاه ، وأن أولئك الفقراء لامال لهم ولا جاه ، وأن ذلك التفضيل فى الدنيا يستلزم التفضيل فى الآخرة .

وهذا المعنى الذى استظهرناه فى هذه الآية الكريمة تدل له آيات كثيرة من كتاب الله ، وخير مايفسر به القرآن القرآن .

أما ادعاؤهم أن ما أعطوا من المال ، والأولاد والجاه ، فى الدنيا دليل على أنهم سيعطون مثله فى الآخرة ، وتكذيب الله لهم فى ذلك ، فقد جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين

نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون) ، وقوله تعالى (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مداً) الآية . وقوله تعالى (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين) مع قوله (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) الآية . وقوله تعالى : (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً) .

وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم ، وزعمهم أنهم أحقر عند الله ، من أن يصيبهم بخير ، وأنما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى ، والجاه والولد ، من الكفار فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى فى الأنعام : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) .

فهمزة الإنكار فى قوله: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ،تدل على إنكارهم أن الله يمن على أولئك الضعفاء بخير .

وقد رد الله عليهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) الآية . وقوله تعالى فى الأعراف : (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم فقالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقوله تعالى فى ص (وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار) .

فقد قال غير واحد : إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم

ضعفاء المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم فى دار الدنيا ويزعمون أنهم أحقر من أن يناهم الله بخير ويدل له قوله (أتخذناهم سخريا) وسيسخر ضعفاء المسلمين فى الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا وهم فى النار ، كما قال تعالى : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون) إلى قوله تعالى (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون. على الأرائك ينظرون. هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) . وقوله تعالى (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى (لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وفى سورة الزمر فى الكلام على قوله تعالى : (قرآنا عربياً غير ذى عوج) الآية .

قوله تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان أنواع الإنذار فى القرآن فى أول سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به) الآية . وفى أول سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى ﴿لينذر بأسا شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ .

قرأ هذا الحرف ، نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (حسنا) بضم الحاء وسكون السين ، وكذلك هو فى مصاحفهم .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائى : إحساناً بهمزة مكسورة وإسكان الحاء وألف بعد السين .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) وقال أبو حيان فى البحر :

قيل ضمن (ووصينا) معنى ألزمنا فيتعدى لاثنين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثانى لوصينا .

وقيل : التقدير إيصاء ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسنا بمعنى إحسان فيكون مفعولا له ؛ أى ووصيناه بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى .

وقيل : النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً اهـ منه ، وكلها له وجه .

قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ . .

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر : (كرها) بفتح الكاف فى الموضعين .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائى ، وابن ذكوان ، عن ابن عامر : (كرها) بضم الكاف فى الموضعين .

وهما لغتان كالضُّعف والضَّعف .

ومعنى حملته (كرها) أنها فى حال حملها به تلاقى مشقة شديدة .

ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل ، من المشقة والضعف ، إذا أثقلت وكبر الجنين فى بطنها .

ومعنى وضعته كرها : أنها فى حالة وضع الولد ، تلاقى من ألم الطلق ، وكربه مشقة شديدة ، كما هو معلوم .

وهذه المشاق العظيمة التى تلاقيها الأم فى حمل الولد ووضعه ، لاشك أنها يعظم حقها بها ، ويتحتم برها ، والإحسان إليها كما لا يخفى .

ومادلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التى تعانيها الحامل ، ودلت عليه آية أخرى ، وهى قوله تعالى فى لقمان : (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن) أى تهن به وهناً على وهن أى ضعفا على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم فى بطنها ، ازدادت ضعفاً على ضعف .

وقوله فى آية الأحقاف هذه كرها فى الموضعين مصدر منكر وهو حال أى حملته ذات كره ووضعته ذات كره ، وإتيان المصدر المنكر حالا كثير كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

ومصدر منكر حالا يقع بكثرة كبغتة زيد طلع

وقال بعضهم : كرها فى الموضعين نعت لمصدر ، أى حملته حملا ذا كره ، ووضعته وضعا ذا كره ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

هذه الآية الكريمة ، ليس فيها بإنفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل ، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل ، لأن هذه الآية الكريمة ، من سورة الأحقاف ، صرحت بأن أمد الحمل والفصال معا ، ثلاثون شهرا .

وقوله تعالى فى لقمان : (وفصاله فى عامين) . وقوله فى البقرة (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) يبين أن أمد الفصال عامان وهما أربعة وعشرون شهراً ، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر ، فتعين كونها أمداً للحمل ، وهى أقله ، ولا خلاف فى ذلك بين العلماء .

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هى المعروفة عند علماء الأصول بدلالة الإشارة .

وقد أوضحنا الكلام عليها ، فى مباحث الحج ، فى سورة الحج ، فى مبحث أقوال أهل العلم ، فى حكم المبيت بمزدلفة ، وأشرنا لهذا النوع ، من البيان فى ترجمة هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (حتى يبلغ أشده) ، وفى ترجمة هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ الآية .

التحقيق إن شاء الله أن ، (الذى) فى قوله : (والذى قال لوالديه) بمعنى الذين ، وأن الآية عامة فى كل عاق لوالديه مكذب بالبحث .

والدليل من القرآن على أن الذى ، بمعنى الذين ، وأن المراد به العموم ، أن (الذى) فى قوله : (والذى قال لوالديه) مبتدأ خبره قوله تعالى :(أولئك الذين حق عليهم القول) الآية .

والإخبار عن لفظة الذى فى قوله (أولئك الذين حق عليهم) القول بصيغة الجمع ،صريح فى أن المراد بالذى ، العموم لا الإفراد . وخير مايفسر به القرآن القرآن .

وبهذا الدليل القرآنى تعلم أن قول من قال فى هـذه الآية الكريمة إنها نازلة فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، ليس بصحيح ، كما جزمت عائشة رضى الله عنها ببطلانه .

وفى نفس آية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه ، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول ، وهو قوله (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

ومعلوم أن عبدالرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أسلم وحسن إسلامه ، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة ، رضى الله عنهم .

وغاية مافى هذه الآية الكريمة هو إطلاق الذى وإرادة الذين ، وهو كثير فى القرآن وفى كلام العرب ، لأن لفظ الذى مفرد ومعناها عام لكل ماتشمله صلتها ، وقد تقرر فى علم الأصول أن الموصولات كالذى والتى وفروعهما من صيغ العموم ، كما أشار له فى مراقى السعود بقوله :

صيغه كل أو الجميـــــــع وقد تلا الذى التى الفروع

فمن إطلاق الذى وإرادة الذين فى القرآن ، هذه الآية الكريمة من سورة

الأحقاف . وقوله تعالى فى سورة البقرة : (مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً) الآية . أى كمثل الذين استوقدوا بدليل قوله (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون) بصيغة الجمع فى الضمائر الثلاثة التى هى (بنورهم) ، (وتركهم) ، والواو فى (لايبصرون) وقوله تعالى فى البقرة أيضاً : (كالذى ينفق ماله رئاء الناس) أى كالذين ينفقون بدليل قوله (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) وقوله فى الزمر : (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) . وقوله فى التوبة (وخضتم كالذى خاضوا) أى كالذين خاضوا بناء على أنها موصولة لامصدرية ، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب ابن رميلة :

فإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عديل بن الفرخ العجلى :

وبت أساقى القوم إخوتى الذى غوايتهم غيى ورشدهم رشدى

وقول الراجز :

يارب عبس لا تبارك فى أحد فى قائم منهم ولا فى من قعد

* إلا الذى قاموا بإطراف المسد *

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (أف لكما) كلمة تضجر . وقائل ذلك عاق لوالديه غير مجتنب نهى الله فى قوله : (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف) الآية . وقوله (أتعدانني) : فعل مضارع وعد ، وحذف واوه فى المضارع مطرد ، كما ذكره فى الخلاصة بقوله :

فا أمر أو مضارع من كوعد احذف وفى كعدة ذاك اطرد

والنون الأولى نون الرفع ، والثانية نون الوقاية كما لايخفى .

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائى : أتعدانني بنونين مكسورتين مخففتين وياء ساكنة .

وقرأه هشام عن ابن عامر بنون مشددة مكسورة وبياء ساكنة

وقرأه نافع وابن كثير بنونين مكسورتين مخففتين وياء مفتوحة ، والهمزة للإنكار .

وقوله (أن أخرج) أى أبعث من قبرى حياً بعد الموت .

والمصدر المنسبك من أن وصلتها هو المفعول الثانى لتعدانني يعنى أتعدانني الخروج من قبرى حيا بعد الموت ، والحال قد مضت القرون أى هلكت الأمم الأولى ، ولم يحى منهم أحد ، ولم يرجع بعد أن مات .

وهما أى والداه يستغيثان الله أى يطلبانه أن يغيثهما بأن يهدى ولدهما إلى الحق والإقرار بالبعث ، ويقولان لولدهما : ويلك آمن . أى بالله وبالبعث بعد الموت .

والمراد بقولهما ويلك : حثه على الإيمان إن وعد الله حق ، أى وعده بالبعث بعد الموت حق لاشك فيه ، فيقول ذلك الولد العاق المنكر للبعث : (ما هذا) إن الذى تعدانني إياه من البعث بعد الموت ، (إلا أساطير الأولين) .

والأساطير جمع أسطورة . وقيل جمع إسطارة ، ومراده بها ماسطره الأولون ، أى كتبوه من الأشياء التى لا حقيقة لها .

وقوله (أولئك) ترجع الإشارة فيه ، إلى العاقين المكذبين ، بالبعث المذكورين فى قوله : (والذى قال لوالديه أف لكما) الآية .

وقوله : (حق عليهم القول) أى وجبت عليهم كلمة العذاب .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن منكرى البعث يحق عليهم القول لكفرهم ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار : أذهبتم طيباتكم) .

فقوله يعرضون على النار : قال بعض العلماء : معناه يباشرون حرها كقول العرب : عرضهم على السيف إذا قتلهم به ، وهو معنى معروف فى كلام العرب .

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا فى قوله : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق) وهذا يدل على أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله : (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب . بما كنتم تكفرون) . وقوله تعالى: (وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) لأنه عرض عذاب .

وقال بعض العلماء : معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها ، والكشف

لهم عنها، حتى يروها كما قال تعالى : (ورأى المجرمون النار) الآية . وقال تعالى : (وجىء يومئذ بجهنم) .

وقال بعض العلماء : فى الكلام قلب ، وهو مروى عن ابن عباس وغيره

قالوا : والمعنى ويوم تعرض النار على الذين كفروا قالوا وهو كقول العرب : عرضت الناقة على الحوض . يعنون عرضت الحوض على الناقة ، ويدل لهذا قوله تعالى : (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

هذا النوع الذى ذكروه من القلب فى الآية ، كقلب الفاعل مفعولا ، والمفعول فاعلا ، ونحو ذلك اختلف فيه علماء العربية ، فمنعه البلاغيون إلا فى التشبيه ، فأجازوا قلب المشبه مشبها به والمشبه به مشبها بشرط أن يتضمن ذلك نكتة وسراً لطيفاً كما هو المعروف عندهم فى مبحث التشبيه المقلوب .

وأجازه كثير من علماء العربية .

والذى يظهر لنا أنه أسلوب عربى نطقت به العرب فى لغتها ، إلا أنه يحفظ ما سمع منه ، ولا يقاس عليه ومن أمثلته فى التشبيه قول الراجز :

ومنهل مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أى كأن سماءه لون أرضه ، وقول الآخر :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فقلب التشبيه ليوهم أن الفرع أقوى من الأصل فى وجه الشبه .

قالوا ومن أمثلته فى القرآن (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ، لأن العصبة من الرجال هى التى تنوء بالمفاتيح أى تنهض بها بمشقة وجهد لكثرتها وثقلها ، وقوله تعالى : (فعميت عليهم الأنباء) أى عموا عنها . ومن أمثلته فى كلام العرب قول كعب بن زهير :

كأن أوب ذراعيها إذا عرقت وقد تلفع بالقور المساقيل

لأن معنى قوله : تلفع لبس اللفاع وهو اللحاف ، والقور الحجارة العظام، والعساقيل : السراب .

والكلام مقلوب ، لأن القور هى التى تلتحف بالعساقيل لا العكس كما أوضحه لبيد فى معلقته بقوله :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامها

فصرح بأن الإكام التى هى الحجارة اجتابت أى لبست أردية السراب .

والأردية جمع رداء ، وهذا النوع من القلب وإن أجازه بعضهم فلا ينبغى حمل الآية عليه ، لأنه خلاف الظاهر ، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه .

وظاهر الآية جار على الأسلوب العربى الفصيح ، كما أوضحه أبو حيان فى البحر المحيط .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) قرأه ابن كثير وابن عامر (أأذهبتم) بهمزتين وهما على أصولهما فى ذلك .

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين .

وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال . وابن ذكوان يحققها من غير إدخال .

وقرأه نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى : (أذهبتم طيباتكم) بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام .

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيراً فى هذه الآية قائلين إنها تدل على أنه ينبغى التقشف والإقلال من التمتع بالمآكل والمشارب والملابس ونحو ذلك .

وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه ، أن يدخل فى عموم من يقال لهم يوم القيامة : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا) الآية. والمفسرون يذكرون هنا آثاراً كثيرة فى ذلك ، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

التحقيق : إن شاء الله فى معنى هذه الآية هو أنها فى الكفار وليست فى المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التى أباحها الله لهم ، لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا : إن هذا هو التحقيق ، لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه والله تعالى يقول: (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) الآية .

أما كون الآية فى الكفار فقد صرح الله تعالى به فى قوله : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم) الآية .

والقرآن والسنة الصحيحة ، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملا صالحاً مطابقاً للشرع ، مخلصاً فيه لله ، كالكافر الذى يبر والديه ، ويصل الرحم ويقرى الضيف ، وينفس عن المكروب ، ويعين المظلوم يبتغى بذلك وجه الله يثاب بعمله فى دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية ، ونحو ذلك ولا نصيب له فى الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقوله تعالى : (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) .

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوى المذكور فى الآيات بمشيئته وإرادته ، فى قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا) .

وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته ماعمل بها لله فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » هذا لفظ مسلم فى صحيحه .

وفى لفظ له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة فى الدنيا ، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته فى الآخرة ويعقبه رزقا فى الدنيا على طاعته » ا هـ

فهذا الحديث الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه التصريح ، بأن الكافر يجازى بحسناته فى الدنيا فقط ، وأن المؤمن يجازى بحسناته فى الدنيا والآخرة معاً ، وبمقتضى ذلك . يتعين تعييناً لامحيص عنه ، أن الذى أذهب طيباته فى الدنيا واستمتع بها هو الكافر ، لأنه لا يجزى بحسناته إلا فى الدنيا خاصة .

وأما المؤمن الذى يجزى بحسناته فى الدنيا والآخرة معا ، فلم يذهب طيباته فى الدنيا ، لأن حسناته مدخرة له فى الآخرة ، مع أن الله تعالى يثيبه بها فى الدنيا كما قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)

فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لايحتسب ثواباً فى الدنيا وليس ينقص أجر تقواه فى الآخرة .

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم الطيبات فى الحياة الدنيا ، وأجاز لهم التمتع بها ، ومع ذلك جعلها خاصة بهم فى الآخرة ، كما قال تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) .

فدل هذا النص القرآنى أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق فى الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة ، وهو صريح فى أنهم لم يذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا .

ولاينافى هذا أن من كان يعانى شدة الفقر فى الدنيا كأصحاب الصفة ، يكون لهم أجر زائد على ذلك ، لأن المؤمنين يؤجرون ، بما يصيبهم فى الدنيا من المصائب والشدائد ، كما هو معلوم .

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذى يذهب طيباته فى الحياة الدنيا ، لأنه يجزى فى الدنيا فقط كالآيات المذكورة ، وحديث أنس المذكور عند مسلم ، قد قدمناها موضحة فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى: (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فاليوم تجزون عذاب الهون) أى عذاب الهوان وهو الذل والصغار .

وقوله تعالى : (بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) ، الباء فى قوله : بما كنتم سببية ، وما مصدرية أى تجزون عذاب

الهون بسبب كونكم مستكبرين فى الأرض ، وكونكم فاسقين .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار فى الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون ، وهو عذاب النار ، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) وقوله تعالى : (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) الآية .

وقد قدمنا النتائج الوخيمة الناشئة عن التكبر فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (فما يكون لك أن تتكبر فيها) الآية .

وقوله تعالى : (بغير الحق) مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون فى الأرض إلا استكباراً متلبساً بغير الحق كقوله تعالى : (ولا طائر يطير بجناحيه) ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه ، وقوله : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) ، ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم ، ونحو ذلك من الآيات ، وهو أسلوب عربى نزل به القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ .

أبهم جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه ولكنه بين فى آيات أخرى ، أنه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كقوله تعالى : (وإلى عاد أخاهم هودا) فى سورة الأعراف وسورة هود وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن النبى هوداً نهى قومه أن يعبدوا

غير الله ، وأمرهم بعبادته تعالى وحده ، وأنه خوفهم من عذاب الله ، إن تمادوا فى شركهم به .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاءا موضحين فى آيات أخر .

أما الأول منهما ففى قوله تعالى : (وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) فى سورة الأعراف وسورة هود ونحو ذلك من الآيات .

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره فى الشعراء فى قوله تعالى : (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

ومعنى قوله تعالى : لتأفكنا عن آلهتنا ، أى لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده .

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين :

أحدهما : إنكار عاد على هود أنه جاءهم ، ليتركوا عبادة الأوثان ، ويعبدوا الله وحده .

والثانى : أنهم قالوا له : ائتنا بما تعدنا من العذاب وعجله لنا إن كنت صادقا فيما تقول ، عناداً منهم وعتوا .

وهذان الأمران جاءا موضحين فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى الأعراف (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) .

قوله تعالى : ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن نبى الله هوداً قال لقومه ، إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم، لأنه ليس عليه إلا البلاغ ، وهذا المعنى جاء مذكورا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى فى الأعراف : (قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين) وقوله تعالى فى سورة هود . (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) الآية.

قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى: (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ .

لفظة (إن) فى هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه ، يدل استقراء القرآن ، على أن واحداً منها هو الحق ، دون الاثنين الآخرين .

قال بعض العلماء : إن شرطية وجزاء الشرط محذوف ، والتقدير إن مكنا كم فيه طغيتم وبغيتم .

وقال بعضهم : إن زائدة بعد ما الموصولة حملا لما الموصولة على ما النافية لأن ما النافية تزاد بعدها لفظة إن كما هو معلوم .

كقول قتيلة بنت الحرث والنضر العبدرية :

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن نزل بها الفجائب تخفق

وقول دريد بن الصمة فى الخنساء :

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالى أينق جرب

فإن زائدة بعد ما النافية فى البيتين وهو كثير ، وقد حملوا على ذلك ما الموصولة فقالوا : تزاد بعدها إن كآية الأحقاف هذه . وأنشد لذلك الأخفش:

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

أى يرجى المرء الشىء الذى لا يراه ، وإن زائدة ، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما .

لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير .

والثانى منهما فيه زيادة كلمة .

وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

أما الوجه الثالث الذى هو الصواب إن شاء الله ، فهو أن لفظة إن نافيه بعد ما الموصولة أى ولقد مكناهم فى الذى مامكنا كم فيه من القوة فى الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد ، والعدد .

وإنما قلنا : إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه ، فإن الله جل وعلا فى آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد منهم بطشاً وقوة ، وأكثر منهم عدداً ، وأموالا ، وأولاداً ، فلما كذبوا الرسل ، أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم أن يهلكهم الله بسببه ، كما أهلك الأمم التى هى أقوى منهم ، كقوله تعالى فى المؤمن (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) .

وقوله فيها أيضاً : (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان

عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم) الآية .

وقوله تعالى فى الروم : (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة الزخرف فى السلام على قوله تعالى : (فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الجاثية فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ذكر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف، أنه صرف إلى النبى صلى الله عليه وسلم (نفراً من الجن)، والنفر دون العشرة (يستمعون القرآن) وأنهم لما حضروه ، قال بعضهم لبعض (أنصتوا) أى اسكتوا مستمعين ، وأنه لما قضى . أى انتهى النبى صلى الله عليه وسلم من قراءته (ولوا)

أى رجعوا إلى قومهم من الجن فى حال كونهم منذرين أى مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله، ويجيبوا داعيه محمداً صلى الله عليه وسلم. وأخبروا قومهم ، أن هذا الكتاب الذى سمعوه يتلى ، المنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق ، وهو ضد الباطل ، وإلى طريق مستقيم ، أى لا اعوجاج فيه .

وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن ، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى أوحى الله ذلك إليه ، كما قال تعالى فى القصة بعينها ، مع بيانها وبسطها ، بتفصيل الأقوال التى قالتها الجن ، بعد استماعهم القرآن العظيم : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) إلى آخر الآيات .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

منطوق هذه الآية أن من أجاب داعى الله محمداً صلى الله عليه وسلم وآمن به ، وبما جاء به ، من الحق غفر الله له ذنوبه . وأجاره من العذاب الإليم ، ومفهومها ، أعنى مفهوم مخالفتها ، المعروف بدليل الخطاب ، أن من لم يجب داعى الله من الجن ، ولم يؤمن به لم يغفر له ، ولم يجره ، من عذاب أليم ، بل يعذبه ويدخله النار ، وهذا المفهوم جاء مصرحا به مبينا فى آيات أخر ، كقوله تعالى: (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) . وقوله تعالى : (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار) : وقوله تعالى (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) إلى غير ذلك من الآيات .

أما دخول المؤمنين ، المجيبين داعى الله من الجن ، الجنة فلم تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفى ، وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة ، وهى قوله تعالى فى سورة الرحمن : (ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وبه تعلم أن ماذهب إليه بعض أهل العلم ، قائلين إنه يفهم من هذه الآية ، من أن المؤمنين من الجن لايدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم وإجابتهم داعى الله ، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط ، كما هو نص الآية ، كله خلاف التحقيق .

وقد أوضحنا ذلك فى كتابنا « دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب » فى الكلام على هذه الآية ، من سورة الأحقاف فقلنا فيه ما نصه :

هذه الآية ، يفهم من ظاهرها ، أن جزاء المطيع من الجن غفران ذنوبه ، وإجارته من عذاب أليم ، لا دخوله الجنة .

وقد تمسك جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، بظاهر هذه الآية ، فقالوا إن المؤمنين المطيعين من الجن لايدخلون الجنة ، مع أنه جاء فى آية أخرى ، ما يدل على أن مؤمنيهم فى الجنة وهى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، لأنه تعالى بين شموله للجن والإنس ، بقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ويستأنس لهذا بقوله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) فإنه يشير إلى أن فى الجنة جناً يطمثون النساء كالإنس .

والجواب عن هذا ، أن آية الأحقاف ، نص فيها على الغفران ، والإجارة

من العذاب ، ولم يتعرض فيها لدخول الجنة ، بنفي ولا إثبات . وآية الرحمن نص فيها على دخولهم الجنة ، لأنه تعالى قال فيها : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وقد تقرر فى الأصول أن الموصولات من صيغ العموم ، فقوله : (لمن خاف) ، يعم كل خائف مقام ربه ، ثم صرح بشمول ذلك للجن والإنس معاً بقوله : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

فبين أن الوعد بالجنتين لمن خاف مقام ربه من آلائه ، أى نعمه على الإنس والجن ، فلا تعارض بين الآيتين ، لأن إحداهما بينت ما لم تعرض له الأخرى .

ولو سلمنا أن قوله : (يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)، يفهم منه عدم دخولهم الجنة ، فإنه إنما يدل عليه بالمفهوم ، وقوله : (ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان) يدل على دخولهم الجنة بعموم المنطوق.

والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر فى الأصول .

ولا يخفى أنا إذا أردنا تحقيق هذا المفهوم المدعى وجدناه معدوما من أصله للاجماع على أن قسمة المفهوم ثنائية ، إما أن يكون مفهوم موافقة أو مخالفة ولا ثالث.

ولا يدخل هذا المفهوم المدعى فى شىء من أقسام المفهومين .

أما عدم دخوله فى مفهوم الموافقة بقسميه فواضح .

وأما عدم دخوله فى شىء من أنواع مفهوم المخالفة ، فلأن عدم دخوله فى مفهوم الحصر أو الغاية أو العدد أو الصفة أو الظرف واضح .

فلم يبق من أنواع مفهوم المخالفة يتوهم دخوله فيه إلا مفهوم الشروط أو اللقب ، وليس داخلا فى واحد منهما .

فظهر عدم دخوله فيه أصلا .

أما وجه توهم دخوله فى مفهوم الشرط ، فلأن قوله : (يغفر لكم من ذنوبكم) فعل مضارع مجزوم بكونه جزاء الطلب .

وجمهور علماء العربية على أن الفعل إذا كان كذلك فهو مجزوم بشرط مقدر ، لا بالجملة قبله ، كما قيل به .

وعلى الصحيح الذى هو مذهب الجمهور ، فتقرير المعنى : (أجيبوا داعى الله وآمنوا به) إن تفعلوا ذلك يغفر لكم ، فيتوهم فى الآية مفهوم هذا الشرط المقدر .

والجواب عن هذا : أن مفهوم الشرط عند القائل به ، إنما هو فى فعل الشرط لا فى جزائه ، وهو معتبر هنا فى فعل الشرط على عادته ، ففهوم أن تجيبوا داعى الله وتؤمنوا به يغفر لكم ، أنهم إن لم يجيبوا داعى الله ولم يؤمنوا به لم يغفر لهم ، وهو كذلك .

أما جزاء الشرط فلا مفهوم له لاحتمال أن تترتب على الشرط الواحد مشروطات كثيرة ، فيذكر بعضها جزاء له فلا يدل على نفى غيره .

كما لو قلت لشخص مثلا : إن تسرق يجب عليك غرم ما سرقت .

فهذا الكلام حق ولا يدل على نفى غير الغرم كالقطع ، لأن قطع اليد مرتب أيضاً على السرقة كالغرم .

وكذلك الغفران ، والإجارة من العذاب ودخول الجنة كلها مرتبة على إجابة داعى الله والإيمان به .

فذكر فى الآية بعضها وسكت فيها عن بعض ، ثم بين فى موضع آخر ، وهذا لا إشكال فيه .

وأما وجه توهم دخوله فى مفهوم اللقب ، فلأن اللقب فى اصطلاح الأصوليين هو مالم يمكن انتظام الكلام العربى دونه ، أعنى المسند إليه سواء كان لقباً أو كنية أو إسماً أو اسم جنس أو غير ذلك .

وقد أوضحنا اللقب غاية فى المائدة .

والجواب عن عدم دخوله فى مفهوم اللقب ، أن الغفران والإجارة من العذاب المدعى بالفرض أنهما لقبان لجنس مصدريهما ، وأن تخصيصهما بالذكر يدل على نفى غيرهما فى الآية سندان لامسند إليهما بدليل أن المصدر فيهما كامن فى الفعل ولا يستند إلى الفعل إجماعا ما لم يرد مجرد لفظه على سبيل الحكاية .

ومفهوم اللقب عند القائل به إنما هو فيما إذا كان اللقب مسنداً إليه ، لأن تخصيصه بالذكر عند القائل به يدل على اختصاص الحكم به دون غيره ، وإلا لما كان للتخصيص بالذكر فائدة كما علموا به مفهوم الصفة .

وأجيب من جهة الجمهور : بأن اللقب ذكر ليمكن الحكم لا لتخصيصه بالحكم ، إذ لا يمكن الإسناد بدون مسند إليه .

ومما يوضح ذلك أن مفهوم الصفة الذى حمل عليه اللقب عند القائل به إنما هو فى المسند إليه لا فى المسند ، لأن المسند إليه هو الذى تراعى أفراده وصفاتها ، فيقصد بعضها بالذكر دون بعض فيختص الحكم بالمذكور .

أما المسند فإنه لا يراعى فيه شىء من الأفراد والأوصاف أصلا ، وإنما يراعى فيه مجرد الماهية التى هى الحقيقة الذهنية .

ولو حكمت مثلا على الإنسان بأنه حيوان ، فإن المسند إليه الذى هو الإنسان فى هذا المثال يقصد به جميع أفراده ، لأن كل فرد منها حيوان بخلاف المسند الذى هو الحيوان فى هذا المثال فلا يقصد به إلا مطلق ماهيته ، وحقيقته الذهنية من غير مراعاة الأفراد ، لأنه لو روعيت أفراده لاستلزم الحكم على الإنسان بأنه فرد آخر من أفراد الحيوان كالفرس مثلا .

والحكم بالمباين على المباين باطل ، إذا كان إيجابياً باتفاق العقلاء .

وعامة النظار على أن موضوع القضية إذا كانت غير طبيعية يراعى فيه مايصدق عليه عنوانها من الأفراد باعتبار الوجود الخارجى إن كانت خارجية أو الذهنى إن كانت حقيقية .

وأما المحمول من حيث هو فلا تراعى فيه الأفراد البتة .

وإنما يراعى فيه مطلق الماهية ، ولوسلمنا تسليما جدليا أن مثل هذه الآية يدخل فى مفهوم اللقب ، فجماهير العلماء على أن مفهوم اللقب لا عبرة به ، وربما كان اعتباره كفراً كما لو اعتبر معتبر مفهوم اللقب فى قوله تعالى : (محمد رسول الله) فقال : يفهم من مفهوم لقبه أن غير محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن رسول الله ، فهذا كفر بإجماع المسلمين .

فالتحقيق أن اعتبار مفهوم اللقب لا دليل عليه شرعاً ولا لغة ولا عقلا ، سواء كان اسم جنس ، أو اسم عين ، أو اسم جمع أو غير ذلك .

فقولك جاء زيد لا يفهم منه عدم مجىء عمرو .

وقولك : رأيت أسداً ، لا يفهم منه عدم رؤيتك لغير الأسد .

والقول بالفرق ، بين اسم الجنس ، فيعتبر ، واسم العين فلا يعتبر ، لا يظهر .

فلا عبرة بقول الصيرفى وأبى بكر الدقاق وغيرهما من الشافعية .

ولا يقول ابن خويزمنداد وابن القصار من المالكية ولا يقول بعض الحنابلة باعتبار مفهوم اللقب ، لأنه لا دليل على اعتباره عند القائل به ، إلا أنه يقول: لو لم يكن اللقب مختصاً بالحكم لما كان لتخصيصه بالذكر فائدة ، كما علل به مفهوم الصفة لأن الجمهور يقولون : ذكر اللقب ليسند إليه وهو واضح لا إشكال فيه .

وأشار صاحب مراقى السعود إلى تعريف اللقب بالاصطلاح الأصولى وأنه أضعف المفاهيم بقوله :

أضعفها اللقب وهو ما أبى من دونه نظم الكلام العرب

وحاصل فقه هذه المسألة أن الجن مكلفون ، على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم بدلالة الكتاب والسنة ، وإجماع المسلمين وأن كافرهم فى النار بإجماع المسلمين ، وهو صريح قوله تعالى : (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى : (فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون) ، وقوله تعالى : (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار) إلى غير ذلك من الآيات .

وأن مؤمنيهم اختلف فى دخولهم الجنة ومنشأ الخلاف الاختلاف فى فهم الآيتين المذكورتين .

والظاهر دخولهم الجنة كما بينا ، والعلم عند الله تعالى . اهـ . منه بلفظه .

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية ، وأنها من الآيات الدالة على البعث في البقرة والنحل والجاثية ، وغير ذلك من المواضع وأحلنا على ذلك مراراً ، والباء في قوله (بقادر) يسوغه أن النفي متناول لإن فما بعدها ، فهو في معنى أليس الله بقادر ؟

ويوضح ذلك قوله بعد : بلى . مقرراً لقدرته على البعث وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾

اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافا كثيراً .

وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة ، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو صلى الله عليه وسلم خامسهم .

واعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأن لفظة من ، في قوله : من الرسل بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق ، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى : (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت) الآية ، فأمر الله جل وعلا نبيه في آية القلم هذه بالصبر ، ونهاه عن أن يكون مثل يونس ، لأنه هو صاحب الحوت وكقوله : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً) فآية القلم ، وآية طه المذكورتان كلتاهما تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ ﴾ .

نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة ، أن يستعجل

العذاب لقومه ، أى يدعو الله عليهم بتعجيله لهم ، فمفعول تستعجل محذوف تقديره العذاب ، كما قاله القرطبي ، وهو الظاهر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهى عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (فذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا) . وقوله تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) .

فإن قوله (ومهلهم قليلا) ، وقوله : (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) موضح لمعنى قوله (ولا تستعجل لهم) .

والمراد بالآيات ، نهيه صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل العذاب لهم، لأنهم معذبون ، لا محالة عند انتهاء المدة المحددة للامهال ، كما يوضحه قوله تعالى (فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا) . وقوله تعالى (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقوله تعالى (قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) الآية . وقوله تعالى : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وقوله تعالى : (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى، (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة النهار يتعارفون بينهم) وفى سورة قد أفلح المؤمنون فى الكلام على قوله تعالى : (قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين) .

وبينا فى الكلام على آية قد أفلح المؤمنون وجه إزالة إشكال معروف فى الآيات المذكورة .

قوله تعالى : ﴿ بَلَاغٌ ﴾ .

التحقيق إن شاء الله أن أصوب القولين فى قوله : (بلاغ) أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره ، هذا بلاغ ، أى هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه .

ويدل لهذا قوله تعالى فى سورة إبراهيم (هذا بلاغ للناس ولينذروا به)، وقوله فى الأنبياء (إن فى هـذا لبلاغاً لقوم عابدين) ، وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والبلاغ اسم مصدر ، بمعنى التبليغ ، وقد علم باستقراء اللغة العربية ، أن الفعال يأتى كثيراً ، بمعنى التفعيل ، كبلغه بلاغاً : أى تبليغاً ، وكلمه كلاماً ، أى تـكليما ، وطلقها طلاقا ، وسرحها سراحا ، وبينه بياناً .

كل ذلك بمعنى التفعيل ، لأن فعل مضعفة العين ، غير معتلة اللام ولا مهموزته قياس مصدرها التفعيل .

وما جاء منه على خلاف ذلك ، يحفظ ولا يقاس عليه ، كما هو معلوم فى محله .

أما القول بأن المعنى وذلك اللبث بلاغ ، فهو خلاف الظاهر كما ترى ، والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ القِتَالِ وَهِيَ سُورَةُ محمد صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : وصدوا عن سبيل الله ، قال بعضهم : هو من الصدود ، لأن صد فى الآية لازمة .

وقال بعضهم : هو من الصد لأن صد فى الآية متعدية .

وعليه فالمفعول محذوف أى صدوا غيرهم عن سبيل الله ، أى عن الدخول فى الإسلام .

وهذا القول الأخير هو الصواب ، لأنه على القول بأن صد لازمة ، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله (كفروا) ، لأن الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله .

وأما على القول : بأن صد متعدية فلا تكرار لأن المعنى أنهم ضالون فى أنفسهم ، مضلون لغيرهم بصدهم إياهم عن سبيل الله ، وقد قدمنا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم) الآية ،

أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس، إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (أضل أعمالهم) أى أبطل ثوابها، فما عمله الكافر من حسن فى الدنيا ، كقرى الضيف ، وبر الوالدين ، وحمى الجار ، وصلة الرحم ، والتنفيس عن المكروب ، يبطل يوم القيامة ، ويضمحل ويكون لا أثر له ، كما قال تعالى : (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ، وهذا هو الصواب فى معنى الآية .

وقيل : أضل أعمالهم أى أبطل كيدهم ، الذى أرادوا أن يكيدوا به النبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم) أى غفرلهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة (وأصلح بالهم) أى أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحا لافساد معه ، وماذكره جل وعلا هنا فى أول هذه السورة الكريمة ، من أنه يبطل أعمال الكافرين ، ويبقى أعمال المؤمنين جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) . وقوله تعالى : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) وقوله تعالى : (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه ، مع

زيادة إيضاح مهمة فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) . وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية ، وذكرنا طرفاً منه فى سورة الأحقاف فى الكلام على قوله تعالى : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (أضل أعمالهم) أصله من الضلال بمعنى الغيبة ، والاضمحلال . لا من الضالة كما زعمه الزمخشرى فهو كقوله : (وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

وقد قدمنا معانى الضلال فى القرآن واللغة ، فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله : (قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين) ، وفى آخر الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قد قدمنا إيضاحه فى أول سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية ، وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وآمنوا بما نزل على محمد) .

قال فيه ابن كثير : هو عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان ، بعد بعثته صلى الله عليه وسلم . اهـ منه .

ويدل لذلك قوله تعالى : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (وهو الحق) جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبى الكريم ، صلى الله عليه وسلم هو الحق من الله ، كما قال تعالى : (وكذب به قومك وهو الحق) . قال تعالى : (وإنه لحسرة على الكافرين وإنه لحق اليقين) . وقال تعالى : (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) الآية . وقال تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى : (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أى إبطالها واضمحلالها ، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم ، كله واقع بسبب أن الكفار اتبعوا الباطل ، ومن اتبع الباطل فعمله باطل .

والزائل المضمحل تسميه العرب باطلا وضده الحق .

وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق ، ومتبع الحق أعماله حق ، فهى ثابتة باقية ، لازائلة مضمحلة .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن اختلاف الأعمال ، يستلزم اختلاف الثواب ، لايتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل ، الذى يستوجب الإنكار عليه ، جاء موضحا فى آيات أخر ، كقوله تعالى : أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) . . وقوله تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) . وقوله تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) قال فيه الزمخشرى : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ .

قلت : فى جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار .

واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين .

أوفى أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين . اهـ . منه .

وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشىء بذكر نظيره الذى هو مثل له .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ .

قوله تعالى : فضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر، ومعلوم أن صيغ الأمر فى اللغة العربية أربع :

وهى فعل الأمر كقوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس) الآية .

واسم فعل الأمر كقوله تعالى : (عليكم أنفسكم) الآية .

والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى : (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم) الآية .

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى : (فضرب الرقاب)، أى فاضربوا رقابهم ، وقوله تعالى : (حتى إذا أثخنتموهم) أى أوجعتم فيهم قتلا .

فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض.

وقوله : فشدوا الوثاق ، أى فأسروهم ، والوثاق بالفتح والكسر اسم لما يؤسر به الأسير من قد ونحوه .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة ، من الأمر بقتل الكفار حتى يثخنهم المسلمون ، ثم بعد ذلك يأسرونهم جاء موضحا فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى: (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) الآية ، وقد أمر تعالى بقتلهم فى آيات أخر كقوله تعالى . (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية . وقوله : (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)،وقوله تعالى: (وقاتلوا المشركين كافة) الآية . وقوله: (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) الآية ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فإمامنا بعد وإما فداء) أى فإما تمنون عليهم منا ، أو تفادونهم فداء .

ومعلوم أن المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله ، كما قال فى الخلاصة :

وما لتفصيل كإما منا عامله يحذف حيث عنا

ومنه قول الشاعر :

لأجهدن فإما درء واقعة تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وقال بعض العلماء : هذه الآية منسوخة بالآيات التى ذكرنا قبلها وممن روى عنه هذا القول ، ابن عباس والسدى وقتادة والضحاك وابن جريج .

وذكر ابن جرير عن أبى بكر رضى الله عنه مايؤيده .

ونسخ هذه الآية هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله فإنه لايجوز عنده المن ولا الفداء،لأن الآية منسوخة عنده،بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق.

ومعلوم أن آيات السيف النازلة فى براءة نزلت بعد سورة القتال هذه .

وأكثر أهل العلم يقولون : إن الآية ليست منسوخة ، وأن جميع الآيات المذكورة ، محكمة ، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من منّ وفداء وقتل واسترقاق .

قالوا : قتل النبي صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث أسيرين يوم بدر ، وأخذ فداء غيرهما من الأسارى .

ومن على ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة ، وكان يسترق السبي من العرب وغيرهم .

وقال الشوكاني في نيل الأوطار :

والحاصل أنه قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق ، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تختص ببعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات ، والمجوز قائم في مقام المنع ، وقول على وفعله عند بعض المانعين من استرقاق ذكور العرب حجة .

وقد استرق بني ناجية ذكورهم وإناثهم وباعهم كما هو مشهور في كتب السير والتواريخ اهـ . محل الغرض منه.

ومعلوم أن بني ناجية من العرب .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له :

لم يختلف المسلمون في جواز الملك بالرق .

ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد ، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات ، في توكيد ثبوت ملك الرقيق ، وهي ملك اليمين لأن ما ملكته يمين الإنسان ، فهو مملوك له تماما ،

وتحت تصرفه تماما ، كقوله تعالى:(فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم)وقوله:(والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) فى سورة (قد أفلح المؤمنون) و (سأل سائل) وقوله : (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم) الآية . وقوله : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم) الآية . وقوله : (والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم) . وقوله : (لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك) الآيه. وقوله: (ياأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وماملكت يمينك مما أفاء الله عليك) الآية . وقوله : (أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن) . وقوله :(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) . وقوله :(فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم) . وقوله (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء) الآية ، فالمراد بملك اليمين فى جميع هذه الآيات كلها الملك بالرق ، والأحاديث والآيات بمثل ذلك يتعذر حصرها ، وهى معلومة ، فلا ينكر الرق فى الإسلام ، إلا مكابر أو ملحد أو من لايؤمن بكتاب الله ، ولا بسنة رسوله .

وقد قدمنا حكمة الملك بالرق وإزالة الإشكال فى ملك الرقيق المسلم فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

ومن المعلوم أن كثيراً من أجلاء علماء المسلمين ومحدثيهم الكبار كانوا أرقاء مملوكين ، أو أبناء أرقاء مملوكين .

فهذا محمد بن سيرين كان أبوه سيرين عبداً لأنس بن مالك .

وهذا مكحول كان عبداً لامرأة من هذيل فأعتقته .

ومثل هذا أكثر من أن يحصى كما هو معلوم .

واعلم أن مايدعيه بعض من المتعصبين ، لنفي الرق في الإسلام من أن آية القتال هذه دلت على نفي الرق من أصله ، لأنها أوجبت واحداً من أمرين لاثالث لهما ، وهما المن والفداء فقط فهو استدلال ساقط من وجهين :

أحدهما أن فيه استدلالا بالآية ، على شيء لم يدخل فيها ، ولم تتناوله أصلا ، والاستدلال إن كان كذلك فسقوطه كما ترى .

وإيضاح ذلك أن هذه الآية التي فيها تقسيم حكم الأسارى ، إلى من وفداء ، لم تتناول قطعاً إلا الرجال المقاتلين من الكفار لأن قوله (فضرب الرقاب) ، وقوله : (حتى إذا أثخنتموهم) . صريح في ذلك كما ترى .

وعلى إثخان هؤلاء المقاتلين رتب بالفاء قوله : (فشدوا الوثاق) الآية .

فظهر أن الآية لم تتناول أنثى ولاصغيراً البتة .

ويزيد ذلك إيضاحاً أن النهي عن قتل نساء الكفار وصبيانهم ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأكثر أهل الرق في أقطار الدنيا إنما هو من من النساء والصبيان .

ولو كان الذي يدعي نفي الرق من أصله يعترف بأن الآية ، لايمكن أن يستدل بها على شيء غير الرجال المقاتلين ، لقصر نفي الرق الذي زعمه على الرجال الذين أسروا ، في حال كونهم مقاتلين ، ولو قصره على هؤلاء ، لم يمكنه أن يقول بنفي الرق من أصله كما ترى .

الوجه الثاني : هو ماقدمنا من الأدلة على ثبوت الرق في الإسلام . وقوله

تعالى فى هذه الآية الكريمة : (حتى تضع الحرب أوزارها) أى إذا لقيتم الكفار فاضربوا أعناقهم (حتى إذا أثخنتموهم) قتلا فأسروهم (حتى تضع الحرب أوزارها) أى حتى تنتهى الحرب .

وأظهر الأقوال فى معنى وضع الحرب أوزارها أنه وضع السلاح ، والعرب تسمى السلاح وزرا ، وتطلق العرب الأوزار على آلات الحرب وما يساعد فيها كالخيل ، ومنه قول الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالا وخيلا ذكورا

وفى معنى أوزار الحرب ، أقوال أخر معروفة تركناها ، لأن هذا أظهرها عندنا : والعلم عند الله تعالى

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

ذكر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن المؤمنين ، إن نصروا ربهم ، نصرهم على أعدائهم ، وثبت أقدامهم ، أى عصمهم من الفرار والهزيمة .

وقد أوضح هذا المعنى فى آيات كثيرة ، وبين فى بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) ، ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر فى قوله تعالى بعده (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) ، وكقوله تعالى: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ، وقوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) الآية . وقوله تعالى. (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون)

إلى غير ذلك من الآيات . وقوله تعالى فى بيان صفات من وعدهم بالنصر فى الآيات المذكورة : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف) الآية . يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة .

فمثلهم كمثل الأجير الذى لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة .

فالذين يرتكبون جميع المعاصى ممن يتسمون باسم المسلمين ثم يقولون : إن الله سينصرنا مغرورون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى .

ومعنى نصر المؤمنين لله ، نصرهم لدينه ولكتابه ، وسعيهم وجهادهم ، فى أن تكون كلمته هى العليا ، وأن تقام حدوده فى أرضه ، وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه ، ويحكم فى عباده بما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (وما هى من الظالمين ببعيد) ، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك فى سورة الروم فى الكلام على قوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض) الآية ؛ وأوضحنا ذلك فى الزخرف فى الكلام على قوله : (فأهلكنا أشد منهم بطشاً) الآية وفى الأحقاف

فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد مكناكم فيما إن مكناكم فيه) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِيَ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ الآيات .

التى توضح معنى هذه الآية ، هى المشار إليها فى نفس الآية ، التى ذكرنا قبلها .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من إخراج كفار مكة للنبى صلى الله عليه وسلم منها بينه فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم) الآية ، وقوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك)

وقد أخرجوه فعلا بمكرهم المذكور ، وبين جل وعلا أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لاذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله ، كما قال تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) وقال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) أى يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم .

وقال تعالى فى إخراجهم له (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وياء مشددة مكسورة ونون ساكنة .

وقرأه ابن كثير وكأين ، بألف بعد الكاف ، وهمزة مكسورة ،

وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة ، كحال الصلة ، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الياء .

وقد قدمنا أوجه القراءة فى كأين ومعناها ، وما فيها من اللغات ، مع بعض الشواهد العربية فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى (وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) الآية .

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ الآية .

أنهار الماء ، وأنهار الخمر التى ذكرها الله فى هذه الآية بين بعض صفاتها ، فى آيات أخرى كقوله تعالى (تجرى من تحتها الأنهار) فى آيات كثيرة ، وقوله (وماء مسكوب) . وقوله : (إن المتقين فى ظلال وعيون) ، وقوله (فيها عين جارية) ، وقد بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربها ، ولا تسبب له الصداع الذى هو وجع الرأس فى آيات من كتابه كقوله تعالى: (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) ، وقوله (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) .

وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) الآية . وقوله تعالى فى الآية الكريمة (غير آسن) أى غير متغير اللون ولا الطعم . والآسن والآجن معناها واحد ، ومنه قول ذى الرمة :

ومنهل آجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا

وقول الراجز :

ومنهل فيه الغراب ميت كأنه من الأجون زيت

* سقيت منها القوم واستقيت *

وبماذكرنا تعلم أن قوله : غير آسن كقوله : من لبن لم يتغير طعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾

قد بين تعالى فى سورة البقرة أن الثمار التى يرزقها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً فى الجودة والحسن والكمال، ليس فيها شىء ردىء ، وذلك فى قوله تعالى: (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها) .

قوله تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحج ، فى الكلام على قوله تعالى (يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، فى سورة الزخرف ، فى الكلام على قوله تعالى (هل ينظرون إلا الساعة تأتيهم بغتة وهم لايشعرون) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾

التحقيق إن شاء الله تعالى ، فى معنى هذه الآية الكريمة ، أن الكفار يوم القيامة ، إذا جاءتهم الساعة ، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله ، وأن الإيمان فى ذلك الوقت لاينفعهم لفوات وقته فقوله (ذكراهم) مبتدأ خبره (أنى لهم) أى كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله ، وقد فات الوقت الذى يقبل فيه الإيمان .

والضمير المرفوع فى (جاءتهم) عائد إلى الساعة التى هى القيامة .

وهذا المعنى ، الذى دلت عليه هـذه الآية الكريمة ، من أن الكفار يو القيامة يومنون ، ولا ينفعهم إيمانهم جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيـد) ، وقوله تعالى: (وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (هل ينظرون إلا تأويله ـ إلى قوله ـ أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل).

فظهر أن قوله (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) على حذف مضاف ، أى أنى لهم نفع ذكراهم .

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه إذا أنزل سورة محكمة ، أى متقنة الألفاظ والمعانى ، واضحة الدلالة ، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار ، تسبب عن ذلك ، كون الذين فى قلوبهم مرض أى شك ونفاق ، ينظرون كنظر الإنسان الذى يغشى عليه لأنه فى سياق الموت ، لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره .

وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم .

وقد صرح جل وعلا بأن ذلك من الخوف المذكور فى قوله : (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه الموت)

وقد بين تعالى ، أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين ، إذا أنزل الله سورة ، فيها الأمر بالجهاد ، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم فى التخلف عن الجهاد، وذمهم الله على ذلك ، وذلك فى قوله تعالى : (وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

الهمزة فى قوله : أفلا يتدبرون للإنكار ، والفاء عاطفة على جملة محذوفة ، على أصح القولين ، والتقدير أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له فى الخلاصة بقوله :

* وحذف متبوع بدا هنا استبح *

وقوله تعالى : (أم على قلوب أقفالها فيه منقطعة بمعنى بل ، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن ، بأداة الإنكار التى هى الهمزة ، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير ، ولا لفهم قرآن .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، وقوله تعالى (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) ، وقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) الآية . وقوله تعالى : (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) .

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أى تصفحها وتفهمها ، وإدراك معانيها والعمل بها ، فإنه معرض عنها ، غير متدبر لها ، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور فى الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر ، وقد شكا النبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن ، كما قال تعالى (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) .

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به ، أمر لابد منه للمسلمين .

وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أن المشتغلين بذلك هم خير الناس . كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقال تعالى : (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر فى كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له ؛ من أعظم المناكر وأشنعها ، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى .

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة . وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما ، لوجود مايكفى عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل .

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة .

فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى .

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى :

اعلم أن قول بعض متأخرى الأصوليين : إن تدبر هذا القرآن العظيم ، وتفهمه والعمل به . لايجوز إلا للمجتهدين خاصة ، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التى لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولاسنة ولا إجماع ولا قياس جلى ، ولا أثر عن الصحابة ، قول لامستند له من دليل شرعى أصلا .

بل الحق الذى لاشك فيه ، أن كل من له قدرة من المسلمين . على التعلم والتفهم ، وإدراك معانى الكتاب والسنة ، يجب عليه تعلمهما ، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعاً .

وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح. فله أن يعمل به. ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً .

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس .

ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار ، ليس أحد منهم مستكملا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شىء منها أصلا . فلو كان القرآن لايجوز أن ينتفع بالعمل به ، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصلاح الأصولى لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه ، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخرى الأصوليين ، كما ترى .

ومعلوم أن من المقرر فى الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول،

وإذاً فدخول الكفار والمنافقين ، فى الآيات المذكورة قطعى، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدى القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله ، وعدم عملهم به .

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً ، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد ، والأمور المنصوصة فى نصوص صحيحة ، من الكتاب والسنة ، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد ، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد ، بل ليس فيها إلا الاتباع ، وبذلك تعلم أنما ذكره صاحب مراقى السعود تبعاً للقرافى من قوله :

من لم يكن مجتهداً فالعمل منه بمعنى النص مما يحظل

لا يصح على إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل .

ومن المعلوم ، أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

ومن المعلوم أيضاً ، أن عمومات الآيات والأحاديث ، الدالة على حث جميع الناس ، على العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، أكثر من أن تحصى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتى » وقوله صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى » الحديث . ونحو ذلك مما لا يحصى .

فتخصيص جميع تلك النصوص ، بخصوص المجتهدين وتحريم الانتفاع بهدى الكتاب والسنة على غيرهم ، تحريماً باتا يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء

جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين

ومعلوم أن المقلد الصرف ، لايجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله . وقال صاحب مراقى السعود ، فى نشر البنود ، فى شرحه لبيته المذكور آنفاً مانصه : يعنى أن غير المجتهد ، يحظل له . أى يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أوسنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه ، من نسخ وتقييد ، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التى لايضبطها إلا المجتهد ، فلايخلصه من الله إلا تقليد مجتهد . قاله القرافى . اهـ . محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أنه لامستند له ، ولا للقرافى الذى تبعه ، فى منع جميع المسلمين، غير المجتهدين من العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، إلا مطلق احتمال العوارض، التى تعرض لنصوص الكتاب والسنة ، من نسخ أوتخصيص أو تقييد ونحو ذلك ، وهو مردود من وجهين :

الأول : أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود الناسخ والعام ظاهر فى العموم حتى يثبت ورود المخصص ، والمطلق ظاهر فى الاطلاق ، حتى يثبت ورود المقيد والنص يجب العمل به ، حتى يثبت النسخ بدليل شرعى ، والظاهر يجب العمل به عموماً كان أو إطلاقا أو غيرهما ، حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح ، كما هو معروف فى محله .

وأول من زعم أنه لايجوز العمل بالعام ، حتى يبحث عن المخصص فلايوجد ونحو ذلك ، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين ، حتى حكوا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها .

وقد أوضح ابن القاسم العبادى ، فى الآيات البينات غلطهم فى ذلك ، فى كلامه على شرح المحلى لقول ابن السبكى فى جمع الجوامع ، ويتمسك بالعام فى

حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، قبل البحث عن المخصص ، وكذا بعد الوفاة ، خلافا لابن سريج اه .

وعلى كل حال فظواهر النصوص ، من عموم وإطلاق ، ونحو ذلك ، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه ، من مخصص أو مقيد ، لا لمجرد مطلق الاحتمال ، كما هو معلوم فى محله .

فادعاء كثير من المتأخرين ، أنه يجب ترك العمل به ، حتى يبحث عن المخصص ، والمقيد مثلا خلاف التحقيق .

الوجه الثانى : أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن ، أو بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليعمل بها ، تعلم ذلك النص العام ، أو المطلق ، وتعلم معه ، مخصصه ومقيده إن كان مخصصاً أو مقيداً ، وتعلم ناسخه إن كان منسوخاً وتعلم ذلك سهل جداً ، بسؤال العلماء العارفين به ، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتد بها فى ذلك ، والصحابة كانوا فى العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها ، وحديثاً فيعمل به ، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق ، وربما عمل الإنسان بما علم فعلمه ما لم يكن يعلم ، كما يشير له قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذى يفرق به بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . ويجعل لكم نوراً تمشون به) الآية .

وهذه التقوى ، التى دلت الآيات ، على أن الله يعلم صاحبها ، بسببها ما لم يكن يعلم ، لا تزيد على عمله بما علم ، من أمر الله وعليه فهى عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم .

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة ، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق ، هو عين السعى فى حرمان جميع المسلمين ، من الانتفاع بنور القرآن ، حتى يحصلوا شرطاً مفقوداً ، فى اعتقاد القائلين بذلك ، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى .

تنبيه مهم

يجب على كل مسلم ، يخاف العرض على ربه ، يوم القيامة ، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى ، والطامّة الكبرى ، التى عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة .

وهى ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله ، استغناء تاما ، فى جميع الأحكام من عبادات ومعاملات ، وحدود وغير ذلك ، بالمذاهب المدونة.

وبناء هذا على مقدمتين :

إحداهما : أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين .

والثانية : أن المجتهدين معدومون عدماً كلياً ، لا وجود لأحد منهم ، فى الدنيا ، وأنه بناء على هاتين المقدمتين ، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتا على جميع أهل الأرض ، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة .

وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة ، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان .

فتأمل يا أخى رحمك الله : كيف يسوغ لمسلم ، أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما ، استغناء عنهما بكلام رجال ، غير معصومين ولا خلاف فى أنهم يخطئون .

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة ، لا حاجة إلى تعلمهما ، وأنهما يغنى غيرهما ، فهذا بهتان عظيم ، ومنكر من القول وزور .

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه ، فهو أيضا زعم باطل ، لأن تعلم الكتاب والسنة ، أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المتشرة ، مع كونها فى غاية التعقيد ، والكثرة والله جل وعلا يقول فى سورة القمر مرات متعددة : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) . ويقول تعالى فى الدخان : (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) . ويقول فى مريم : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لداً) .

فهو كتاب ميسر ، بتيسير الله ، لمن وفقه الله للعمل به ، والله جل وعلا يقول (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) ، ويقول (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

فلا شك أن الذى يتباعد ، عن هداه ، يحاول التباعد ، عن هدى الله ورحمته .

ولا شك أن هذا القرآن العظيم ، هو النور الذى أنزله الله إلى أرضه ، ليستضاء به فيعلم فى ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار ، والرشد من الغى .

قال الله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) .

وقال تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من

نشاء من عبادنا) وقال تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) ، وقال تعالى : (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم ، هو النور الذى أنزله الله ليستضاء به ، ويهتدى بهداه فى أرضه ، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور .

فلا تكن خفاشى البصيرة ، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم :

خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم
مثل النهار يزيد أبصار الورى نوراً ويعمى أعين الخفاش

(يكاد البرق يخطف أبصارهم) . (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب) .

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور ، تخبط فى الظلام ، ومن لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور .

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف ، أنه يجب عليك الجد ، والاجتهاد فى تعلم كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبالوسائل النافعة المنتجة ، والعمل بكل ما علمك الله منهما ، علماً صحيحاً .

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله فى هذا الزمان ، أيسر منه بكثير فى القرون الأولى ، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك ، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ، ومطلق ومقيد ، ومجمل ومبين وأحوال الرجال ، من رواة الحديث ، والتمييز بين الصحيح والضعيف ، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون ، فالجميع سهل التناول اليوم .

فكل آية من كتاب الله قد علم ماجاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين .

وجميع الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم حفظت ودونت ، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها ومايتطرق إليها من العلل والضعف .

فجميع الشروط التى اشترطوها فى الاجتهاد يسهل تحصيلها جداً على كل من رزقه الله فهماً وعلماً .

والناسخ والمنسوخ ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، ونحو ذلك تسهل معرفته اليوم على كل ناظر فى الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووفقه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله .

✳ واعلم أيها المسلم المنصف ، أن من أشنع الباطل وأعظم القول بغير الحق ، على الله وكتابه وعلى النبي وسنته المطهرة ، ماقاله الشيخ أحمد الصاوى ، فى حاشيته على الجلالين ، فى سورة الكهف وآل عمران واغتر بقوله فى ذلك ، خلق لايحصى من المتسمين ، باسم طلبة العلم ، لكونهم لايميزون بين حق وباطل .

فقد قال الصاوى أحمد المذكور فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً) الآية ، بعد أن ذكر الأقوال فى انفصال الاستثناء عن المستثنى منه بزمان ، مانصه : وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله فإن شرط حل الأيمان بالمشيئة أن تتصل ، وأن يقصد بها حل اليمين ، ولا يضر الفصل بتنفس أو سعال أو عطاس ، ولايجوز تقليد ماعدا المذاهب الأربعة ، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية ، فالخارج عن المذاهب الأربعة ، ضالّ مضل وربما أداه ذلك للكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر . اهـ . منه بلفظه .

فانظر يا أخى رحمك الله ، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله ، وما أجرأ قائله على الله ، وكتابه وعلى النبى صلى الله عليه وسلم وسنته وأصحابه سبحانك هذا بهتان عظيم.

أما قوله بأنه لايجوز الخروج عن المذاهب الأربعة ، ولوكانت أقوالهم مخالفة للكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة فهو قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضى الله عنهم وإجماع الأئمة الأربعة أنفسهم ، كما سنرى إيضاحه إن شاء الله بما لامزيد عليه فى المسائل الآتية بعد هذه المسألة . فالذى ينصره هو الضال المضل .

وأما قوله : إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة ، من أصول الكفر ، فهذا أيضاً من أشنع الباطل وأعظمه ، وقائله من أعظم الناس انتهاكا لحرمة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

والتحقيق الذى لاشك فيه ، وهو الذى كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامة علماء المسلمين أنه لايجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال من الأحوال بوجه من الوجوه ، حتى يقوم دليل صحيح شرعى صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح .

والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لايصدر البتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله وإنما يصدر عمن لاعلم له بالكتاب والسنة أصلا ، لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفراً والواقع فى نفس الأمر أن ظاهرهما بعيد مما ظنه أشد من بعد الشمس من اللمس .

ومما يوضح لك ذلك أن آية الكهف هذه ، التى ظن الصاوى أن ظاهرها حل الأيمان بالتعليق بالمشيئة المتأخر وزمنها عن اليمين وأن ذلك مخالف

للمذاهب الأربعة : وبنى على ذلك أن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر كله باطل لا أساس له .

وظاهر الآية بعيد مما ظن بل الظن الذى ظنه والزعم الذى زعمه لاتشير الآية إليه أصلا ، ولاتدل عليه لا بدلالة المطابقة ، ولا التضمن ولا الالتزام . فضلا على أن تكون ظاهرة فيه .

وسبب نزولها يزيد ذلك إيضاحاً ، لأن سبب نزول الآية أن الكفار سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال لهم سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله فعاتبه ربه بعدم تفويض الأمر إليه ، وعدم تعليقه بمشيئته جل وعلا فتأخر عنه الوحى .

ثم علمه الله فى الآية الأدب معه فى قوله : (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) .

ثم قال لنبيه (واذكر ربك إذا نسيت) يعنى إن قلت سأفعل كذا غداً ، ثم نسيت أن تقول إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك ، فاذكر ربك ، أى قل إن شاء الله ، أى لتتدارك بذلك الأدب ، مع الله الذى فاتك عند وقته ، بسبب النسيان وتخرج من عهدة النهى فى قوله تعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله)

والتعليق بهذه المشيئة المتأخرة لأجل المعنى المذكور ، الذى هو ظاهر الآية الصحيح لايخالف مذهباً من المذاهب الأربعة ولاغيرهم ، وهو التحقيق فى مراد ابن عباس بما ينقل عنه من جواز تأخير الاستثناء كما أوضحه كبير المفسرين . أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله .

وقد قدمنا إيضاحه فى الكلام على آية الكهف هذه . فيا أتباع الصاوى المقلدين له تقليداً أعمى على جهالة عمياء ، أين دل ظاهر آية الكهف هذه ،

على اليمين بالله ، أو بالطلاق أو بالعتق أو بغير ذلك من الأيمان ؟

هل النبي صلى الله عليه وسلم حلف لما قال للكفار : سأخبركم غداً ؟

وهل قال الله : ولا تقولن لشيء إني حالف سأفعل ذلك غداً ؟

ومن أين جئتم باليمين ، حتى قلتم إن ظاهر القرآن ، هو حل الأيمان بالمشيئة المتأخرة عنها ، وبنيتم على ذلك أن ظاهر الآية مخالف لمذاهب الأئمة الأربعة ، وأن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟

ومما يزيد ماذكرنا إيضاحاً ماقاله الصاوى أيضاً فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى: (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فإنه قال على كلام الجلال ما نصه : زيغ أى ميل عن الحق للباطل ، قوله : بوقوعهم فى الشبهات واللبس ، أى كنصارى نجران ، ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن ، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة اهـ .

فانظر رحمك الله ، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله وما أجرأ قائله على انتهاك حرمات الله ، وكتابه ونبيه وسنته صلى الله عليه وسلم ، وما أدله على أن صاحبه لايدرى مايتكلم به . فإنه جعل ماقاله نصارى نجران ، هو ظاهر كتاب الله ، ولذا جعل مثلهم من حذا حذوهم فأخذ بظاهر القرآن .

وذكر أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر مع أنه لايدرى وجه ادعاء نصارى نجران على ظاهر القرآن أنه كفر، مع أنه مسلم أن ادعاءهم على ظاهر القرآن أنه كفرهم ومن حذا حذوهم ادعاء صحيح إلا أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

وقد قال قبل هذا : قيل سبب نزولها أن وفد نجران قالوا للنبي صلى الله

عليه وسلم ألست تقول: إن عيسى روح الله وكلمته ؟ فقال نعم ، فقالوا حسبنا، أى كفانا ذلك فى كونه ابن الله . فنزلت الآية .

فاتضح أن الصاوى يعتقد أن ادعاء نصارى نجران أن ظاهر قوله تعالى : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) هو أن عيسى ابن الله ادعاء صحيح ، وبنى على ذلك أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

وهذا كله من أشنع الباطل وأعظمه ، فالآية لا يفهم من ظاهرها البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا بدلالة من الدلالات ، أن عيسى ابن الله ، وادعاء نصارى نجران ذلك كذب بحت .

فقول الصاوى كنصارى نجران ، ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظواهر القرآن صريح فى أنه يعتقد أن ما ادعاه وفد نجران من كون عيسى ابن الله هو ظاهر القرآن اعتقاد باطل باطل باطل ، حاشا القرآن العظيم من أن يكون هذا الكفر البواح ظاهره ، بل هو لا يدل عليه البتة فضلا عن أن يكون ظاهره وقوله : (روح منه) كقوله تعالى : (وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه) أى كل ذلك من عيسى ومن تسخير السماوات والأرض مبدؤه ومنشؤه منه جل وعلا .

فلفظة من فى الآيتين لابتداء الغاية ، وذلك هو ظاهر القرآن وهو الحق خلافاً لما زعمه الصاوى وحكاه عن نصارى نجران .

وقد اتضح بما ذكرنا أن الذين يقولون : إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يعلمون ما هى الظواهر وأنهم يعتقدون شيئاً ظاهر النص . والواقع أن النص لا يدل عليه بحال من الأحوال فضلا عن أن يكون ظاهره .

فبنوا باطلا على باطل ، ولاشك أن الباطل لايبنى عليه إلا الباطل .

ولو تصوروا معانى ظواهر الكتاب والسنة على حقيقتها لمنعهم ذلك ، من أن يقولوا ما قالوا .

فتصور الصاوى ، أن ظاهر آية الكهف المتقدمة ، هو حل الأيمان ، بالتعليق بالمشيئة التأخر زمنها عن اليمين ، وبناؤه على ذلك مخالفة ظاهر الآية لمذاهب الأئمة الأربعة ، وأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر ، مع أن الآية لاتشير أصلا إلى ما اعتقد أنه ظاهرها .

وكذلك اعتقاده أن ظاهر آية آل عمران المذكورة هو ما زعمه نصارى نجران ، من أن عيسى ابن الله فإنه كله باطل وليس شيء مما زعم ظاهر القرآن مطلقا ، كما لا يخفى على عاقل .

وقول الصاوى فى كلامه المذكور فى سورة آل عمران : إن العلماء قالوا: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر . قول باطل لايشك فى بطلانه من عنده أدنى معرفة .

ومن هم العلماء الذين قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر ؟

سموهم لنا ، وبينوا لنا من هم ؟

والحق الذى لا شك فيه أن هذا القول لا يقوله عالم ، ولا متعلم ، لأن ظواهر الكتاب والسنة هى نور الله الذى أنزله على رسوله ليستضاء به فى أرضه وتقام به حدوده ، وتنفذ به أوامره ، وينصف به بين عباده فى أرضه .

والنصوص القطعية التى لا احتمال فيها قليلة جداً لا يكاد يوجد منها إلا أمثلة قليلة جداً كقوله تعالى :(فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) .

والغالب الذى هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب والسنة ظواهر .

وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعى صارف عنه ، إلى المحتمل المرجوح ، وعلى هذا كل من تكلم فى الأصول .

فتنفير الناس وإبعادها عن كتاب الله ، وسنة رسوله ، بدعوى أن الأخذ بظواهرها من أصول الكفر هو من أشنع الباطل وأعظمه كما ترى .

وأصول الكفر يجب على كل مسلم أن يحذر منها كل الحذر ، ويتباعد منها كل التباعد ويتجنب أسبابها كل الاجتناب ، فيلزم على هذا القول المنكر الشنيع وجوب التباعد من الأخذ بظواهر الوحى .

وهذا كما ترى ، ومما ذكرنا يتبين أن من أعظم أسباب الضلال ، ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معان قبيحة ، ليست بلائقة .

والواقع فى نفس الأمر بعدها وبراءتها من ذلك .

وسبب تلك الدعوى الشنيعة على ظواهر كتاب الله ، وسنة رسوله ، هو عدم معرفة مدعيها .

ولأجل هذه البلية العظمى ، والطامة الكبرى ، زعم كثير من النظار الذين عندهم فهم ، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، غير لائقة بالله ، لأن ظواهرها المتبادرة منها هو تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، وعقد ذلك المقرى فى إضاءته فى قوله :

والنص إن أوهم غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق
فاصرفه عن ظاهره إجماعا واقطع عن الممتنع الأطماعا

وهذه الدعوى الباطلة ، من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

والواقع فى نفس الأمر أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها المتبادرة منها، لكل مسلم راجع عقله ، هى مخالفة صفات الله لصفات خلقه .

ولابد أن نتساءل هنا فنقول :

أليس الظاهر المتبادر مخالفة الخالق للمخلوق ، فى الذات والصفات والأفعال ؟

والجواب الذى لاجواب غيره : بلى .

وهل تشابهت صفات الله مع صفات خلقه حتى يقال إن اللفظ الدال على صفته تعالى ظاهره المتبادر منه تشبيهه بصفة الخلق ؟

والجواب الذى لاجواب غيره :لا .

فبأى وجه يتصور عاقل أن لفظاً أنزله الله فى كتابه ، مثلا دالا على صفة من صفات الله أثنى بها تعالى على نفسه ، يكون ظاهره المتبادر منه ، مشابهته لصفة الخلق ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

فالخالق والمخلوق متخالفان كل التخالف وصفاتهما متخالفة كل التخالف.

فبأى وجه يعقل دخول صفة المخلوق فى اللفظ الدال على صفة الخالق ؟ أو دخول صفة الخالق فى اللفظ الدال على صفة المخلوق مع كمال المنافاة بين الخالق والمخلوق؟

فكل لفظ دل على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لائقا بالخالق منزهاً عن مشابهة صفات المخلوق .

وكذلك اللفظ الدال على صفة المخلوق لا يعقل أن تدخل فيه صفة الخالق.

فالظاهر المتبادر من لفظ اليد بالنسبة للمخلوق ، هو كونها جارحة هى

عظم ولحم ودم ، وهذا هو الذى يتبادر إلى الذهن فى نحو قوله تعالى : (فاقطعوا أيديهما) .

والظاهر المتبادر من اليد بالنسبة للخالق فى نحو قوله تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أنها صفه كمال وجلال ، لائقة بالله جل وعلا ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله .

وقد بين جل وعلا عظم هذه الصفة وما هى عليه من الكمال والجلال ، وبين أنها من صفات التأثير كالقدرة ، قال تعالى فى تعظيم شأنها (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) .

وبين أنها صفة تأثير كالقدرة ، فى قوله تعالى : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) ، فتصريحه تعالى بأنه خلق نبيه آدم بهذه الصفة العظيمة التى هى من صفات كماله وجلاله يدل على أنها من صفات التأثير كما ترى .

ولا يصح هنا تأويل اليد بالقدرة البتة ، لإجماع أهل الحق والباطل ، كلهم على أنه لا يجوز تثنية القدرة .

ولا يخطر فى ذهن المسلم المراجع عقله ، دخول الجارحة التى هى عظم ولحم ودم فى معنى هذا اللفظ ، الدال على هذه الصفة العظيمة ، من صفات خالق السماوات والأرض .

فاعلم أيها المدعى أن ظاهر لفظ اليد فى الآية المذكورة وأمثالها ، لا يليق بالله ، لأن ظاهرها التشبيه بجارحة الإنسان ، وأنها يجب صرفها ، عن هذا الظاهر الخبيث ، ولم تكتف بهذا حتى ادعيت الإجماع على صرفها عن ظاهرها ، أن قولك هذا كله افتراء عظيم على الله تعالى ، وعلى كتابه العظيم ، وأنك

بسببه كنت أعظم المشبهين والمجسمين ، وقد جرك شؤم هذا التشبيه ، إلى ورطة التعطيل ، فنفيت الوصف الذى أثبته الله فى كتابه لنفسه بدعوى أنه لايليق به ، وأولته بمعنى آخر من تلقاء نفسك بلا مستند من كتاب ولا سنة ولا إجماع ، ولا قول أحد من السلف .

وماذا عليك لو صدقت الله وآمنت بما مدح به نفسه على الوجه اللائق بكماله وجلاله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل ؟

وبأى موجب سوغت لذهنك أن يخطر فيه صفة المخلوق عند ذكر صفة الخالق ؟

هل تلتبس صفة الخالق بصفة المخلوق عن أحد ؟ حتى يفهم صفة المخلوق من اللفظ الدال على صفة الخالق ؟

فاخش الله يا إنسان ، واحذر من التقول على الله بلا علم ، وآمن بماجاء فى كتاب الله مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه .

واعلم أن الله الذى أحاط علمه بكل شىء لا يخفى عليه الفرق بين الوصف اللائق به والوصف غير اللائق به ، حتى يأتى إنسان فيتحكم فى ذلك فيقول : هذا الذى وصفت به نفسك غير لائق بك ، وأنا أنفيه عنك بلا مستند منك ولا من رسولك ، وآتيك بدله بالوصف اللائق بك .

فاليد مثلا التى وصفت بها نفسك لا تليق بك لدلالتها على التشبيه بالجارحة ، وأنا أنفيها عنك نفياً باتا ، وأبدلها لك بوصف لائق بك وهو النعمة أو القدرة مثلا أو الجود .

سبحانك هذا بهتان عظيم .

(فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً . رسولا

يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) .

ومن الغريب أن بعض الجاحدين لصفات الله المؤولين لها بمعان لم ترد عن الله ولا عن رسوله يؤمنون فيها ببعض الكتاب دون بعض .

فيقرون بأن الصفات السبع التى تشتق منها أوصاف ثابتة لله مع التنزيه ، ونعنى بها القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، لأنها يشتق منها قادر حى عليم الخ . وكذلك فى بعض الصفات الجامعة كالعظمة والكبرياء والملك والجلال مثلا ، لأنها يشتق منها العظيم المتكبر والجليل والملك ، وهكذا ويجحدون كل صفة ثبتت فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يشتق منها غيرها كصفة اليد والوجه ونحو ذلك ، ولاشك أن هذا التفريق بين صفات الله التى أثبتها لنفسه أو أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم لا وجه له البتة بوجه من الوجوه .

ولم يرد عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم الإذن فى الإيمان ببعض صفاته وجحد بعضها ، وتأويله لأنها لا يشتق منها .

وهل يتصور عاقل أن يكون عدم الاشتقاق مسوغا لجحد ماوصف الله به نفسه ؟

ولاشك عند كل مسلم راجع عقله ، أن عدم الاشتقاق لا يرد به كلام الله ، فيما أثنى به على نفسه ، ولا كلام رسوله فيما وصف به ربه .

والسبب الموجب للايمان إيجابا حتما كلياً هو كونه من عند الله ، وهذا السبب هو الذى علم الراسخون فى العلم أنه الموجب للايمان بكل ماجاء عن الله سواء استأثر الله بعلمه كالمتشابه ، أو كان مما يعلمه الراسخون فى العلم كما قال الله عنهم : (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

فلاشك أن قوله تعالى : (لما خلقت بيدى) من عند ربنا . وقوله تعالى: (والله على كل شيء قدير) من عند ربنا أيضاً ، فيجب علينا الإيمان بالجميع ، لأنه كله من عند ربنا .

أما الذى يفرق بينه، وهو عالم بأن كله من عندربه ، بأن هذا يشتق منه ، وهذا لا يشتق منه فقد آمن ببعض الكتاب دون بعض .

والمقصود أن كلما جاء من عند الله ، يجب الإيمان به سواء كان من المتشابه ، أو من غير المتشابه ، وسواء كان يشتق منه أو لا .

ومعلوم أن مالكا رحمه الله سئل كيف استوى ، فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب :

وما يزعمه بعضهم من أن القدرة والإرادة مثلا ونحوهما ليست كاليد ، والوجه ، بدعوى أن القدرة والإرادة مثلا ظهرت آثارها فى العالم العلوى والسفلى بخلاف غيرهما كصفة اليد ونحوها فهو من أعظم الباطل .

ومما يوضح ذلك أن الذى يقوله هو وأبوه وجده من آثار صفة اليد التى خلق الله بها نبيه آدم .

ونحن نرجو أن يغفر الله تعالى للذين ماتوا على هذا الاعتقاد ، لأنهم لا يقصدون تشبيه الله بخلقه ، وإنما يحاولون تنزيهه عن مشابهة خلقه .

فقصدهم حسن ولكن طريقهم إلى ذلك القصد سيئة .

وإنما نشأ لهم ذلك السوء بسبب أنهم ظنوا لفظ الصفة التى مدح الله بها نفسه يدل ظاهره على مشابهة صفة الخلق فنفوا الصفة التى ظنوا أنها لا تليق قصداً منهم لتنزيه الله ، وأولوها بمعنى آخر يقتضى التنزيه فى ظنهم فهم كما قال الشافعى رحمه الله :

رام نفعا فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا

ونحن نرجو أن يغفر الله لهم خطأهم ، وأن يكونوا داخلين فى قوله تعالى : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما) .

وخطؤهم المذكور لاشك فيه ، ولو وفقهم الله لتطهير قلوبهم من التشبيه أولا ، وجزموا بأن ظاهر صفة الخالق هو التنزيه عن مشابهة صفة المخلوق ، لسلموا مما وقعوا فيه .

ولا شك أن النبى صلى الله عليه وسلم ، عالم كل العلم ، بأن الظاهر المتبادر ، مما مدح الله به نفسه ، فى آيات الصفات هو التنزيه التام عن صفات الخلق ، ولو كان يخطر فى ذهنه أن ظاهره لايليق ، لأنه تشبيه بصفات الخلق ، لبادر كل المبادرة إلى بيان ذلك ، لأنه لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه ، ولا سيما فى العقائد ، ولا سيما فيما ظاهره الكفر والتشبيه .

فسكوت النبى صلى الله عليه وسلم عن بيان هذا يدل على أن مازعمه المؤولون لا أساس له كما ترى .

فإن قيل : إن هذا القرآن العظيم ، نزل بلسان عربى مبين ، والعرب لاتعرف فى لغتها ، كيفية لليد مثلا ، إلا كيفية المعانى المعروفة عندها كالجارحة ، وغيرها من معانى اليد المعروفة فى اللغة ، فبينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم .

فالجواب من وجهين :

الوجه الأول : أن العرب لاتدرك كيفيات صفات الله من لغتها ، لشدة منافاة صفة الله لصفة الخلق .

والعرب لاتعرف عقولهم كيفيات إلا لصفات الخلق ، فلا تعرف العرب كيفية للسمع والبصر ، إلا هذه المشاهدة ، فى حاسة الأذن والعين ، أما سمع لا يقوم بأذن وبصر لا يقوم بحدقة ، فهذا لا يعرفون له كيفية البتة .

فلا فرق بين السمع والبصر ، وبين اليد والاستواء ، فالذى تعرف كيفيته العرب من لغتها من جميع ذلك ، هو المشاهد فى المخلوقات .

وأما الذى اتصف الله به من ذلك ، فلا تعرف له العرب كيفية ، ولا حداً لمخالفة صفاته لصفات الخلق ، إلا أنهم يعرفون من لغتهم أصل المعنى ، كما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

كما يعرفون من لغتهم ، أن بين الخالق والمخلوق ، والرزق والمرزوق ، والمحيي والمحيا ، والمميت والممات ؛ فوارق عظية لاحد لها ، تستلزم المخالفة ، التامة ، بين صفات الخالق والمخلوق .

الوجه الثانى : أن نقول لمن قال : بينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم ، من كونها صفة كمال ، وجلال ، منزهة عن مشابهة جارحة المخلوق .

هل عرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة باليد ، فلابد أن يقول : لا . فإن قال ذلك .

قلنا : معرفة كيفية الصفات تتوقف على معرفة كيفية الذات .

فالذات والصفات من باب واحد .

فكما أن ذاته جل وعلا تخالف جميع الذوات ، فإن صفاته تخالف جميع الصفات .

ومعلوم أن الصفات ، تختلف وتتباين ، باختلاف موصوفاتها .

ألا ترى مثلا أن لفظة رأس كلمة واحدة ؟

إن أضفتها إلى الإنسان فقلت رأس الإنسان ، وإلى الوادى فقلت رأس الوادى ، وإلى المال فقلت رأس المال ، وإلى الجبل فقلت رأس الجبل .

فإن كلمة الرأس اختلفت معانيها ، وتباينت تبايناً ، شديداً بحسب اختلاف إضافتها مع أنها فى مخلوقات حقيرة .

فما بالك بما أضيف من الصفات إلى الله وما أضيف منها إلى خلقه ، فإنه يتباين كتباين الخالق والمخلوق ، كما لا يخفى .

فاتضح بما ذكر أن الشرط فى قول المقرى فى إضاءته :

* والنص إن أوهم غير اللائق *

شرط مفقود قطعا ، لأن نصوص الوحى الواردة فى صفات الله ، لا تدل ظواهرها البتة ، إلا على تنزيه الله ، ومخالفته لخلقه فى الذات والصفات والأفعال .

فكل المسلمين ، الذين يراجعون عقولهم ، لا يشك أحد منهم فى أن الظاهر المتبادر السابق إلى ذهن المسلم ، هو مخالفة الله لخلقه ، كما نص عليه بقوله (ليس كمثله شىء) وقوله (ولم يكن له كفواً أحد) ونحو ذلك من الآيات ، وبذلك تعلم أن الإجماع الذى بناه على ذلك فى قوله :

* فاصرفه عن ظاهره إجماعاً *

إجماع مفقود أصلا ، ولا وجود له البتة ، لأنه مبنى على شرط مفقود لا وجود له البتة .

فالإجماع المعدوم المزعوم لم يرد فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ، ولم يقله أحد من أصحاب رسول الله ، ولا من تابعيهم ولم يقله أحد من الأئمة الأربعة ، ولا من فقهاء الأمصار المعروفين .

وإنما لم يقولوا بذلك لأنهم يعلمون أن ظواهر نصوص الوحى لا تدل إلا على تنزيه الله عن مشابهة خلقه ، وهذا الظاهر الذى هو تنزيه الله لاداعى لصرفها عنه كما ترى .

ولأجل هذا كله قلنا فى مقدمة هذا الكتاب المبارك ، إن الله تبارك وتعالى موصوف بتلك الصفات حقيقة لا مجازا ، لأنا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه شك ، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، لا تدل البتة إلا على التنزيه عن مشابهة الخلق واتصافه تعالى بالكمال والجلال .

وإثبات التنزيه والكمال والجلال لله حقيقة لا مجازاً لاينكره مسلم .

ومما يدعو إلى التصريح بلفظ الحقيقة ، ونفى المجاز ، كثرة الجاهلين الزاعمين أن تلك الصفات لاحقائق لها ، وأنها كلها مجازات .

وجعلوا ذلك طريقا إلى نفيها ، لأن المجاز يجوز نفيه ، والحقيقة لا يجوز نفيها .

فقالوا مثلا : اليد مجاز يراد به القدرة والنعمة أو الجود ، فنفوا صفة اليد ، لأنها مجاز .

وقالوا على العرش استوى : مجاز فنفوا الاستواء ، لأنه مجاز .

وقالوا : معنى استوى : استولى ، وشبهوا استيلاءه باستيلاء بشر بن مروان على العراق .

ولو تدبروا كتاب الله ، لمنعهم ذلك من تبديل الاستواء بالاستيلاء ، وتبديل اليد بالقدرة ، أو النعمة ، لأن الله جل وعلا يقول فى محكم كتابه فى سورة البقرة (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) . ويقول فى الأعراف (فبدل الذين ظلموا

منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون) فالقول الذى قاله الله لهم ، هو قوله حطة ، وهى فعلة من الحط بمعنى الوضع خبر مبتدأ محذوف أى دعاؤنا ومسألتنا لك حطة لذنوبنا أى حط ووضع لها عنا فهى بمعنى طلب المغفرة ، وفى بعض روايات الحديث فى شأنهم أنهم بدلوا هذا القول بأن زادوا نونا فقط فقالوا حنطة وهى القمح .

وأهل التأويل قيل لهم على العرش استوى .

فزادوا لاما فقالوا استولى .

وهذه اللام التى زادوها أشبه شىء بالنون التى زادها اليهود فى قوله تعالى. (وقولوا حطة) . ويقول الله جل وعلا فى منع تبديل القرآن بغيره : (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

ولاشك أن من بدل استوى باستولى مثلا لم يتبع ما أوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

فعليه أن يجتنب التبديل ويخاف العذاب العظيم ، الذى خافه رسول الله صلى الله عليه وسلم لو عصا الله فبدل قرآنا بغيره المذكور فى قوله (إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

واليهود لم ينكروا أن اللفظ الذى قاله الله لهم : هو لفظ حطة ولكنهم حرفوه بالزيادة المذكورة .

وأهل هذه المقالة ، لم ينكروا أن كلمة القرآن هى استوى ، ولكن حرفوها وقالوا فى معناها استولى وإنما أبدلوها بها ، لأنها أصلح فى زعمهم من لفظ كلمة القرآن ، لأن كلمة القرآن توهم غير اللائق ، وكلمة استولى فى

زعمهم هى المنزهة اللائقة بالله مع أنه لا يعقل تشبيه أشنع من تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم، باستيلاء بشر على العراق .

وهل كان أحد يغالب الله على عرشه حتى غلبه على العرش، واستولى عليه ؟

وهل يوجد شيء إلا والله مستول عليه ، فالله مستول على كل شيء .

وهل يجوز أن يقال إنه تعالى استوى على كل شيء غير العرش ؟

فافهم .

وعلى كل حال ، فإن المؤول ، زعم أن الاستواء يوهم غير اللائق بالله لاستلزامه مشابهة استواء الخلق ، وجاء بدله بالاستيلاء ، لأنه هو اللائق به فى زعمه ، ولم ينتبه .

لأن تشبيه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشر بن مروان على العراق هو أفظع أنواع التشبيه ، وليس بلائق قطعاً ، إلا أنه يقول : إن الاستيلاء المزعوم منزه ، عن مشابهة استيلاء الخلق ، مع أنه ضرب له المثل باستيلاء بشر على العراق والله يقول (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

ونحن نقول : أيها المؤول هذا التأويل ، نحن نسألك إذا علمت أنه لا بد من تنزيه أحد اللفظين أعنى لفظ (استوى) الذى أنزل الله به الملك على النبى صلى الله عليه وسلم قرآنا يتلى ، كل حرف منه عشر حسنات ومن أنكر أنه من كتاب الله كفر .

ولفظة استولى التى جاء بها قوم من تلقاء أنفسهم من غير استناد إلى نص من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من السلف .

فأى الكلمتين أحق بالتنزيه فى رأيك . أ الأحق بالتنزيه كلمة القرآن ،

المنزلة من الله على رسوله ، أم كلمتكم التى جئتم بها ، من تلقاء أنفسكم ، من غير مستند أصلا ؟ .

ونحن لايخفى علينا الجواب الصحيح، عن هذا السؤال إن كنت لاتعرفه.

واعلم أنما ذكرنا من أن ماوصف الله به نفسه من الصفات، فهو موصوف به حقيقة لامجازا ، على الوجه اللائق بكماله وجلاله .

وأنه لافرق البتة بين صفة يشتق منها وصف ، كالسمع والبصر والحياة .

وبين صفة لايشتق منها كالوجه واليد .

وأن تأويل الصفات كتأويل الاستواء بالاستيلاء لايجوز ولايصح .

هو معتقد أبى الحسن الأشعرى رحمه الله .

وهو معتقد عامة السلف ، وهو الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فمن ادعى على أبى الحسن الأشعرى ، أنه يؤول صفة من الصفات ، كالوجه واليد والاستواء ، ونحو ذلك فقد افترى عليه افتراء عظيما .

بل الأشعرى رحمه الله مصرح فى كتبه العظيمة التى صنفها بعد رجوعه عن الاعتزال ، [كالموجز] ، [ومقالات الاسلاميين واختلاف المصلين] ، [والإبانة عن أصول الديانة] أن معتقده الذى يدين الله به هو ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان بكل ماوصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإثبات ذلك كله من غير كيف ولاتشبيه ولا تعطيل .

وأن ذلك لايصح تأويله ولا القول بالمجاز فيه .

وأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو مذهب المعتزلة ومن ضاهاهم .

وهو أعلم الناس بأقوال المعتزلة لأنه كان أعظم إمام فى مذهبهم ، قبل

أن يهديه الله إلى الحق ، وسنذكر لك هنا بعض نصوص أبي الحسن الأشعري رحمه الله لتعلم صحة ماذكرنا عنه .

قال رحمه الله [في كتاب الإبانة عن أصول الديانة] ، الذي قال غير واحد أنه آخر كتاب صنفه ، مانصه :

فإن قال لنا قائل:قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون قيل له .

قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها،التمسك بكتاب ربنا عزوجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وماروى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث.

ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون .

لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين وشك الشاكين . فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم ، وعلى جميع أئمة المسلمين .

وجملة قولنا : أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وماجاء من عند الله ، وماروا ه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لانرد من ذلك شيئاً .

وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، والساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

وأن الله استوى على عرشه كما قال(الرحمن على العرش استوى) وأن له

وجها كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . وأن له يدين بلا كيف كما قال (خلقت بيدى) وكما قال (بل يداه مبسوطتان)، وأن له عينان بلا كيف كما قال : (تجرى بأعيننا) اهـ . محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أن من يفترى على الأشعرى أنه من المؤولين المدعين أن ظاهر آيات الصفات وأحاديثها لا يليق بالله كاذب عليه كذبا شنيعاً .

وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى كتاب الإبانة أيضا فى إثبات الاستواء لله تعالى ما نصه :

إن قال قائل ما تقولون فى الاستواء ؟

قيل له نقول : إن الله عز وجل مستو على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) . وقد قال الله عز وجل : (إليه يصعد الكلم الطيب) وقد قال : (بل رفعه الله إليه) . قال عز وجل (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) . وقال حكاية عن فرعون : (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) .

فكذب فرعون نبى الله موسى عليه السلام فى قوله : (إن الله عز وجل فوق السماوات) . وقال عز وجل : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) .

فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات : قال (أأمنتم من فى السماء) لأنه مستو على العرش الذى فوق السماوات ، وكل ما علا فهو سماء ، فالعرش أعلى السماوات . هذا لفظ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله فى كتاب الإبانة المذكور .

وقد أطال رحمه الله فى الكلام بذكر الأدلة القرآنية ، فى إثبات صفة

الاستواء ، وصفة العلو لله جل وعلا .

ومن جملة كلامه المشار إليه ما نصه :

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن قول الله عزوجل (الرحمن على العرش استوى) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل فى كل مكان . وجحدوا أن يكون الله عز وجل على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا فى الاستواء إلى القدرة .

ولو كان هذا كما ذكروه كان لافرق بين العرش والأرض،فالله سبحانه قادر عليها وعلى الحشوش ، وعلى كل مافى العالم .

فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأفراد ، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها .

وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول :

إن الله عز وجل مستو على الحشوش والأخلية ،لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الإستيلاء الذى هو عام فى الأشياء كلها .

ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها .

وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله عز وجل فى كل مكان فلزمهم أنه فى بطن مريم وفى الحشوش والأخلية .

وهذا خلاف الدين ، تعالى الله عن قولهم . اهـ .

هذا لفظ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله فى آخر مصنفاته . وهو كتاب الإبانة عن أصول الديانة .

وتراه صرح رحمه الله بأن تأويل الإستواء بالإستيلاء هو قول المعتزلة والجهمية والحرورية لاقول أحد من أهل السنة وأقام البراهين الواضحة على بطلان ذلك .

فليعلم مؤولو الاستواء بالإستيلاء أن سلفه فى ذلك المعتزلة والجهمية والحرورية ، لا أبو الحسن الأشعرى رحمه الله ولا أحد من السلف .

وقد أوضحنا فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم) الآية. أن قول الجهمية ومن تبعهم: إن الله فى كل مكان قول باطل .

لأن جميع الأمكنة الموجودة ، أحقر وأقل وأصغر ، من أن يسع شيء منها خالق السماوات والأرض ، الذى هو أعظم وأكبر من كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، ولا يحيط به شيء .

فانظر إيضاح ذلك فى الأنعام .

واعلم أن مايزعمه كثير من الجهلة ، من أن مافى القرآن العظيم ، من صفة الاستواء والعلو والفوقية ، يستلزم الجهة ، وأن ذلك محال على الله ، وأنه يجب نفى الاستواء والعلو والفوقية ، وتأويلها بما لادليل عليه من المعانى كله باطل. وسببه سوء الظن بالله وبكتابه، وعلى كل حال فمدعى لزوم الجهة لظواهر نصوص القرآن العظيم . واستلزام ذلك للنقص الموجب للتأويل يقال له :

ما مرادك بالجهة ؟

إن كنت تريد بالجهة مكاناً موجوداً ، انحصر فيه الله ، فهذا ليس بظاهر القرآن ، ولم يقله أحد من المسلمين .

وإن كنت تريد بالجهة العدم المحض .

فالعدم عبارة عن لاشيء .

فميز أولا ، بين الشيء الموجود و بين لاشيء .

وقد قال أيضا أبو الحسن الأشعرى رحمه الله فى كتاب الإبانة أيضا ما نصه :

فإن سئلنا أتقولون إن لله يدين ؟ قيل نقول ذلك ، وقد دل عليه قوله عز وجل : (يد الله فوق أيديهم) . وقوله عز وجل : (لما خلقت بيدى).

وأطال رحمه الله ، الكلام فى ذكر الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفة اليدين لله .

ومن جملة ما قال ما نصه :

ويقال لهم : لم أنكرتم أن يكون الله عز وجل عنى بقوله : (يدى) يدين ليستا نعمتين .

فإن قالوا : لأن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة .

قيل لهم : ولم قضيتم أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة ؟

فإن رجوعنا إلى شاهدنا ، وإلى مانجده فيما بيننا من الخلق ؟

فقالوا : اليد إذا لم تكن نعمة فى الشاهد لم تكن إلا جارحة .

قيل لهم : إن عملتم على الشاهد وقضيتم به على الله عز وجل فكذلك لم نجد حيا من الخلق ، إلا جسما لحما ودما ، فاقضوا بذلك على الله عز وجل .

وإلافأنتم لقولكم متأولون ولاعتلالكم ناقضون .

وإن أثبتم حياً لا كالأحياء منا .

فلم أنكرتم أن تكون اليدان اللتان أخبر الله عز وجل عنهما ، يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا كالأيدى ؟

وكذلك يقال لهم:

لم تجدوا مدبراً حكيما إلا إنسانا ، ثم أثبتم أن للدنيا مدبرا حكيما ، ليس كالإنسان ، وخالفتم الشاهد ونقضتم اعتلالكم .

فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ، من أجل أن ذلك خلاف الشاهد اهـ . محل الغرض منه بلفظه .

وبه تعلم أن الأشعرى رحمه الله ، يعتقد أن الصفات التى أنكرها المؤولون كصفة اليد ، من جملة صفات المعانى كالحياة ونحوها، وأنه لافرق البتة بين صفة اليدوصفة الحياة فما اتصف الله به من جميع ذلك فهو منزه عن مشابهة ما اتصف به الخلق منه .

واللازم لمن شبه فى بعض الصفات ونزه فى بعضها أن يشبه فى جميعها أو ينزه فى جميعها ، كما قاله الأشعرى .

أما ادعاء ظهور التشبيه فى بعضها دون بعض، فلا وجه له بحال من الأحوال، لأن الموصوف بها واحد ، وهو منزه عن مشابهة صفات خلقه .

ومن جملة كلام أبى الحسن الأشعرى رحمه الله المشار إليها آنفا فى إثبات الصفات ما نصه :

فإن قال قائل : لم أنكرتم أن يكون قوله : (مما عملت أيدينا) وقوله (لما خلقت بيدى) على المجاز ؟

قيل له : حكم كلام الله عز وجل أن يكون على ظاهره وحقيقته ولا يخرج الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا لحجة .

ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم فإذا ورد بلفظ العموم ، والمراد به الخصوص ، فليس هو على حقيقة الظاهر ؟

وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة ؟

كذلك قول الله عز وجل (لما خلقت بيدى) على ظاهره وحقيقته من إثبات اليدين ، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة .

ولو جاز ذلك لجاز لمدع أن يدعى أن ماظاهره العموم، فهو على الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة .

وإذا لم يجز هذا لمدعيه بغير برهان ، لم يجز لكم ما ادعيتموه ، أنه مجاز بغير حجة .

بل واجب أن يكون قوله (لما خلقت بيدى) إثبات يدين لله تعالى فى الحقيقة غير نعمتين إذا كانت النعمتان لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول قائلهم: فعلت بيدى وهو يعنى النعمتين . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

وفيه تصريح أبى الحسن الأشعرى رحمه الله ، بأن صفات الله كصفة اليد ثابتة له حقيقة لا مجازاً ، وأن المدعين أنها مجاز هم خصومه وهو خصمهم كما ترى .

وإنما قال رحمه الله : إنه تعالى متصف بها حقيقة لا مجازا، لأنه لا يشك فى أن ظاهر صفة الله هو مخالفة صفة الخلق ، وتنزيهها عن مشابهتها كما هو شأن السلف الصالح كلهم .

فإثبات الحقيقة ونفى المجاز فى صفات الله هو اعتقاد كل مسلم طاهر القلب من أقذار التشبيه ، لأنه لا يسبق إلى ذهنه من اللفظ الدال على الصفة كصفة اليد والوجه إلا أنها صفة كمال منزهة عن مشابهة صفات الخلق .

فلا يخطر فى ذهنه التشبيه الذى هو سبب نفى الصفة وتأويلها بمعنى لا أصل له.

تنبيه مهم

فإن قيل دل الكتاب والسنة وإجماع السلف على أن الله وصف نفسه بصفة اليدين كقوله تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) . وقوله تعالى : (بل يداه مبسوطتان) وقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) الآية

والأحاديث الدالة على مثل مادلت عليه الآيات المذكورة كثيرة ، كما هو معلوم ، وأجمع المسلمون على أنه جل وعلا ، لا يجوز أن يوصف بصفة الأيدى مع أنه تعالى قال (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون)، فلم أجمع المسلمون على تقديم آية لما خلقت بيدى على آية مما عملت أيدينا ؟

فالجواب : أنه لا خلاف بين أهل اللسان العربى ولا بين المسلمين أن صيغ الجموع تأتى لمعنيين أحدهما إرادة التعظيم فقط ، فلا يدخل فى صيغة الجمع تعدد أصلا ، لأن صيغة الجمع المراد بها التعظيم ، إنما يراد بها واحد .

والثانى أن يراد بصيغة الجمع معنى الجمع المعروف ، وإذا علمت ذلك ، فاعلم أن القرآن العظيم . يكثر فيه جدا إطلاق الله جل وعلا ، على نفسه صيغة الجمع ، يريد بذلك تعظيم نفسه ، ولا يريد بذلك تعددا ولا أن معه غيره ،

سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا ، كقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

فصيغة الجمع فى قوله : (إنا) وفى قوله : (نحن) وفى قوله : (نزلنا) وقوله : (حافظون) لا يراد بها أن معه منزلا للذكر ، وحافظاً له غيره تعالى .

بل هو وحده المنزل له والحافظ له ، و كذلك قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) وقوله (أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) . وقوله : (أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) ، ونحو هذا كثير فى القرآن جدا ، وبه تعلم أن صيغة الجمع فى قوله : (أنا) . وفى قوله : (خلقنا) وفى قوله :(عملت أيدينا) إنما يراد بها التعظيم ، ولا يراد بها التعدد أصلا .

وإذا كان يراد بها التعظيم ، لا التعدد علم بذلك أنها لا تصح بها معارضة قوله : (لما خلقت بيدى) ، لأنها دلت على صفة اليدين ، والجمع فى قوله : (أيدينا) لمجرد التعظيم .

وما كان كذلك لا يدل على التعدد فيطلب الدليل من غيره ، فإن دل على أن المراد بالتعظيم واحد حكم بذلك ، كالآيات المتقدمة .

وإن دل على معنى آخر حكم به .

فقوله مثلا : (وإنا له لحافظون) قام فيه البرهان القطعى أنه حافظ واحد، وكذلك قوله : (أم نحن الخالقون) ، (أم نحن المنزلون) ، (أم نحن المنشئون) فإنه قد قام فى كل ذلك البرهان القطعى على أنه خالق واحد ، ومنزل واحد ، ومنشىء واحد .

وأما قوله : (مما عملت أيدينا) فقد دل البرهان القطعى ، على أن الله

موصوف بصفة اليدين كما صرح به فى قوله : (لما خلقت بيدى) كما تقدم إيضاحه قريباً .

وقد علمت أن صيغة الجمع فى قوله . (لحافظون) ، وقوله : (أم نحن الخالقون) وقوله : (أم نحن المنزلون) وقوله : (أم نحن المنشئون) وقوله : (خلقنا لهم مما عملت أيدينا) لا يراد بشىء منه معنى الجمع ، وإنما يراد به التعظيم فقط .

وقد أجاب أبو الحسن الأشعرى رحمه الله فى كتاب الإبانة بما يقرب من هذا فى المعنى .

واعلم أن لفظ اليدين ، قد يستعمل فى اللغة العربية استعمالا خاصا ، بلفظ خاص لا تقصد به فى ذلك النعمة ولا الجارحة ولا القدرة ، وإنما يراد به معنى أمام .

واللفظ المختص بهذا المعنى هو لفظة اليدين التى أضيفت إليها لفظة بين خاصة ، أعنى لفظة بين يديه ، فإن المراد بهذه اللفظة أمامه . وهو استعمال عربى معروف مشهور فى لغة العرب لا يقصد فيه معنى الجارحة ولا النعمة ولا القدرة ، ولا أى صفة كائنة ما كانت .

وإنما يراد به أمام فقط كقوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى ولا بالذى كان أمامه سابقا عليه من الكتب .

وكقوله : (مصدقا لما بين يديه من التوراة) أى مصدقا لما كان أمامه متقدما عليه من التوراة .

وكقوله : (فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) ، فالمراد بلفظ ما بين أيديهم ما أمامهم .

وكقوله تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته) ، أى يرسل الرياح مبشرات أمام رحمته التى هى المطر ، إلى غير ذلك من الآيات .

ومما يوضح لك ذلك أنه لا يمكن تأويل اليدين فى ذلك بنعمتين ولا قدرتين ولا جارحتين . ولا غير ذلك من الصفات ، فهذا أسلوب خاص دال على معنى خاص . بلفظ خاص مشهور ، فى كلام العرب فلا صلة له باللفظ الدال على الجارحة ، بالنسبة إلى الإنسان ولا باللفظ الدال على صفة الكمال والجلال الثابتة لله تعالى . فافهم .

وقال أبو الحسن الأشعرى رحمه الله فى كتابه : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، الذى ذكر فيه أقوال جميع أهل الأهواء والبدع والمؤولين والنافين لصفات الله أو بعضها ما نصه :

جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يردون من ذلك شيئاً .

وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله سبحانه على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى) وأن له يدين بلا كيف كما قال : (خلقت بيدى) . وكما قال : (بل يداه مبسوطتان) إلى أن قال فى كلامه هذا ، بعد أن سرد مذهب أهل السنة والجماعة . ما نصه :

فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه

نستعين ، وعليه نتوكل وإليه المصير ، هذا لفظ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله فى كتاب المقالات المذكور .

وبه تعلم أنه يؤمن بكل ماجاء عن الله فى كتابه وماثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم لايرد من ذلك شيئاً ولا ينفيه بل يؤمن به ويثبته لله ، بلا كيف ولا تشبيه ، كما هو مذهب أهل السنة . وقال أبو الحسن الأشعرى أيضاً فى كتاب المقالات المذكور ما نصه :

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش كما قال عز وجل : (الرحمن على العرش استوى) ولا نقدم بين يدى الله فى القول بل نقول : استوى بلا كيف ، ثم أطال الكلام رحمه الله ، فى إثبات الصفات كما قدمنا عنه ، ثم قال مانصه وقالت المعتزلة : إن الله استوى على عرشه بمعنى استولى . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

فتراه صرح فى كتاب المقالات المذكور ، بأن تأويل الاستواء بالإستيلاء ، هو قول المعتزلة لا قوله هو ، ولا قول أحد من أهل السنة .

وزاد فى كتاب الإبانة مع المعتزلة الجهمية والحرورية كما قدمنا .

وبكل ماذكرنا تعلم أن الأشعرى رجع عن الاعتزال إلى مذهب السلف فى آيات الصفات وأحاديثها .

وقد قدمنا إيضاح الحق فى آيات الصفات بالأدلة القرآنية بكثرة فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) الآية .

واعلم أن أئمة القائلين بالتأويل ، رجعوا قبل موتهم عنه ، لأنه مذهب غير مأمون العاقبة ، لأن مبناه على ادعاء أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، لا تليق بالله لظهورها وتبادرها فى مشابهة صفات الخلق .

ثم نفى تلك الصفات الواردة فى الآيات والأحاديث ، لأجل تلك الدعوى الكاذبة المشئومة ، ثم تأويلها بأشياء أخر ، دون مستند من كتاب أو سنة ، أو قول صحابى أو أحد من السلف .

وكل مذهب هذه حاله ، فإنه جدير بالعاقل المفكر أن يرجع عنه إلى مذهب السلف .

وقد أشار تعالى فى سورة الفرقان أن وصف الله بالاستواء صادر عن خبير بالله ، وبصفاته عالم بما يليق به ، وبما لا يليق وذلك فى قوله تعالى . (الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) .

فتأمل قوله : فاسأل به خبيرا ، بعد قوله : ثم استوى على العرش الرحمن ، تعلم أن من وصف الرحمن بالاستواء على العرش خبير بالرحمن وبصفاته لا يخفى عليه اللائق من الصفات وغير اللائق .

فالذى نبأنا بأنه استوى على عرشه هو العليم الخبير الذى هو الرحمن .

وقد قال تعالى : (ولا ينبئك مثل خبير) .

وبذلك تعلم أن من يدعى أن الاستواء يستلزم التشبيه ، وأنه غير لائق غير خبير ، نعم والله هو غير خبير .

وسنذكر هنا إن شاء الله أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات .

أما كبيرهم الذى هو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى أبى الحسن الأشعرى ، وهو القاضى محمد بن الطيب المعروف بأبى بكر الباقلانى ، فإنه كان يؤمن بالصفات على مذهب السلف ويمنع تأويلها منعاً باتاً ، ويقول فيها بمثل ما قدمنا عن الأشعرى .

وسنذكر لك هنا بعض كلامه .

قال الباقلانى المذكور فى كتاب التمهيد ما نصه :

باب فى أن لله وجهاً ويدين ، فإن قال قائل . فما الحجة فى أن لله عز وجل وجهاً ويدين ؟ قيل له قوله :

بقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

وقوله : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) ، فأثبت لنفسه وجها ويدين .

فإن قالوا : فما أنكرتم أن يكون المعنى فى قوله (خلقت بيدى) أنه خلقه بقدرته أو بنعمته ، لأن اليد فى اللغة قد تكون بمعنى النعمة ، وبمعنى القدرة ، كما يقال : لى عند فلان يد بيضاء ، يراد به نعمة .

وكما يقال : هذا الشىء فى يد فلان وتحت يد فلان ، يراد به أنه تحت قدرته وفى ملكه .

ويقال : رجل أيدٌ ، إذا كان قادراً .

وكما قال تعالى : (خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) يريد عملنا بقدرتنا. وقال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

فكذلك قوله : (خلقت بيدى) يعنى بقدرتى أو نعمتى .

يقال لهم هذا باطل لأن قوله : (بيدى) يقتضى إثبات يدين هما صفة له . فلو كان المراد بهما القدرة لوجب أن يكون له قدرتان .

وأنتم لا تزعمون أن للبارى سبحانه قدرة واحدة ، فكيف يجوز أن تثبتوا له قدرتين ؟

وقد أجمع المسلمون من مثبتى الصفات والنافين لها على أنه لايجوز أن يكون له تعالى قدرتان فبطل ما قالتم .

وكذلك لا يجوز أن يكون الله تعالى خلق آدم بنعمتين ، لأن نعم الله تعالى على آدم وعلى غيره لاتحصى .

ولأن القائل لا يجوز أن يقول : رفعت الشيء بيدى أو وضعته بيدى أو توليته بيدى وهو يعنى نعمته .

وكذلك لا يجوز أن يقال : لى عند فلان يدان يعنى نعمتين .

وإنما يقال لى عنده يدان بيضاوان ، لأن القول : يد ، لا يستعمل إلا فى اليد التى هى صفة الذات .

ويدل على فساد تأويلهم أيضاً أنه لو كان الأمر على ما قالوه لم يغفل عن ذلك إبليس ، وعن أن يقول وأى فضل لآدم علىّ يقتضى أن أسجد له ، وأنا أيضاً بيدك خلقتنى التى هى قدرتك وبنعمتك خلقتنى ؟

وفى العلم بأن الله تعالى فضل آدم عليه بخلقه بيديه ، دليل على فساد ما قالوه .

فإن قال قائل : فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة ؟ إذ كنتم لم تعقلوا يد صفة ووجه صفة لاجارحة .

يقال له : لايجب ذلك كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسما أن نقضى نحن وأنتم على الله تعالى بذلك .

وكما لا يجب متى كان قائماً بذاته أن يكون جوهراً أو جسما ، لأنا وإياكم لم نجد قائماً بنفسه فى شاهدنا إلا كذلك . اهـ . محل الغرض منه بلفظه .

وهو صريح فى أنه يرى أن صفة الوجه وصفة اليد وصفة العلم والحياة

والقدرة كلها من صفات المعانى ولا وجه للفرق بينها وجميع صفات الله مخالفة لجميع صفات خلقه .

وقال الباقلانى أيضاً فى كتاب التمهيد ما نصه :

فإن قالوا : فهل تقولون : إنه فى كل مكان ؟

قيل : معاذ الله بل هو مستو على العرش كما أخبر فى كتابه ، فقال : (الرحمن على العرش استوى) وقال تعالى :(إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) .

ولو كان فى كل مكان ، لكان فى جوف الإنسان ، وفمه وفى الحشوش والمواضع التى يرغب عن ذكرها ، تعالى عن ذلك ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذ خلق منها ما لم يكن خلقه ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان .

ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى وراء ظهورنا وعن أيماننا وشمائلنا .

وهذا ما قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله ، إلى أن قال رحمه الله: ولا يجوز أن يكون معنى استوائه على العرش هو استيلاؤه عليه كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

لأن الاستيلاء هو القدرة والقهر ، والله تعالى لم يزل قادراً قاهراً عزيزاً مقتدراً .

وقوله : (ثم استوى على العرش) يقتضى استفتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن ، فيبطل ما قالوه .

فإن قال قائل : ففصلوا لى صفات ذاته من صفات أفعاله ، لأعرف ذلك.

قيل له : صفات ذاته هى التى لم يزل ولا يزال موصوفاً بها .

وهى الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينان واليدان . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

وقد نقلناه من نسخة هى أجود نسخة موجودة لكتاب التمهيد للباقلانى المذكور .

وترى تصريحه فيها بأن صفة الوجه واليد من صفات المعانى كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ، كما هو قول أبى الحسن الأشعرى الذى قدمنا إيضاحه .

واعلم أن إمام الحرمين ، أبا المعالى الجوينى ، كان فى زمانه من أعظم أئمة القائلين بالتأويل ، وقد قرر التأويل وانتصر له فى كتابه الإرشاد .

ولكنه رجع عن ذلك فى رسالته العقيدة النظامية فإنه قال فيها :

اختلف مسالك العلماء ، فى الظواهر التى وردت فى الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق فحواها وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها .

فرأى بعضهم تأويلها ، والتزام هذا المنهج فى آى الكتاب وفيما صح من سنن النبى صلى الله عليه وسلم .

وذهب أئمة السلف إلى الإنكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه .

والذى نرتضيه رأيا وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السمعى القاطع فى ذلك ، أن إجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة .

وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام والمشتغلون بأعباء الشريعة .

وكانوا لا يألون جهداً فى ضبط قواعد الملة والتواصى بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها .

فلو كان تأويل هـذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة .

فإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق .

فعلى ذى الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ولا يخوض فى تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب .

ومما استحسن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سئل عن قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) ، فقال : الاستواء معلوم والـكيف مجهول والسؤال عنه بدعة .

فلتجر آية الاستواء والمجىء وقوله : (لما خلقت بيدى) ، (ويبقى وجه ربك) ، وقوله : (تجرى بأعيننا) ، وما صح عن الرسول عليه السلام كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا ، فهذا بيان ما يجب لله تعالى . اهـ . كلامه بلفظه من الرسالة النظامية المذكورة مع أن رجوع الجوينى فيها إلى أن الحق هو مذهب السلف أمر معلوم .

وكذلك أبو حامد الغزالى ، كان فى زمانه من أعظم القائلين بالتأويل ثم رجع عن ذلك ، وبين أن الحق الذى لاشك فيه هو مذهب السلف .

وقال فى كتابه : إلجام العوام عن علم الـكلام :

اعلم أن الحق الصريح الذى لامراء فيه عند أهل البصائر ، هو مذهب السلف أعنى الصحابة والتابعين ، ثم قال : إن البرهان الكلى على أن الحق فى مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل .

ثم بين أن الأول من تلك الأصول المذكورة أن النبى صلى الله عليه وسلم هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد فى دينهم ودنياهم .

الأصل الثانى : أنه بلغ كلما أوحى إليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم ، ولم يكتم منه شيئاً .

الأصل الثالث : أن أعرف الناس بمعانى كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لازموه وحضروا التنزيل وعرفوا التأويل .

والأصل الرابع : أن الصحابة رضى الله عنهم فى طول عصرهم إلى آخر أعمارهم مادعوا الخلق إلى التأويل ، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ليلا ونهاراً ودعوا إليه أولادهم وأهلهم .

ثم قال الغزالى : وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه . اهـ . باختصار .

ولاشك أن استدلال الغزالى هذا لأن مذهب السلف هو الحق استدلال لاشك فى صحته ، ووضوح وجه الدليل فيه ، وأن التأويل لو كان سائغاً أو لازماً لبين النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولقال به أصحابه وتابعوهم كما لايخفى .

وذكر غير واحد عن الغزالى : أنه رجع فى آخر حياته إلى تلاوة كتاب الله وحفظ الأحاديث الصحيحة والاعتراف بأن الحق هو ما فى كتاب الله وسنة رسوله .

وذكر بعضهم أنه مات وعلى صدره صحيح البخارى رحمه الله .

واعلم أيضاً أن الفخر الرازى الذى كان فى زمانه أعظم أئمة التأويل رجع عن ذلك المذهب إلى مذهب السلف معترفاً بأن طريق الحق هى اتباع القرآن فى صفات الله .

وقد قال فى ذلك فى كتابه : أقسام اللذات .

لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فلم أجدها تروى غليلا ولا تشفى عليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ فى الإثبات : (الرحمن على العرش استوى) ، (إليه يصعد الكلم الطيب) ، وفى النفى : (ليس كمثله شىء) ، (هل تعلم له سميا) ، ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى . اه

وقد بين هذا المعنى فى أبياته المشهورة التى يقول فيها :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

إلى آخر الأبيات .

وكذلك غالب أكابر الذين كانوا يخوضون فى الفلسفة والكلام ، فإنه ينتهى بهم أمرهم إلى الحيرة وعدم الثقة بما كانوا يقررون .

وقد ذكر عن الحفيد ابن رشد وهو من أعلم الناس بالفلسفة أنه قال :

ومن الذى قال فى الإلهيات شيئاً يعتد به ؟

وذكروا عن الشهرستانى أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم ،

وقد قال فى ذلك :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

وأمثال هذا كثيرة .

فيا أيها المعاصرون المتعصبون لدعوى أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها خبيث لا يليق بالله لاستلزامه التشبيه بصفات الخلق ، وأنها يجب نفيها وتأويلها بمعان ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه ولا من التابعين .

فمن هو سلفكم فى هذه الدعوى الباطلة المخالفة لإجماع السلف ؟

إن كنتم تزعمون أن الأشعرى يقول مثل قولكم ، وأنه سلفكم فى ذلك فهو برىء منكم ومن دعواكم .

وهو مصرح فى كتبه التى صنفها بعد الرجوع عن الاعتزال أن القائلين بالتأويل هم المعتزلة ، وهم خصومه وهو خصمهم ، كما أوضحنا كلامه فى الإباحة والمقالات .

وقد بينا أن أساطين القول بالتأويل قد اعترفوا بأن التأويل لا مستند له ، وأن الحق هو اتباع مذهب السلف كما أوضحنا ذلك عن أبى بكر الباقلانى ، وأبى المعالى الجوينى ، وأبى حامد الغزالى ، وأبى عبد الله الفخر الرازى ، وغيرهم ممن ذكرنا .

فنوصيكم وأنفسنا بتقوى الله وألا تجادلوا فى آيات الله بغير سلطان أتاكم ، والله جل وعلا يقول فى كتابه : (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) .

ويقول تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) .

المسألة الثانية فى الكلام على الاجتهاد

اعلم أولا أنا قدمنا بطلان قول الظاهرية بمنع الاجتهاد مطلقاً ، وأن من الاجتهاد ما هو صحيح موافق للشرع الكريم ، وبسطنا أدلة ذلك بإيضاح فى سورة الأنبياء فى الكلام على قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) الآية .

وبينا طرفاً منه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تقف ماليس لك به علم) فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وغرضنا فى هذه المسألة هو أن نبين أن تدبر القرآن وانتفاع متدبره بالعمل بما علم منه الذي دل عليه قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها التى هى قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، لا يتوقف على تحصيل الاجتهاد المطلق بشروطه المعروفة عند متأخرى الأصوليين .

اعلم أولا : أن المتأخرين من أهل الأصول الذين يقولون بمنع العمل بالكتاب والسنة مطلقاً إلا للمجتهدين ، يقولون :

إن شروط الاجتهاد هى كون المجتهد بالغاً ، عاقلا شديد الفهم .

طبعا عارفا بالدليل العقلى ، الذى هو استصحاب العدم الأصلى ، حتى يرد نقل صارف عنه .

عارفاً باللغة العربية . وبالنحو من صرف وبلاغة مع معرفة الحقائق الشرعية والعرفية .

وبعضهم يزيد المحتاج إليه من فن المنطق كشرائط الحدود ، والرسوم ، وشرائط البرهان .

عارفاً بالأصول ، عارفاً بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة .

ولا يشترط عندهم حفظ النصوص ، بل يكفى عندهم علمه بمداركها فى المصحف وكتب الحديث .

عارفاً بمواقع الإجماع والخلاف .

عارفاً بشروط المتواتر ، والآحاد والصحيح والضعيف .

عارفاً بالناسخ والمنسوخ .

عارفاً بأسباب النزول .

عارفاً بأحوال الصحابة وأحوال رواة الحديث ، اختلفوا فى شرط عدم إنكاره للقياس . اهـ .

ولا يخفى أن مستندهم فى اشتراطهم لهذه الشروط ليس نصاً من كتاب ولا سنة يصرح بأن هذه الشروط كلها لا يصح دونها عمل بكتاب ولاسنة ، ولا إجماعاً دالا على ذلك .

وإنما مستندهم فى ذلك هو تحقيق المناط فى ظنهم .

وإيضاح ذلك هو أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين كلها دال على أن العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا يشترط له إلا شرط واحد ، وهو العلم بحكم ما يعمل به منهما .

ولا يشترط فى العمل بالوحى شرط زائد على العلم بحكمه البتة .

وهذا مما لا يكاد ينازع فيه أحد .

ومراد متأخرى الأصوليين بجميع الشروط التى اشترطوها هو تحقيق المناط.

لأن العلم بالوحى لما كان هو مناط العمل به أرادوا أن يحققوا هذا المناط ، أى يبينوا الطرق التى يتحقق بها حصول العلم الذى هو مناط العمل .

فاشترطوا جميع الشروط المذكورة ، ظناً منهم أنه لا يمكن تحقيق حصول العلم بالوحى دونها .

وهذا الظن فيه نظر .

لأن كل إنسان له فهم إذا أراد العمل بنص من كتاب أو سنة فلا يمتنع عليه ، ولا يستحيل أن يتعلم معناه ويبحث عنه هل هو منسوخ أو مخصص أو مقيد حتى يعلم ذلك فيعمل به .

وسؤال أهل العلم : هل لهذا النص ناسخ أو مخصص أو مقيد مثلا . وإخبارهم بذلك ليس من نوع التقليد ، بل هو من نوع الاتباع .

وسنبين إن شاء الله الفرق بين التقليد والاتباع فى مسألة التقليد الآتية .

والحاصل أن نصوص الكتاب والسنة التى لا تحصى واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وليس فى شىء منها التخصيص بمن حصل شروط الاجتهاد المذكورة .

وسنذكر طرفاً منها لنبين أنه لا يجوز تخصيصها بتحصيل الشروط المذكورة .

قال الله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) ، والمراد بما أنزل إليكم هو القرآن والسنة المبينة له لا آراء الرجال .

وقال تعالى : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا .

فدلت هذه الآية الكريمة أن من دعى إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك ، أنه من جملة المنافقين ، لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقال تعالى : (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) الآية ، والرد إلى الله والرسول هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول بعد وفاته صلى الله عليه وسلم هو الرد إلى سنته .

وتعليقه الإيمان فى قوله : (إن كنتم تؤمنون بالله) على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، يفهم منه أن من يرد التنازع إلى غيرهما لم يكن يؤمن بالله .

وقال تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) .

ولاشك أن القرآن أحسن ما أنزل إلينا من ربنا ، والسنة مبينة له ، وقد هدد من لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا بقوله : (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) .

وقال تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) ، ولاشك أن كتاب الله وسنة رسوله أحسن من آراء الرجال .

وقال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وقوله : (إن الله شديد العقاب) فيه تهديد شديد

لمن لم يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما إن كان يظن أن أقوال الرجال تكفى عنها .

وقال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) ، والأسوة : الاقتداء .

فيلزم المسلم أن يجعل قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك باتباع سنته .

وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ؛ ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ، وقد أقسم تعالى فى هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما اختلفوا فيه .

وقال تعالى : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين) .

والاستجابة له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته هى الرجوع إلى سنته صلى الله عليه وسلم ، وهى مبينة لكتاب الله .

وقد جاء فى القرآن العظيم أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يتبع شيئاً إلا الوحى .

وأن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله .

قال تعالى فى سورة يونس : (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

وقال تعالى فى الأنعام (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى) .

وقال تعالى فى الأحقاف : (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين) .

وقال تعالى فى الأنبياء : (قل إنما أنذركم بالوحى) الآية ، فحصر الإنذار فى الوحى دون غيره .

وقال تعالى: (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) ، فبين أن الاهتداء إنما هو بالوحى والآيات بمثل هذا كثيرة .

وإذا علمت منها أن طريقه صلى الله عليه وسلم هى اتباع الوحى ، فاعلم أن القرآن دل على أن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فهو مطيع لله كما قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) الآية .

ولم يضمن الله لأحد ألا يكون ضالا فى الدنيا ولا شقياً فى الآخرة إلا لمتبعى الوحى وحده .

قال تعالى فى طه (فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) ، وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعى الوحى.

ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه ، وذلك فى قوله تعالى : (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعى الوحى، المصرح به فى القرآن ، لا يتحقق فيمن يقلد عالما ليس بمعصوم ، لا يدرى أصواب ما قلده فيه أم خطأ . فى حال كونه معرضا عن التدبر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذى قلده ، كافية مغنية ، عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والآيات القرآنية الدالة على لزوم اتباع الوحى ، والعمل به ، لا تكاد تحصى ، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على لزوم العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا تكاد تحصى ، لأن طاعة الرسول طاعة الله .

وقد قال تعالى :(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) ، وقال تعالى : (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) .

وقال تعالى : (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) .

وقال : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية .

وقال تعالى : (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما) .

وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) الآية .

وقال تعالى : (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) .

وقال تعالى: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) .

وقال تعالى : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) .

وقال تعالى : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين).

وقال : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون).

وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) .

وقال تعالى : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

وقال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الآية .

وقال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) الآية .

ولاشك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة فى هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحى ، محصورة فى العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فنصوص القرآن والسنة كلها داله على لزوم تدبر الوحى ، وتفهمه وتعلمه والعمل به .

فتخصيص تلك النصوص كلها ، بدعوى أن تدبر الوحى وتفهمه والعمل

به : لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين ، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند متأخرى الأصوليين ، يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه .

ولا دليل على ذلك البتة .

بل أدلة الكتاب والسنة ، دالة على وجوب تدبر الوحى ، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ماعلم منه ، علماً صحيحاً قليلا كان أو كثيراً .

وهذه المسألة الثانية يتداخل بعض الكلام فيها ، مع بعض الكلام ، فى المسألة الأولى . فهما شبه المسألة الواحدة .

المسألة الثالثة فى التقليد فى بيان معناه لغة واصطلاحا وأقسامه وبيان مايصح منها ومالا يصح

اعلم أن التقليد فى اللغة : هو جعل القلادة فى العنق .

وتقليد الولاة هو جعل الولايات قلائد فى أعناقهم .

ومنه قول لقيط الأيادى :

وقـــلدوا أمركم لله دركم * زحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

وأما التقليد فى اصطلاح الفقهاء : فهو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله .

والمراد بالمذهب هو مايصح فيه الاجتهاد خاصة .

ولا يصح الاجتهاد البتة فى شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة ،سالما من المعارض .

لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائناً من كان ، لا تسوغ مخالفتهما البتة لأحد كائناً من كان فيجب التفطن ، لأن المذهب الذى فيه التقليد يختص

بالأمور الاجتهادية ولا يتناول ماجاء فيه نص صحيح من الوحى سالم من المعارض.

قال الشيخ الحطاب فى شرحه لقول خليل فى مختصره : مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس ما نصه :

[والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب ، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية] اهـ . محل الغرض منه بلفظه.

فقوله : من الأحكام الاجتهادية تدل على أن اسم المذهب لم يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض .

وذلك أمر لا خلاف فيه لإجماع العلماء على أن المجتهد المطلق إذا أقام باجتهاده دليلا ، مخالفا لنص من كتاب أو سنة أو إجماع ، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف .

وأنه يرد بالقادح المسمى فى الأصول بفساد الاعتبار .

وفساد الاعتبار الذى هو مخالفة الدليل لنص أو إجماع من القوادح التى لا نزاع فى إبطال الدليل بها . وإليه الإشارة بقول صاحب مراقى السعود فى فى القوادح :

والخلف للنص أو إجماع دعا فسادا لاعتبار كل من وعى

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصلا ولا تقليد أصلا فى شىء يخالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس من المتأخرين أجاز التقليد ، ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحى ، كما ذكرنا عن الصاوى وأضرابه .

وعليه أكثر المقلدين للمذاهب فى هذا الزمان وأزمان قبله .

وبعض العلماء منع التقليد مطلقا ، وممن ذهب إلى ذلك ابن خويز منداد

من المالكية ، والشوكانى فى القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد .

والتحقيق : أن التقليد منه ما هو جائز ، ومنه ماليس بجائز .

ومنه ما خالف فيه المتأخرون المتقدمين من الصحابة وغيرهم من القرون الثلاثة المفضلة.

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة .

أما التقليد الجائز الذى لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامى عالماً أهلا للفتيا فى نازلة نزلت به ، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ولاخلاف فيه .

فقد كان العامى ، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه .

وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابى الذى أفتاه أولا بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعمل بفتياه .

قال صاحب نشر البنود فى شرحه لقوله فى مراقى السعود :

رجوعه لغيره فى آخر يجوز للاجماع عند الأكثر

مانصه : يعنى أن العامى يجوز له عند الأكثر ، الرجوع إلى قول غير المجتهد الذى استفتاه أولا فى حكم آخر لإجماع الصحابة رضى الله عنهم ، على أنه يسوغ للعامى السؤال لكل عالم ، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها .

فكما لم يتعين الأول للاتباع فى المسألة الأولى إلا بعد سؤاله ، فكذلك فى المسألة الأخرى . قاله الحطاب شارح مختصر خليل .

قال القرافى : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر .

وأجمع الصحابة على أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما ، ويعمل بقولهم بغير نكير .

فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل . اهـ محل الغرض منه .

وما ذكره من انعقاد الإجماعين صحيح كما لا يخفى ، فالأقوال المخالفة لهما من متأخرى الأصوليين كلها مخالفة للاجماع .

وبعض العلماء يقول : إن تقليد العامى المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد .

والصواب : أن ذلك تقليد مشروع مجمع على مشروعيته .

وأما ماليس من التقليد بجائز بلا خلاف ؟ فهو تقليد المجتهد الذى ظهر له الحكم باجتهاده ، مجتهداً آخر يرى خلاف ما ظهر له هو ، الاجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لا يجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه .

وأما نوع التقليد الذى خالف فيه المتأخرون ، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير ، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره ، من جميع العلماء .

فإن هذا النوع من التقليد ، لم يرد به نص من كتاب ولا سنة ، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير .

وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله . فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره ، من جميع علماء المسلمين .

فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع ، ومن يدعى خلاف ذلك ،

فليعين لنا رجلا واحداً من القرون الثلاثة الأول ، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً ، لأنه لم يقع البتة .

وسنذكرهنا إن شاء الله جملا من كلام أهل العلم فى فساد هذا النوع من التقليد وحجج القائلين به ، ومناقشتها . وبعد إيضاح ذلك كله نبين ما يظهر لنا بالدليل أنه هو الحق والصواب إن شاء الله .

قال الإمام أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله ، فى كتابه جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ، ما نصه :

باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع .

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد فى غير موضع من كتابه ، فقال:(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

وروى عن حذيفة وغيره قالوا « لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم » .

وقال عدى بن حاتم : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عنقى الصليب فقال لى« ياعدى :ألق هذا الوثن من عنقك ، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال قلت يارسول الله : إنا لم نتخذهم أرباباً . قال بلى أليس يحلون لكم ماحرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه ؟ فقلت بلى فقال : تلك عبادتهم » .

حدثنا عبدالوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبى البخترى فى قوله عز وجل : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)أما إنهم مروهم ن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم ، فجعلوا

حلال الله حرامه ، وحرامه حلاله فأطاعوهم ، فكانت تلك الربوبية .

قال وحدثنا ابن وضاح ، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبى البخترى قال : قيل لحذيفة فى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) أكانوا يعبدونهم ؟ فقال لا ، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه .

وقال جل وعز : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) .

فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء ، فقالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون .

وفى هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) .

وقال : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) .

وقال عز وجل عائباً لأهل الكفر وذاماً لهم : (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) .

وقال (وقالوا ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) .

ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء .

وقد احتج العلماء بهذه الآيات ، فى إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها ، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر .

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد ، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب ، وقلد آخر فى مسألة دنياه فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة .

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً ، وإن اختلفت الآثام فيه .

وقال الله عز وجل : (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) .

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا فى الباب هـذا ، وفى ثبوته إبطال التقليد أيضاً .

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التى يجب التسليم لها ، وهى الكتاب والسنة أو ما كان فى معناهما بدليل جامع بين ذلك .

أخبرنا عبد الوارث ثم ساق السند إلى أن قال : حدثنا كثير بن عبدالله ابن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأخاف على أمتى من بعدى من أعمال ثلاثة ، قال وماهى يارسول الله ؟ قال : أخاف عليهم من زلة العالم ، ومن حكم جائر ، ومن هوى متبع » .

وبهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله » . هـذا لفظ أبى عمر فى جامعه .

وكثير بن عبد الله المذكور فى الإسناد ضعيف ، وأبوه عبدالله مقبول .

ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح .

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر فى جامعه بإسناده عن زياد بن حدير عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ثلاث يهدم من الدين : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وأئمة مضلون .

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدى عن جعفر بن حبان ، عن الحسن قال : قال أبو الدرداء : إن فيما أخشى عليكم زلة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريق .

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه كان يقول فى مجلسه كل يوم ، قلما يخطئه أن يقول ذلك « الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتنا يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق ، والمرأة والصبى والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول : قد قرأت القرآن ، فما أظن أن يتبعونى حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإن كل بدعة ضلالة ، وإياكم وزيغة الحكيم » إلى آخر ما ذكره رحمه الله من الآثار الدالة على نحو ما تقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة .

وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيزل فيه فيتقول على الله أن تلك الزلة التى قلد فيها العالم من دين الله ، وأنها مما أمر الله بها ورسوله ، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبد البر .

ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة .

ثم قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه ما نصه :

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة ، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير .

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطىء ، لم يجز لأحد أن يفتى ويدين بقول لا يعرف وجهه .

حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال : عن ابن مسعود أنه كان يقول : « اغد عالما أو متعلما ولا تغد إمعة » فيما بين ذلك .

ثم ساق الروايات فى تفسيرهم الإمعة .

ومعنى الإمعة معروف .

قال الجوهرى فى صحاحه : يقال الإمع والإمعة أيضاً للذى يكون لضعف رأيه مع كل أحد ، ومنه قول ابن مسعود : لا يكونن أحدكم إمعة . اهـ منه .

ولقد أصاب من قال :

شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

وذكر ابن عبد البر بإسناده عن ابن مسعود فى تفسير الإمعة أنه قال .

كنا ندعو الإمعة فى الجاهلية الذى يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره ، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال .

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

ويل للأتباع من عثرات العالم ، قيل كيف ذلك ؟ قال : يقول العالم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ذلك ثم تمضى الأتباع .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد النخعى ، وهو حديث مشهور عند أهل العلم ، يسنغني عن الإسناد لشهرته عندهم :

يا كميل إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق ، إلى آخر الحديث .

وفيه : أفّ لحامل حق لا يصيره له ، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ، لا يدرى أين الحق ، إن قال أخطأ وإن أخطأ لم يدر ، مشغوف بما لا يدرى حقيقته ، فهو فتنة لمن افتتن به ، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه ، وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف دينه .

ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره على رضى الله عنه فى هذا الحديث ، لأنه لا يدرى عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الفلانى عمل بهذا.

فعلمه محصور فى أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولا يدرى أمصيب هو فيه أم مخطىء .

ومثل هذا لم يستضىء بنور العلم ولم يلجأ إلى ركن وثيق لجواز الخطأ على متبوعه ، وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب .

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال :

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلا إن آمن آمن وإن كفر كفر ، فإنه لا أسوة فى الشر .

وقال فى جامعه أيضاً رحمه الله : وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه فى كتابنا هذا أنه قال : « تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالا يسألون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون » .

وهذا كله نفى للتقليد ، وإبطال له لمن فهمه وهدى لرشده .

ثم ذكر رحمه الله آثاراً نحو ما تقدم ثم قال :

وقال : عبيد الله بن المعتمر : لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد .

وهذا كله لغير العامة ، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها .

لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك ، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها .

وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة . والله أعلم .

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المرادون بقول الله عز وجل : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بتميزه فى القبلة إذا أشكلت عليه .

فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد من تقليد عالمه ، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا .

وذلك والله أعلم لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحريم والتحليل ، والقول فى العلم .

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال علىّ مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار ، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه ، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها على من أفتاه » .

ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه . اهـ .

ولا شك أن المقلد أعمى عما يفتى به لأن علمه به محصور فى أن فلانا قاله مع علمه بأن فلانا ليس بمعصوم من الخطأ والزلل .

ثم قال أبو عمر رحمه الله : وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه .

قالوا : والمقلد لا علم له . ولم يختلفوا فى ذلك إلى أن قال رحمه الله ، وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصرى المالكى :

التقليد معناه فى الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه .

وذلك ممنوع منه فى الشريعة .

والاتباع ما ثبت عليه حجة .

وقال فى موضع آخر من كتابه : كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده .

والتقليد فى دين الله غير صحيح . .

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه .

والاتباع فى الدين مسوغ والتقليد ممنوع .

وقال أبو عمر فى آخر كلامه فى هذا الباب ما نصه :

ولا خلاف بين أئمة الأمصار فى فساد التقليد فأغنى ذلك عن الإكثار .

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله ، فى كلامه عن التقليد ما نصه :

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم .

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزنى رحمه الله ، وأنا أورده قال :

يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به ؟

فإن قال : نعم ، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد .

وإن قال : حكمت به بغير حجة .

قيل له : فلم أرقت الدماء ، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال ، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة ؟

قال الله عز وجل (إن عندكم من سلطان بهذا) أى من حجة بهذا ؟

فإن قال : أنا أعلم أنى قد أصبت وإن لم أعرف الحجة ، لأنى قلدت كبيراً من العلماء وهو لا يقول إلا بحجة خفيت على .

قيل له : إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك ، فتقليد معلم معلمك أولى .

لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك : كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك .

فإن قال : نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه .

وكذلك من هو أعلا حتى ينتهى الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن أبى ذلك نقض قوله .

وقيل له : كيف تجوز تقليد من هو أصغر ، وأقل علما ؟

ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علما ، وهذا تناقض ؟

فإن قال لأن معلمى وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه ، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك .

قيل له : كذلك من تعلم من معلمك ، فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه ، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك .

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك . لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك .

فإن قلد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء ، أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه فى قياس قوله . والأعلى للأدنى أبداً .

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً اه .

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه :

يقال لمن قال بالتقليد : لم قلت به ، وخالفت السلف فى ذلك فإنهم لم يقلدوا ؟

فإن قال : قلدت لأن كتاب الله لاعلم لى بتأويله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم أحصها .

والذى قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى .

قيل له : أما العلماء ، إذا أجمعوا على شىء من تأويل الكتاب أوحكاية عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو اجتمع رأيهم على شىء فهو الحق لاشك فيه .

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض .

فما حجتك فى تقليد بعضهم دون بعض .

وكلهم عالم ، والعالم الذى رغبت عن قوله ، أعلم من الذى ذهبت إلى مذهبه .

فإن قال : قلدته لأنى أعلم أنه صواب .

قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع ؟

فإن قال نعم . أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل .

وإن قال : قلدته لأنه أعلم منى .

قيل له : فقلد كل من هو أعلم منك .

فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولا تخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك .

فإن قال : قلدته لأنه أعلم الناس .

قيل له : فإنه إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً .

فإن قال : أنا أقلد بعض الصحابة .

قيل له : فما حجتك فى ترك من لم تقلد منهم ، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله ؟

على أن القول لا يصح لفضل قائله ، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه .

وقد ذكر ابن مزين عن عيسى بن دينار ، عن ابن القاسم عن مالك ، قال : ليس كل ماقال رجل قولا وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عز وجل: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) . فإن قال قصرى وقلة علمى يحملنى على التقليد .

قيل له : أما من قلد فيما ينزل ؛ من أحكام شريعته عالما يتفق له على علمه، فيصدر فى ذلك عما يخبره فمعذور ، لأنه قد أدى ما عليه وأدى مالزمه فيما نزل به لجهله ولا بدله من تقليد عالم ، فيما جهله ، لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره فى القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك .

ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله؟ فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك ويصيرها

إلى غير من كانت فى يديه بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل عليه ؟ .

وهو مقر أن قائله يخطىء ويصيب ، وأن مخالفه فى ذلك ربما كان المصيب، بما خالفه فيه .

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع ، لزمه أن يجيزه للعامة .

وكفى بهذا جهلا ، ورداً للقرآن قال الله تعالى : (ولا تقف ماليس لك به علم) . وقال : (أتقولون على الله مالا تعلمون) .

وقد أجمع العلماء على أن مالم يتبين ويتيقن فليس بعلم ، وإنما هو ظن، والظن لا يغنى من الحق شيئاً اهـ . كله من جامع ابن عبد البر رحمه الله .

واعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر فى قولهم : نحن معاشر المقلدين ممتثلون قول الله تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

فأمر سبحانه من لاعلم له أن يسأل من هو أعلم منه ، وهذا نص قولنا .

وقد أرشد النبى صلى الله عليه وسلم من لا يعلم إلى سؤال من يعلم، فقال فى حديث صاحب الشجة: (ألا سألوا إذا لم يعلموا ، إنما شفاء العيى السؤال).

وقال أبو العسيف : الذى زنى بامرأة مستأجرة :

« وإنى سألت أهل العلم فأخبرونى أن ما على ابنى جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه » :

وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر .

فروى شعبة عن عاصم الأحول ، عن الشعبى أن أبا بكر قال فى الكلالة: أقضى فيها فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ،

والله منه برىء : هو ما دون الولد والوالد ، فقال عمر بن الخطاب إننى لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر .

وصح عنه أنه قال له :

رأينا لرأيك تبع ، وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر .

وقال الشعبي عن مسروق : كان ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتون الناس ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلى وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو موسى .

وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة .

كان عبد الله يدع قوله لقول عمر ، وكان أبو موسى يدع قوله لقول على ، وكان زيد يدع قوله لقول أبى بن كعب .

وقال جندب : ما كنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن معاذا قد سنّ لكم سنة فكذلك فافعلوا » فى شأن الصلاة حيث أخر فصلى ما فاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولا ثم يدخلون مع الإمام .

قال المقلدة :

وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمراء ، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به .

فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم .

وقال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين تبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

وتقليدهم اتباع لهم ففاعله ممن رضى الله عنهم ، ويكفى ذلك الحديث المشهور. « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وقال عبدالله بن مسعود : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

وقال : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » « واهتدوا بهدى عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد » .

وقد كتب عمر إلى شريح : أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يكن فى سنة رسول الله فاقض بما قضى به الصالحون .

وقد منع عمر عن بيع أمهات الأولاد وتبعه الصحابة .

وألزم بالطلاق الثلاث فتبعوه أيضاً .

واحتلم مرة ، فقال له عمرو بن العاص: خذ ثوباً غير ثوبك فقال لو فعلتها صارت سنة .

وقال أبى بن كعب وغيره من الصحابة : ما استبان لك فاعمل به ، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه .

وقد كان الصحابة يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى بين أظهرهم. وهذا تقليد لهم قطعاً .

إذ قولهم لا يكون حجة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد قال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) فأوجب عليهم قبول ما أنذروهم به إذا رجعوا إليهم .

وهذا تقليد منهم للعلماء .

وصح عن ابن الزبير ، أنه سئل عن الجد والإخوة ، فقال :

أما الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذته خليلا ، فإنه أنزله أبا .

وهذا ظاهر فى تقليده له .

وقد أمر الله سبحانه بقبول شهادة الشاهد ، وذلك تقليد له .

وجاءت الشريعة ، بقبول قول القائف ، والخارص والقاسم والمقوم للمتلفات ، وغيرها والحاكمين بالمثل ، فى جزاء الصيد وذلك تقليد محض .

وأجمعت الأمة على قبول قول المترجم والرسول والمعرف والمعدل ، وإن اختلفوا فى جواز الاكتفاء بواحد ، وذلك تقليد محض لهؤلاء .

وأجمعوا على جواز شراء اللحمان ، والثياب والأطعمة وغيرها ، من غير سؤال عن أسباب حلها ، وتحريمها اكتفاء بتقليد أربابها .

ولو كلف الناس كلهم الاجتهاد وأن يكونوا علماء فضلاء لضاعت مصالح العباد ، وتعطلت الصنائع والمتاجر ، وكان الناس كلهم علماء مجتهدين .

وهذا مما لاسبيل إليه شرعاً ، والقدر قد منع من وقوعه .

وقد أجمع الناس على تقليد الزوج ، للنساء اللاتى يهدين إليه زوجته وجواز وطئها تقليداً لهن فى كونها هى زوجته .

وأجمعوا على أن الأعمى يقلد فى القبلة ، وعلى تقليد الأئمة فى الطهارة ، وقراءة الفاتحة ، وما يصح به الاقتداء ، وعلى تقليد الزوجة مسلمة كانت أو ذمية أن حيضها قد انقطع فيباح للزوج وطؤها بالتقليد .

ويباح للولى تزويجها بالتقليد لها فى انقضاء عدتها .

وعلى جواز تقليد الناس للمؤذنين فى دخول أوقات الصلوات .

ولا يجب عليهم الاجتهاد ومعرفة ذلك بالدليل .

وقد قالت الأمة السوداء لعقبة بن الحرث : أرضعتك وأرضعت امرأتك ، فأمره صلى الله عليه وسلم بفراقها ، وتقليدها فيما أخبرته به من ذلك .

وقد صرح الأئمة بجواز التقليد ، فقال حفص بن غياث : سمعت سفيان يقول : إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذى قد اختلف فيه وأنت ترى تحريمه فلا تنهه .

وقال محمد بن الحسن : يجوز للعالم تقليد من هو أعلم منه ، ولا يجوز له تقليد من هو مثله .

وقد صرح الشافعى بالتقليد فقال : فى الضبع بعير ، قلته تقليداً لعمر .

وقال فى مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب ، قلته تقليداً لعثمان .

وقال فى مسألة الجد مع الإخوة إنه يقاسمهم ثم قال : وإنما قلت بقول زيد . وعنه قبلنا أكثر الفرائض .

قال فى موضع آخر من كتابه الجديد ، قلته تقليد العطاء .

وهذا أبو حنيفة رحمه الله قال فى مسائل الآبار ليس معه فيها إلا تقليد من تقدمه من التابعين فيها وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة .

ويصرح فى موطئه بأنه أدرك العمل على هذا ، وهو الذى عليه أهل العلم ببلدنا .

ويقول فى غير موضع : مارأيت أحداً اقتدى به يفعله ، ولو جمعنا ذلك من كلامه لطال .

وقد قال الشافعى فى الصحابة : رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا ، ونحن نقول ونصدق أن رأى الشافعى والأئمة معه لنا خير من رأينا لأنفسنا .

وقد جعل الله سبحانه فى فطر العباد تقليد المتعلمين للأستاذين والمعلمين ولا تقوم مصالح الخلق إلا بهذا .

وذلك عام فى كل علم وصناعة .

وقد فاوت الله سبحانه بين قوى الأذهان ، كما فاوت بين الأبدان ، فلا يحسن فى حكمته وعدله ورحمته أن يفرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله ، والجواب عن معارضه فى جميع مسائل الدين دقيقها وجليلها .

ولو كان كذلك لتساوت أقدام الخلائق فى كونهم علماء ، بل جعل سبحانه تعالى هذا عالما ، وهذا متعلما وهذا متبعاً للعالم مؤتماً به بمنزلة المأموم مع الإمام والتابع مع المتبوع ، وأين حرم الله تعالى على الجاهل أن يكون متبعاً للعالم مؤتماً به مقلداً له يسير بسيره وينزل بنزوله .

وقد علم الله سبحانه أن الحوادث والنوازل كل وقت نازلة بالخلق ، فهل فرض على كل منهم فرض عين ، أن يأخذ حكم نازلة من الأدلة الشرعية بشروطها ولوازمها ؟

وهل ذلك فى إمكان أحد فضلا عن كونه مشروعاً ؟

وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحوا البلاد، وكان الحديث العهد بالإسلام يسألهم فيفتونه .

ولا يقولون له عليك أن تطلب معرفة الحق فى هذه الفتوى بالدليل ولا يعرف ذلك عن أحد منهم ألبتة .

وهل التقليد إلا من لوازم التكليف ولوازم الوجود ؟ فهو من لوازم الشرع والقدر .

والمنكرون له مضطرون إليه ولابد . وذلك فيما تقدم بيانه من الأحكام وغيرها .

ونقول لمن احتج على إبطاله : كل حجة أثرية ذكرتها فأنت مقلد لحملتها ورواتها إذ لم يقم دليل قطعى على صدقهم ، فليس بيدك إلا تقليد الراوى .

وليس بيد الحاكم إلا تقليد الشاهد ، وكذلك ليس بيد العامى إلا تقليد العالم .

فما الذى سوغ لك تقليد الراوى والشاهد ومنعنا من تقليد العالم ، وهذا سمع بأذنه ما رواه .

وهذا عقل بقلبه ما سمعه فأدى هذا مسموعه ، وأدى هذا معقوله .

وفرض على هذا تأدية ما سمعه ، وعلى هذا تأدية ما عقله ، وعلى من لم يبلغ منزلتهما القبول منهما .

ثم يقال للمانعين من التقليد أنتم منعتموه خشية وقوع المقلد فى الخطأ ، بأن يكون مقلده مخطئا فى فتواه ، ثم أوجبتم عليه النظر والاستدلال فى طلب الحق .

ولا ريب أن صوابه فى تقليده للعالم أقرب من صوابه فى اجتهاده هو لنفسه .

وهذا كمن أراد شراء سلعة لاخبرة له بها ، فإنه إذا قلد عالما بتلك السلعة خبيراً بها أميناً ناصحاً كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه ، وهذا متفق عليه بين العقلاء اهـ

هذا هو غاية ما يحتج به المقلدون، وقد ذكره ابن القيم رحمه الله فى إعلام الموقعين، وبين بطلانه من واحد وثمانين وجهاً .

وسنذكر هنا إن شاء الله جملا مختصرة من كلامه الطويل تكفى المنصف .

وتزيد المسألة إن شاء الله إيضاحاً وإقناعاً .

قال فى إعلام الموقعين بعد ذكره حجج المقلدين التى ذكرناها آنفاً ما نصه:

قال أصحاب الحجة :

عجباً لكم معاشر المقلدين، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله، ولا معدودين فى زمرة أهله .

كيف أبطلتم مذهبكم، بنفس دليلكم، فما للمقلد وما للاستدلال ؟

وأين منصب المقلد من منصب المستدل ؟

وهل ما ذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها، من صاحب الحجة فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم فى ذلك متشبعين بما لم تعطوه، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه، وذلك ثوب زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غصبتموه .

فأخبرونا، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه، وبرهان دلكم عليه، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل، وكنتم به عن التقليد بمعزل، أم سلكتم سبيله اتفاقا، وتخمينا من غير دليل .

وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين، سبيل، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم .

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة، قلتم لسنا من أهل هذه السبيل،

وإن خاطبناكم بحكم التقليد ، فلا معنى لما أقمتموه من الدليل .

والعجب أن كل طائفة من الطوائف ، وكل أمة من الأمم ، تدعى أنها على حق ، حاشا فرقة التقليد ، فإنهم لا يدعون ذلك ، ولو ادعوه لكانوا مبطلين ، فإنهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم إليها ، وبرهان دلهم عليها ، وإنما سبيلهم محض التقليد .

والمقلد لا يعرف الحق من الباطل ، ولا الحالى من العاطل .

وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم ، وقالوا نحن على مذاهبهم ، وقد دانوا بخلافهم فى أصل المذهب الذى بنوا عليه .

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه ، فخالفوهم فى ذلك كله .

وقالوا نحن من أتباعهم ، تلك أمانيهم ، وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم ، واقتفى آثارهم فى أصولهم وفروعهم .

وأعجب من هذا أنهم مصرحون فى كتبهم ببطلان التقليد وتحريمه ، وأنه لا يحل القول به فى دين الله .

ولو اشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا توليته .

ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط .

وكذلك المفتى يحرم عليه الإفتاء بما لا يعلم صحته باتفاق الناس .

والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه .

ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبوعه لا يفارق قوله ، ويترك له كل

ما خالفه من كتاب أو سنة أو قول صاحب ، أو قول من هو أعلم من متبوعه أو نظيره .

وهذا من أعجب العجب .

وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة ، أنه لم يكن فى عصر الصحابة ، رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده فى جميع أقواله ، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال غيره ، فلم يأخذ منها شيئاً .

ونعلم بالضرورة ، أن هذا لم يكن فى عصر التابعين ، ولا تابعى التابعين .

فليكذبنا المقلدون برجل واحد ، سلك سبيلهم الوخيمة ، فى القرون الفضيلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإنما حدثت هذه البدعة فى القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه وسلم .

فالمقلدون لمتبوعهم فى جميع ماقالوه ، يبيحون به الفروج ، والدماء والأموال ، ويحرمونها ولا يدرون أذلك صواب أم خطأ على خطر عظيم ، ولهم بين يدى الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله مالا يعلم أنه لم يكن على شىء اهـ محل الغرض منه بلفظه .

وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون : تقولون إنه لا يجوز العمل بالوحى إلا لخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، وآية (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) الآية .

هل رجعتم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحى لا يجوز لغير المجتهد ، أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرم من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة الاجتهاد ؟

وفى هذا رد إجمالى لجميع ما استدللتم به على التقليد الذى أنتم عليه .

ثم يقال : أليست هذه الآيات التى استدللتم بها فى زعمكم ، من ظواهر الكتاب ، التى سن لكم الصاوى وأمثاله ، أن العمل بها من أصول الكفر .

فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من أصول الكفر .

فلم تجرأتم على شىء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن ، مع أنه لا يجوز عندكم إلا للمجتهدين .

وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلا ، بإيجاز إن شاء الله تعالى .

أما استدلالهم بآية (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)فهو استدلال فى غير محله .

فإن الآية لا تدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذى هم عليه من التزام جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ماسواها .

ولا شك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحى الذين يعلمون ما جاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة .

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذى هو الوحى .

ومن سأل عن الوحى وأعلم به ، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحى لا تقليداً واتباع الوحى لا نزاع فى صحته .

وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد فى الجملة ، فهى لا تدل إلا على التقليد الذى قدمنا أنه لا خلاف فيه بين المسلمين ، وهو تقليد العامى الذى تنزل به النازلة عالماً من العلماء ، وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع مايقوله ذلك العالم ، ولا تركه لجميع ما يقوله غيره .

وأما استدلالهم بالحديث الوارد فى الرجل الذى أصابته شجة فى رأسه ، ثم احتلم فسأل أصحابه : هل يعلمون له رخصة فى التيمم ؟

فقالوا : ما نرى لك رخصة وأنت قادر على الماء ، فاغتسل فمات .

فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال « قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العيى السؤال » .

فهو استدلال أيضاً فى غير محله ، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا لهم .

قال فى إعلام الموقعين فى بيان وجه ذلك مانصه :

إن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أرشد المستفتين ، كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه ، وسنته فقال :

قتلوه قتلهم الله ، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم .

وفى هذا تحريم الإفتاء بالتقليد .

فإنه ليس علماً باتفاق الناس .

فإنما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاعله ، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم .

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم .

وكذلك سؤال أبى العسيف الذى زنى بامرأة مستأجره لأهل العلم .

فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البكر الزانى أقره على ذلك ، ولم ينكره ، فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم .

وأما استدلالهم بأن عمر قال فى الكلالة : إنى لأستحيى من الله أن

أخالف أبا بكر ، وأن ذلك تقليد منه له . فلا حجة لهم فيه أيضاً .

وخلاف عمر لأبى بكر رضى الله عنهما أشهر من أن يذكر .

كما خالفه فى سبى أهل الردة فسباهم أبو بكر ، وخالفه عمر .

وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا لمن ولدت لسيدها منهن.

ونقض حكمه ، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن على .

وخالفه فى أرض العنوة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر .

وخالفه فى المفاضلة فى العطاء ، فرأى أبو بكر التسوية ، ورأى عمر المفاضلة .

وخالفه فى الاستخلاف، فاستخلف أبو بكر عمر على المسلمين ، ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فعل أبى بكر رضى الله عنهم .

وخالفه فى الجد والإخوة ، مع أن خلاف أبى بكر الذى استحيى منه عمر هو خلافه فى قوله : إن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله منه برىء ، هو مادون الولد والوالد فاستحيى عمر من مخالفة أبى بكر فى اعترافه بجواز الخطأ عليه ، وأنه ليس كلامه كله صوابا ما أمرنا عليه الخطأ .

ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض فى الكلالة بشىء .

وقد اعترف أنه لم يفهمها ، قاله فى إعلام الموقعين .

ومن العجب استدلال المقلدين على تقليدهم ، باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر ، مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبى بكر وعمر ، وجميع الصحابة ،

ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك ، لا يوافق مذهب إمامهم ، كما هو معلوم من عادتهم .

وكما أوضحه الصاوى فى الكلام الذى قدمنا على قوله تعالى : (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) .

فقد قدمنا هناك أنه قال : إن من خرج عن المذاهب الأربعة فهو ضال مضل ، ولو وافق الصحابة ، والحديث الصحيح والآية .

وربما أداه ذلك إلى الكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر !

فمن هذا مذهبه ودينه ، وكيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر ؟

بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحى ، أو قول أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

مع أن أبا بكر خليفة راشد أمر النبى بالاقتداء به فى قوله : « عليكم سنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » الحديث .

فليس الاقتداء بالخلفاء كالاقتداء بغيرهم .

وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبى بكر رضى الله عنهما : رأينا لرأيك تبع .

فيكفى فى رده ما قدمنا قريباً ، من مخالفة عمر لأبى بكر ، مع القصة التى قال له فيها : رأينا لرأيك تبع ، رد فيها على أبى بكر بعض ما قاله .

وأيد الصحابة ما قال عمر فى رده على أبى بكر رضى الله عنهما .

لأن الحديث المذكور فى وفد بزاخة من أسد وغطفان حين قدموا على أبى بكر يسألونه الصلح ، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية .

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها . فما المخزية ؟

قال : تنزع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم منا ؟ وتدون لنا قتلانا إلى آخر كلامه .

وفيه : فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأياً سنشير عليك .

أما ماذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ماذكرت .

وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم ، وتردون ما أصبتم منا ، فنعم ما ذكرت .

وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم فى النار .

فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله ، ليس لها ديات .

فتتابع القوم على ما قال عمر رضى الله عنه .

فهذه القصة الثابتة : هى التى فى بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع .

وأنت ترى عمر رضى الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضى الله عنه ، إلا فيما يعتقد صوابه .

فإنما ظهر له أنه صواب قال له فيه : نعم ماذكرت .

وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبى بكر ، وهو قول أبى بكر بدفع ديات الشهداء .

لأن عمر يعتقد أن الشهيد فى سبيل الله لادية له ، لأن الله يقول : (إن الله

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

وذلك يوضح لك أن الصحابة رضى الله عنهم لا يعدلون عن الكتاب والسنة إلى قول أحد .

وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط ، ولو وافق عمر فى بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض ، لاتفاق رأيهم لا لتقليد بعضهم لبعض .

وقد خالف ابن مسعود عمر رضى الله عنهما فى مسائل كثيرة جداً ، كمخالفته له فى أم الولد ، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب ولدها ، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق فى ركوعه إلى أن مات ، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه .

وكان ابن مسعود يقول فى الحرام هى يمين وعمر يقول : إنه طلقة واحدة .

وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما ، وينكح أحدهما الآخر .

وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها ، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا كثيرة معلومة .

مع أن ابن مسعود يقول : إنه أعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان يعلم أحداً أعلم منه به لرحل إليه .

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وقد قدمنا عنه قوله : كن عالماً أو متعلماً ولا تكن إمعة .

فليس ابن مسعود من أهل التقليد ، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر ، لا يقلدون ابن مسعود ، ولا عمر ولا غيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب رحمهم الله .

وأما استدلالهم على التقليد بأن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر .

وأبو موسى كان يدع قوله لقول على .

وزيد يدع قوله لقول أبى بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضى الله عنهم لايدعون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد ، وهذا لاشك فيه .

وكان ابن عمر يدع قول عمر ، إذا ظهرت له السنة .

وكان ابن عباس يقول : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر .

وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضى الله عنه صلى مسبوقا فصلى ما أدرك مع الإمام أولا ، ثم قضى ما فاته بعد سلام الإمام ، وكانوا قبل ذلك يصلون ما فاتهم أولا ثم يدخلون مع الإمام فى الباقى .

وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى ذلك « إن معاذاً قد سن لكم سنة ، فكذلك فافعلوا » فهو ظاهر السقوط أيضاً ، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى .

فلا حجة قطعا فى قول أحد كائناً من كان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود .

وإنما العبرة بقوله صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره .

وهذا معلوم بالضرورة من الدين .

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

قائلين إن المراد بأولى الأمر العلماء ، وأن طاعتهم المأمور بها فى الآية هى تقليدهم ، فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأنه لا يجوز طاعة أولى الأمر إجماعا فيما خالف كتابا أو سنة ، ولا طاعة لهم إلا فى المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم .

ولا نزاع بين المسلمين فى أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

والتحقيق فى معنى الآية الكريمة أن المراد بأولى الأمر : ما يشمل الأمراء والعلماء .

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله ، والأمراء منفذون ، ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه .

لأن ما أمر به أولو الأمر لا يخلو من أحد أمرين :

أحدهما : أن يكون طاعة لله ولرسوله من غير نزاع ، وطاعة أولى الأمر فى مثل هذا من طاعة الله ورسوله .

والثانى : أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا ؟

وفى هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولى الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك فى نفس الآية .

لأنه تعالى لما قال : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، أتبع ذلك بقوله : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

فالآية صريحة فى رد كل نزاع إلى الله ورسوله .

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، هو الرد إليه فى حياته ، والرد إلى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

وقد قدمنا فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) بعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، كحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وحديث على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا فى النار « لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة فى المعروف » .

وفى الكتاب العزيز : (ولا يعصينك فى معروف) .

ولا يخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها فى الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهى الله ورسوله .

والمقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لا يعلمون أمر الله ولا نهيه ، ولا أمر رسوله ولا نهيه .

وغاية ما يدعون علمه هو أن الإمام الذى قلدوه قال كذا ، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب ، بل أكثرهم لا يميزون بين قول الإمام

وبين ما ألحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه .

ولا شك أن طاعة العلماء هى اقتفاء ما كانوا عليه من النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وتقديمها على كل قول وعلى كل رأى كائناً ما كان .

فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم ، فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم كما تقدم ، وكما سيأتى إن شاء الله .

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) ، قائلين : إن تقليدهم من جملة اتباعهم بإحسان ، فمقلدهم ممن رضى الله عنه بنص الآية فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن الذين اتبعوهم بإحسان هم الذين ساروا على مثل ما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فلم يكن أحد منهم يقلد رجلا ويترك الكتاب والسنة لقوله .

فالمقلدون التقليد الأعمى ليسوا ممن اتبعهم البتة ، بل هم أعظم الناس مخالفة لهم ، وأبعدهم عن اتباعهم . فأتبع الناس لمالك مثلا ابن وهب ونظراؤه ، ممن يعرضون أقواله على الكتاب والسنة ، فيأخذون منها ما وافقهما دون غيره .

وأتبع الناس لأبى حنيفة أبو يوسف ومحمد مع كثرة مخالفتهما له ، لأجل الدليل من كتاب أو سنة .

وأتبع أصحاب أحمد بن حنبل له البخارى ومسلم وأبو داود والأثرم لتقديمهم الدليل على قوله وقول غيره ، وهكذا .

وأما استدلالهم على تقليدهم : بحديث « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فهو ظاهر السقوط أيضاً .

اعلم أولا أن الحديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به .

فجميع طرقه ليس فيها شيء قائم ، قال فى إعلام الموقعين :

روى هذا الحديث من طريق الأعمش عن أبى سفيان عن جابر ، ومن حديث سعيد بن المسيب عن ابن عمر .

ومن طريق حمزة الجرى عن نافع عن ابن عمر ، ولا يثبت شيء منها .

قال ابن عبد البر حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد أن أبا عبد الله بن مضرح حدثهم ثنا محمد بن أيوب الصموت قال : قال لنا البزار .

وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » فهذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ . منه .

وضعف الحديث المذكور معروف عند أهل العلم .

مع أن المقلدين المحتجين به يمنعون تقليد الصحابة ، ويحرمون الاهتداء بتلك النجوم .

وهو تناقض عجيب لأنهم تركوا نفس ما دل عليه الحديث واستدلوا بالحديث على ما لم يتعرض له الحديث ، وهو تقديمهم تقليد أئمتهم على تقليد الصحابة .

مع أن قياسهم على الصحابة لا يصح لعظم الفارق ، وبما ذكرنا تعلم سقوط استدلالهم بما ذكروا عن ابن مسعود من قوله :

« من كان مستنا منكم فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد » .

والله جل وعلا يقول : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) الآية .

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » فهو حجة عليهم لا لهم .

لأن سنة الخلفاء الراشدين التى حث عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرونة بسنته ليس فيها البتة تقليد أعمى ، ولا التزام قول رجل بعينه .

بل سنتهم هى اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتقديمها على كل شىء .

لأنهم هم أتبع الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم حرصاً على العمل بما جاء به .

فالذى يقدم آراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ويستدل على ذلك بحديث « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » الحديث ، هو كما ترى .

وأقوال الخلفاء رضى الله عنهم وأفعالهم كلها معروفة مدونة إلى الآن ليس فيها تقليد أعمى ولا جمود على قول رجل واحد .

وإنما هى عمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومشاورة لأصحابه فيما نزل من النوازل واستنباط مالم يكن منصوصاً من نصوص الكتاب والسنة على أحسن الوجوه وأتقنها ، وأقربها لرضى الله والاحتياط فى طاعته .

وكانوا إذا بلغهم شىء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا إليه ولو كان مخالفاً لرأيهم .

فقد رجع أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى قول المغيرة بن شعبة ،

ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم فرض للجدة السدس .

وكان أبو بكر يرى أنها لا ميراث لها ، وقد قال لها لما جاءته «لا أرى لك شيئاً فى كتاب الله ولا أعلم لك شيئاً فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ».

وقد رجع عمر إلى قول المذكورين فى دية الجنين أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فيها غرة عبد أو وليدة .

ورجع عمر أيضاً إلى حديث عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر .

ورجع عمر أيضاً إلى قول الضحاك بن سفيان أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها .

ورجع عثمان بن عفان إلى حديث فريعة بنت مالك أخت أبى سعيد الخدرى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالسكنى فى البيت الذى توفى عنها زوجها وهى فيه حتى تنقضى عدتها .

وكان عثمان بعد ذلك يفتى بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى تنقضى عدتها .

وأمثال هذا أكثر من أن تحصى ، وفى ذلك بيان واضح ، لأن سنة الخلفاء الراشدين هى المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتقديم سنته على كل شىء ، فعلينا جميعاً أن نعمل بمثل ما كانوا يعملون لنكون متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنتهم .

أما المقلد المعرض عن سنتهم ، وعن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مفضلا على ذلك تقليد أبى حنيفة أو مالك أو الشافعى أو أحمد رحمهم الله ،

فما كان يحق له أن يستدل بحديث « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » الحديث لأنه مقر بمقتضى تقليده ، بأنه أبعد الناس عن العمل بحديث « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » الحديث .

وأما استدلالهم ، بأن عمر كتب إلى شريح :

أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبما فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يكن فى سنة رسول الله ، فيما قضى به الصالحون فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم .

لأن فيه تقديم كتاب الله ، ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم العمل بما قضى به الصالحون ، وخيرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو كان المقلدون يمتثلون هذا ، لما أنكر عليهم أهل العلم ، ولكن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والعمل بفتاوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويوجبون الجمود على قول الإمام الذى قلدوه والتزموا بمذهبه .

ومن كانت هذه حاله ، فلا يحق له أن يستدل بشىء من هذه الأدلة .

وأما استدلالهم بأن عمر رضى الله عنه منع بيع أمهات الأولاد فتبعه الصحابة .

وألزم الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وتبعه الصحابة .

فهو ظاهر السقوط أيضاً .

وقد قدمنا أن متابعة بعض الصحابة لبعض إنما هى لاتفاقهم فيما رأوه ، لا لأن بعضهم مقلد بعضاً تقليداً أعمى .

وقد قدمنا إيضاح ذلك بما يكفى .

مع أن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون تقليد عمر ، وسائر الصحابة ، فمن عجائبهم أنهم يستدلون بما يعتقدون أن العمل به ممنوع .

وأما استدلالهم بأن عمرو بن العاص قال لعمر لما احتلم : خذ ثوباً غير ثوبك ، فقال لو فعلت صارت سنة . فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن عمر بن الخطاب خاف أن يفعل شيئاً فيعتقد من لا علم عنده أنه إنما فعله لكونه سنة ، فامتنع من فعله لأجل هذا المحذور .

مع أن المقلد يرى منع تقليد عمر رضى الله عنه .

وأما استدلالهم بما ذكروه عن أبى وغيره أنه قال :

ما استبان لك فاعمل به ، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه ، فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم .

لأن قوله : ما استبان لك فاعمل به ، صريح فى أن ما استبان من كتاب الله وسنة رسوله ، يجب العمل به ولا يجوز العدول عنه لقول أحد .

وهذا نقيض ما عليه المقلدون ، فهم دائماً يستدلون على مذهبهم بما يناقضه .

والأظهر أن مراد أبى بن كعب بقوله : فكله إلى عالمه ، أى فكل علمه إلى الله .

فمراده بما اشتبه المتشابه ، ومراده بعالمه الله .

فهو يشير إلى قوله تعالى : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

فالذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا ، فقد وكلوا ما اشتبه عليهم إلى عالمه وهو الله .

ويحتمل أن يكون مراد أبى بقوله : فكله إلى عالمه أى فكله إلى من هو أعلم به منك من العلماء .

وهذا هو الذى فهمه ابن القيم فى إعلام الموقعين من كلام أبى .

وعلى هذا الاحتمال فلاحجة فيه أيضاً للمقلدين لأن من خفى عليه شىء من العلم فوكله إلى من هو أعلم به منه ، فقد أصاب .

ولا يلزم من ذلك الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله بل هو عمل بالقرآن لقوله تعالى : (ولا تقف ماليس لك به علم) .

وأما استدلالهم على تقليدهم بأن الصحابة كانوا يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود بين أظهرهم ، وأن ذلك تقليد لهم فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأنهم ما كانوا يفتونهم فى حالة وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم إلا بما علمهم من الكتاب والسنة كما لايخفى .

ومن أفتى منهم وغلط فى فتواه أنكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم فتواه التى ليست مطابقة للحق ، وردها عليه كإنكاره على أبى السنابل بن بعكك قوله لسبيعة الأسلمية لما مات زوجها ووضعت حملها بعد ذلك بأيام :

« إنها لاتنقضى عدتها إلا بعد أربعة أشهر وعشر ليال » .

وقد استدل أبو السنابل على ما أفتى به بعموم قوله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) .

وقد رد عليه النبى صلى الله عليه وسلم فتواه مبينا أن عموم قوله تعالى :

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً) الآية ، مخصص بقوله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

وكإنكاره صلى الله عليه وسلم على الذين أفتوا صاحب الشجة بأنهم لم يجدوا له رخصة وهو يقدر على الماء .

وقد قدمنا قصته ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيهم : «قتلوه قتلهم الله » الحديث .

والظاهر أنهم استندوا فى فتواهم لما فهموه من قوله تعالى (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) وغفلوا عن قوله : (وإن كنتم مرضى) الآية ، وأمثال هذا كثيرة .

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) قائلين إن الآية أوجبت قبول إنذارهم ، وأن ذلك تقليد لهم ، فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن الإنذار فى قوله (لينذروا قومهم) لايكون برأى .

وإنما يكون بالوحى خاصة،وقد حصر تعالى الإنذار فى الوحى بأداة الحصر التى هى إنما فى قوله (قل إنما أنذركم بالوحى) .

وبه تعلم أن الإنذار لايقوم إلا بالحجة فمن لم تقم عليه الحجة ، لم يكن قد أنذر ، كما أن النذير من أقام الحجة ، فمن لم يأت بحجة فليس بنذير .

فمما لاشك فيه أن هذا الإنذار المذكور فى قوله (لينذروا) ، والتحذير من مخالفته فى قوله : (لعلهم يحذرون) ليس برأى ولا اجتهاد .

وإنما هو إنذار بالوحى ممن تفقه فى الدين ، وصار يعذر بما علمه من الدين،

كما يدل عليه قوله تعالى قبله (ليتفقهوا فى الدين) ، فهو يدل على أن قوله : (ولينذروا قومهم) أى بما تفقهوا فيه من الدين .

وليس التفقه فى الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

فتبين أن الآية لادليل فيها البتة لطائفة التقليد ، الذين يوجبون تقليد إمام بعينه ، من غير أن يرد من أقواله شىء ، ولايؤخذ من أقوال غيره شىء .

ونجعل أقواله عياراً لكتاب الله وسنة رسوله فما وافق أقواله منهما قبل ومالم يوافقها منهما رد .

وهذا النوع من التقليد لاشك فى بطلانه ، وعدم جوازه .

فالآية الكريمة بعيدة كل البعد من الدلالة عليه ، مع أن استدلال المقلدين بها على تقليدهم استدلال بشىء يعتقدون أن الاستدلال به ممنوع باتا ، لأنه استدلال بقرآن .

وأما قبول إنذارهم فهو من الاتباع لامن التقليد ، كما سيأتى إيضاحه إن شاء الله .

وأما استدلالهم بأن ابن الزبير ، قال مايدل على تقليده لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى أن الجد يحجب الإخوة ، فهو ظاهر السقوط أيضاً .

وقد قدمنا مراراً فى رد استدلالهم بتقليد الصحابة بعضهم بعضاً مايكفى ، فأغنى عن إعادته هنا .

وأما استدلالهم بقبول شهادة الشاهد فى الحقوق . قائلين : إن قبول شهادته فيما شهد به تقليد له ، فهو ظاهر السقوط لظهور الفرق بينه وبين ما استدلوا عليه به . من تقليد رجل واحد بعينه ، بحيث لايترك من أقواله

شيء ولا يؤخذ مما خالفها شيء ، ولو كان كتاباً أو سنة .

وذلك من وجهين .

أحدهما : أن العمل بشهادة الشاهد أخذ بكتاب الله وسنة رسوله ، لأن الله يقول : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) ويقول :

(واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) إلى غير ذلك من الآيات .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاء بالشاهد واليمين فى الأموال .

وفى الحديث « شاهداك أو يمينه » وهو حديث صحيح .

فالأخذ بشهادة الشاهد إذا من العمل بكتاب الله وسنة رسوله لا من التقليد لرجل واحد بعينه تقليداً أعمى .

الوجه الثانى : أن الشاهد إنما يخبر عما أدركه بإحدى حواسه والمدرك بالحاسة يحصل به القطع لمن أدركه بخلاف الرأى ، فإن صاحبه لا يقطع بصحة ماظهر له من الرأى .

ولذا أجمع العلماء على الفرق بين خبر التواتر المستند إلى حس ، وبين خبر التواتر المستند إلى عقل .

فأجمعوا على أن الأول يوجب العلم المفيد للقطع لاستناده إلى الحس .

وأن الثانى لا يوجبه ، ولو كان خبر التواتر يفيد العلم فى المعقولات لكان قدم العالم مقطوعاً به .

لأنه تواتر عليه من الفلاسفة خلق لا يحصيهم إلا الله .

مع أن حدوث العالم أمر قطعى لا شك فيه .

فالذين تواتروا من الفلاسفة على قدم العالم الذى هو من المعقولات

لا من المحسوسات لو تواتر عشرهم على أمر محسوس لأفاد العلم اليقينى فيه .

فالشاهد إن أخبر عن محسوس ، وكان عدلا ، فهو عدل مخبر عما قطع به قطعاً لا يتطرق إليه الشك ، بخلاف المجتهد ، فإنه عدل أخبر عما ظنه ، فوضوح الفرق بين الأمرين كما ترى .

وأما استدلالهم على تقليدهم بقبول قول القائف والخارص والمنوم والحاكمين بالمثل فى جزاء الصيد .

وتقليد الأعمى فى القبلة .

وتقليد المؤذنين فى الوقت والمترجمين والمعرفين ، والمعدلين ، والمجرحين .

وتقليده المرأة فى طهرها ، فهو كله ظاهر السقوط أيضاً .

لأن جميع ذلك لا يقبل منه إلا ما قام عليه دليل من كتاب أو سنة .

فالعمل به من العمل بالدليل الشرعى لا من التقليد الأعمى .

وذلك كله من قبيل الشهادة ، والإخبار بما عرفه القائف والخارص إلى آخره ، لا من قبيل الفتوى فى الدين .

وقد استدل العلماء على قبول قول القائف بسرور النبى صلى الله عليه وسلم من قول مجزز بن الأعور المدلجى فى أسامة وزيد «هذه الأقدام بعضها من بعض» .

فلو كان قول القائف : لا يقبل لما أقره النبى صلى الله عليه وسلم .

ولما برقت أسارير وجهه سروراً به .

فقبوله لذلك ، فهو اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قدمنا الأحاديث النبوية الدالة على قبول قول الخارص ، وبينا أن بعضها ثابت فى الصحيح . ورد قول من منع ذلك ، فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

فهذا مثال ما ثبت بالسنة من قبول قول المذكورين .

ومثال مادل عليه القرآن من ذلك قبول قول الحكمين فى المثل فى جزاء الصيد ، لأن الله نص عليه فى قوله تعالى (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) الآية .

وهكذا كل من ذكروا ، فإن قبول قولهم : إنما صح بدليل شرعى يدل على قبوله من كتاب أو سنة أو إجماع .

مع أن الإخبار عن جميع ما ذكر إخبار عن محسوس ، والتقليد الذى استدلوا به عليه إخبار عن معقول مظنون .

والفرق بين الأمرين قدمناه قريباً ، فليس شىء من ذلك تقليداً أعمى بدون حجة .

وأما استدلالهم على التقليد المذكور بجواز شراء اللحوم والثياب والأطعمة وغيرها من غير سؤال عن أسباب حلها اكتفاء بتقليد أربابها .

فهو ظاهر السقوط أيضاً .

لأن الاكتفاء بقول الذابح والبائع ليس بتقليد أعمى فى حكم دينى لهما .

وإنما هو عمل بالأدلة الشرعية ، لانها دلت على أن ما فى أسواق المسلمين من اللحوم والسلع محمول على الجواز والصحة ، حتى يظهر ما يخالف ذلك .

ومما يدل على ذلك ، ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت « إن قوما قالوا يارسول الله : إن قوما يأتوننا باللحم لاندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟فقال:سموا عليه أنتم وكلوا ، قال : وكانوا حديثى عهد بالكفر » قال المجد فى المنتقى بعد أن ساق الحديث:رواه البخارى والنسائى وابن ماجه ، وهو دليل على أن التصرفات والأفعال تحمل على حال الصحة والسلامة إلى أن يقوم دليل الفساد . اهـ منه .

وقد أجمع العلماء على هذا ، فالعمل به عمل بالدليل الشرعى .

لأن الله لو كلف الناس ألا يشترى أحد منهم شيئاً حتى يعلم حليته لوقعوا فى حرج عظيم تتعطل به المعيشة ويختل به نظامها .

فأجاز الله تعالى ذلك برفع الحرج كما قال تعالى (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) فالاستدلال به على التقليد الأعمى فاسد ، لأنه أخذ بالحجة والدليل ، وليس من التقليد .

وأما استدلالهم على التقليد بأن الله لو كلف الناس كلهم الاجتهاد ، وأن يكونوا علماء ضاعت مصالح العباد ، وتعطلت الصنائع والمتاجر ، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدراً .

فهو ظاهر السقوط أيضاً .

ومن أوضح الأدلة على سقوطه أن القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير ، لم يكن فيهم تقليد رجل واحد بعينه هذا التقليد الأعمى .

ولم تتعطل متاجرهم ولا صنائعهم ، ولم يرتكبوا ما يمنعه الشرع ولا القدر .

بل كانوا كلهم لا يقدمون شيئاً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان فيهم علماء مجتهدون يعملون بالكتاب والسنة ويفتون بهما .

وكان فيهم قوم دون رتبتهم فى العلم ، يتعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ما يحتاجون للعمل به فى أنفسهم ، وهم متبعون لا مقلدون .

وفيهم طائفة أخرى ، هى العوام لا قدرة لها على التعلم .

وكانوا يستفتون فيما نزل بهم من النوازل من شاءوا من العلماء

وتارة يسألونه عن الدليل فيما أفتاهم به .

وتارة يكتفون بفتواه ولا يسألون ولم يتقيدوا بنفس ذلك العالم الذى استفتوه .

فإذا نزلت بهم نازلة أخرى ، سألوا عنها غيره من العلماء إن شاءوا .

ولا إشكال فى هذا الذى مضت عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، ولا يلزمه تعطيل صنائع ولا متاجر ، ولا يمنعه شرع ولا قدر .

فكيف يستدل منصف للتقليد الأعمى ، بأن الناس لو لم ترتكبه لوقعوا فى المحذور المذكور .

وعلى كل حال فكل عاقل لم يعمه التعصب ، يعلم أن تقليد إمام واحد بعينه ، بحيث لا يترك من أقواله شىء ، ولا يؤخذ من أقوال غيره شىء ، وجعل أقواله عياراً لكتاب الله ، وسنة رسوله فما وافق أقواله منهما جاز العمل به ، وما خالفها منهما وجب اطراحه ، وترك العمل به لا وجه له البتة .

وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم وإجماع الأئمة الأربعة .

فالواجب على المسلمين تعلم كتاب الله وسنة رسوله ، والعمل بما علموا منهما .

والواجب على العوام الذين لا قدرة لهم على التعلم سؤال أهل العلم ، والعمل بما أفتوهم به .

وسيأتى لهذا زيادة إيضاح وإقناع للمنصف فى التنبيهات الآتية إن شاء الله تعالى .

وقد بينا هنا بطلان جميع الحجج التى يحتج بها المقلدون التقليد المذكور ، وما لم نذكر من حججهم ، قد أوضحنا رده وإبطاله فيما ذكرنا .

تنبيهات مهمة تتعلق بهذه المسألة

التنبيه الأول

اعلم أن المقلدين، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين، وهما بعيدتان من الصدق. وظن صدقهما يدخل أولياً فى عموم قوله تعالى (إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » .

أما الأولى منهما فهى ظنهم ، أن الإمام الذى قلدوه لابد أن يكون قد اطلع على جميع معانى كتاب الله ، ولم يفته منها شىء وعلى جميع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفته منها شىء .

ولذلك فإن كل آية وكل حديث قد خالفا قوله فلاشك عندهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الآية وعلم معناها ، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه .

وانه ماترك العمل بهما إلا لأنه اطلع على ماهو أقوى منهما وأرجح .

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذى تخيلوه على نص الوحى الموجود بين أيديهم .

وهذا الظن كذب باطل بلاشك .

والأئمة كلهم معترفون بأنهم ما أحاطوا بجميع نصوص الوحى، كما سيأتى إيضاحه إن شاء الله.

ومن أصرح ذلك أن الإمام مالكا رحمه الله ، إمام دار الهجرة المجمع على علمه وفضله وجلالته ، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما جمعه فى موطئه لم يقبل ذلك من أبى جعفر ورده عليه .

وأخبره أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى أقطار الدنيا ، كلهم عنده علم ليس عند الآخر .

ولم يجمع الحديث جمعاً تاما بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة.

لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تفرقوا فى أقطار الدنيا روى عنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم ، ولم يتيسر الاطلاع عليه إلا بعد أزمان .

وكثرة علم العالم لاتستلزم اطلاعه على جميع النصوص .

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو عجز عن أن يفهم معنى الكلالة حتى مات رضى الله عنه .

وقد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً فبينها له ولم يفهم .

فقد ثبت عنه رضى الله عنه أنه قال : ماسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء أكثر مما سألته عن الكلالة ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى ، وقال « يكفيك آية الصيف فى آخر سورة النساء » .

فهذا من أوضح البيان ، لأن مراد النبى صلى الله عليه وسلم بآية الصيف (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) والآية تبين معنى الكلالة بياناً شافياً ، لأنها أوضحت أنها : مادون الولد والوالد .

فبينت نفى الولد بدلاله المطابقة فى قوله تعالى : (إن امرأ هلك ليس له ولد) وبينت نفى الوالد بدلالة الالتزام فى قوله تعالى (وله أخت فلها نصف ماترك) ، لأن ميراث الأخت يستلزم نفى الولد .

ومع هذا البيان النبوى الواضح لهذه الآية الكريمة ، فإن عمر رضى الله عنه لم يفهم .

وقد صح عنه أن الكلالة لم تزل مشكلة عليه .

وقد خفى معنى هذا أيضا على أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال فى الكلالة : أقول فيها برأيى. فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأفمنى ومن الشيطان ، هو مادون الولد والوالد

فوافق رأيه معنى الآية .

والظاهر أنه لو كان فاهما للآية لكفته عن الرأى .

كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه: «تكفيك آية الصيف».

وهو تصريح منه صلى الله عليه وسلم بأن فى الآية كفاية عن كل ماسواها فى الحكم المسئول عنه .

ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبى صلى الله عليه وسلم بيان الآية .

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز فى حقه صلى الله عليه وسلم .

فما أحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان مايشفى ويكفى .

وقد خفى على أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم « أعطى الجدة السدس حتى أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس » فرجع إلى قولهما .

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن النبى: صلى الله عليه وسلم : قضى فى دية الجنين بغرة عبد أو وليدة حتى أخبره المذكوران قبل .

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن المرأة ترث من دية زوجها . حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إليه : أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها .

ولم يعلم أيضا بآخذ الجزية من المجوسى حتى أخبره عبد الرحمن بن

عوف . بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزيه من مجوس هجر .

ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعرى وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنه .

ولم يعلم عثمان رضى الله عنه بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى أخبرته فريعة بنت مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم : ألزمها بالسكنى فى المحل الذى مات عنها زوجها فيه حتى تنقضى عدتها .

وأمثال هذا أكثر من أن تحصر .

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم هم ، خفى عليهم كثير من قضايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحاديثه مع ملازمتهم له ، وشدة حرصهم على الأخذ منه .

فتعلموه ممن هو دونهم فى الفضل والعلم .

فماظنك بغيرهم من الأئمة الذين نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة فى أقطار الدنيا ؟.

وروى عنهم الأحاديث عدول من الأقطار التى ذهبوا إليها ؟

والحاصل أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لا يغنى من الحق شيئا ، وليس بصحيح قطعا .

لأنه لاشك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره .

وهو معذور فى ترك العمل به ، بعدم اطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود فى البحث .

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر فى الخطأ .

وقد يكون الإمام اطلع على الحديث ، ولكن السند الذى بلغه به ضعيف فيتركه لضعف السند .

ويكون غيره اطلع على رواية أخرى صحيحة يثبت بها الحديث فهو معذور فى تركه ، لأنه لم يطلع إلا على السند الضعيف ولم تبلغه الطريق الصحيحة الأخرى .

وقد يترك الحديث لشىء يظنه أرجح منه ، ويكون الواقع أن الحديث أرجح من ذلك الشىء الذى ظنه لقيام أدلة أخرى على ذلك لم يطلع عليها . إلى أسباب أخر كثيرة ، كترك الأئمة للعمل ببعض النصوص .

وبهذا كله تعلم أن ظن اطلاع الإمام على كل شىء من أحكام الشرع وإصابته فى معانيها كلها ظن باطل .

وكل واحد من الأئمة يصرح ببطلان هذا الظن كما سترى إيضاحه إن شاء الله .

فاللازم هو ما قاله الأئمة أنفسهم رحمهم الله من أنهم قد يخطئون ونهوا عن اتباعهم فى كل شىء يخالف نصا من كتاب أو سنة .

فالمتبع لهم حقيقة ، هو من لا يقدم على كتاب الله وسنة رسوله شيئاً .

أما الذى يقدم أقوال الرجال على الكتاب وصحيح السنة ، فهو مخالف لهم لا متبع لهم .

ودعواه اتباعهم كذب محض .

وأما القضية الثانية :

فهى ظن المقلدين أن لهم مثل ما للإمام من العذر فى الخطأ .

وإيضاحه : أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ فى بعض الأحكام وقلدوه فى ذلك الخطأ يكون لهم من العذر فى الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذى قلدوه .

لأنهم متبعون له فيجرى عليهم ما جرى عليه .

وهذا ظن كاذب باطل بلا شك . لأن الإمام الذى قلدوه بذل جهده فى تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وفتاويهم .

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحى والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحى المنزل .

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر فى خطئه والأجر فى اجتهاده .

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمهما إعراضاً كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحى المنزل من الله .

فأين هؤلاء من الأئمة الذين قلدوهم ؟

وهذا الفرق العظيم بينهم ، وبينهم ، يدل دلالة واضحة ، على أنهم ليسوا مأجورين فى الخطأ فى تقليد أعمى إذ لا اقتداء ولا أسوة فى غير الحق .

وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل .

والذى يجب عليهم من تعلم ذلك ، هو ما تدعوهم الحاجة للعمل به ، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم .

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة ، سهلة التناول من الكتاب والسنة .

والحاصل أن المعرض عن كتاب الله ، وسنة رسوله المفرط فى تعلم دينه ، مما أنزل الله ، وما سنه رسوله ، المقدم كلام الناس على كتاب الله ، وسنة رسوله ، لايكون له البتة ما للإمام الذى لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله ،

ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفرط فى تعلم الأمر والنهى من الكتاب والسنة .

فأين هذا من هذا ؟

سارت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

التنبيه الثانى

اعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله ، متفقون على منع تقليدهم ، التقليد الأعمى الذى يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم .

ولو كانوا أتباعهم حقاً لما خالفوهم فى تقليدهم الذى منعوا منه ونهوا عنه .

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه :

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد ابن أحمد القاضى المالكى ، قال حدثنا موسى بن إسحاق ، قال حدثنا إبراهيم ابن المنذر ، قال حدثنا معن بن عيسى ، قال سمعت مالك بن أنس يقول : إنما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا فى رأيى ، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

فمالك رحمه الله مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحى من رأيه .

فمن كان مالكياً فليمتثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند .

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه أيضاً :

أخبرنى أحمد بن عبد الله بن محمد بن على حدثنى أبى حدثنا محمد بن عمر

ابن لبابة قال : حدثنا مالك بن على القرشى ، قال أنبأنا عبد الله بن مسلمة القعنبى قال :

دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد على ثم سكت عنى يبكى ، فقلت له :

يا أبا عبدالله ما الذى يبكيك ؟ فقال لى يابن قعنب إنا لله على مافرط منى ، ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الأمر بسوط ، ولم يكن فرط منى ما فرط من هذا الرأى ، وهذه المسائل قد كانت لى سعة فيما سبقت إليه . اهـ محل الغرض منه بلفظه .

ومن المعلوم بالضرورة أن مالكا رحمه الله لا يسره ولا يرضيه تقديم رأيه هذا الذى يسترجع ويبكى ندما عليه ، ويتمنى لو ضرب بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فليتق الله وليستحى من الله من يقدم مثل هذا الرأى على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكا فى ذلك .

وهو مخالف فيه لمالك ، ومخالف فيه لله ورسوله ، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم .

وقال ابن القيم رحمه الله فى إعلام الموقعين :

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة .

فقال الشافعى : مثل الذى يطلب العلم بلا حجة ، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى ، ذكره البيهقى .

وقال إسماعيل بن عيسى المزنى فى أول مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعى ، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ، ويحتاط فيه لنفسه إلى أن قال :

وقال أحمد بن حنبل : لا تقلدنى ، ولا تقلد مالكا ، ولا الثورى ولا الأوزاعى ، وخذ من حيث أخذوا .

وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال .

وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف : لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا .

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى أنه يستتاب ، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله اهـ محل الغرض منه .

ومما لا شك فيه أن الأئمة الأربعة رحمهم الله نهوا عن تقليدهم فى كل ما خالف كتاباً أو سنة كما نقله عنهم أصحابهم .

كما هو مقرر فى كتب الحنفية عن أبى حنيفة .

وكتب الشافعية عن الشافعى القائل : إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وكتب المالكية ، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً .

وكذلك كان غيرهم من أفاضل العلماء يمنعون من تقليدهم فيما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولا يرضون .

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه :

وذكر محمد بن حارث فى أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون ، قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبى سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز ، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما .

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجبهما .

فقال له :

يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما ، وأسألك أنا وذوى فلا تجيبنا ؟

فقال :

أوقع ذلك يابن أخى فى قلبك ؟

قال : نعم : فقال له :

إنى قد كبرت سنى ورقّ عظمى ، وأنا أخاف أن يكون خالطنى فى عقلى مثل الذى خالطنى فى بدنى .

ومالك وعبد العزيز عالمان فتيهان ، إذا سمعا منى حقاً قبلاه ، وإذا سمعا خطأ تركاه .

وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه .

قال محمد بن حارث : هذا والله هو الدين الكامل ، والعقل الراجح .

لا كمن يأتى بالهذيان ، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن .اهـ منه.

التنبيه الثالث

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع من يعتد به من أهل العلم ، أنه لا يجوز لأحد منهم أن يقول : هذا حلال وهذا حرام .

لأن الحلال ما أحله الله ، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه أو سنة رسوله ، والحرام ما حرمه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه ، أو سنة رسوله .

ولا يجوز البتة للمقلد أن يزيد على قوله : هذا الحكم قاله الإمام الذى قلدته أو أفتى به .

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالى (قل أرأيتم ما أنزل الله

لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) وقال تعالى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) . وقال تعالى : (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) الآية.

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ ، لا بخصوص الأسباب كما بيناه مراراً، وأوضحنا أدلته من السنة الصحيحة .

ومما يوضح هذا أن المقلد الذى يقول : هذا حلال وهذا حرام من غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، يقول على الله بغير علم قطعاً .

فهو داخل بلا شك فى عموم قوله تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

فدخوله فى قوله : (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) كما ترى .

وهو داخل أيضاً فى عموم قوله تعالى : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) .

وأما السنة ، فقد قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه :

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن سفيان .

ح وحدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا سفيان قال : أملاه علينا إملاء .

ح وحدثنى عبد الله بن هاشم واللفظ له حدثنى عبدالرحمن يعنى ابن مهدى حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال :

« اغزوا باسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله » الحديث .

وفيه « وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى ، أتصيب حكم الله فيهم أم لا » .

هذا لفظ مسلم فى صحيحه .

وفيه النهى الصريح من النبى صلى الله عليه وسلم عن نسبة حكم إلى الله ، حتى يعلم بأن هذ حكم الله الذى شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولأجل هذا كان أهل العلم لا يتجرءون على القول بالتحريم والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه :

حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا ابن وضاح قال حدثنا يوسف بن عدى قال حدثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب قال : قال الربيع بن خيثم :

إياكم أن يقول الرجل فى شىء إن الله حرم هذا أو نهى عنه فيقول الله : كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه .

قال أو يقول :

إن الله أحل هذا وأمر به ، فيقول : كذبت لم أحله ولم آمر به .

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول : لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحداً اقتدى به يقول فى شىء : هذا حلال وهذا حرام .

ما كانوا يجترئون على ذلك .

وإنما كانوا يقولون : نكره هذا .

ونرى هذا حسنا .

ونتقى هذا ، ولا نرى هذا .

وزاد عتيق بن يعقوب ، ولا يقولون حلال ولا حرام .

أما سمعت قول الله عز وجل : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) .

الحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله : قال أبو عمر : معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولا حرام والله أعلم . اهـ . محل الغرض منه .

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله فى تفسيره ، فى الكلام على قوله تعالى: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) الآية ، ما نصه:

أسند الدارمى أبو محمد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قط يقول : حلال ولا حرام ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون .

وقال ابن وهب :

قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام . ولكن يقولون : إياكم وكذا وكذا . ولم أكن لأصنع هذا .

ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارىء تعالى مخبراً بذلك عنه .

وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول :

إنى أكره كذا .

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى . اهـ . محل الغرض منه .

وإذا كان مالك وإبراهيم النخعى وغيرهما من أكابر أهل العلم لا يتجرءون أن يقولوا فى شىء من مسائل الاجتهاد والرأى : هذا حلال أو حرام .

فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بشىء من نور الوحى ؟

فتجرؤهم على التحريم والتحليل بلا مستند من الكتاب إنما نشأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله ، وآثار السلف الصالح .

وآية يونس المتقدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغنى عن كل ما سواها .

لأنه تعالى لما قال : (فجعلتم منه حراماً وحلالا) أتبع ذلك بقوله (قل الله آذن لكم أم على الله تفترون) .

ولم يجعل واسطة بين إذنه فى ذلك وبين الافتراء عليه .

فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحليله فليعتمد على إذن الله فى ذلك .

ومن لم يكن عنده إذن من الله فى ذلك فليحذر من الافتراء على الله .

إذ لا واسطة بين الأمرين .

ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها .

فالذين يقولون من الجهلة المقلدين : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا حكم الله ، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذى قلدوه تقوم مقام الكتاب والسنة وتغنى عنهما .

وأن ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلدوه أسلم لدينه أعمتهم ظلمات الجهل المتراكمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا .

فهم كما ترى ، مع أن الإمام الذى قلدوه ، ما كان يتجرأ على مثل الذى تجرءوا عليه ، لأن علمه يمنعه من ذلك .

والله جل وعلا يقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

التنبيه الرابع

اعلم أن مما لا بد منه معرفة ، الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن محل الاتباع لا يجوز التقليد فيه بحال .

وإيضاح ذلك : أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله ، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع المسلمين ، لا يجوز فيه التقليد بحال .

لأن كل اجتهاد يخالف النص ، فهو اجتهاد باطل ، ولا تقليد إلا فى محل الاجتهاد .

لأن نصوص الكتاب والسنة ، حاكمة على كل المجتهدين ، فليس لأحد منهم مخالفتها كائنا من كان .

ولا يجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة فى غير الحق .

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط .

ولا اجتهاد ، ولا تقليد فيما دل عليه نص ، من كتاب أو سنة ، سالم من المعارض .

والفرق بين التقليد والاتباع أمر معروف عند أهل العلم ، لا يكاد ينازع فى صحة معناه أحد من أهل العلم .

وقد قدمنا كلام ابن خويز منداد الذى نقله عنه ابن عبد البر فى جامعه.

وهو قوله : التقليد معناه فى الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه فى الشريعة ، والاتباع ما ثبت عليه حجة .

وقال فى موضع آخر من كتابه :

كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد فى دين الله غير صحيح .

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع فى الدين مسوغ والتقليد ممنوع . اه .

وقال ابن القيم رحمه الله فى إعلام الموقعين :

وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله بين التقليد والاتباع .

فقال أبو داود :

سمعته يقول : الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، ثم هو من بعد فى التابعين مخير . انتهى محل الغرض منه .

قال مقيده عفا الله عنه ، وغفر له : أما كون العمل بالوحى اتباعا لا تقليداً فهو أمر قطعى .

والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً :

كقوله تعالى : (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) .

وقوله تعالى : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) الآية .

وقوله تعالى : (قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

وقوله تعالى : (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

وقوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) .

وقوله تعالى : (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلاهو وأعرض عن المشركين) .

وقوله تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين) .

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

فالعمل بالوحى ، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات .

ومن المعلوم الذى لا شك فيه ، أن اتباع الوحى المأمور به فى الآيات لا يصح اجتهاد يخالفه من الوجوه ، ولا يجوز التقليد فى شىء يخالفه .

فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد ، وأن مواضع الاتباع ليست محلا أصلا للاجتهاد ولا للتقليد .

فنصوص الوحى الصحيحة الواضحة الدلالة السالمة من المعارض لا اجتهاد ولا تقليد معها البتة .

لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائنا من كان كما لايخفى .

وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التى يشترطها الأصوليون إنما تشترط فى الاجتهاد .

وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد.

فجعل شروط المجتهد فى المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما خلط وخبط، كما ترى.

والتحقيق أن اتباع الوحى لا يشترط فيه إلا علمه بما يعمل به من ذلك الوحى الذى يتبعه.

وأنه يصح علم حديث والعمل به، وعلم آية والعمل بها.

ولا يتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد.

فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج إليه من الكتاب والسنة، ويعمل بكل ماعلم من ذلك، كما كان عليه أول هذه الأمة، من القرون المشهود لها بالخير.

التنبيه الخامس

اعلم أنه لا يخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور، يقولون: هذا الذى تدعوننا إليه وتأمروننا به من العمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما على آراء الرجال من التكليف بما لا يطاق.

لأنا لا قدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما.

ولا يمكننا معرفة شىء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذى نقلده. لأنا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك.

فإذا لم نقلد إمامنا بقينا فى حيرة لا نعلم شيئاً من أحكام عباداتنا ولا معاملاتنا، وتعطلت بيننا الأحكام إذ لا نعرف قضاء ولا فتوى ولا غير ذلك من الأحكام إلا عن طريق مذهب إمامنا.

لأن أحكامه مدونة عندنا وهى التى نتعلمها ونتدارسها دون غيرها من

الكتاب أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين .

ونحن نقول :

والله لقد ضيقتم واسعا . وادعيتم العجز ، وعدم القدرة فى أمر سهل .

ولا شك أن الأحوال الراهنة للمقلدين التقليد الأعمى ، للمذاهب المدونة تقتضى صعوبة شديدة جداً فى طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاءة بنور الوحى .

وذلك إنما نشأ من شدة التفريط فى تعلم الكتاب والسنة والإعراض عنهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء ، والآباء عن الأجداد .

فالداء المستحكم من مئات السنين لابد لعلاجه من زمن طويل .

ونحن لا نقول : إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده .

بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك .

ولكنا نقول : إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما ، ولا يجوز الإعراض عنهما وأن كل ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئا عن تعلم صحيح وجب عليه العمل به .

فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً كلياً اكتفاء عنهما بغيرهما .

وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل .

فالذى ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولا ثم العمل بهما والتوبة إلى الله من الإعراض عنهما .

ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه ، لا يشك فى بطلانها عاقل ، ونعيذ أنفسنا وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة ، وفى آذانهم وقراً يمنعهم من فهم كتاب الله .

لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالى (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) .

فاحذر ياأخى وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وأنت تسمع ربك يقول : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ، ويقول : (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) .

ويقول (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

فلا تخرج نفسك من عموم أولى الألباب الذين هم أصحاب العقول ، لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء .

وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون ، التقليد الأعمى ، من أحد أمرين :

أحدهما : ألا يلتفتوا إلى نصح ناصح .

بل يستمرون على تقليدهم الأعمى ، والإعراض عن نور الوحى عمداً .

وتقديم رأى الرجال عليه .

وهذا القسم منهم لا نعلم له عذراً فى كتاب الله ولا سنة رسوله .

ولا فى قول أحد من الصحابة ، ولا أحد من القرون المشهود لهم بالخير .

لأن حقيقة ماهم عليه ، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع سهولة تعلم القدر المحتاج إليه منه ، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة .

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم عذره كما ترى .

الامر الثانى :

هو أن يندم المقلدون على ما كانوا عليه من التفريط فى تعلم الوحى ، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا فى ذلك بجد . تائبين مما كانوا عليه من التفريط قبل ذلك ، وهذا القسم على هدى من الله.

وهو الذى ندعو إخواننا إليه .

التنبيه السادس

لا خلاف بين أهل العلم ، فى أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً غير أحكام الاختيار .

فكل مسلم ألجأته الضرورة إلى شىء إلجاءً صحيحاً حقيقياً ، فهو فى سعة من أمره فيه .

وقد استثنى الله جل وعلا ، حالة الاضطرار فى خمس آيات من كتابه ، ذكر فيها المحرمات الأربع التى هى من أغلظ المحرمات ، تحريماً وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به .

فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة ، فأخرجها من حكم التحريم .

قال تعالى فى سورة الأنعام :

(قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) .

وقال فى الأنعام أيضاً :

(وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) .

وقال تعالى فى النحل :

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) .

وقال تعالى فى البقرة :

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) .

وقال تعالى فى المائدة :

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) إلى قوله : (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) .

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً ، بحيث يكون لا قدرة له البتة ، على غيره مع عدم التفريط لكونه لاقدرة له أصلا على الفهم .

أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم .

أو هو فى أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لا يقدر على تعلم كل ما يحتاجه فى وقت واحد .

أو لم يجد كفئا يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور فى التقليد المذكور للضرورة .

. لأنه لا مندوحة له عنه .

أما القادر على التعلم المفرط فيه .

والمقدم آراء الرجال على ماعلم من الوحى .
فهذا الذى ليس بمعذور .

التنبيه السابع

اعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم . هو موقف سائر المسلمين المنصفين منهم .

وهو موالاتهم ، ومحبتهم ، وتعظيمهم، وإجلالهم ، والثناء عليهم ، بما هم عليه من العلم والتقوى ، واتباعهم فى العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق ، وترك ماخالف الكتاب والسنة منها .

وأما المسائل التى لانص فيها فالصواب النظر فى اجتهادهم فيها .

وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا .

لأنهم أكثر علماً وتقوى منا .

ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا فى أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه .

كما قال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » .

وقال : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » .

وحقيقة القول الفصل فى الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين ، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون فى خطئهم فهم مأجورون على كل حال ، لايلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص فى ذلك .

ولكن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حاكمان عليهم وعلى أقوالهم كما لا يخفى .

فلا تغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم

فلا تك ممن يذمهم وينتقصهم ولا ممن يعتقد أقوالهم مغنية عن كتاب الله وسنة رسوله أو مقدمة عليهما .

التنبيـــــه الثامن

اعلم أن كلا من الأئمة أخذت عليه مسائل . قال بعض العلماء : إنه خالف فيها السنة .

وسنذكر طرفاً من ذلك هنا إن شاء الله .

أما الإمام أبو حنيفة رحمـــه الله فهو أكثر الأئمة فى ذلك ، لأنه أكثرهم رأياً .

ولكثرة المسائل التى حصل فيها القيل والقال من ذلك لانحتاج إلى بسط تفصيلها .

وبعض المسائل التى قيل فيها ذلك يظهر أنه لم تبلغه السنة فيها ، وبعضها قد بلغته السنة فيها ، ولكنه تركها لشىء آخر ظنه أرجح منها .

كتركه العمل لحديث القضاء بالشاهد واليمين فى الأموال .

وحديث « تغريب الزانى البكر » لأنه ترك العمل بذلك ونحوه احتراماً للنصوص القرآنية فى ظنه .

لأنه يعتقد أن الزيادة على النص نسخ وأن القضاء بالشاهد واليمين نسخ

لقوله تعالى : (واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) .

فاحترم النص القرآنى المتواتر ، فلم يرض نسخه بخبر آحاد سنده دون سنده

لأن نسخ المتواتر بالآحاد عنـــده ، رفع للأقوى بالأضعف ، وذلك لا يصح .

وكذلك حديث تغريب الزانى البكر فهو عنده زيادة ناسخة لقوله تعالى : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) والمتواتر لا ينسخ بالآحاد .

فتركه العمل بهذا النوع من الأحاديث بناه على مقدمتين :

إحداهما : أن الزيادة على النص نسخ .

والثانية : أن المتواتر لا ينسخ بالآحاد .

وخالفه فى المقدمة الأولى جمهور العلماء .

ووافقوه فى الثانية .

والذى يظهر لنا ونعتقده اعتقاداً جازماً أن كلتا المقدمتين ليست بصحيحة

أما الزيادة فيجب فيها التفصيل .

فإن كانت أثبتت حكما نفاه النص أو نفت حكما أثبته النص فهى نسخ .

وإن كانت لم تتعرض للنص بنفى ولا إثبات بل زادت شيئاً سكت عنه النص فلا يمكن أن تكون نسخاً لأنها إنما رفعت الإباحة العقلية التى هى البراءة الأصلية .

ورفعها ليس نسخاً إجماعاً .

وأما نسخ المتواتر بالآحاد .

فالتحقيق الذى لاشك فيه أنه لامانع منه ولامحذور فيه ، ولا وجه لمنعه البتة ، وإن خالف فى ذلك جمهور أهل الأصول .

لأن أخبار الآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عن المتواتر لاوجه لردها ، ولاتعارض البتة بينها وبين المتواتر إذ لاتناقض بين خبرين اختلف زمنهما ، لجواز صدق كل منهما فى وقته .

فلو أخبرك مثلا عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب ، بأن أخاك الغائب لم يزل غائباً ولم يأت منزله .

لأنهم كانوا بمنزله وليس بموجود ، ثم أخبرك بعد ذلك رجل واحد بأن أخاك موجود فى منزله الآن .

فهل يسوغ لك أن تقول له كذبت ، لأنى أخبرنى عدد كثير قبلك أنه لم يأت ؟

ولو قلت له ذلك لقال لك هم فى وقت إخبارهم لك صادقون ، ولكن أخاك جاء بعد ذلك .

فالمتواتر فى وقت نزوله صادق .

وخبر الآحاد الوارد بعده صادق أيضاً .

لأنه أفاد تجـــدد شىء لم يكن .

فحصر المحرمات مثلا فى الأربع المذكورة فى قوله تعالى :

(قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) الآية . صادق فى ذلك الوقت .

لايوجد محرم على طاعم يطعمه إلا تلك المحرمات الأربع .

فلا تحرم فى ذلك الوقت الحمر الأهلية ولا ذو الناب من السباع ولا الخمر ولا غير ذلك .

فإذا جاء بعد خبر آحاد صحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم : حرم لحوم الحمر الأهلية بخيبر ، فهل يسوغ لقائل أن يقول :

هذا الخبر الصحيح مردود لأنه يعارض حصر المحرمات فى الأربع المذكورة فى آية : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما) الآية ؟

ولو قال ذلك لقيل له :

هذا الخبر الصحيح لاتناقضه الآية ، لأنه إنما أفاد حكما جديداً طارئاً لم يكن مشروعاً من قبل .

وأحكام الشريعة تتجدد شيئاً فشيئاً .

والآية لم تدل على استمرار الحصر المذكور فيها .

فتبين أن زيادة حكم طارىء لاتناقض بينها وبين ما كان قبلها .

وإيضاح هذا أن نسخ المتواتر بالآحاد إنما رفع استمرار حكم المتواتر ودلالة المتواتر على استمرار حكمه ليست قطعية حتى يمنع نسخها بأخبار الآحاد الصحيحة .

وقدقدمنا إيضاح هذا فى سورة الأنعام .

وقصدنا مطلق المثال لما يقال : إن الإمام أبا حنيفة رحمه الله خالف فيه السنة برأيه .

وغرضنا أن نبين أنه رحمه الله لم يخالف شيئاً من ذلك ، إلا لشىء اعتقده مسوغاً لذلك .

وأنه لايترك السنة إلا لشىء يراه مستوجباً لذلك شرعاً

ومما يبين ذلك أنه كان يقدم ضعيف الحديث على الرأى .

قال ابن القيم رحمه الله فى إعلام الموقعين ما نصه :

وأصحاب أبى حنيفة رحمه الله مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأى .

وعلى ذلك بنى مذهبه كما قدم حديث القهقهة مع ضعفه على القياس والرأى .

وقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر فى السفر مع ضعفه على الرأى والقياس .

ومنع قطع يد السارق لسرقة أقل من عشرة دراهم ، والحديث فيه ضعيف .

وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعيف .

وشرط فى إقامة الجمعة المصر ، والحديث فيه كذلك .

وترك القياس المحض فى مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة .

فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة قوله ، وقول الإمام أحمد :

وليس المراد بالحديث الضعيف فى اصطلاح السلف هو الضعف فى اصطلاح المتأخرين .

بل مايسميه المتأخرون حسنا قد يسميه المتقدمون ضعيفا اهـ . محل الغرض منه .

ومن أمثلة ما ذكر أن أبا حنيفة رحمه الله خالف فيها السنة لزوم الطمأنينة فى الصلاة وتعين تكبيرة الإحرام فى الدخول فيها والسلام للخروج منها .

وقراءة الفاتحة فيها والنية فى الوضوء والغسل إلى غير ذلك من مسائل كثيرة .

ولا يتسع المقام هنا لذكر ما استدل به أبو حنيفة لذلك ومناقشة الأدلة .

بل المقصود بيان أن الأئمة لا يخلو أحد منهم من أن يؤخذ عليه شىء خالف فيه سنة وأنهم لم يخالفوها إلا لشىء سوغ لهم ذلك .

وعند المناقشة الدقيقة قد يظهر أن الحق قد يكون معهم وقد يكون الأمر بخلاف ذلك .

وعلى كل حال فهم مأجورون ومعذورون كما تقدم إيضاحه .

وقد أخذ بعض العلماء على مالك رحمه الله أشياء قال :

إنه خالف فيها السنة قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه :

وقد ذكر يحيى بن سلام قال : سمعت عبدالله بن غانم فى مجلس إبراهيم ابن الأغلب يحدث عن الليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبى صلى الله عليه وسلم مما قال مالك فيها برأيه، قال : ولقد كتبت إليه فى ذلك . انتهى محل الغرض منه .

ومعلوم أن مثل كلام الليث هذا عن مالك لا أثر له ، لأنه لم يعين المسائل المذكورة ولا أدلتها .

فيجوز أن يكون الصواب فيها مع مالك لأدلة خفيت على الليث ، فليس خفاؤها على مالك بأولى من خفائها على الليث .

ولا شك أن مذهب مالك المدون فيه فروع تخالف بعض نصوص الوحى. والظاهر أن بعضها لم يبلغه رحمه الله ولو بلغه لعمل به .

وأن بعضها بلغه وترك العمل به لشىء آخر يعتقده دليلا أقوى منه .

ومن أمثلة مالم يبلغه النص فيه صيام ست من شوال بعد صوم رمضان .

قال رحمه الله فى الموطأ ما نصه : إنى لم أر أحداً من أهل العلم والفقه يصومها ولم يبلغنى ذلك عن أحد من السلف .

وإن أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته .

وأن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء ، ولو رأوا فى ذلك رخصة عند أهل العلم ، ورأوهم يعملون ذلك . اهـ منه بلفظه .

وفيه تصريح مالك رحمه الله بأنه لم يبلغه صيام ستة من شوال عن أحد من السلف ، وهو صريح فى أنه لم يبلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا شك أنه لو بلغه الترغيب فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان يصومها ويأمر بصومها ، فضلا عن أن يقول بكراهتها .

وهو لا يشك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرأف وأرحم بالأمة منه .

لأن الله وصفه صلى الله عليه وسلم فى القرآن بأنه رءوف رحيم .

فلو كان صوم الستة يلزمه المحذور الذى كرهها مالك من أجله لما رغب فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولراعى المحذور الذى راعاه مالك .

ولكنه صلى الله عليه وسلم ، ألغى المحذور المذكور وأهدره ، لعلمه بأن شهر رمضان أشهر من أن يلتبس بشيء من شوال .

كما أن النوافل المرغب فيها قبل الصلوات المكتوبة وبعدها لم يكرهها أحد من أهل العلم خشية أن يلحقها الجهلة بالمكتوبات لشهرة المكتوبات الخمس وعدم التباسها بغيرها .

وعلى كل حال ، فإنه ليس لإمام من الأئمة أن يقول هذا الأمر الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه لخشية أن يظنه الجهال من جنس الواجب .

وصيام الستة المذكورة ، وترغيب النبي صلى الله عليه وسلم فيه ثابت عنه .

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه :

حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلى بن حجر جميعا عن إسماعيل ، قال ابن أيوب حدثنا إسماعيل بن جعفر أخبرنى سعد بن سعيد بن قيس عن

عمر بن ثابت بن الحرث الخزرجى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أنه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » انتهى منه بلفظه .

وفيه التصريح من النبى صلى الله عليه وسلم بالترغيب فى صوم الستة المذكورة فالقول بكراهتها من غير مستند من أدلة الوحى خشية إلحاق الجهال لها برمضان ، لا يليق بجلالة مالك وعلمه وورعه ، لكن الحديث لم يبلغه كما هو صريح كلامه نفسه رحمه الله فى قوله : لم يبلغنى ذلك عن أحد من السلف ، ولو بلغه الحديث لعمل به .

لأنه رحمه الله من أكثر الناس اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحرصهم على العمل بسنته .

والحديث المذكور رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائى ، وصوم الستة المذكور رواه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه منهم ثوبان وجابر وابن عباس وأبو هريرة والبراء بن عازب كما بينه صاحب نيل الأوطار.

وعلى كل حال فالحديث صحيح ويكفى فى ذلك إسناد مسلم المذكور .

ولا عبرة بكلام من تكلم فى سعد بن سعيد لتوثيق بعض أهل العلم له واعتماد مسلم عليه فى صحيحه .

ومن أمثلة ما لم تبلغ مالكا رحمه الله فيه السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إفراد صوم يوم الجمعة ، فقد قال رحمه الله فى الموطأ ما نصه :

لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ، ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن .

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه .

وأراه كان يتحراه . انتهى منه بلفظه .

وفيه تصريحه رحمه الله بأنه لم يسمع أحداً من أهل العلم ينهى عن صوم الجمعة .

وأن ذلك حسن عنده ، وأنه رأى بعض أهل العلم يتحرى يوم الجمعة ليصومه .

وهذا تصريح منه رحمه الله بأنه لم يبلغه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الجمعة وحده ، وأمره من صامه أن يصوم معه يوما غيره وإلا أفطر إن ابتدأ صيامه ناويا إفراده .

ولو بلغته السنة فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمل بها وترك العمل بغيرها .

لأن النهى عن صوم يوم الجمعة وجده ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال البخارى رحمه الله فى صحيحه :

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة عن محمد ابن عباد ، قال سألت جابراً رضى الله عنه . أنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن صوم الجمعة ؟ قال : نعم . زاد غير أبى عاصم يعنى أن ينفرد بصومه .

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلا يوما قبله أو بعده » .

حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة ح وحدثنى محمد حدثنا غندر حدثنا

شعبة عن قتادة عن أبى أيوب عن جويرية بنت الحارث رضى الله عنها « أن النبى صلى الله عليه وسلم ، دخل عليها يوم الجمعة وهى صائمة فقال : أصمت أمس؟ قالت: لا ، قال : تريدين أن تصومى غداً ؟قالت لا . قال :فأفطرى » .

وقال حماد بن الجعد سمع قتادة حدثنى أبو أيوب أن جويرية حدثته فأمرها، فأفطرت . انتهى من صحيح البخارى بلفظه .

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه :

حدثنا عمرو الناقد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الحميد بن جبير عن محمد ابن عباد بن جعفر « سألت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما وهو يطوف بالبيت أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة ؟ فقال: نعم ، ورب هذا البيت » .

وقال مسلم أيضاً :

وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حفص وأبو معاوية عن الأعمش ح وحدثنا يحيى بن يحيى واللفظ له أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله أو يصوم بعده ».

وفى لفظ فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالى ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم » هذا لفظ مسلم فى صحيحه .

ولا شك أن هذه الأحاديث لو بلغت مالكا ما خالفها ، فهو معذور فى كونها لم تبلغه .

وقال النووى فى شرح مسلم : وأما قول مالك فى الموطأ : لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن به يقتدى نهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن .

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه .

فهذا الذى قاله هو الذى رآه .

وقد رأى غيره خلاف ما رأى هو .

والسنة مقدمة على ما رآه هو وغيره .

وقد ثبت النهى عن صوم يوم الجمعة ، فيتعين القول به .

ومالك معذور ، فإنه لم يبلغه .

قال الداودى من أصحاب مالك : لم يبلغ مالكا هذا الحديث ولو بلغه لم يخالفه . انتهى منه .

وهذا هو الحق الذى لا شك فيه .

لأن مالكا من أورع العلماء وأكثر الناس اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدعها وهو عالم بها .

وقوله فى هذا الحديث : إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم . أى كأن يعذر أحد صوم اليوم الذى يشق الله فيه مريضه ، فوافق ذلك يوم الجمعة .

لأن صومه له لأجل النذر ، الذى لم يقصد بأصله تعيين يوم الجمعة .

وإنما النهى فيمن قصد بصومه نفس يوم الجمعة دون غيره .

والغرض عندنا إنما هو المثال لبعض الأحكام التى لم تبلغ مالكا فيها السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بلغته لعمل بها .

ومعلوم أن هنالك بعضاً من النصوص ترك مالك العمل به مع أنه بلغه ، لأنه يعتقد أن ما ترك النص من أجله أرجح من النص .

وهذا يحتاج فيه إلى مناقشات دقيقة بين الأدلة ، فقد يكون الحق فى ذلك مع هذا الإمام تارة ومع غيره أخرى .

فقد ترك مالك العمل بحديث خيار المجلس مع أنه حديث متفق عليه ، وقد بلغ مالكا .

وقد حلف عبد الحميد الصائغ من المالكية بالمشى إلى مكة على أنه لا يفتى بثلاث . قالها مالك .

ومراده بالثلاث المذكورة عدم القول بخيار المجلس هذا مع صحة الحديث فيه .

وجنسية القمح والشعير مع صحة الأحاديث الدالة على أنهما جنسان .

والتدمية البيضاء ، ولا شك أن مالكا بلغه حديث خيار المجلس هذا .

فقد روى فى الموطأ عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار » .

قال مالك : وليس لهذا عندنا حد معروف ، ولا أمر معمول به فيه . انتهى منه بلفظه .

مع أن مالكا لم يعمل بهذا الحديث الصحيح :

وأشار فى الموطأ إلى بعض الأسباب التى منعته من العمل به فى قوله :

وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به فيه ، لأن خيار المجلس لم يحدد بحد معروف .

فصار القول به مانعاً من انعقاد البيع إلى حد غير معروف .

وقد يكون المتعاقدان فى سفينة فى البحر لا يمكنهم التفرق بالأبدان .
وقد يكونان مسجونين فى محل لا يمكنهما التفرق فيه .
وقد حمل مالك التفرق المذكور فى الحديث على التفرق فى الكلام .
وصيغة العقد قال :
وقد أطلق التفرق على التفرق فى الكلام دون الأبدان فى قوله تعالى :
(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) فالتفرق فى الآية إنما هو بالتكلم بصيغة الطلاق لا بالأبدان .
وقوله تعالى : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) فالتفرق فى الآية تفرق بالكلام والاعتقاد .
فلا يشترط أن يكون بالأبدان :
وحجج من احتج لمالك فى عدم أخذه بحديث خيار المجلس ، هذا كثيرة معروفة .

منها ما هو فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (وأشهدوا إذا تبايعتم) ، وقوله : (أوفوا بالعقود) ، وقوله : (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) .

ومنها ما هو بغير ذلك .

وليس غرضنا هنا بسط الحجج ومناقشتها ، وإنما غرضنا المثال .

لأن الامام قد يترك نصاً بلغه لاعتقاد أن ما ترك من أجله النص أرجح من نفس النص ، وأنه يجب على المسلم مراعاة المخرج والنجاة لنفسه فينظر فى الأدلة ، ويعمل بأقواها وأقربها إلى رضى الله .

كما حلف عبد الحميد الصائغ بالمشى إلى مكة ، لا يفتى بقول مالك فى هذا .

مع أنه عالم مالكى ، لأنه رأى الأدلة واضحة وضوحاً لالبس فيه، فى أن المراد بالتفرق التفرق بالأبدان .

وقد صرح بذلك جماعة من الصحابة منهم ابن عمر راوى الحديث ، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة .

ولاشك أن المنصف إذا تأمل تأملا صادقاً خالياً من التعصب عرف أن الحق هو ثبوت خيار المجلس .

وأن المراد بالتفرق التفرق فى الأبدان لا بالكلام .

لأن معنى التفرق بالكلام هو حصول الإيجاب من البائع والقبول من المشترى .

وكل عاقل يعلم أن الخيار حاصل لكل من البائع والمشترى ضرورة قبل حصول الإيجاب والقبول .

فحمل كلام النبى صلى الله عليه وسلم على هذا، حمل له على تحصيل حاصل، وهو كما ترى .

مع أن حمل الكلام على هذا المعنى يستلزم أن المراد بالمتبايعين فى الحديث المتساومان ، لأنه لايصدق عليهما اسم المتبايعين حقيقة إلا بعد حصول الإيجاب والقبول .

وحمل المتبايعين فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم على المتساومين اللذين لم ينعقد بينهما بيع خلاف الظاهر أيضا كما ترى .

وأما كون القمح والشعير جنسا واحدا ، فقد استدل له مالك ببعض الآثار التى ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

قال فى الموطأ : إنه بلغه أن سليمان بن يسار قال : فنى علف حمار سعد ابن أبى وقاص فقال لغلامه : خذ من حنطة أهلك فابتع بها شعيراً ، ولا تأخذ إلا مثله . اهـ منه بلفظه .

وفى الموطأ أيضاً عن نافع عن سليمان بن يسار أنه أخبره أن عبد الرحمن ابن الأسود بن عبد يغوث فنى علف دابته ، فقال لغلامه : خذ من حنطة أهلك فابتع بها شعيرا ولا تأخذ إلا مثله . اهـ منه بلفظه .

وفى الموطأ أيضاً : أن مالكا بلغه عن القاسم بن محمد عن بن معيقيب الدوسى مثل ذلك ـ قال مالك : وهو الأمر عندنا اهـ . منه بلفظه .

فهذه الآثار هى عمدة مالك رحمه الله فى كون القمح والشعير جنساً واحداً. وعضد ذلك بتقارب منفعتهما ، والتحقيق الذى لاشك فيه أن القمح والشعير جنسان ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ولا تصح معارضتها البتة بمثل هذه الآثار المروية عمن ذكر .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه » انتهى منه بلفظه .

وهو صريح بأن القمح والشعير جنسان مختلفان ، كاختلافهما مع التمر والملح .

وأن التفاضل جائز مع اختلاف الجنس إن كان يداً بيد ، وروى مسلم فى صحيحه والإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يداً بيد » اهـ منه بلفظه .

وللنسائى وابن ماجه وأبى داود نحوه ، وفى آخره : وأمرنا أن نبيع البر بالشعير والشعير بالبر يداً بيد كيف شئنا .

قال المجد فى المنتقى : لما ساق هذا الحديث ما نصه : وهو صريح فى كون البر والشعير جنسين، وماقاله صحيح كما ترى .

والأحاديث بمثل هذا كثيرة ، وقد قدمنا طرفا منها فى سورة البقرة ه والمقصود هنا بيان صراحة الأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن القمح والشعير جنسان لاجنس واحد،وأنها لايجوز ترك العمل بهامع صحتها ووضوحها ، ولا أن يقدم عليها أثر موقوف على سعد بن أبى وقاص ولا أثر موقوف على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، ولا أثر موقوف على ابن معيقيب .

واعلم أنه لا يصح الاستدلال لكون القمح والشعير جنساً واحداً بحديث معمر بن عبد الله الثابت فى صحيح مسلم وغيره ، قال: كنت أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الطعام بالطعام مثلا بمثل » الحديث .

وذلك لأمرين : أحدهما أن معمر المذكور قال فى آخر الحديث ، وكان طعامهم يومئذ الشعير .

فقد عين أن عرفهم المقارن للخطاب يخصص الطعام المذكور بالشعير .

والمقرر فى أصول مالك: أن العرف المقارن للخطاب من المخصصات المنفصلة التى يخصص بها العام قال فى مراقى السعود فى ذلك :

والعرف حيث قارن الخطابا ودع ضمير البعض والأسبابا

الأمر الثانى :

أن الاستدلال بالحديث المذكور على فرض اعتبار عمومه ،وعدم تخصيصه بالعرف المذكور ، يقتضى أن الطعام كله جنس واحد فيدخل التمر والملح لصدق الطعام عليهما .

وهذا لاقائل به كما ترى .

فالظاهر أن الإمام مالكا رحمه الله ومن وافقه من أهل العلم ، لم تبلغهم

هذه الأحاديث الصحيحة المصرحة ، بأن القمح والشعير والتمر والملح أجناس.

وأن القمح يباع بالشعير كيف شاء المتبايعان إن كان يداً بيد .

وأما التدمية البيضاء فقول مالك فيها يظهر لنا قوته واتجاهه، وإن خالف فى ذلك بعض أصحابه وأكثر أهل العلم .

وقد بين وجه قول مالك فيها ابن عبد البر وابن العربى وغيرهما .

والمسائل التى قال بعض أهل العلم إن مالكا خالف فيها السنة معروفة منها ماذكرنا .

ومنها مسألة سجود الشكر وسجدات التلاوة فى المفصل .

وعدم الجهر بآمين ، وعدم رفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وعدم قول الإمام : ربنا ولك الحمد .

وعدم ضفر رأس المرأة الميتة ثلاث ضفائر .

وترك السجدة الثانية فى الحج وغير ذلك من المسائل .

وقد قدمنا أن بعض ماترك مالك من النصوص قد بلغته فيه السنة ولكنه رأى غيرها أرجح منها ، وأن بعضها لم يبلغه ، وأن الحق قد يكون معه فى بعض المسائل التى أخذت عليه .

وقد يكون مع غيره، كما قال مالك نفسه رحمه الله :

كل كلام فيه مقبول ومردود ، إلا كلام صاحب هذا القبر .

وهو تارة يقدم دليل القرآن المطلق أو العام على السنة التى هى أخبار آحاد. لأن القرآن أقوى سنداً وإن كانت السنة أظهر دلالة ، ولأجل هذا لم يبح ميتة الجراد بدون ذكاة لأنه يقدم عموم (حرمت عليكم الميتة) الآية . على حديث « أحلت لنا ميتتان ودمان » الحديث ، وقدم عموم قوله تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) الآية . على الأحاديث الواردة بالجهر بآمين لأن التأمين دعاء ، والدعاء مأمور بإخفائه فى الآية المذكورة .

فالآية أقوى سنداً وأحاديث الجهر بالتأمين أظهر دلالة فى محل النزاع . ومن المعلوم أن أكثر أهل العلم يقدمون السنة فى نحو هذا .

وقد قدم مالك رحمه الله دليل القرآن فيما ذكرنا كما قدمه أيضاً فى الثانية من سجدتى الحج لأن نص الآية الكريمة فيها كالصريح فى أن المراد سجود الصلاة ، لأن الله يقول فيها . (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم) .

فذكر الركوع مع السجود يدل على أن المراد سجود الصلاة .

والأمر بالصلاة فى القرآن لايستلزم سجود التلاوة كقوله : (فصل لربك وانحر) .

ولذلك لايسجد عند قوله تعالى فى آخر الحجر (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) .

قالوا لأن معنى قوله : (فسبح بحمد ربك) أى صل لربك متلبساً بحمده ، وكن من الساجدين له فى صلاتك .

ولاشك أن قوله تعالى فى ثانية الحج (يا أيها الذين آمنوا اركعوا) الآية . أصرح فى إرادة سجود الصلاة من قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) .

ثم بعد هذا كله فإننا نكرر أن الأئمة رحمهم الله لايلحقهم نقص ولاعيب فيما أخذ عليهم ، لأنهم رحمهم الله بذلوا وسعهم فى تعلم ماجاء عن الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ثم اجتهدوا بحسب طاقتهم ، فالمصيب منهم له أجر اجتهاده وإصابته ، والمخطىء منهم مأجور فى اجتهاده معذور فى خطئه ، ولايسعنا هنا مناقشة الأدلة فيما أخذ عليهم رحمهم الله ، وإنما قصدنا مع الاعتراف بعظم منزلتهم أن نبين أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

يجب تقديمهما على أقوالهم ، لأنهم غير معصومين من الخطأ ، وأن مذاهبهم المدونة لا يصح ولا يجوز الاستغناء بها عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن على كل مسلم قادر على التعليم أن يتعلم الكتاب والسنة ، ومعرفة مذاهب الأئمة تعينه على ذلك ، والنظر فيما استدل به كل منهم يعينه على معرفة أرجح الأقوال وأقربها إلى رضى الله .

وكذلك الشافعي وأحمد رحمهما الله ، فإن كل واحد منهما لا يخلو من شيء قد أخذ عليه ، ومرادنا هنا التمثيل لذلك ، وأن الوحي مقدم على أقوالهم جميعاً ، وليس قصدنا الإكثار من ذلك .

وهذه أمثلة بالمطلوب وكان الشيخ رحمه الله أرجأ إيرادها فنذكرها على ماهو ظاهر من المذهبين ونرجو أن تكون موافقة لما أراد . وبالله التوفيق .

فمما هو في مذهب أحمد رحمه الله صوم يوم الشك وهو يوم الثلاثين من الشعبان حينما يشك فيه هل هو تمام شعبان أو أول رمضان . وذلك حينما تكون السماء مغيمة خشية أن يظهر الهلال خلف الغيم أو القتر .

ولا يكون يوم شك إذا كانت السماء صحواً لأنه إذا رؤى الهلال فهو من رمضان وإلا فهو من شعبان .

فمذهب أحمد هو صوم هذا اليوم المشكوك فيه احتياطا لرمضان ، وهو نص المعنى إلا أنه ذكر عن أحمد روايات أخر . ولكن صومه هو المقدم في المذهب . ولكنه مخالف لصريح النص في قوله صلى الله عليه وسلم في ذلك : « من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم » صلى الله عليه وسلم .

قال في بلوغ المرام : ذكره البخاري تعليقاً ووصله ، قال في سبل السلام: واعلم أن يوم الشك هو يوم الثلاثين من شعبان إذا لم ير الهلال في ليلة بغيم ساتر ، أو نحوه نيجوز كونه من رمضان وكونه من شعبان .

والحديث وما فى معناه يدل على تحريم صومه . اهـ . يعنى بما فى معناه قوله صلى الله عليه وسلم « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين » . متفق عليه ، ولمسلم « فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين » وللبخارى « فأكملوا العدة ثلاثين » .

وشبهة أحمد فى قوله صلى الله عليه وسلم « فاقدروا له » بمعنى فضيقوا عليه » كما فى قوله تعالى : (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) ولكن هذا معارض للنص الصريح فى معنى « فاقدروا له ثلاثين » وقوله « فأكملوا العدة ثلاثين » أى سواء فى شعبان أو فى تمام رمضان عند الفطر .

ولم يقل بصومه من الأئمة إلا أحمد رحمه الله .

ومما هو عند الشافعى قوله بنقض الوضوء من مجرد لمس المرأة الأجنبية بدون حائل مع ماجاء عنه صلى الله عليه وسلم فى أحاديث عائشة رضى الله عنها « كنت أنام معترضة فى القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى فإذا سجد غمزنى فى رجلى فأقبضها فإذا قام مددتها » .

وقد أجابوا عن ذلك باحتمال سترها بحائل فجاء قولها « افتقدت رسول الله ذات ليلة فقمت أطلبه والحجرات ليس فيه آنذاك السرج حتى وقعت كفى على بطن قدمه وهو ساجد يقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح فقلت: والله إنك لفى واد وأنا فى واد » .

فلما قام للركعة الثانية ظنته ذهب عند بعض نسائه فاغتسل ثم جاء يصلى عندها فقامت وأدخلت يدها فى شعر رأسه تتحسس هل اغتسل أم لا .. الخ .

ولهم أجوبة على كل ذلك ولكنها لاتنهض مع هذه النصوص الصريحة.

وشبهة الشافعى فى ذلك فى معنى : لامستم النساء من قوله تعالى: (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا) . الآية. ولم يقل بنقض الوضوء به من الأئمة إلا الشافعى رحمه الله .

ومما ينبغى التنبيه عليه فى هذا المقام أنه لايتأتى من أحد أئمة المسلمين أن يخالف نصاً صريحا من كتاب أو سنة ، بدون أن تكون لديه شبهة معارضة بنص آخر ، أو عدم بلوغ النص إليه ، أو عدم صحته عنده أو غير ذلك مما هو معروف فى هذا المقام

وإنما أوردنا هذين المثالين تتمة للبحث ولمجرد المثال .

التنبيه التاسع

اعلم أن كل من يرى أنه لابد له من تقليد الإمام فى كل شىء بدعوى أنه لايقدر على الاستدلال بكتاب ولاسنة ، ولا قول أحد من الصحابة ولا التابعين ، ولاأحد غير ذلك الإمام .

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً للفرق بين أقوال ذلك الإمام التى خالفها حقا ، وبين ما ألحق بغده على قواعد مذهبه ، ومازاده المتأخرون وقتا بعد وقت من أنواع الاستحسان التى لا أساس لها فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولو علم الإمام بإلحاقهم بمذهبه ، لتبرأ منها ، وأنكر على ملحقها ، فنسبة جميع ذلك للامام من الباطل الواضح .

ويزيده بطلانا نسبته إلى الله ورسوله ، بدعوى أنه شرع ذلك على لسان رسوله ، ونحو هذا كثير فى المختصرات فى المذاهب وكتب المتأخرين منهم .

ومن أمثلته فى مذهب مالك قول خليل المالكى فى مختصره الذى قال فيه مبينا لما به الفتوى : كأقل الطهر يعنى أن قل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوما .

والذين يعتنقون مذهب مالك يعتقدون أن مالكا يقول : بأن أقل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوما .

وهذا لم يقله مالك أبدا ولم يفت به ولم يروه عنه أحد من أصحابه .

والذى كان يقوله مالك : إن أقل الطهر ثمانية أيام أو عشرة أيام .

وهو الذى نقله عنه أجلاء أهل مذهبه كأبى محمد بن أبى زيد فى رسالته رحمه الله .

والقول بأن أقل الطهر خمسة عشر هو قول ابن مسلمة واعتمده صاحب التلقين ، وجعله ابن شاس المشهور أى مشهور مذهب مالك .

مع أن مالكا لم يقله ولم يعلم به ، وأمثال هذا كثيرة جداً فى مذهب مالك وغيره .

ومثال استحسان المتأخرين مالم يقله الامام مما لاشك أنه لو بلغ الإمام لم يقبله قول الحطاب فى شرحه لقول خليل فى مختصره فى الصوم : وعاشوراء وتاسوعاء . ما نصه : قال الشيخ زروق فى شرح القرطبية : صيام المولد كرهه بعض من قرب عصره ممن صلح علمه وورعه .

قال إنه من أعياد المسلمين فينبغى ألا يصام فيه ، وكان شيخنا أبوعبدالله القورى يذكر ذلك كثيراً ويستحسنه . انتهى .

قلت : لعله يعنى ابن عباد. فقد قال فى رسائله الكبرى ما نصه: وأما المولد فالذى يظهر لى أنه عيد من أعياد المسلمين وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزين بلبس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب، أمر مباح لا ينكر على أحد قياسا على غيره من أوقات الفرح .

والحكم بكون هذه الأشياء بدعة فى هذا الوقت الذى ظهر فيه سر الوجود وارتفع فيه علم الشهود وانقشع فيه ظلام الكفر والجحود ، وادعاء أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان ومقارنة ذلك بالنيروز

والمهرجان أمر مستثقل تشمئز منه القلوب السليمة وتدفعه الآراء المستقيمة .

ولقد كنت فيما خلا من الزمان خرجت فى يوم مولد إلى ساحل البحر ، فاتفق أن وجدت هناك سيدى الحاج بن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه وقد أخرج بعضهم طعاما مختلفا ليأكلوه هنالك .

فلما قدموه لذلك أرادوا منى مشاركتهم فى الأكل ، وكنت إذ ذاك صائما فقلت لهم : إنى صائم .

فنظر إلى سيدى الحاج نظرة منكرة ، وقال لى مامعناه : إن هذا اليوم يوم فرح وسرور يستقبح فى مثله الصيام بمنزلة العيد .

فتأملت كلامه فوجدته حقاً ، وكأننى كنت نائما فأيقظنى . انتهى بلفظه .

فهذا الكلام الذى يقتضى قبح صوم يوم المولد وجعله كيوم العيد من غير استناد إلى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولاقول أحد من أصحابه ولا من تابعيه .

ولم يقل به أحد من الأئمه الأربعة ولا من فقهاء الأمصار المعروفين الذى أدخله بعض المتأخرين فى مذهب مالك ، ومالك برىء منه براءة الشمس من اللمس ، ولم يجر على أصول مذهبه ، لأن علة تحريم صوم يوم العيد والفطر عنده أن الله تعالى يكلف عباده فى كل سنة عبادتين عظيمتين والأمر بهما عام لكل من يستطيعهما ، وإحداهما تجب فى العمر مرة واحدة وهى الحج . والثانية تجب كل سنة فى شهر رمضان منها ، وهى الصوم ، فإذا انتهت عبادة الحج أو عبادة الصوم ألزم الله الناس كلهم أن يكونوا فى ضيافته يوم النحر ويوم عيد الفطر .

فمن صام فى أحد اليومين أعرض عن ضيافة الله ، والإعراض عن ضيافته تعالى لا يجوز .

فإلحاق يوم المولد بيوم العيد إلحاق لا أساس له ، لأنه إلحاق ليس بجامع بينهما ولا نفى فارق ولا إلحاق البتة إلا بجامع أو نفى فارق .

وكل من لم يطمس الله بصيرته يعلم أن الحق الذى لا شك فيه هو اتباع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

ومعلوم أن جعل يوم المولد كيوم العيد فى منع الصوم لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا أحد من الأئمة الأربعة .

فهو تشريع لاستقباح قربة الصوم ومنعها فى يوم المولد من غير استناد إلى وحى ولا قياس صحيح ولا قول أحد ممن يقتدى به .

ومما لا نزاع فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسله الله رحمة للعالمين كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ورسالته صلى الله عليه وسلم هى أعظم نعمة على الخلق كما بينه علماء التفسير فى الكلام على قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) الآية ، والخير كل الخير فى اتباعه صلوات الله وسلامه عليه ، والشر كل الشر فى تشريع مالم يشرعه والتقول عليه بمالم يقله.

فالمقلدون لمالك مثل هذا التقليد الأعمى يعتقدون أن هذا الكلام الذى ذكره الحطاب عن زروق وابن عباد وابن عاشر ، أنه هو مذهب مالك وأنه من شرع الله ودينه ، وأنه مادام من مذهب مالك، فاللازم تقديمه على الكتاب والسنة لأنهما لا يجوز العمل إلا للمجتهد المطلق .

وهذا مثال من بلايا التقليد الأعمى وعظائمه .

ولا يخفى أن ادعاء أن وجود نعم الله كمولد النبى صلى الله عليه وسلم يدل على استقباح طاعة الله بالصوم فى أوقات وجود تلك النعم ظاهر الفساد ، لأن المناسب لنعم الله هو طاعته بأنواع الطاعات كالصوم .

ولذا تجد الناس ينذرون لله صوم اليوم الذى ينعم الله عليهم فيه بشفاء

المريض أو إتيان الغائب ، وهذا أمر معروف وهو المعقول لا عكسه .

ومما يوضح هذا أن إنزال القرآن العظيم هو أعظم نعمة على البشر .

ولأجل ذلك علمهم الله حمده تعالى على هذه النعمة العظمى فى أول سورة الكهف فى قوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) الآية .

وقد بين تعالى أنه أنزل هذه النعمة فى شهر رمضان ، فكان نزول هذه النعمة فى شهر رمضان مقتضياً لصومه لا لجعل أيامه أعيادا يستقبح صومها ، لأن الله تعالى قال (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وهذا هو أعظم النعم ، وقد رتب على هذا بالفاء قوله بعده ، (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) الآية فافهم .

والمقصود بهذا المثال النصيحة للذين لم يقدروا على غير هذا التقليد الأعمى ليبحثوا فى كتب المذهب وأمهاته عن أقوال الإمام وكبار أصحابه ليفرقوا بينها وبين أنواع الاستحسان التى لا مستند لها ، التى يدخلها المتأخرون وقتا بعد وقت وهى ظاهرة الفساد عند من رزقه الله علما بكتاب الله وسنة رسوله .

ومما لاشك فيه أن أقوال مالك وكبراء أصحابه مثلا ، أحرى بالصواب فى الجملة من استحسان ابن عباد وابن عاشر وأمثالهما .

التنبيه العاشر

اعلم أن الدعوى التى اتفق عليها متأخرو الأصوليين التى تتضمن حكمهم على خالق السماوات والأرض جل وعلا لايجوز لمسلم يريد الحق والإنصاف أن يعتقدها ، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص ، والحكم

فيها على الله بلا مستند ، وهو جل وعلا الذى يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

وهذه الدعوى المذكورة هى المتركبة مما يأتى ، وهو أن الاجتهاد قد انقرض فى الدنيا وانسد بابه .

وأن الله تعالى محكوم عليه بأن لا يخلق مجتهدا ولا يعلم أحداً من خلقه علما يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدى المنتظر .

وأنه لا يجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولا سنة ولا أن يقلد أحداً كائنا من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة ، كما نص على هذه الدعوى حاكيا إجماعهم عليها صاحب مراقى السعود فى قوله :

والجمع اليوم عليه الأربعه وقفو غيرها الجميع منعه
حتى يجىء الفاطم المجدد دين الهدى لأنه مجتهد

ومراده بالفاطمى المهدى المنتظر لأنه شريف .

وقوله : حتى يجىء . حرف غاية ، والمغيا به ، منع تقليد أحد غير الأربعة المذكور فى قوله : وقفو غيرها الجميع منعه .

وهذا صريح فى أنهم حاكمون على الله القدير العليم، بأنه لا يخلق مجتهداً قبل وجود المهدي المنتظر ، وهذا الذى قاله صاحب مراقى السعود هو المقرر فى كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل المذاهب المدونة .

وهذا الحكم على الله الذى كل يوم هو فى شأن بأنه لا يخلق مجتهداً قبل المهدى من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخى كما ترى .

ولاشك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبى تقطع أنه لا مستند له ، وهذا الذى ذكره صاحب مراقى السعود قد صرح بما يناقضه فى قوله قبله :

والأرض لا عن قائم مجتهد تخلو إلى تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق .

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه فى الصحيحين وغيرهما أنه قال: « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » الحديث . وهو حديث مشهور متفق عليه لا نزاع فى صحته .

ولاشك فى أن هذه الطائفة التى صرح النبى صلى الله عليه وسلم : بأنها لاتزال ظاهرة على الحق حتى يأتى أمر الله أنها طائفة على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وليست البتة من المقلدين التقليد الأعمى .

لأن الحق هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة كما قال تعالى فى سورة النساء (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) وقال فى الأنعام : (وكذب به قومك وهو الحق) . وقال فى النمل (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) وقال فى يونس:(يا أيها الناس قدجاءكم الحق من ربكم) والآيات بمثل ذلك كثيرة .

فدعوى أن الأرض لم يبق فيها مجتهد البتة، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدى المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتا لا مطعن فيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ومما لانزاع فيه أن كل ماينا قض الحق فهو ضلال ، لأن الله جل وعلا يقول : (فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) . والعلم عند الله تعالى .

التنبيه الحادى عشر

اعلم يا أخى أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذى عم جل من فى المعمورة

من المسلمين من أعظم المآسى والمصائب ، والدواهى التى دهت المسلمين من مدة قرون عديدة .

ولاشك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون فى واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافى لأصل الإسلام .

لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكرى عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك فى دين الإسلام .

ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكرى فى عقائدهم ودينهم .

ولكن لما تركوا الوحى ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم والتحصن بسنته .

ولذلك وجد الغزو الفكرى طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين .

ولو كان سلاحهم المضاد له القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلا .

ولاشك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس ، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل ، لا يمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبالجملة فمما لاشك فيه أن هذا الغزو الفكرى الذى قضى على كيان المسلمين ، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم ، لو ضادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحوراً فى غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة ، وكون الغزو الفكرى المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ. فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

الظاهر أن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى ، قوم كفروا بعد إيمانهم .

وقال بعض العلماء : هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف فى كتبهم كفروا به .

وعلى هذا القول فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه ، وعلى هذا فالهدى الذى تبين لهم هو صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ومعرفته بالعلامات الموجودة فى كتبهم

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى فى سورة البقرة : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) لأن قوله : (فلما جاءهم ماعرفوا) مبين معنى قوله : (من بعد ما تبين لهم الهدى) ، وقوله (كفروا به) مبين معنى قوله : (ارتدوا على أدبارهم) .

وقال بعض العلماء : نزلت الآية المذكورة فى المنافقين .

وقد بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة : أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ماتبين لهم الهدى ، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى علة

ذلك (الشيطان سول لهم) أى زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم أى مد لهم فى الأمل ووعدهم طول العمر .

قال الزمخشرى : سول سهل لهم ركوب العظائم من السول ، وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً.

وأملى لهم ومد لهم فى الآمال والأمانى . انتهى .

وإيضاح هذا أن هؤلاء المرتدين على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سول لهم ذلك أى سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم بطول الأعمار .

لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصى .

وفى هذا الحرف قراءتان سبعيتان : قرأه عامة السبعة غير أبى عمرو ، وأملى لهم بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبنى للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان .

وأصل الإملاء الإمهال والمد فى الأجل ، ومنه قوله تعالى : (وأملى لهم إن كيدى متين) ، وقوله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) الآية .

ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار ، كما قال تعالى : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) .

وقال تعالى : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) إلى قوله : (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) .

وقال بعض العلماء : ضمير الفاعل فى قوله (وأملى لهم) على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى .

والمعنى : الشيطان (سول لهم) أى سهل لهم الكفر والمعاصى ، وزين ذلك وحسنه لهم ، والله جل وعلا أملى لهم : أى أمهلهم إمهال استدراج .

وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله ، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله فى تزيين الشيطان لهم (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) الآية . وقوله تعالى ، (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) ، وقوله تعالى : (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وكقوله تعالى فى إملاء الله لهم استدراجاً : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين) . وقوله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) . وقوله تعالى : (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) . وقوله تعالى : (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وقوله تعالى : (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) . وقوله تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وحده من السبعة وأملى لهم بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضى المبنى للمفعول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران آنفا فى فاعل ، وأملى لهم على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل .

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى فى إملاء الشيطان لهم (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) وقوله فى إملاء

الله لهم : (وأملى لهم إن كيدى متين) كما تقدم قريباً ، والإشارة فى قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر) راجعة إلى قوله تعالى ، (الشيطان سول لهم وأملى لهم) .

أى ذلك التسويل والإملاء المفضى إلى الكفر بسبب أنهم (قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر) .

وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذى قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون .

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره مانزل الله فى معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل ، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم).

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى : (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) وفى مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك .

وبينا فى سورة شورى أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله ، وبينا ذلك بالآيات القرآنية فى الكلام على قوله تعالى (كبر على المشركين ماتدعوهم إليه) .

وقد قدمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة والله يعلم (إسرارهم) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم أسرارهم بفتح الهمزة جمع سر .

وقرأه حمزة والكسائى وحفص عن عاصم إسرارهم بكسر الهمزة مصدر أسر كقوله : وأسررت لهم إسراراً. وقد قالوا لهم ذلك سراً فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) أى : فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة ؟

أى قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم فى حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة ، يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأدبارهم جاء موضحاً فى مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى فى الأنفال : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) وقوله فى الأنعام : (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية .

فقوله : (باسطوا أيديهم) أى بالضرب المذكور .

والإشارة فى قوله (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) راجعة إلى المصدر الكامن فى الفعل الصناعى أعنى قوله (يضربون وجوههم) .

أى ذلك الضرب وقت الموت واقع بسبب (أنهم اتبعوا ما أسخط الله) أى أغضبه من الكفر به ، وطاعة الكفار الكارهين لما نزله .

والإسخاط استجلاب السخط ، وهو الغضب هنا .

وقوله : وكرهوا رضوانه لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله .

لأن رضوانه تعالى ليس إلا فى العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل، كراهة رضوانه لأن رضوانه فيما نزل ، ومن أطاع كارهه ، فهو ككارهه .

وقوله : فأحبط أعمالهم أى أبطلها ،لأن الكفر سيئة لاتنفع معها حسنة. وقد أوضحنا المقام فى ذلك إيضاحاً تاما فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) .

وفى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) الآية .

واعلم أن هذه الآية الكريمة ، قد قال بعض العلماء : إنها نزلت فى المنافقين .

وقال بعضهم : إنها نزلت فى اليهود ، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر ، وهو عداوة النبى صلى الله عليه وسلم والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك .

وبعضهم يقول : إن الذين اتبعوا ما أسخط الله ، هم اليهود حين كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم لما عرفوه وكرهوا رضوانه ، وهو الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

والتحقيق الذى لا شك فيه أن هذه الآيات عامة فى كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله

مسألة

اعلم أن كل مسلم ، يجب عليه فى هذا الزمان ،تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها ، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد .

لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلاشك فيما تضمنته من الوعيد الشديد .

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد صلى عليه وسلم ، وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي صلى الله عليه وسلم من السنن .

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله : سنطيعكم في بعض الأمر ، فهو داخل في وعيد الآية .

وأحرى من ذلك من يقول لهم : سنطيعكم في كل الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله ، فإن هؤلاء لاشك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم .

وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، وأنه محبط أعمالهم .

فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا : سنطيعكم في بعض الأمر .

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

اللام في قوله : لنبلونكم موطئة لقسم محذوف .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة على العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لنبلونكم ، ونعلم ، ونبلو .

وقرأه شعبة عن عاصم بالمثناة التحتية .

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله جل وعلا يبلو الناس أي يختبرهم بالتكاليف ، كبذل الأنفس والأموال في

الجهاد ليتميز بذلك صادقهم من كاذبهم ، ومؤمنهم من كافرهم . جاء موضحا فى آيات أخر .

كقوله تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) الآية .

وقوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) .

وقوله تعالى (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون).

وقوله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

وقوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (حتى نعلم المجاهدين) الآية .

قد قدمنا إزالة الإشكال فى نحوه فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) الآية .

فقلنا فى ذلك ما نصه :

ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى ، عن ذلك علوا كبيرا ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون .

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علما لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا : (وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور).

فقوله : والله عليم بذات الصدور بعد قوله : ليبتلى ، دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

لأن العليم بذات الصدور غنى عن الاختبار .

وفى هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التى يذكر الله فيها اختباره لخلقه.

ومعنى إلا لنعلم أى علما يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافى أنه كان عالما به قبل ذلك ، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس ، أما عالم السر والنجوى ، فهو عالم بكل ما سيكون ، كما لا يخفى . اهـ .

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه : [وهذا العلم هو العلم الذى يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة ، ونبلو أخباركم نختبرها ونظهرها] انتهى محل الغرض منه .

وقال أبو جعفر ابن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: [ولنبلونكم أيها المومنين بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول : حتى يعلم حزبى وأوليائى أهل الجهاد . فى الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه فيظهر ذلك لهم ويعرف ذوو البصائر منكم فى دينه من ذوى الشك والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم من الكاذب] . انتهى محل الغرض منه بلفظه .

وما ذكره من أن المراد بقوله : حتى نعلم المجاهدين الآية، حتى يعلم حزبنا

وأولياؤنا المجاهدين منكم والصابرين له وجه ، وقد يرشد له قوله تعالى : (ونبلوا أخباركم) أى نظهرها ونبرزها للناس .

وقوله تعالى : (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) لأن المراد بميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك الناس .

ولذا قال (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) فتعلموا ما ينطوى عليه الخبيث والطيب ، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذى تظهر بسببه طوايا الناس من خبث وطيب .

والقول الأول وجيه أيضا ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ .

الظاهر أن صدوا فى هذه الآية متعدية ، والمفعول محذوف ، أى كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون .

وقد قدمنا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم) الآية . أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر فى الأصول .

وصدوا هنا ، إن قدرت لازمة فمعنى الصدود الكفر ، فتكون كالتوكيد لقوله كفروا .

وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً .

لأن قوله : كفروا يدل على كفرهم فى أنفسهم .

وقوله : وصدوا على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر وصدوه عن الحق ، وهذا أرجح مما قبله .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وشاقوا الرسول) أى خالفوا محمداً صلى الله عليه وسلم مخالفة شديدة .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين أحدهما أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه صلى الله عليه وسلم لن يضروا الله بكفرهم شيئاً ، لأنه غنى لذاته الغنى المطلق .

والثانى أنهم إنما يضرون بذلك أنفسهم ، لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم ، كما قال تعالى : (وسيحبط أعمالهم) .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين فى آيات من كتاب الله .

فمن الآيات الدالة على الأول الذى هو غنى الله عن خلقه ، وعدم تضرره بمعصيتهم ، قوله تعالى : (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

وقوله تعالى : (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) .

وقوله تعالى : (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) .

وقوله تعالى : (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض) .

وقوله تعالى : (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) .

وقوله تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الآيات الدالة على الثانى وهو إحباط أعمالهم بالكفر أى إبطالها به قوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) .

وقوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) الآية .

وقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) .

وقوله تعالى : (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) إلى غير ذلك من الآيات :

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ الآية .

قد قدمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريبا فى جملة كلامنا الطويل على قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات على الكفر لن يغفر الله له ، لأن النار وجبت له بموته على الكفر ، جاء موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله .

كقوله تعالى (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) .

وقوله تعالى (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة

الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) .

وقوله تعالى:(ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما).

وقوله تعالى (ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم إلى السلم بفتح السين .

وقرأ حمزة وشعبة إلى السلم بكسر السين .

وقوله تعالى : (فلا تهنوا) أى لا تضعفوا وتذلوا ، ومنه قوله تعالى : (فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله) .

وقوله تعالى : (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى مضعف كيدهم ، وقول زهير بن أبى سلمى :

وأخلفتك ابنة البكرى ماوعدت فأصبح الحبل منها واهناً خلقاً

وقوله تعالى : (وأنتم الأعلون) جملة حالية أى فلا تضعفوا عن قتال الكفار وتدعوا إلى السلم ، أى تبدءوا بطلب السلم أى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون . أى والحال أنكم أنتم الأعلون أى الأقهرون الأغلبون لأعدائكم ، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب مالا يرجون .

وهذا التفسير فى قوله (وأنتم الأعلون) هو الصواب .

وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده (والله معكم) لأن

من كان الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب .

فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح والمهادنة

وكقوله تعالى : (وإن جندنا لهم الغالبون)، وقوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) الآية ، وقوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية .

ومما يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) الآية ، لأن قوله تعالى (وترجون من الله مالا يرجون) من النصر الذى وعدكم الله به والغلبة وجزيل الثواب .

وذلك كقوله هنا (وأنتم الأعلون) وقوله : (والله معكم) أى بالنصر والإعانة والثواب .

واعلم أن آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال إن إحداهما ناسخة للأخرى ، بل هما محكمتان وكل واحدة منهما منزلة على حال غير الحال التى نزلت عليه الأخرى .

فالنهى فى آية القتال هذه فى قوله تعالى : (ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم) إنما هو عن الابتداء بطلب السلم .

والأمر بالجنوح إلى السلم فى آية الأنفال محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب السلم والجنوح لها ، كما هو صريح قوله تعالى : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (والله معكم) قد قدمنا الآيات الموضحة له فى آخر سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وهذا الذى ذكرنا فى معنى هذه الآية أولى وأصوب مما فسرها به ابن كثير رحمه الله .

وهو أن المعنى : لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون أى فى حال قوتكم وقدرتكم على الجهاد .

أى ، وأما إن كنتم فى ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أى الصلح والمهادنة ، ومنه قول العباس بن مرداس السلمى :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولن يتركم أعمالكم) أى لن ينقصكم شيئا من ثواب أعمالكم .

وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى (وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) أى لا ينقصكم من ثوابها شيئاً .

وقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة ، وقد قدمناها مراراً .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولن يتركم) أصله من الوتر ، وهو الفرد .

فأصل قوله : لن يتركم لن يفردكم ويجردكم من أعمالكم بل يوفيكم إياها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ .

هذه الأجور التى وعد الله بها من آمن واتقى جاءت مبينة فى آيات كثيرة كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير منها أن المعنى : ولا يسألكم النبى صلى الله عليه وسلم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحى المتضمن لخير الدنيا والآخرة .

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) .

وقوله تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) .

وقوله تعالى : (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) وذكرنا بعض ذلك فى سورة الشورى فى الكلام على قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له قريباً فى الكلام على قوله تعالى : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى) الآية .

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

التحقيق الذى عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية ، لأنه فتح عظيم .

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذى تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام ويبينوا لهم محاسنه .

فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك فى الإسلام .

ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة عام ست كانوا ألفا وأربعمائة .

ولما أراد النبى صلى الله عليه وسلم غزو مكة حين نقض الكفار العهد ، كان خروجه إلى مكة فى رمضان عام ثمان .

وكان معه عشرة آلاف مقاتل ، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم .

وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة ، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم .

وإنما قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم على ماقلنا .

ولأن ظاهر القرآن يدل عليه لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية فى طريقه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة .

ولفظ الماضى فى قوله : (إنا فتحنا) يدل على أن ذلك الفتح قد مضى ، فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر .

والآية التى فى فتح مكة دلت على الاستقبال لا على المضى ، وهى قوله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) الآية .

وقد أوضحنا فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب معنى اللام فى قوله : (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك) الآية .

قوله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ .

مادلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً). وقوله تعالى : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) ، وقوله تعالى : (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً) إلى غير ذلك من الآيات . وقد أوضحناه مراراً .

والحق الذى لاشك فيه . أن الإيمان يزيد وينقص ، كما عليه أهل السنة والجماعة ، وقد دل عليه الوحى من الكتاب والسنة كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن له جنود السماوات والأرض ، وبين فى المدثر أن جنوده هذه لايعلمها إلا هو ، وذلك فى قوله : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

قوله تعالى : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ .

أظهر الأقوال وأصحها فى الآية أن اللام فى قوله : (ليدخل) متعلقة بقوله (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) .

وإيضاح المعنى (هو الذى أنزل السكينة) أى السكون والطمأنينة إلى

الحق ، فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا بذلك إيماناً لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق ، وازدياد الإيمان جنات تجرى من تحتها الأنهار .

ومفهوم المخالفة فى قوله : (فى قلوب المؤمنين) أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك وهو كذلك ، ولذا كان جزاؤهم مخالفا لجزاء المؤمنين كما صرح تعالى بذلك فى قوله : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) .

وإيضاح المعنى أنه تعالى وفق المؤمنين بإنزال السكينة ، وازدياد الإيمان وأشقى غيرهم من المشركين والمنافقين فلم يوفقهم بذلك ليجازى كلا بمقتضى عمله.

وهذه الآية شبيهة فى المعنى بقوله تعالى فى آخر الأحزاب : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) .

قوله تعالى : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ﴾

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه يجازى المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهى غضبه ، ولعنته ، ونار جهنم .

وقد بين فى بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة ، كقوله فى الغضب : (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) . وقوله فى اللعنة ، (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) وقوله فى نار جهنم : (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ .

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وقد بين تعالى أنه يبعثه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شاهداً على أمته ، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين . قال تعالى فى شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقوله تعالى : (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء) .

فآية النساء وآية النحل المذكورتان الدالتان على شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته تبينان آية الفتح هذه .

وماذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه فى قوله تعالى: (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً) .

وقد أوضحنا هذا فى أول سورة الكهف ، وماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، ذكره وزيادة فى سورة الأحزاب فى قوله تعالى : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) .

وقوله هنا : (إنا أرسلناك شاهداً) حال مقدرة . وقوله : ومبشراً ونذيراً كلاهما حال معطوف على حال .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة : (فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) أى لا أحد يملك دفع الضر الذى أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذى أراد نفعكم به فلانافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى ، ولا يقدر أحد على دفع ضر أراده ولا منع نفع أراده .

وهذا الذى تضمنته هذه الآية الكريمة . ماجاء موضحاً فى آيات أخر

من كتاب الله كقوله تعالى فى الأحزاب (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) .

وقوله تعالى فى آخر يونس (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) الآية .

وقوله فى الأنعام : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) .

وقوله تعالى فى النساء (قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) .

وقوله تعالى فى فاطر :(مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له) الآية .

وقوله تعالى فى الملك ﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ .

وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على هذا فى أول سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى (مايفتح الله للناس من رحمة) الآية . وفى سورة الأحقاف فى الكلام على قوله تعالى : (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس .

وقد ذكر جل وعلا إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فى براءة فى قوله تعالى : (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وذكر إنزال سكينته على رسوله فى قوله فى براءة : (إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه) الآية .

وذكر إنزاله سكينته على المؤمنين فى قوله (فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم) الآية .

وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة ، وقد بين فى هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب ، وذلك فى قوله : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) الآية .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾

ماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ذكره فى سورة التوبة وسورة الصف وزاد فيهما أنه فاعل ذلك ، ولو كان المشركون يكرهونه ، فقال فى الموضعين (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين ولو كره المشركون ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) .

قوله تعالى . ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾.

قرأ هذا الحرف ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر شطأه بفتح الطاء ، والباقون من السبعة بسكون الطاء .

وقرأ عامة السبعة غير ابن ذكوان : فآزره بألف بعد الهمزة .

وقرأه ابن ذكوان عن عامر فأزره بلا ألف بعد الهمزة مجرداً .

وقرأ عامة السبعة غير قنبل على سوقه بواو ساكنة بعد السين .

وقرأه قنبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بدلا من الواو وعنه ضم الهمزة بعد السين بعدها واو ساكنة .

وهذه الآية الكريمة قد بين الله فيها أنه ضرب المثل فى الإنجيل للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر فى أول نباته رقيقا ضعيفا متفرقا ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة ، العارفين بها ، فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا فى أول الإسلام فى قلة وضعف ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا .

وقوله تعالى : (كزرع أخرج شطأه) أى فراخه فنبت فى جوانبه . وقوله (فآزره) على قراءة الجمهور من المؤازرة ، بمعنى المعاونة والتقوية ، وقال بعض العلماء : (فآزره) أى ساواه فى الطول ، وبكل واحد من المعنيين فسر قول امرىء القيس :

بمحنية قد آزر الصال نبتها مجر جيوش غانمين وخيب

وأما على قراءة ابن ذكوان (فأزره) بلاألف ، فالمعنى شد أزره أى قواه .

ومنه قوله تعالى عن موسى (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى) الآية . وقوله ، (فاستغلظ) أى صار ذلك الزرع غليظاً

بعد أن كان رقيقاً ، وقوله : (فاستوى) أى استتم وتكامل على سوقه أى على قصبه .

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور فى الإنجيل المضروب للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم يكونون فى مبدأ أمرهم فى قلة وضعف ، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون . جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله تعالى كقوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره) الآية .

وقوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) وقوله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونى) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : لاتقدموا فيه لعلماء التفسير ثلاثة أوجه : الأول منها وهو أصحها وأظهرها أنه مضارع قدم اللازمة بمعنى تقدم .

ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما ، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم .

ويدل لهذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة لاتقدموا بفتح التاء والدال المشددة وأصله لا تتقدموا فحذفت إحدى التاءين .

الوجه الثانى : أنه مضارع قدم المتعدى ، والمفعول محذوف لإرادة التعميم أى لا تقدموا قولا ولا فعلا بين يدى الله ورسوله بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدورا فيه عن أمر الله ورسوله

الوجه الثالث : أنه مضارع قدم المتعدية ولكنها أجريت مجرى اللازم، وقطع النظر عن وقوعها على مفعولها ، لأن المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله .

ونظير ذلك قوله تعالى : (هو الذى يحيى ويميت) أى هو المتصف بالإحياء والإماتة ، ولا يراد فى ذلك وقوعهما على مفعول .

وكقوله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) لأن المراد ، أن المتصفين بالعلم لا يستوون مع غير المتصفين به .

ولا يراد هنا وقوع العلم على مفعول ، وكذلك على هذا القول : لاتقدموا ، لا تكونوا من المتصفين بالتقديم .

وقد قدمنا فى كلامنا الطويل على آية : (أفلا يتدبرون القرآن) أن لفظة بين يديه معناها أمامه ، وذكرنا الآيات الدلة على ذلك .

والمعنى لاتتقدموا أمام الله ورسوله : فتقولوا فى شىء بغير علم ولا إذن من الله ، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهى عن التقديم بين يدى الله ورسوله ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم مالم يحرمه ، وتحليل مالم يحلله ، لأنه لاحرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله ، ولا شرع إلا ما شرعه الله .

وقد أوضحنا هذه بالآيات القرآنية بكثرة فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى : (وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) وفى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (ولا يشرك فى حكمه أحداً) وفى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وفى غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (واتقوا الله) أى بامتثال أمره واجتناب نهيه .

وقوله (إن الله سميع عليم) فهو سميع لكل ما تقولون من التقديم بين يديه وغيره ، عليم بكل ما تفعلون من التقديم بين يديه وغيره .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

سبب نزول هذه الآية الكريمة ، أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم ، أشار عليه أبو بكر رضى الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس ابن عقال .

فقال له أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، فارتفعت أصواتهما فأنزل الله :(لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ذكره البخارى فى صحيحه وغيره .

وهذه الآية الكريمة علَّم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي ﷺ ويحترموه ويوقروه ، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته ،وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض،أى ينادونه باسمه : يا محمد ، يا أحمد، كما ينادى بعضهم بعضاً .

وإنما أمروا أن يخاطبوه خطابا يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض، كأن يقولوا يا نبي الله أو يارسول الله ونحو ذلك .

وقوله : (أن تحبط أعمالكم) أى لاتفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم ، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون أى لاتعلمون بذلك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي ﷺ ، وتعظيمه واحترامه جاء مبيناً فى مواضع أخر كقوله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) على القول بأن الضمير فى تعزروه وتوقروه للنبي ﷺ . وقوله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) كما تقدم . وقول تعالى (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه)الآية.وقوله هنا: ولاتجهروا له بالقول أى لاتنادوه باسمه : كيا محمد .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه فى كتابه باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير ، كقوله : (يا أيها النبى) . (يأيها الرسول) . (يأيها المزمل) . (يأيها المدثر) مع أنه ينادى غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله (وقلنا يا آدم) . وقوله : (وناديناه أن يا إبراهيم) . وقوله : (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) . قيل (يانوح اهبط بسلام منا) . وقوله : (قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس) . وقوله : (وإذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك) وقوله : (يا داود إنا جعلناك خليفة) .

أما النبى صلى الله عليه وسلم فلم يذكر اسمه فى القرآن فى خطاب ، وإنما يذكر فى غير ذلك كقوله : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) . وقوله : (وآمنوا بما نزل على محمد) . وقوله : (محمد رسول الله والذين معه) .

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه صلى الله عليه وسلم بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، أى أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم ، وذلك فى قوله تعالى : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

وقال بعض العلماء فى قوله : (ولا تجهروا له بالقول) أى لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض .

قال القرطبى رحمه الله فى تفسير هذه الآية مانصه : وفى هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة ، وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها . انتهى محل الغرض منه .

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر ،وقد قال القرطبي : إنه لا يحبط عمله بغير شعوره وظاهر الآية يرد عليه .

وقد قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية،مانصه : وقوله عز وجل : (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدرى ، كما جاء فى الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالا يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض» اهـ محل الغرض منه بلفظه .

ومعلوم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمته فى أيام حياته ، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره صلى الله عليه وسلم وهم فى صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة ارتفاعا مزعجا كله لا يجوز ، ولا يليق ، وإقرارهم عليه من المنكر .

وقد شدد عمر رضى الله عنه النكير على رجلين رفعا أصواتهما فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، وقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

مسألتان

الأولى : اعلم أن عدم احترام النبي صلى الله عليه وسلم المشعر بالغض منه أو تنقيصه صلى الله عليه وسلم والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله .

وقد قال تعالى فى الذين استهزءوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وسخروا منه فى غزوة تبوك لما ضلت راحلته : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض

ونلعب قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) .

المسألة الثانية

وهى من أهم المسائل، اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التى هى من خصائص ربوبيته ، التى لا يجوز صرفها لغيره ، وبين حقوق خلقه كحق النبى صلى الله عليه وسلم ، ليضع كل شىء فى موضعه ، على ضوء ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة .

وإذا عرفت ذلك فاعلم : أن من الحقوق الخاصة بالله التى هى من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التى لا يقدر على كشفها إلا الله .

فالتجاء المضطر الذى أحاطت به الكروب ودهمته الدواهى لا يجوز إلا لله وحده ، لأنه من خصائص الربوبية فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومرضاته وهو عين التوقير والتعظيم للنبى صلى الله عليه وسلم لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به فى إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جل وعلا .

وقد بين جل وعلا فى آيات كثيرة من كتابه ، أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده ، فى أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى .

من أصرح ذلك الآيات التى فى سورة النمل أعنى قوله تعالى: (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) إلى قوله : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

فإنه جل وعلا قال فى هذه الآيات الكريمات العظيمات : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون) .

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال : (أمن خلق

السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) .

فهذه المذكورات التى هى خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق ذات البهجة ، التى لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله ، من خصائص ربوبية الله ، ولذا قال تعالى بعدها (أإله مع الله) يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق به ، والجواب لا. لأنه لا إله إلا الله وحده .

ثم قال تعالى : (أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون).

فهذه المذكورات أيضاً ، التى هى جعل الأرض قرارا ، وجعل الأنهار خلالها ، وجعل الجبال الرواسى فيها ، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبيته جل وعلا ، ولذا قال بعد ذكرها أإله مع الله ؟ والجواب لا .

فالاعتراف لله جل وعلا بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر فى الآيات من خصائص ربوبيته جل وعلا هو الحق ، وهو من طاعة الله ورسوله ، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالاقتداء به صلى الله عليه وسلم فى تعظيم الله .

ثم قال تعالى وهو محل الشاهد (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون) .

فهذه المذكورات التى هى إجابة المضطر إذا دعا ، وكشف السوء وجعل الناس خلفاء فى الأرض من خصائص ربوبيته جل وعلا ، ولذا قال بعدها أإله مع الله قليلا ما تذكرون .

فتأمل قوله تعالى : (أإله مع الله) مع قوله : (أمن يجيب المضطر إذا

دعاه ويكشف السوء) تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجئوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين ، لا فرق فى كونه من خصائص الربوبية ، بينه وبين خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء وإنبات النبات ، ونصب الجبال وإجراء الأنهار ، لأنه جل وعلا ذكر الجميع بنسق واحد فى سياق واحد ، وأتبع جميعه بقوله : (أإله مع الله) .

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله توجه إليه الإنكار السماوى الذى هو فى ضمن قوله : (أإله مع الله) فلا فرق البتة بين تلك المذكورات فى كونها كلها من خصائص الربوبية .

ثم قال تعالى : (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون) .

فهذه المذكورات التى هى هدى الناس فى ظلمات البر والبحر ، وإرسال الرياح بشرا ، أى مبشرات ، بين يدى رحمته التى هى المطر ، من خصائص ربوبيته جل وعلا .

ولذا قال تعالى : (أإله مع الله) ، ثم نزه جل وعلا نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئاً مما ذكر فقال جل وعلا : (تعالى الله عما يشركون) .

ثم قال تعالى : (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

فهذه المذكورات التى هى بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث ، ورزقه للناس من السماء بإنزال المطر ، ومن الأرض بإنبات النبات ، من خصائص ربوبيته جل وعلا ولذا قال بعدها (أإله مع الله) .

ثم عجَّز جل وعلا كل من يدعى شيئاً من ذلك كله لغير الله ، فقال آمراً

نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية ، أن إجابة المضطرين الداعين ، وكشف السوء عن المكروبين ، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء ، وإنبات النبات ، والحجز بين البحرين إلى آخر ماذكر .

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية ، كما أوضحه تعالى فى هذه الآيات من سورة النمل جاء موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده) .

وقوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير) .

وقوله تعالى : (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلامرسل له) الآية .

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ماتضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم معظمين لله ولرسوله ، لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو اتباعه والاقتداء به ، فى إخلاص العبادة لله جل وعلا وحده .

فإخلاص العبادة له جل وعلا وحده ، هو الذى كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويأمر به وقد قال تعالى : (وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) . وقال تعالى : (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) إلى قوله : (قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه) .

واعلم أن الكفار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ماذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب ، من خصائص الربوبية وكانوا إذا دهمتهم الكروب ، كإحاطة الأمواج بهم فى البحر ، فى وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده ، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراك .

وقد بين الله جل وعلا هذا فى آيات من كتابه كقوله تعالى :(هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ،فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) .

وقوله تعالى : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) الآية .

وقوله تعالى : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون) .

وقوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم عاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) .

وقوله تعالى: (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) .

وقوله تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) .

وقد قدمنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) أن سبب إسلام عكرمة ابن أبى جهل رضى الله عنه أنه لما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فاراً منه إلى بلاد الحبشة فركب فى البحر متوجها إلى الحبشة فجاءتهم ريح عاصف.

فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده . فقال عكرمة فى نفسه : والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره ، فإنه لا ينفع فى البر غيره . اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد صلى الله عليه وسلم فلأجدنه رءوفاً رحيما، فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه . انتهى .

وقد قدمنا هناك أن بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالا من هؤلاء الكفار المذكورين لأنهم فى وقت الشدائد يلجئون لغير الله طالبين منه مايطلب المؤمنون من الله ، وبما ذكر تعلم أن ما انتشر فى أقطار الدنيا من الالتجاء فى أوقات الكروب والشدائد إلى غير الله جل وعلا كما يفعلون ذلك قرب قبر النبى صلى الله عليه وسلم وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح زاعمين أن ذلك من دين الله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ومحبة الصالحين كله من أعظم الباطل ، وهو انتهاك لحرمات الله وحرمات رسوله .

لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التى هى من خصائص ربوبيته إلى

النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي صلى الله عليه وسلم وسخط كل متبع له بالحق .

ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه ، وهو ممنوع فى شريعة كل نبي من الأنبياء ، والله جل وعلا يقول : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) .

بل الذى كان يأمر به صلى الله عليه وسلم هو ما يأمره الله بالأمر به فى قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلا متديناً فى زعمه مدعياً حب النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وهو يعظم النبي صلى الله عليه وسلم ويمدحه بأنه هو الذى خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من السماء وأنبت به الحدائق ذات البهجة ، وأنه صلى الله عليه وسلم هو الذى جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً إلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة ، فإن ذلك العاقل لا يشك فى أن ذلك المادح المعظم فى زعمه من أعداء الله ورسوله المتعدين لحدود الله .

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين .

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل وأن نعظم ربنا بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وإخلاص العبادة له ، وتعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم باتباعه والاقتداء به فى تعظيم الله والإخـــلاص له والاقتداء به فى كل ما جاء به .

وألا نخالفه صلى الله عليه وسلم ولا نعصيه ، وألا نفعل شيئاً يشعر بعدم التعظيم والاحترام ، كرفع الأصوات قرب قبره صلى الله عليه وسلم ، وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا بكتاب الله ، ويعظموا نبيه صلى الله عليه وسلم تعظيم الموافق لما جاء به صلى الله عليه وسلم ويتركوا مايسميه الجهلة محبة وتعظيماً وهو فى الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمات الله ، ورسوله صلى الله عليه وسلم (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) .

واعلم أيضا رحمك الله : أنه لافرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب ، وبين تحصيل المطالب التى لا يقدر عليها إلا الله ، كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير .

فإن التجاء العبد إلى ربه فى ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته جل وعلا كما قال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض) وقال تعالى : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) . وقال تعالى : (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) الآية . وقال تعالى : (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات) وقال تعالى : (واسألوا الله من فضله) إلى غير ذلك من الآيات .

وفى الحديث « إذا سألت فاسأل الله » .

وقد أثنى الله جل وعلا على نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالتجائهم اليه وقت الكرب يوم بدر فى قوله : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية . فنبينا صلى الله عليه وسلم كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجئوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء . فعلينا أن نتبع ولا نبتدع.

تنبيـــــــه

اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل فى معنى العبادة ، وهى تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات فيخلص تقربه بذلك إلى الله ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان .

والظاهر أن ذلك يشمل هيئات العبادة فلا ينبغى للمسلم عليه صلى الله عليه وسلم أن يضع يده اليمنى على اليسرى كهيأة المصلى ، لأن هيأة الصلاة داخلة فى جملتها فينبغى أن تكون خالصة لله ، كما كان صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ .

نزلت هذه الآية الكريمة فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وقد أرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق من خزاعة ليأتيهم بصدقات أموالهم فلما سمعوا به تلقوه فرحاً به ، فخاف منهم وظن أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم وزعم له أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله ، فقدم وفد منهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه بكذب الوليد فأنزل الله هذه الآية .

وهى تدل على عدم تصديق الفاسق فى خبره .

وصرح تعالى فى موضع آخر بالنهى عن قبول شهادة الفاسق ، وذلك فى قوله : (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) ولا خلاف بين العلماء فى رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره .

وقد دلت هذه الآية من سورة الحجرات على أمرين :

الأول منهما : أن الفاسق إن جاء بنبإ ممكن معرفة حقيقته ، وهل ما قاله فيه الفاسق حق أو كذب فإنه يجب فيه التثبت .

والثانى : هو ما استدل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل لأن قوله تعالى : (إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) بدل بدليل خطابه ، أعنى مفهوم مخالفته أن الجائى بنبإ إن كان غير فاسق بل عدلا لا يلزم التبين فى نبئه على قراءة : فتبينوا . ولا التثبت على قراءة : فتثبتوا ، وهو كذلك .

وأما شهادة الفاسق فهى مردودة كما دلت عليه آية النور المذكورة آنفاً .

وقد قدمنا معنى الفسق وأنواعه فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

وقوله (أن تصيبوا قوما) أى لئلا تصيبوا قوماً ، أو كراهة أن تصيبوا قوما بجهالة ، أى لظنكم النبأ الذى جاء به الفاسق حقاً فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم للقوم المذكورين نادمين لظهور كذب الفاسق فيما أنبأ به عنهم ، لأنهم لو لم يتبينوا فى نبإ الوليد عن بنى المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين ؟ ولو فعلوا ذلك لندموا .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائى : فتبينوا بالباء التحتية الموحدة بعدها مثناة تحتية مشددة ثم نون . وقرأه حمزه والكسائى : فتثبتوا

بالثاء المثلثة بعدها باء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مثناة فوقية .

والأول من التبين ، والثانى من التثبت .

ومعنى القراءتين واحد ، وهو الأمر بالتأنى وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ .

ما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من أنه هو الذى حبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، كقوله تعالى : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) .

وقوله تعالى : (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) الآية .

وقوله تعالى : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون).

وقوله تعالى : (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

هذه الأخوة التى أثبت الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هى أخوة الدين لا النسب .

وقد بين تعالى أن الأخوة تكون فى الدين فى قوله تعالى (فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين) الآية .

وقد قدمنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ، أن الأخوة الدينية أعظم وأقوى من الأخوة النسبية ، وبينا أدلة ذلك من الكتاب والسنة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ .

قوله : (لايسخر قوم من قوم) أى لايستخفوا ولايستهزءوا بهم ، والعرب تقول : سخر منه بكسر الخاء ، يسخر بفتح الخاء على القياس ، إذا استهزأ به واستخف .

وقد نهى الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس، مبينا أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر .

ومن أقبح القبيح استخفاف الدنىء الأرذل بالأكرم الأفضل ، واستهزاؤه به .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة من النهى عن السخرية جاء ذم فاعله وعقوبته عند الله فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى :(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) .

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين فى الدنيا كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين فى دار الدنيا ، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) وقال تعالى : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين

آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون) إلى قوله تعالى : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) .

فلاينبغى لمن رأى مسلماً فى حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن يسخر منه لهذه الآيات التى ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

أى لايلمز أحدكم أخاه كما تقدم إيضاحه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

وقد أوعد الله جل وعلا الذين يلمزون الناس فى قوله تعالى : (ويل لكل همزة لمزة) ، والهمزة كثير الهمز للناس ، واللمزة كثير اللمز .

قال بعض العلماء : الهمز يكون بالفعل كالغمز بالعين احتقاراً وازدراء ، واللمز باللسان ، وتدخل فيه الغيبة .

وقد صرح الله تعالى بالنهى عن ذلك فى قوله: (ولايغتب بعضكم بعضاً) ونفر عنه غاية التنفير فى قوله تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع فى عرض أخيه .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من ذكر وأنثى ، ولم يبين هنا كيفية خلقه للذكر والأنثى المذكورين ولكنه بين ذلك فى مواضع أخر من كتاب الله .

فبين أنه خلق ذلك الذكر الذى هو آدم من تراب ، وقد بين الأطوار التى مربها ذلك التراب، كصيرورته طينا لازباوحمأ مسنونا وصلصالا كالفخار.

وبين أنه خلق تلك الأنثى التى هى حواء من ذلك الذكر الذى هو آدم فقال فى سورة النساء : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء) وقال تعالى فى الأعراف (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) وقال تعالى : فى الزمر (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) .

وقد قدمنا أنه خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة :

الأول منها : خلقه لامن أنثى ولا من ذكر وهو آدم عليه السلام .

والثانى : خلقه من ذكر بدون أنثى وهو حواء .

والثالث : خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

الرابع : خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر الآدميين ، وهذا يدل على كمال قدرته جل وعلا .

مسألة

قد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستنداً إلى وجود الرجل وفرعا عنه.

وهذا أمر كونى قدرى من الله ، أنشأ المرأة فى إيجادها الأول عليه .

وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به فى أرضه ، بمراعاة هذا الأمر الكونى القدرى فى حياة المرأة فى جميع النواحى .

فجعل الرجل قائما عليها وجعلها مستندة إليه فى جميع شئونها كما قال تعالى : (الرجال قوامون على النساء) الآية .

فمحاولة استواء المرأة مع الرجل فى جميع نواحى الحياة لا يمكن أن تتحقق لأن الفوارق بين النوعين كونا وقدراً أولا ، وشرعاً منزلا ثانياً ، تمنع من ذلك منعاً باتاً .

ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى ، صح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر » .

ولاشك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر ، لتحطيم هذه الفوارق التى لا يمكن أن تتحطم .

وقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » .

وقد قدمنا هذا الحديث بسنده فى سورة بنى إسرائيل ، وبينا هناك أن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون فى كتاب الله ، فلو كانت الفوارق بين الذكر والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها لم يستوجب من أراد ذلك اللعن من الله ورسوله .

ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية القدرية بين الذكر والأنثى ، فرق الله جل وعلا بينهما فى الطلاق ، فجعله بيد الرجل دون المرأة ، وفى الميراث ، وفى نسبة الأولاد إليه .

وفى تعدد الزوجات دون الأزواج : صرح بأن شهادة امرأتين بمنزلة شهادة رجل واحد فى قوله تعالى : (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) الآية ، فالله الذى خلقهما لاشك أنه أعلم بحقيقتهما ، وقد صرح فى كتابه بقيام الرجل مقام امرأتين فى الشهادة .

وقد قال تعالى : (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى) أى غير عادلة لعدم استواء النصيبين لفضل الذكر على الأنثى

ولذلك : وقعت امرأة عمران فى مشكلة لما ولدت مريم ، كما قال تعالى عنها : (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) الآية .

فامرأة عمران تقول : (وليس الذكر كالأنثى) ، وهى صادقة فى ذلك بلا شك .

والكفرة وأتباعهم يقولون : إن الذكر والأنثى سواء .

ولاشك عند كل عاقل فى صدق هذه السالبة وكذب هذه الموجبة .

وقد أوضحنا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وجه الحكمة فى جعل الطلاق بيد الرجل وتفضيل الذكر على الأنثى فى الميراث وتعدد الزوجات ، وكون الولد ينسب إلى الرجل ، وذكرنا طرفاً من ذلك فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (وللرجال عليهن درجة) ؛ وبينا أن الفوارق الطبيعية بينهما كون الذكورة شرفاً وكمالا وقوة طبيعية خلقية ، وكون الأنوثة بعكس ذلك .

وبينا أن العقلاء جميعاً مطبقون على الاعتراف بذلك ، وأن من أوضح الأدلة التى بينها القرآن على ذلك اتفاق العقلاء على أن الأنثى من حين نشأتها تجلى بأنواع الزينة من حلى وحلل ، وذلك لجبر النقص الجبلى الخلقى الذى هو الأنوثة كما قال الشاعر :

وما الحلى إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وقد بينا أن الله تعالى أوضح هذا بقوله : (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) ، فأنكر على الكفار أنهم مع ادعاء الولد لله تعالى جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما خلقة وجبلة وهو الأنثى .

ولذلك نشأت فى الحلية من صغرها ، لتغطية النقص الذى هو الأنوثة وجبره بالزينة ، فهو فى الخصام غير مبين .

لأن الأنثى لضعفها الخلقى الطبيعى لاتقدر أن تبين فى الخصام إبانة الفحول الذكور ، إذا اهتضمت وظلمت لضعفها الطبيعى .

وإنكار الله تعالى على الكفار أنهم مع ادعائهم له الولد جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما كثير فى القرآن كقوله تعالى : (اصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون) وقوله : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولا عظيما) ، وقوله تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما الذكر فإنه لاينشأ فى الحلية ، لأن كمال ذكورته وشرفها وقوتها الطبيعية التى لايحتاج معه إلى التزين بالحلية التى لاتحتاج إليه الأنثى ، لكماله بذكورته ونقصها بأنوثتها .

ومما لانزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرا المعاشرة البشرية الطبيعية التى لابقاء للبشر دونها ، فإن المرأة تتأثر بذلك تأثراً طبعياً كونياً قدرياً مانعا لها من مزاولة الأعمال كالحمل والنفاس ومايتشأ عن ذلك من الضعف والمرض والألم .

بخلاف الرجل فإنه لايتأثر بشىء من ذلك ، ومع هذه الفوارق لايتجرأ على القول بمساواتهما فى جميع الميادين إلا مكابر فى المحسوس ، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من أعمى الله بصيرته .

وقد قدمنا فى الموضعين اللذين أشرنا لهما من هذا الكتاب المبارك مايكفى المنصف ، فأغنى عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ .

لما كان قوله تعالى : (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) يدل على استواء الناس فى الأصل ، لأن أباهم واحد وأمهم واحدة وكان فى ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض ، بين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا أى يعرف بعضهم بعضاً ، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه .

وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب .

وقد بين الله ذلك هنا بقوله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل ، ولقد صدق من قال :

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبالهب

وقد ذكروا أن سلمان رضى الله عنه كان يقول :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية ، تدل على أن دين الإسلام دين سماوى صحيح ، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر ، ولا إلى الجهات ، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جلا وعلا وطاعته ، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله ، ولا كرم ولا فضل لغير المتقى ، ولو كان رفيع النسب .

والشعوب جمع شعب ، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب وهى : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة .

فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل .

خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

وسميت الشعوب ، لأن القبائل تتشعب منها . اهـ .

ولم يذكر من هذه الست فى القرآن إلا ثلاث الشعوب ، والقبائل كما فى هذه الآية ، والفصيلة فى المعارج فى قوله : (وفصيلته التى تؤويه) وقد قدمنا مادلت عليه هذه الآيات موضحاً فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق البطن على القبيلة فى قول الشاعر :

وإن كلابا هذه عشر أبطن وأنت برىء من قبائلها العشر

كما قدمناه فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (ثلاثة قروء) .

قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا آمنا ، وأن الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول لهم : (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) ، وهذا يدل على نفى الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم .

وذلك يستلزم أن الإيمان أخص من الإسلام لأن نفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم .

وقد قدمنا مراراً أن مسمى الإيمان الشرعى الصحيح ، والإسلام الشرعى الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار ، والجوارح بالعمل ،

فمؤداهما واحد كما يدل له قوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) .

وإذا كان ذلك كذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام فى هذه الآية الكريمة ، لأن الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام ، ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما عندى أن الإيمان المنفى عنهم فى هذه الآية هو مسماه الشرعى الصحيح ،والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوى الذى هو الإستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب .

وإنما ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح ، لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر. وأن توكل السرائر إلى الله .

فانقياد الجوارح فى الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفى به شرعاً ، وإن كان القلب منطوياً على الكفر .

ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية فى قوله : (ولكن قولوا أسلمنا) ، لأن انقياد اللسان والجوارح فى الظاهر إسلام لغوى مكتفى به شرعاً عن التنقيب عن القلوب .

وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى إسلاماً لغة . ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوى مسلم الجاهلية :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما استوت شدها ... جميعا وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هى سقيت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الريح تصرف حالا فحالا

فالمراد بالإسلام فى هذه الأبيات : الاستسلام والانقياد ، وإذا حمل الإسلام فى قوله (ولكن قولوا أسلمنا) انقذنا واستسلمنا بالألسنة والجوارح. فلا إشكال فى الآية .

وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون ، لأنهم مسلمون فى الظاهر ، وهم كفار فى الباطن .

الوجه الثانى : أن المراد بنفى الإيمان فى قوله : (لم تؤمنوا) نفى كمال الإيمان، لا نفيه من أصله .

وعليه فلا إشكال أيضا ، لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام ، وهذا لا إشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص .

وإنما استظهرنا الوجه الأول ، وهو أن المراد الإسلام معناه اللغوى دون الشرعى، وأن الأعراب المذكورين كفار فى الباطن وإن أسلموا فى الظاهر ، لأن قوله جل وعلا : (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) يدل على ذلك دلالة كما ترى ، لأن قوله : (يدخل) فعل فى سياق النفى وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مراراً ، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقى السعود :

ونحو لا شربت أو إن سربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

فقوله : (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) : فى معنى لا دخول للإيمان فى قلوبكم .

والذين قالوا بالثانى . قالوا : إن المراد بنفى دخوله نفى كماله ، والأول أظهر كما ترى .

وقوله تعالى : فى هذه الآية الكريمة : (قالت الأعراب) : المراد به بعض الأعراب ، وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك ، وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم : (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر) ، وإنما قلنا إن المراد بعض الأعراب فى هذه الآية ، لأن الله بين فى موضع آخر أن منهم من ليس كذلك ، وذلك فى قوله تعالى (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما قال هؤلاء الأعراب : آمنا ، وأمر الله نبيه أن يكذبهم فى قوله : (قل لم تؤمنوا) وقوله : (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أمر نبيهم أن يقول لهم بصيغة الإنكار : (أتعلمون الله بدينكم) وذلك بادعائكم أنكم مؤمنون والله لا يخفى عليه شىء من حالكم ، وهو عالم بأنكم لم تؤمنوا وعالم بكل ما فى السموات والأرض وعالم بكل شىء .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقبيح تزكية النفس بالكذب جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾

المقسم عليه فى الآية محذوف ، والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف فى سورة صٓ ، وقد أوضحناه فى الكلام عليها .

وقوله تعالى هنا ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا أَنْ جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ، أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾

قد قدمنا فى سورة صٓ أن من المقسم عليه أن النبى صلى الله عليه وسلم صادق وأن رسالته حق ، كما دل عليه قوله فى صٓ : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) وقد دل على ذلك قوله هنا : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) ، وقد قدمنا فى صٓ أنه يدخل فى المقسم عليه تكذيب الكفار فى إنكارهم البعث ، ويدل عليه قوله هنا : (فقال الكافرون هذا شىء عجيب أئذا متنا وكنا ترابا) الآية ، والحاصل أن المقسم عليه فى صٓ ، بقوله : (والقرآن ذى الذكر) ، وفى قٓ بقوله : (والقرآن المجيد) محذوف وهو تكذيب الكفار فى إنكارهم رسالة النبى ﷺ وإنكارهم البعث ، وإنكارهم كون المعبود واحداً ، وقد بينا الآيات الدالة على ذلك فى سورة صٓ ، وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه فى سورة قٓ هذه المحذوف يدخل فيه إنكارهم لرسالة النبى ﷺ بدليل قوله : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) وتكذيبهم فى إنكارهم للبعث بدليل قوله : (فقال الكافرون هذا شىء عجيب) وبينا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ .

الهمزة فى قوله :(أفلم) تتعلق بمحذوف ، والفاء عاطفة عليه ، كما قدمنا مرارا أنه أظهر الوجهين ، وأنه أشار إليه فى الخلاصة بقوله :

.·. وحذف متبوع بدا هنا استبح .·.

والتقدير : أأعرضوا عن آيات الله فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ؛ أى ليس فيها من شقوق ولا تصدع ولا تفطر ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء وتزيينه لها وكونها لا تصدع ولا شقوق فيها جاء كله موضحاً فى آيات أخر كقوله جل وعلا فى بنائه للسماء : (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) ، وقوله تعالى:(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) ، وقوله تعالى :(وبنينا فوقكم سبعا شدادا) ، وقوله تعالى :(الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ، وقوله تعالى :(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين)، وقوله تعالى فى أول الرعد :(الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) ، وقوله تعالى فى لقمان : (خلق السماوات بغير عمد ترونها) الآية .. إلى غير ذلك من الآيات . وكقوله تعالى فى تزيينه للسماء (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ، وقوله تعالى :(وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) الآية ، وقوله تعالى:(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) ، وقوله تعالى : (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين) . وكقوله تعالى فى حفظه للسماء من أن يكون فيها فروج أى شقوق :(فارجع البصر هل ترى من فطور) ، والفطور والفروج بمعنى واحد ، وهو الشقوق والصدوع . وقوله

تعالى : (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) ، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تتشقق وتتفطر ، وتكون فيها الفروج كما قال تعالى: (ويوم تشقق السماء بالغمام) . وقال تعالى: (فإذا انشقت السماء فكانت وردة) الآية . وقال تعالى : (فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء) الآية . وقال تعالى : (إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت)، وقال تعالى : (إذا السماء انفطرت) ، وقال تعالى:(يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به). وقال تعالى: (فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت) .

قوله تعالى ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسى وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وهذا الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحا فى آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى : (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) إلى قوله :(لقوم يتفكرون)، وكقوله : (خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : «من كل زوج بهيج» أى من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله : (تبصرة) أى قدرنا الأرض وألقينا فيها الراوسى وأنبتنا فيها أصناف النبات الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شىء وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا .

قوله تعالى ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ .

قوله : كذلك الخروج، معناه أن الله تبارك وتعالى : يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله ، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم ترابا وعظاما . فقوله : كذلك الخروج يعنى أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه، بجامع استواء الجميع فى أنه جاء بعد عدم ، وهذا أحد براهين البعث التى يكثر الاستدلال عليه بها فى القرآن ، وقد قدمنا الآية الموضحة لذلك فى صدر سورة البقرة وأول النحل وأول الجاثية ، وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ .

هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب ، أى يتحتم ويثبت فى حقه ثبوتا لا يصح معه تخلفه عنه ، وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح أن يخلف وعيده ، لأنه قال : إنه لا يخلف وعده ولم يقل إنه لا يخلف وعيده ، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح ، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد ، وأن الشاعر قال :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

لا يصح بحال ، لأن وعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل كما دل عليه قوله هنا : (كل كذب الرسل فحق وعيد) . وقد تقرر فى الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله : سها فسجد . أى لعلة سهوه وسرق فقطعت يده أى لعلة سرقته ، ومنه قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) ، فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم ، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة

جاء موضحاً فى آيات أخر ، كقوله تعالى فى هذه السورة الكريمة : (قال لاتختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لدى) الآية ، والتحقيق : أن المراد بالقول الذى لا يبدل لديه هو الوعيد الذى قدم به إليهم .

وقوله تعالى فى سورة ص (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . وبهذا تعلم أن الوعيد الذى لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب ، لأن الله تعالى أوضح ذلك فى قوله : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وهذا فى الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين ، ولا إشكال فى ذلك ، وقد أوضحنا هذا فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) .

قوله تعالى ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

هذه الآية الكريمة من براهين البعث، لأن من لم يعى بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لاشك فى قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى ، لأن الإعادة لايمكن أن تكون أصعب من البدء . والآيات الدالة على هذا كثيرة جدا ، كقوله تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه). وقوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وقوله : (فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة)والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التى يكثر الاستدلال عليه بها فى القرآن، كخلق الناس أولا ، وخلق السماوات والأرض ومافيهما وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك فى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، فى البقرة والنحل والحج والجاثية وغير ذلك ، وأحلنا على ذلك مرارا كثيرة .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة هود فى الكلام على. قوله تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) .

قوله تعالى ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

قوله إذ : منصوب بقوله : أقرب ، أى نحن أقرب إليه من حبل الوريد فى الوقت الذى يتلقى فيه الملكان جميع مايصدر منه ، والمراد أن الذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، فى وقت كتابة الحفظة أعماله لاحاجة له لكتب الأعمال ، لأنه عالم بها لايخفى عليه منها شىء ، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة ، كما أوضحه بقوله :(ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) ، ومفعول التلقى فى الفعل الذى هو يتلقى ، والوصف الذى هو المتلقيان محذوف تقديره ، إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه .

قال الزمخشرى : والتلقى التلقن بالحفظ والكتبة اه منه ، والمعنى واضح لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه فيكتبه عليه ، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان ، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه ومقعد الآخر عن شماله .

والقعيد: قال بعضهم :معناه القاعد ،والأظهر أن معناه المقاعد ، وقد يكثر فى العربية إطلاق الفعيل وإرادة المفاعل ، كالجليس بمعنى المجالس ، والأكيل بمعنى

المآكل ، والنديم بمعنى المنادم ، وقال بعضهم : القعيد هنا هو الملازم ، وكل ملازم دائماً أو غالباً يقال له قعيد ، ومنه قول متمم بن نويرة التميمى :

قعيدك ألا تسمعينى ملامة ولا تنكئى قرح الفؤاد فيجعا

والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، وهو أسلوب عربى معروف ، وأنشد له سيبويه فى كتابه قول عمرو بن أحمر الباهلى :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئا ومن أجل الطوى رماني

وقول قيس بن الخطيم الأنصارى :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وقول ضابئ بن الحارث البرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

فقول ابن أحمر : كنت منه ووالدى بريئا أى كنت بريئا منه وكان والدى بريئا منه .

وقول ابن الخطيم : نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض : أى نحن راضون وأنت راض .

وقول ضابئ بن الحارث : فإنى وقيار بها لغريب : يعنى إنى لغريب وقيار غريب ، وهذا أسلوب عربى معروف ، ودعوى أن قوله فى الآية : قعيد هى الأولى أخرت وحذفت الثانية لدلالتها عليها لادليل عليه ، ولا حاجه إليه كما ترى ، لأن المحذوف إذا صحت الدلالة عليه بالأخير فلا حاجة إلى أن هذا الأخير أصله هو الأول ، ولادليل عليه . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ما يلفظ

من قول : أى ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا لديه ، أى إلا والحال أن عنده رقيباً . أى ملكاً مراقباً لأعماله حافظاً لها شاهداً عليها لا يفوته منها شىء . عتيد: أى حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من الملائكة يكتبون أعماله ، جاء موضحا فى آيات كثيرة من كتاب الله . كقوله تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) . وقوله تعالى : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) . وقوله تعالى : (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (كلا سنكتب ما يقول) الآية .

وفى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (ستكتب شهادتهم ويسألون) ، وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن القعيد الذى هو عن اليمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات، وأن صاحب الحسنات أمين على صاحب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : أمهله ولا تكتبها عليه لعله يتوب أو يستغفر ؟ وبعضهم يقول : يمهله سبع ساعات . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

اعلم أن العلماء اختلفوا فى عمل العبد الجائز الذى لا ثواب ولا عقاب عليه ، هل تـكتبه الحفظة عليه أولا ؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شىء حتى الأنين فى المرض ، وهذا هو ظاهر قوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . لأن قوله : من قول نـكرة فى سياق النفى زيدت قبلها لفظة من ، فهى نص صريح فى العموم.

وقال بعض العلماء : لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب فالذين يقولون : لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب ، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلا ، وبعضهم يقولون : يكتب أولا ثم يمحى . وزعم بعضهم أن محو ذلك ، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى :(يمحو الله ما يشاء ويثبت) الآية .

والذين قالوا : لا يكتب ما لا جزاء فيه . قالوا : إن فى الآية نعتاً محذوفا سوَّغ حذفه العلم به ، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب ، وتقدير النعت المحذوف ، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء ، وقد قدمنا أن حذف النعت إذا دل عليه دليل أسلوب عربى معروف ، وقدمنا أن منه قوله تعالى : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صحيحة لا عيب فيها بدليل قوله (فأردت أن أعيبها) وقوله تعالى : (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) الآية : أى قرية ظالمة بدليل قوله تعالى : (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) ، وأن من شواهده قول المرقش الأكبر :

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد

أى لها فرع فاحم وجيد طويل . وقول عبيد بن الأبرص :

من قوله قول ومن فعله فعل ومن نائله نائل

أى قول فصل ، وفعل جميل ، ونائل جزل .

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع وشعبة عن عاصم يوم نقول بالنون الدالة على العظمة . وقرأه نافع وشعبة يوم يقول بالياء ، وعلى قراءتهما فالفاعل ضمير يعود إلى الله ، واعلم أن الاستفهام فى قوله : هل من مزيد فيه للعلماء قولان معروفان؛ الأول :أن الاستفهام إنكارى كقوله تعالى : (هل يهلك إلا القوم الظالمون) أى مايهلك إلا القوم الظالمون ، وعلى هذا ، فمعنى هل من مزيد لا محل للزيادة لشدة امتلاء النار ، واستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من كتاب الله كقوله تعالى :(ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى: (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) قال :فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى : (لقد حق القول على أكثرهم) الآية ، لأن إقسامه تعالى فى هذه الآية المدلول عليه بلام

التوطئة فى لأملأن على أنه يملأ جهنم من الجنة والناس، دليل على أنها لا بد أن تمتلىء ، ولذا قالوا : إن معنى هل من مزيد ، لا مزيد ، لأنى قد امتلأت فليس فى محل للمزيد ، وأما القول الآخر ، فهو أن المراد بالاستفهام فى قول النار : هل من مزيد ؟هو طلبها للزيادة ، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط أى كفانى قد امتلأت ، وهذا الأخير هو الأصح، لما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم« أن جهنم لا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط» ، لأن فى هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها قط قط ، أى كفانى قد امتلأت ، وأن قولها قبل ذلك هل من مزيد لطلب الزيادة ، وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات ، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفىً فى سورة الأعراف والقتال . واعلم أن قول النار فى هذه الآية : هل من مزيد ، قول حقيقى ينطقها الله به ، فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:

امتلأ الحوض فقال قطنى مهلا رويدا قد ملأت بطنى

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها خلاف التحقيق وقد أوضحنا ذلك بأدلته فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى :(إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

قوله : أزلفت أى قربت . وقوله غير بعيد : فيه معنى التوكيد لقوله : أزلفت سواء أعربت غير بعيد بأنها حال أو ظرف ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء فى مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت ،) وقوله تعالى: (وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين) .

قال البغوى رحمه الله فى تفسير هذه الآية : غير بعيد ينظرون إليها قبل أن يدخلوها

قوله تعالى ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

قوله : لهم ما يشاءون فيها ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ولدينا مزيد) . قال بعض العلماء : المزيد النظر إلى وجه الله الكريم ، ويستأنس لذلك بقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ، لأن الحسنى الجنة ، والزيادة النظر ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) وبينا هناك أن الله أوضح ذلك فى فصلت فى قوله تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين - إلى قوله - فقضاهن سبع سماوات فى يومين) وأوضحنا ذلك فى سورة فصلت واللغوب: التعب والإعياء من العمل .

قوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده جل وعلا أطراف النهار، قد ذكره الله فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى أخريات طه : (فاصبر على ما يقولون : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) ، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر المأمور به ، والصلاة داخلة فى التسبيح المذكور كما قدمنا إيضاح ذلك ، وذكرنا فيه حديث نعيم ابن همار فى آخر الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) ، وبينا هنالك أن الله أمر بالاستعانة بالصبر وبالصلاة كما قال تعالى :(واستعينوا بالصبر والصلاة) الآية .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾.

قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر : تشقق بتشديد الشين بإدغام إحدى التاءين فيها، وقرأ الباقون بتخفيف الشين لحذف إحدى التاءين ، وقوله تعالى : سراعاً : جمع سريع ، وهو حال من الضمير المجرور فى قوله : عنهم أى تشقق الأرض عنهم فى حال كونهم مسرعين إلى الداعى وهو الملك الذى ينفخ فى الصور ، ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر

قاصدين نحو الداعى ، جاء موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون) ، وقوله تعالى: (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) . وقوله : ينسلون أى يسرعون ، وقوله تعالى(يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع)الآية ، فقوله مهطعين:أى مسرعين مادى أعناقهم على الأصح ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة يس فى الكلام على قوله : (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) .

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة يونس فى الكلام على قوله تعالى : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾

أكثر أهل العلم ، على أن المراد بالذاريات الرياح . وهو الحق إن شاء الله ، ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح .

ومنه قوله تعالى (فأصبح هشيما تذروه الرياح) ، ومعنى تذروه : ترفعه وتفرقه ، فهى تذرو التراب والمطر وغيرهما ، ومنه قول ذى الرمة :

ومنهل آجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا

ولا يخفى سقوط قول من قال : إن الذاريات النساء .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فالحاملات) .

وقراً أكثر أهل العلم على أن المراد بالحاملات وقراً : السحاب . أى المزن تحمل وقرا ثقلا من الماء .

ويدل لهذا القول تصريح الله جل وعلا بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة ، وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذى تحمله كقوله تعالى : (وينشىء السحاب الثقال) ، وهو جمع سحابة ثقيلة ، وقوله تعالى (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) .

وقال بعضهم : المراد بالحاملات وقرا : السفن تحمل الأثقال من الناس وأمتعتهم ، ولو قال قائل : إن الحاملات وقراً الرياح أيضاً لكان وجهه ظاهرا.

ودلالة بعض الآيات عليه واضحة ، لأن الله تعالى صرح بأن الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء ، وإذا كانت الرياح هى التى تحمل السحاب إلى حيث شاء الله ، فنسبة حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التى هى محمولة للرياح ، وذلك فى قوله تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت) الآية .

فقوله تعالى : (حتى إذا أقلت سحابا ثقالا) : أى حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا ، فالإقلال الحمل ، وهو مسند إلى الريح . ودلالة هذا على أن الحاملات وقرا هى الرياح ظاهرة كما ترى ، ويصح شمول الآية لجميع ذلك .

وقد قدمنا مراراً أنه هو الأجود فى مثل ذلك ، وبينا كلام أهل الأصول فيه ، وكلامهم فى حمل المشترك على معنييه أو معانيه ، فى أول سورة النور وغيرها .

والقول بأن الحاملات وقرا : هى حوامل الأجنة من الإناث ، ظاهر السقوط ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فالجاريات يسرا) أكثر أهل العلم على أن المراد بالجاريات يسرا : السفن تجرى فى البحر يسرا أى جريا ذا يسر أى سهولة.

والأظهر أن هذا المصدر المنكر حال كما قدمنا نحوه مرارا: أى فالجاريات فى حال كونها ميسرة مسخراً لها البحر ، ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجرى على السفن كقوله تعالى : (ومن آياته الجوارى فى البحر) الآية ، وقوله : (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) ، وقوله تعالى : (والفلك تجرى فى البحر بأمره) وقوله تعالى : (وهو الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره) إلى غير ذلك من الآيات .

وقيل الجاريات الرياح . وقيل غير ذلك .

وقوله تعالى :(فالمقسمات أمرا) :هى الملائكة يرسلها الله فى شئون وأمور مختلفة ، ولذا عبر عنها بالمقسمات ، ويدل لهذا قوله تعالى : (فالمدبرات أمرا) ، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح ، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال ، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح ، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم ، كما وقع لقوم صالح .

والتحقيق أن قوله : أمراً مفعول به للوصف الذى هو المقسمات ، وهو مفرد أريد به الجمع .

وقد أوضحنا أمثلة ذلك فى القرآن العظيم وفى كلام العرب من تنكير المفرد كما هنا ، وتعريفه وإضافته فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (ثم نخرجكم طفلا) ، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله : (إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) ، والموجب لهذا هو شدة إنكار الكفار للبعث والجزاء.

وقوله . (إنما توعدون) ما ، فيه موصولة والعائد إلى الصلة محذوف ، والوصف بمعنى المصدر أى إن الذى توعدونه من الجزاء والحساب لصدق لا كذب فيه .

وقال بعض العلماء : ما ، مصدرية ، أى إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق .

وقال بعضهم : إن صيغة اسم الفاعل فى لصادق بمعنى اسم المفعول . أى إن الوعد أو الموعود به لمصدوق فيه لا مكذوب به ، ونظير ذلك قوله تعالى : (فى عيشة راضية) أى مرضية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من صدق ما يوعدونه جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إن الله لا يخلف الميعاد) . وقوله : (إنما توعدون لآت) . وقوله تعالى : (ليس لوقعتها كاذبة) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

والمراد بالدين هنا الجزاء، أى وإن الجزاء يوم القيامة لواقع لا محالة كما قال تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أى جزاءهم بالعدل والإنصاف ، وكقوله تعالى : (وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى)

وقد نزه الله نفسه عن كونه خلق الخلق لا لبعث وجزاء ، وبين أن أن ذلك ظن الكفار ، وهددهم على ذلك الظن السيء بالويل من النار ، قال تعالى منكرا على من ظن عدم البعث والجزاء ، ومنزهاً نفسه عن أنه خلقهم عبثاً لا لبعث وجزاء : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) . وقال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ، فى قوله فى آية ص هذه : باطلا أى عبثاً لا لبعث وجزاء .

قوله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ .

قوله تعالى : (ذات الحبك) فيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضا ، فذهب بعض أهل العلم ، إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك ، وعليه فالمعنى ذات الحبك أى ذات الطرائق ، فما يبدو على سطح الماء الساكن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك ، وهو جمع حبيكة أو حباك ، قالوا : ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك ، ومن هذا المعنى قول زهير :

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق بضاحى مائه حبك

وقول الراجز :

كأنما جللها الحواك طنفسة فى وشيها حباك

وممن نقل عنه هذا القول الكلبى والضحاك .

وقال بعض أهل العلم : ذات الحبك أى ذات الخلق الحسن المحكم ، وممن قال به ابن عباس وعكرمة وقتادة .

وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى : (الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى هذا القول فالحبك مصدر ، لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه ، تقول فيه العرب : حبكه حبكا بالفتح على القياس . والحبك بضمتين بمعناه .

وقال بعض العلماء : ذات الحبك : أى الزينة .

وممن روى عنه هذا سعيد بن جبير والحسن ، وعلى هذا القول ، فالآية كقوله : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى ق فى الكلام على قوله : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها) الآية .

وقال بعض العلماء : ذات الحبك أى ذات الشدة ، وهذا القول يدل له قوله تعالى : (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) .

والعرب تسمى شدة الخلق حبكا ، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق : محبوك.

ومنه قول امرىء القيس .

قد غدا يحملنى فى أنفه لاحق الأطلين محبوك ممر

والآية تشمل الجميع ، فكل الأقوال حق والمقسم عليه فى هذه الآية هو قوله تعالى (إنكم لفى قول مختلف) أى إنكم أيها الكفار لفى قول مختلف فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم وشأن القرآن ، لأن بعضهم يقول : هو شعر ، وبعضهم يقول :سحر ، وبعضهم يقول: كهانة،وبعضهم يقول : أساطير الأولين، وقول من قال فى قول مختلف أى لأن بعضهم مصدق ، وبعضهم مكذب خلاف التحقيق .

ويدل على أن الاختلاف إنما هو بين المكذبين دون المصدقين . قوله تعالى فى قٓ (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج) أى مختلط . وقال بعضهم : مختلف ، والمعنى واحد .

وقوله تعالى : (يؤفك عنه من أفك) أظهر الأقوال فيه عندى ولا ينبغى العدول عنه فى نظرى ، أن لفظة عن فى الآية سببية كقوله تعالى : (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أى بسبب قولك ، ومن أجله ، والضمير المجرور بعن راجع إلى القول المختلف ، والمعنى يؤفك أى يصرف عن الإيمان بالله ورسوله عنه ، أى عن ذلك القول المختلف أى بسببه من أفك أى من سبقت له الشقاوة فى الأزل، فحرم الهدى وأفك عنه ، لأن هذا القول المختلف يكذب بعضه بعضا ويناقضه .

ومن أوضح الأدلة على كذب القول وبطلانه اختلافه وتناقضه كما لايخفى ، فهذا القول المختلف الذى يحاول كفار مكة أن يصدوا به الناس عن الإسلام ، الذى يقول فيه بعضهم : إن الرسول ساحر ، وبعضهم يقول شاعر، وبعضهم يقول : كذاب . ظاهر البطلان لتناقضه وتكذيب بعضه لبعض ، فلايصرف عن الإسلام بسببه إلامن صرف ، أى صرفه الله عن الحق لشقاوته

فى الأزل ، فمن لم يكتب عليه فى سابق علم الله الشقاوة والكفر لايصرفه عن الحق قول ظاهر الكذب والبطلان لتناقضه .

وهذا المعنى جاء موضحا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (فإنكم وماتعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم) .

ومعنى هذه الآية أن دين الكفار،الذى هو الشرك بالله وعبادةالأوثان، مع حرصهم على صد الناس عن دين الإسلام إليه ماهم بفاتنين ، أى ليسوا بمضلين عليه أحداً لظهور فساده وبطلانه إلا من هو صال الجحيم ، أى إلامن قدر الله عليه الشقاوة وأنه من أهل النار فى سابق علمه ، هذا هو الظاهر لنا فى معنى هذه الآية الكريمة .

وأكثر المفسرين على أن الضمير فى قوله : (يؤفك عنه) راجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن ، أى يصرف عن الإيمان بالنبى أو القرآن ، من أفك أى صرف عن الحق ، وحرم الهدى لشدة ظهور الحق فى صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن منزل من الله ، وهذا خلاف ظاهر السياق كما ترى .

وقول من قال : يؤفك عنه . أى يصرف عن القول المختلف الباطل من أفك ، أى من صرف عن الباطل إلى الحق لايخفى بعده وسقوطه .

والذين قالوا : هذا القول يزعمون أن الإفك يطلق على الصرف عن الحق إلى الباطل ، وعن الباطل إلى الحق ، ويبعد هذا أن القرآن لم يرد فيه الإفك مراد به إلا الصرف عن الخير إلى الشر دون عكسه .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

لايخفى على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة

المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبيه على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله والسبب الشرعى هو العلة على الأصح ، وكون التقوى سبب دخول الجنات الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء موضحا فى آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى :﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى :(لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزى الله المتقين) .

قوله تعالى ﴿وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة الجاثية .

قوله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾

اختلف العلماء فى المراد بكون رزق الناس فى السماء ، فذهبت جماعة من أهل العلم ، أن المراد أن جميع أرزاقهم منشؤها من المطر وهو أنزل من السماء، ويكثر فى القرآن إطلاق اسم الرزق على المطر ، لهذا المعنى كقوله تعالى : (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا) . وقوله تعالى : (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق) الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة المؤمن .

وإنزاله تعالى الرزق من السماء بإنزال المطر من أعظم آياته الدالة على عظمته وأنه المعبود وحده ، ومن أعظم نعمه على خلقه فى الدنيا ، ولذلك كثر الامتنان به فى القرآن على الخلق .

وقال بعض أهل العلم :معنى قوله : (وفى السماء رزقكم) أن أرزاقكم مقدرة مكتوبة ، والله جل وعلا يدبر أمر الأرض من السماء ، كما قال تعالى : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) الآية:قوله تعالى : (وما توعدون) ،

ما ، فى محل رفع عطف على قوله : (رزقكم) ، والمراد بما يوعدون ، قال بعض أهل العلم : الجنة ، لأن الجنة فوق السماوات ، فإطلاق كونها فى السماء إطلاق عربى صحيح ، لأن العرب تطلق السماء على كل ما علاك كما قيل :

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

ولما حكى النابغة الجعدى شعره المشهور ، قال فيه :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال له صلى الله عليه وسلم « إلى أين يا أبى ليلى ؟ قال : إلى الجنة ، قال : نعم إن شاء الله » .

وقال بعض أهل العلم : وما توعدون من الخير والشر كله مقدر فى السماء، كما بيناه فى القول الثانى فى المراد بالرزق فى الآية ، وهذا المعنى فيما يوعدون به أنسب لهذا القول الثانى فى معنى الرزق .

وقد وردت قصص تدل على أنه هو الذى يتبادر إلى ذهن السامع ، فمن ذلك ما ذكره غير واحد عن سفيان الثورى أنه قال : قرأ واصل الأحدب هذه الآية (وفى السماء رزقكم وما توعدون) فقال : ألا أرى رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ، فدخل خربة يمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً ، فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب ، وكان له أخ أحسن منه نية ، فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت.

ومن ذلك أيضا : ماذكره الزمخشرى فى تفسير هذه الآية قال : وعن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له ، فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال : اتل على فتلوت : والذاريات فلما بلغت قوله تعالى : (وفى السماء رزقكم) قال : حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من

أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابى قد نحل أصفر فسلّم على واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) فصاح وقال : ياسبحان الله من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين ، قائلا ثلاثاً ، وخرجت معها نفسه . انتهى .

قوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾

إلى آخر القصة. قد قدمنا إيضاحه فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم المكرمين) الآيات . وفى سورة هود فى القصة المذكورة ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وإنها لبسبيل مقيم) ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا) الآية :

قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى

(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) الآية .

قوله تعالى ﴿ والسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة قٓ فى الكلام على قوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) الآية .

تنبيـــــه

قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ، بنيناها بأيد ، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم ، لأن قوله بأيد ليس جمع يد : وإنما الأيد القوة ، فوزن قوله هنا بأيد فعل ، ووزن الأيدى أفعل ، فالهمزة فى قوله : بأيد فى مكان الفاء والياء فى مكان العين ، والدال فى مكان اللام . ولو كان قوله تعالى : بأيد جمع يد لكان وزنه أفعلا ، فتكون الهمزة زائدة والياء فى مكان الفاء ، والدال فى مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصاً هى اللام .

والأيد ، والآد فى لغة العرب بمعنى القوة ، ورجل أيد قوىّ ، ومنه قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) أى قويناه به ، فمن ظن أنها جمع يد فى هذه الآية فقد غلط غلطا فاحشاً ، والمعنى : والسماء بنيناها بقوة .

قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبى قوما إلا قالوا ساحر أو مجنون ، ثم قال : أتواصوا به ، ثم أضرب عن تواصيهم بذلك إضراب

إبطال ، لأنهم لم يجمعوا فى زمن حتى يتواصوا فقال : (بل هم قوم طاغون) أى الموجب الذى جمعهم على اتفاقهم جميعاً على تكذيب الرسل وسببتهم للسحر والجنون هو اتحادهم فى الطغيان الذى هو مجاوزة الحد فى الكفر .

وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا لأن قلوب بعضهم تشبه قلوب بعض فى الكفر والطغيان ، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى فى سورة البقرة. (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم) .

قوله تعالى ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾

نفيه جل وعلا فى هذه الآية الكريمة اللوم عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، يدل على أنه أدى الأمانة ونصح للأمة .

وقد أوضح هذا المعنى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) . وقوله تعالى : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) ، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة .

قوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يجعل الله شيئاً لحكم متعددة ، فيذكر بعض حكمه فى بعض المواضع ، فإنا نذكر بقية حكمه ، والآيات الدالة عليها ، وقد قدمنا أمثلة ذلك .

ومن ذلك القبيل هذه الآية الكريمة ، فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهى رجاء انتفاع المذكر به ، لأنه تعالى قال هنا : (فذكر) ، ورتب عليه قوله : (فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

ومن حكم ذلك أيضاً خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد جمع الله هاتين الحكمتين فى قوله (قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) .

ومن حكم ذلك أيضاً النيابة عن الرسل فى إقامة حجة الله على خلقه فى أرضه لأن الله تعالى يقول (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

وقد بين هذه الحجة فى آخر طه فى قوله (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) الآية .

وأشار لها فى القصص فى قوله (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) .

وقد قدمنا هذه الحكم فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) .

قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

اختلف العلماء فى معنى قوله : ليعبدون ، فقال بعضهم المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدنى السعداء منهم و عصينى الأشقياء ، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التى هى عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم كما يدل عليه قوله تعالى : (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) ، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان .

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم .

وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن ، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائى :

فإن قتلوكم فاقتلوهم ، من القتل لامن القتال ، وقد بينا هذا فى مواضع متعددة ، وذكرنا أن من شواهده العربية قول الشاعر :

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به
نبا من يَدَىْ ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبنى عبس مع تصريحه أن الضارب الذى نبا بيده السيف عن رأس خالد يعنى ابن جعفر الكلابى ، هو ورقاء يعنى ابن زهير العبسى .

وقد قدمنا فى الحجرات أن من ذلك قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) الآية بدليل قوله : (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ـ إلى قوله ـ سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) .

وقال بعض العلماء : معنى قوله : إلا ليعبدون : أى إلا ليقروا الى بالعبودية طوعا أو كرها ، لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه ، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره ، ويدل له قوله تعالى : (ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا أو كرها) الآية ، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله جل وعلا ، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعا وبعضهم يفعله كرها .

وعن مجاهد أنه قال : إلا ليعبدون : أى إلا ليعرفونى . واستدل بعضهم لهذا القول بقوله : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ونحو ذلك من الآيات ، وهو كثير فى القرآن ، وقد أوضحنا كثرته فيه فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

وقال بعض أهل العلم : وهو مروى عن مجاهد أيضاً معنى قوله : إلا

ليعبدون : أى إلا لآمرهم بعبادتى فيعبدنى من وفقته منهم لعبادتى دون غيره، وعلى هذا القول : فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام فى قوله : ليعبدون، إرادة دينية شرعية وهى الملازمة للأمر ، وهى عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية ، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن ، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) إلى آخر السورة .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق إن شاء الله فى معنى هذه الآية الكريمة (إلا ليعبدون) ، أى إلا لآمرهم بعبادتى وأبتليهم أى أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق فى معنى الآية ، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله ، فقد صرح تعالى فى آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا ، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم .

قال تعالى فى أول سورة هود : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) ، ثم بين الحكمة فى ذلك فقال : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

وقال تعالى فى أول سورة الملك : (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

وقال تعالى فى أول الكهف : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) الآية .

فتصريحه جل وعلا فى هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق ، هى

ابتلاؤهم أيهم أحسن عملا ، يفسر قوله (ليعبدون) . وخير ما يفسر به القرآن بالقرآن .

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصودة منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولا وبعثهم ثانياً ، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وذلك فى قوله تعالى فى أول يونس : (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) ، و قوله فى النجم : (ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) .

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانه وظنه أنه يترك سدى ، أى مهملا ، لم يؤمر ولم ينه ، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا ليبعثه بعد الموت أى ويجازيه على عمله ، قال تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منىّ يمنى — إلى قوله — أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) .

والبراهين على البعث دالة على الجزاء ، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذى ظنه الكفار به تعالى ، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكراً ذلك عليهم فى قوله : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى أول سورة الأحقاف فى الكلام على قوله تعالى : (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) .

تنبيـــه

اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسماوات والأرض وأهلهما

وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافا ، والواقع خلاف ذلك . لأن كلام الله لا يخالف بعضه بعضا ، وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر فى بعض الآيات أن حكمة خلقه للسماوات والأرض هى إعلام خلقه بأنه قادر على على كل شىء ، وأنه محيط بكل شىء علما ، وذلك فى قوله تعالى فى آخر الطلاق : (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) .

وذكر فى مواضع كثيرة من كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده ، كقوله تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده : إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار — إلى قوله — لآيات لقوم يعقلون) ، ولما قال : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده : (الذى خلقكم والذين من قبلكم) الآية .

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جداً فى القرآن ، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه فى أول سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (وخلق كل شىء فقدره تقديراً واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً) الآية ، وفى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

وذكر فى بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليبتلى الناس ، وذلك فى قوله : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

وذكر فى بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك فى قوله : (إنه

يبدأ الخلق ثم بعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) الآية ، وذكر فى آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافا مع أنها لا اختلاف بينها ، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شىء واحد ، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده ، فقوله : (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير) وقوله: (اعبدوا ربكم الذى خلقكم) راجع إلى شىء واحد هو العلم بالله ، لأن من عرف الله أطاعه ووحده .

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة ، فالتكليف بعد العلم ، والجزاء بعد التكليف ، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لابد له من تكليف ، وهو الابتلاء المذكور فى الآيات والتكليف لابد له من علم ، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخالق للمخلوقات هى العلم بالخالق ، ودل بعضها على أنها الابتلاء ، ودل بعضها على أنها الجزاء ، وكل ذلك حق لااختلاف فيه ، وبعضه مرتب على بعض .

وقد بينا معنى إلا ليعبدون فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى : (ولذلك خلقهم) وبينا هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام فى قوله : (ولذلك خلقهم) أى ولأجل الاختلاف إلى شقى وسعيد خلقهم ، وفى قوله : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) إرادة كونية قدرية ، وأن الإرادة المدلول عليها باللام فى قوله : (إلا ليعبدون) ، إرادة دينية شرعية .

وبينا هناك أيضاً الأحاديث الدالة على أن الله خلق الخلق منقسما إلى شقى وسعيد ، وأنه كتب ذلك وقدره قبل أن يخلقهم . وقال تعالى : (هو الذى

خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) : وقال : (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) .

والحاصل: أن الله دعا جميع الناس على ألسنة رسله إلى الإيمان به وعبادته وحده وأمرهم بذلك ، وأمره بذلك مستلزم للإرادة الدينية الشرعية ، ثم إن الله جل وعلا يهدى من يشاء منهم ويضل من يشاء بإرادته الكونية القدرية ، فيصيرون إلى ما سبق به العلم من شقاوة وسعادة ، وبهذا تعلم وجه الجمع بين قوله : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) . وقوله : (ولذلك خلقهم) ، وبين قوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، وإنما ذكرنا أن الإرادة قد تكون دينية شرعية ، وهى ملازمة للأمر والرضا ، وقد تكون كونية قدرية وليست ملازمة لها ، لأن الله يأمر الجميع بالأفعال المرادة منهم دينا ، ويريد ذلك كونا وقدراً من بعضهم دون بعض ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) ، فقوله : إلا ليطاع : أى فيما جاء به من عندنا ، لأنه مطلوب مراد من المكلفين شرعا ودينا ، وقوله : بإذن الله : يدل على أنه لا يقع من ذلك إلا ما أراده الله كونا وقدرا ، والله جل وعلا يقول : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « كلٌّ ميسر لما خلق له » . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى : (وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ) .

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾

أصل الذنوب فى لغة العرب الدلو ، وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقلب بالدلو ، فيأخذ هذا منه ملء دلو ، ويأخذ الآخر كذلك ، ومن هنا أطلقوا اسم الذنوب ، التى هى الدلو على النصيب . قال الراجز فى اقتسامهم الماء بالدلو :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

ويروى :

إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب
* فإن أبى كان لنا القليب *

ومن إطلاق الذنوب على مطلق النصيب قول علقمة بن عبدة التميمى .

وقيل عبيد :

وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشأس من ندالك ذنوب

وقول أبى ذؤيب :

لعمرك والمنايا طارقات لكل بنى أب منها ذنوب

فالذنوب فى البيتين النصيب ، ومعنى الآية الكريمة ، فإن للذين ظلموا بتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم ذنوباً ، أى نصيباً من عذاب الله مثل ذنوب أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما كذبوا رسلهم .

وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : (قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا

يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فلا يستعجلون) قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات) . وفى سورة مريم فى الكلام على قوله : (فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً) وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة لما ينالهم فيه من عذاب النار ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى ص (فويل للذين كفروا من النار) . وقوله فى إبراهيم (وويل للكافرين من عذاب شديد) . وقوله فى المرسلات : (ويل يومئذ للمكذبين) ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقد قدمنا أن كلمة (ويل) ، قال فيها بعض أهل العلم : إنها مصدر لا فعل له من لفظه ، ومعناه الهلاك الشديد ، وقيل : هو واد فى جهنم تستعيذ من حره ، والذى سوغ الابتداء بهذه النكرة أن فيها معنى الدعاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ، فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾

هذه الأقسام التى أقسم الله بها تعالى فى أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه ، وأقسم بجميعها فى آية عامة لها ولغيرها .

أما الذى أقسم به منها إقساما خاصاً فهو الطور ، والكتاب المسطور ، والسقف المرفوع ، والأظهر أن الطور الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، وقد أقسم الله تعالى بالطور فى قوله : (والتين والزيتون وطور سينين) .

والأظهر أن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم ، وقد أكثر الله من الإقسام به فى كتابه كقوله تعالى : (حم والكتاب المبين) . وقوله تعالى (يس والقرآن الحكيم) وقيل هو كتاب الأعمال ، وقيل غير ذلك ، والسقف المرفوع : هو السماء ، وقد أقسم الله بها فى كتابه فى آيات متعددة كقوله : (والسماء ذات الحبك) وقوله : (والسماء ذات البروج) وقوله تعالى (والسماء وما بناها) ، والرق بفتح الراء كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها ، وقيل هو الجلد المرقق ليكتب فيه . وقوله : منشور أى مبسوط ، ومنه قوله : (كتاباً يلقاه منشورا) . وقوله : (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة) . والبيت المعمور : هو البيت المعروف فى السماء المسمى بالضراح بضم الضاد ، وقيل فيه معمور ، لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين ، فقد جاء الحديث أنه يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ، ولا يعودون إليه بعدها » .

وقوله : والبحر المسجور فيه وجهان من التفسير للعلماء . أحدهما أن المسجور هو الموقد ناراً ، قالوا : وسيضطرم البحر يوم القيامة ناراً ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : (ثم فى النار يسجرون) .

والوجه الثانى : هو أن المسجور بمعنى المملوء ، لأنه مملوء ماء ، ومن إطلاق السجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة فى معلقته :

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاوراً قلامها

فقوله : مسجورة : أى عيناً مملوءة ماء ، وقول النمر بن تولب العكلى :

إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران فى معنى المسجور هما أيضاً فى قوله (وإذا البحار سجرت) ، وأما الآية العامة التى أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها ، فهى قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) ، لأن الإقسام فى هذه الآية عام فى كل شىء .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (إن عذاب ربك لواقع) ، قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول الذاريات ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

الدع فى لغة العرب : الدفع بقوة وعنف ، ومنه قوله تعالى (فذلك الذى يدع اليتيم) أى يدفعه عن حقه بقوة وعنف ، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين :

أحدهما : أن الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة .

والثانى: أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخا وتقريعا : (هذه النار التى كنتم بها تكذبون).

وهذان الأمران المذكوران فى هذه الآية الكريمة جاءا موضحين فى آيات أخر ، أما الأخير منهما ، وهو كونهم يقال لهم : هذه النار التى كنتم بها تكذبون) ، وقد ذكره تعالى فى آيات من كتابه كقوله فى السجدة (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) : وقوله فى سبأ (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) وقوله تعالى فى المرسلات : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر) الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة فقد ذكره الله جل وعلا فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم) أى جروه بقوة وعنف إلى وسط النار . والعتل فى لغة العرب: الجر بعنف وقوة ، ومنه قول الفرزدق :

ليس الكرام بناحليك أباهم حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله تعالى :(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) أى تجمع الزبانية بين ناصية الواحد منهم ،أى مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه فى النار بقوة وشدة .

وقد بين جل وعلا أنهم أيضاً يسحبون فى النار على وجوههم فى آيات من كتابه كقوله تعالى (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر). وقوله تعالى :(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون .

إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون) .
وقوله : فى هذه الآية الكريمة : يوم يدعون ، بدل من قوله : يومئذ ، فى قوله تعالى قبله(فويل يومئذ للمكذبين).

قوله تعالى ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون فى النار لامحالة، سواء صبروا أو لم يصبروا ، فلا ينفعهم فى ذلك صبر ولا جزع ، وقد أوضح هذا المعنى فى قوله : (قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) .

قوله تعالى ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

ظاهر هذه الآية الكريمة العموم فى جميع الناس ، وقد بين تعالى فى آيات أخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم ، وذلك فى قوله تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين) .

ومن المعلوم أن التخصيص بيان ، كما تقرر فى الأصول .

قوله تعالى ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون . وقد بين صفات هذه الفاكهة فى مواضع أخر كقوله تعالى : وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة) وبين أنها أنواع فى مواضع أخر كقوله : (ولهم فيها من كل الثمرات) وقوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها) الآية . وقوله تعالى (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون) إلى غير ذلك من الآيات .

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير ، والفاكهة بأنها مما يتخيرونه على غيره ، وذلك فى قوله (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون) .

قوله تعالى ﴿ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾

قرأه ابن كثير وأبو عمرو : لا لغو بالبناء على الفتح ، ولا تأثيم كذلك لأنها ، لا ، التى النفى الجنس فبنيت معها ، وهى إن كانت كذلك نص فى العموم ، وقرأه الباقون من السبعة ، لالغو فيها ولا تأثيم بالرفع والتنوين . لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز إعمالها وإهمالها ، والقراءتان فى الآية فيهما المثال للوجهين ، وإعمالها كثير ، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور فى هذه الآية ، وقول الشاعر :

وما هجرتك حتى قلت معلنة لاناقة لى فى هذا ولاجمل

وقوله :(يتنازعون فيها كأسا) : أى يتعاطون ، ويتناول بعضهم من بعض كأسا أى خمرا ، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول ، فكل قوم يعطى بعضهم بعضاً شيئاً ويناوله إياه ، فهم يتنازعونه كتنازع كؤوس الشراب والكلام ، وهذا المعنى معروف فى كلام العرب .

ومنه فى الشراب قول الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمنى لا بالحصور ولا فيها بسوار

نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السار

فقوله : نازعته طيب الراح : أى ناولته كؤوس الخمر وناولنيها ، ومنه فى الكلام قول امرىء القيس :

ولما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

والكأس تطلق على إناء الخمر ، ولا تكاد العرب تطلق الكأس إلا

على الإناء الملوء ، وهى مؤنثة ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (لا لغو فيها ولا تأثيم) يعنى أن خمر الجنة التى يتعاطاها المؤمنون ، فيها مخالفة فى جميع الصفات لخمر الدنيا ،فخمر الآخرة لالغو فيها ، واللغو كل كلام ساقط لاخير فيه ، فخمر الآخرة لاتحمل شاربيها على الكلام الخبيث والهذيان، لأنها لاتؤثر فى عقولهم بخلاف خمر الدنيا ، فإنهم إن يشربوها سكروا وطاشت عقولهم ، فتكلموا بالكلام الخبيث والهذيان ، وكل ذلك من اللغو .

والتأثيم : هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم ،فخمر الآخرة لايأثم شاربها بشربها ،لأنها مباحة له ، فنعم بلذتها كما قال تعالى :(وأنهار من خمر لذة للشاربين) ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثما بخلاف خمر الدنيا ، فشاربها يأثم بشربها ويحمله السكر على الوقوع فى المحرمات كالقتل والزنا والقذف .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمر الآخرة لخمر الدنيا ، جاء موضحا فى آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى (يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لافيها غول ولا هم عنها ينزفون) وقوله لافيها غول : أى ليس فيها غول يغتال العقول ، فيذهبها كخمر الدنيا . ولاهم عنها مترفون: أى لا يسكرون ، وكقوله تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لايصدعون عنها ولا ينزفون):وقوله لايصدعون: أى لا يصيبهم الصداع الذى هو وجع الرأس بسببها .

وقد أوضحنا معنى هذه الآيات فى صفة خمر الآخرة ، وبينا أنها مخالفة فى جميع الصفات لخمر الدنيا . وذكرنا الشواهد العربية فى ذلك فى سورة المائدة فى الكلام على قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) الآية :

قوله تعالى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان جمع غلام ، أى خدم لهم ، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدها العربية فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) .

ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به ، وذكر هنا حسنهم بقوله : كأنهم لؤلؤ مكنون فى أصدافه ، لأن ذلك أبلغ فى صفائه وحسنه ، وقيل : مكنون أى مخزون لنفاسته ، لأن النفيس هو الذى يخزن ويكن .

وبين تعالى فى الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به فى قوله (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) . وزاد فى هذه الآية كونهم مخلدين ، وذكر بعض ما يطاف عليهم به فى قوله : (يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) ، وقوله تعالى : (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا) .

والظاهر أن الفاعل المحذوف فى قوله : يطاف عليهم فى آيه الزخرف والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون فى الطور والواقعة ، وذكر بعض صفات هؤلاء الغلمان فى الإنسان فى قوله تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا) .

قوله تعالى ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة، أن أهل الجنة يسأل بعضهم بعضا، وأن المسئول عنهم يقول للسائل : إنا كنا قبل ، أى فى دار الدنيا فى أهلنا مشفقين أى خائفين من عذاب الله ، ونحن بين أهلنا أحياء فمنّ الله علينا

أى أكرمنا ، وتفضل علينا بسبب الخوف منه فى دار الدنيا فهدانا ، ووفقنا فى الدنيا ووقانا فى الآخرة عذاب السموم ، والسموم النار ولفحها ووهجها ، وأصله الريح الحارة التى تدخل المسام ، والجمع سمائم . ومنه قول عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

أنامل لم تضرب على البهم بالضحى بهن ووجه لم تلحه السمائم

وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد ، ومنه قول الراجز :

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه

الفاء فى قوله : فمن الله علينا ، تدل على أن علة ذلك هى الخوف من الله فى دار الدنيا ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذى هو الخوف الشديد من عذاب الله فى دار الدنيا ، سبب للسلامة فى الآخرة ، يفهم من دليل خطابه ، أعنى مفهوم مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله فى الدنيا لم ينج منه فى الآخرة .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً فى غير هذا الموضوع . فذكر تعالى أن السرور فى الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة ، وذلك فى قوله (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبورا ويصلى سعيرا إنه كان فى أهله مسرورا إنه ظن ألن يحور) الآية .

وقد تقرر فى مسلك الإيماء والتنبيه أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل ، فقوله : إنه كان فى أهله مسرورا ، علة لقوله : فسوف يدعوا ثبورا ويصلى سعيرا .

والمسرور فى أهله فى دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف ، ويؤيد ذلك قوله بعده : إنه ظن أن لن يحور ، لأن معناه ، ظن ألن يرجع إلى الله حياً

يوم القيامة ، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقاً فى أهله خوفاً من العذاب ، لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء ، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع معروف فى كلام العرب ، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي :

أليلتنا بذى حسم أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى

فقوله : فلا تحورى ، أى فلا ترجعى .

وقول لبيد بن ربيعة العامرى :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد ما هو ساطع

أى يرجع رمادا ، وقيل: يصير ، والمعنى واحد . وقوله تعالى :(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون) الآية ، لأن تنعمهم فى الدنيا المذكور فى قوله(مترفين)، وإنكارهم للبعث المذكور فى قوله (أإذا متنا وكنا تراباً) الآية . دليـــل على عدم إشناقهم فى الدنيا ، وهو علة كونهم فى سموم وحميم .

وقد قدمنا قريباً أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل ، فقوله تعالى : (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) الآية. علة لقوله (فى سموم وحميم) الآية .

وقد ذكر جل وعلا أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة من العذاب يوم القيامة ، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه ، قال تعالى فى المعارج (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون — إلى قوله — أولئك فى جنات مكرمون) ، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة فى قوله تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون — إلى قوله —

أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) ، وقد قال تعالى : (والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم) .

وقوله فى آية الواقعة المذكورة : وكانوا يصرون على الحنث العظيم، أى يديمون ويعزمون على الذنب الكبير ، كالشرك وإنكار البعث ، وقيل المراد بالحنث : حنثهم فى اليمين الفاجرة كما فى قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) .

قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾

نفى الله جل وعلا عن نبيه ﷺ فى هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه ﷺ رماه بها الكفار ، وهى الكهانة والجنون والشعر ، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون ، فقد نفاها صريحاً بحرف النفى الذى هو ما فى قوله : فما أنت ، وأكد النفى بالباء فى قوله : بكاهن وأما كونه شاعراً فقد نفاه ضمنا بأم المنقطعة فى قوله : أم يقولون شاعر ، لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفى .

وقد جاءت آيات أخر بنفى هذه الصفات عنه ﷺ كقوله تعالى فى نفى الجنون عنه فى أول القلم : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وقوله فى التكوير (وما صاحبكم بمجنون) وكقوله فى نفى الصفتين الأخيرتين أعنى الكهانة والشعر : (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) ، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا فى سورة الشعراء وغيرها .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (نتربص به ريب المنون) أى ننتظر

به حوادث الدهر ، حتى يحدث له منها الموت ، فالمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه التى يطرأ فيها الهلاك والتغيير ، والتحقيق أن الدهر هو المراد فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير فى قوله : وريبه يدل على أن المنون الدهر ، ومن ذلك أيضاً قول الآخر :

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

وقال بعض العلماء : المنون فى الآية الموت ، وإطلاق المنون على الموت معروف فى كلام العرب ، ومنه قول أبى الغول الطهوى :

هم منعوا حمى الوقبى بضرب يؤلف بين أشتات المنون

لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا ، جاءوا من جهات مختلفة ، فجمع الموت بينهم فى محل واحد ، ولو ماتوا فى بلادهم لكانت مناياهم فى بلاد شتى .

قوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن فى سورة البقرة فى قوله : (فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله) الآية . وفى سورة يونس فى قوله تعالى (قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله) الآية .

وتحداهم فى سورة هود بعشر سور منه فى قوله (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله) الآية .

وتحداهم فى سورة الطور هذه بكلام قوله (فليأتوا بحديث مثله) الآية .

وبين فى سورة بنى إسرائيل أنهم لا يقدرون على شىء من ذلك فى قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الآية .

وقد أطلق جل وعلا اسم الحديث على القرآن فى قوله هنا (فليأتوا بحديث مثله) كما أطلق عليه ذلك فى قوله (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها) الآية ، وقوله تعالى (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه) الآية.

قوله تعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا) .

قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ الآية ﴾

قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها) الآية .

قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) ، وفى مواضع أخر متعددة .

قوله تعالى ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له وما يتعلق بها من الأحكام فى سورة هود فى الكلام على قوله تعالى (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) الآية .

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ .

بين جل وعلا فى هذه الآية أن كيد الكفار لا يغنى عنهم شيئاً فى الآخرة فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون) .

وبين أنه لا ينفعهم فى الدنيا أيضاً كقوله تعالى فى هذه السورة الكريمة (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) وقوله (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيدا) الآية ، وقوله (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

الظاهر أن قوله عذاباً دون ذلك هو ما عذبوا به فى دار الدنيا من القتل وغيره ، لما دل على ذلك قوله (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) الآية . وقوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) إلى غير ذلك من الآيات ، ولا مانع من دخول عذاب القبر فى ذلك ، لأنه قد يدخل فى ظاهر الآية ، وما قيل فى معنى الآية غير هذا لا يتجه عندى . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

اختلف العلماء فى المراد بهذا النجم الذى أقسم الله به فى هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم : المراد به النجم إذا رجمت به الشياطين ، وقال بعضهم : إن المراد به الثريا ، وهو مروى عن ابن عباس وغيره ، ولفظة النجم علم للثريا بالغلبة ، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم مجردا إلا عليها ، ومنه قول نابغة ذبيان :

أقول والنجم قد مالت أواخره إلى المغيب تثبت نظرة حار

فقوله : والنجم : يعنى الثريا . وقوله تعالى إذا هوى : أى سقط مع الصبح، وهذا اختيار ابن جرير . وقيل النجم : الزهرة ، وقيل المراد بالنجم نجوم السماء، وعليه فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقوله : (ويولون الدبر) يعنى الأدبار. وقوله : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) أى والملائكة . وقوله : (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) أى الغرف .

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا فى القرآن ، وفى كلام العرب فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (ثم نخرجكم طفلا) ، وإطلاق النجم مراداً به النجوم معروف فى اللغة ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب

وقول الراعى :

فباتت تعد النجم فى مستحيرة سريع بأيدى الآكلين جمودها

وعلى هذا القول ، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو انتثارها يوم القيامة . وقيل : النجم النبات الذى لا ساق له . وقال بعض أهل العلم : المراد بالنجم الجملة النازلة من القرآن ، فإنه نزل على النبى صلى الله عليه وسلم أنجما منجما فى ثلاث وعشرين سنة ، وكل جملة منه وقت نزولها يصدق عليها اسم النجم صدقا عربياً صحيحاً كما يطلق على ما حان وقته من الدية المنجمة على العاقلة ، والكتابة المنجمة على العبد المكاتب .

وعلى هذا فقوله : إذا هوى ، أى نزل به الملك من السماء إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقوله: هوى يهوى هُويا إذا اخترق الهوى نازلا من أعلا إلى أسفل.

اعلم أولا أن القول بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها ، وإن اختاره ابن جرير وروى عن ابن عباس وغير واحد ، ليس بوجيه عندى .

والأظهر أن النجم يراد به النجوم . وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح ، والدليل على ذلك جمعه تعالى للنجوم فى القسم فى قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، لأن الظاهر أن المراد بالنجم إذا هوى هنا، كالمراد بمواقع النجوم فى الواقعة .

وقد اختلف العلماء أيضاً فى المراد بمواقع النجوم فقال بعضهم : هى مساقطها إذا غابت . وقال بعضهم : انتثارها يوم القيامة . وقال بعضهم : منازلها فى السماء ، لأن النازل فى محل واقع فيه . وقال بعضهم : هى مواقع نجوم القرآن النازل بها الملك إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر الأقوال عندى وأقربها للصواب فى نظرى ، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا فى هذه السورة ، وبمواقع النجوم فى الواقعة هو نجوم القرآن التى نزل بها الملك نجما فنجما ، وذلك لأمرين أحدهما أن هذا الذى أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذى هو أن النبى صلى الله

عليه وسلم على حق وأنه ماضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى موافق فى المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم ، وهو قوله : (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ـ إلى قوله ـ تنزيل من رب العالمين) .

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم) . وقوله تعالى : (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والثانى : أن كون المقسم به المعبر عنه بالنجوم ، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به فى غاية العظمة .

ولا شك أن القرآن الذى هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض . والعلم عند الله تعالى .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ماضل صاحبكم وما غوى) ، قال بعض العلماء : الضلال يقع من الجهل بالحق ، والغي هو العدول عن الحق مع معرفته ، أى ما جهل الحق وما عدل عنه ، بل هو عالم متبع له .

وقد قدمنا إطلاقات الضلال فى القرآن بشواهدها العربية فى سورة الشعراء فى الكلام على قوله تعالى : (قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين) وفى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم) الآية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه صلى الله عليه وسلم على هدى مستقيم ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة ، من كتاب الله كقوله تعالى : (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) وقوله تعالى (فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم) وقوله تعالى: (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم).

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إن هو إلا وحى يوحى) استدل به علماء الأصول على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يجتهد ، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد ، استدلوا بقوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) الآية . وقوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) الآية . وقوله تعالى : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية

قالوا : فلو لم يكن هذا عن اجتهاد ، لما قال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) الآية. ولما قال : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) ، ولا منافاة بين الآيات، لأن قوله : إن هو إلا وحى يوحى ، معناه أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عن الله إلا شيئاً أوحى الله إليه أن يبلغه ، فمن يقول : إنه شعر أو سحر أو كهانة ، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم ، ولا ينافى ذلك أنه أذن للمتخلفين عن غزوة تبوك ، وأسر الأسارى يوم بدر ، واستغفر لعمه أبى طالب من غير أن ينزل عليه وحى خاص فى ذلك ، وقد أوضحنا هذا فى غير هذا الموضع .

قوله تعالى ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

المراد شديد القوى فى هذه الآية : هو جبريل عليه السلام ، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم علمه هذا الوحى. ملك شديد القوى هو جبريل .

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين :

أحدهما : أن هذا الوحى الذى من أعظمه هذا القرآن العظيم ، علمه جبريل النبى صلى الله عليه وسلم بأمر من الله .

والثانى : أن جبريل شديد القوة .

وهذان الأمران جاءا موضحين فى غير هذا الموضع .

أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحى وعلمه إياه ، فقد جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآية . وقوله تعالى : (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) . وقوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) . وقوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) أى إذا قرأه عليك الملك المرسل به إليك منا مبلغاً له عنا فاتبع قرآنه ، أى اقرأ كما سمعته يقرأ .

وأما الأمر الثانى ، وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحى ، فقد ذكره فى قوله : (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) . وقوله فى آية التكوير هذه : (لقول رسول) أى لقوله المبلغ له عن الله ، فقرينته ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئاً أرسل به ، فالكلام كلام الله بألفاظه ومعانيه ، وجبريل مبلغ عن الله ، وبهذا الاعتبار نسب القول له . لأن النبى صلى الله عليه وسلم ما سمعه إلا منه ، فهو القول الذى أرسله الله ؛ وأمره بتبليغه ، كما تدل عليه قرينة ذكر الرسول ، وسيأتى إيضاح هذه المسألة إن شاء الله فى سورة التكوير . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾

قد قدمنا بعض الكلام عليه فى أول سورة الإسراء .

قوله تعالى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الْأُنْثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى: (ويجعلون لله البنات) الآية ، وفى مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾

بين جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن له الآخرة والأولى وهى الدنيا ، وبيَّن هذا فى غير هذا الموضع كقوله(إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى) وبين فى موضع آخر أن له كل شىء ، وذلك فى قوله: (قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء) ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة.

قوله تعالى ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى : (واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة) الآية ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾ الآية

وقد قدمنا الآيات الموضحة فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأحقاف فى الكلام على قوله تعالى (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) ، وفى سورة الذاريات فى الكلام على قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى: (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون) .

قوله تعالى ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء) ، وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى . أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾

قوله : تولى : أي رجع وأدبر عن الحق . وقوله : أعطى قليلا ، قال بعضهم : قليلا من المال . وقال بعضهم : أعطى قليلا من الكلام الطيب . وقوله :

وأكدى أى قطع ذلك العطاء ولم يتمه ، وأصله من أكدى صاحب الحفر . إذا انتهى فى حفره إلى صخرة لا يقدر على الحفر فيها ، وأصله من الكدية وهى الحجارة تعترض حافر البئر ونحوه فتمنعه الحفر ، وهذا الذى أعطى قليلا وأكدى ، اختلف فيه العلماء ، فقيل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم فعيَّره بعض المشركين ، فقال : أتركت دين الأشياخ وضلالتهم؟ قال : إنى خشيت عذاب الله ، فضمن له الذى عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذى عيَّره بعض ذلك المال الذى ضمن ومنعه تمامة . فأنزل الله عز وجل الآية .

وعلى هذا فقوله : تولى : أى الوليد عن الإسلام بعد أن قارب ، وأعطى قليلا من المال للذى ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه . وأكدى : أى بخل عليه بالباقى ، وقيل : أعطى قليلا من الكلام الطيب كمدحه للقرآن واعترافه بصدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وأكدى أى انقطع عن ذلك ورجع عنه . وقيل : هو العاص بن وائل السهمى ، كان ربما وافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الأمور ، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك ، وهو معنى إكدائه ، وهذا قول السدى ولم ينسجم مع قوله بعده : (أعنده علم الغيب) الآية .

وعن محمد بن كعب القرظى أنه أبو جهل ، قال : والله ما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا بمكارم الأخلاق ، وذلك معنى إعطائه قليلا ، وقطعه لذلك معروف .

واقتصر الزمخشرى على أنه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال : روى أن عثمان بن عفان كان يعطى ماله فى الخير فقال له عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، وهو أخوه من الرضاعة : يوشك ألا يبقى لك شىء . فقال عثمان : إن لى ذنوباً وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى ، وأرجو عفوه ، فقال عبدالله : أعطنى ناقتك برحلها ، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية .

ومعنى تولى ترك المركز يوم أحد ، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل انتهى منه .

ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه ، وأنه غير لائق بمنصب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور :

الأول : إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة فى قوله : (أعنده علم الغيب) والمراد نفى علمه للغيب .

الثانى : أن لكل من إبراهيم وموسى صحفاً لم ينبأ بما فيها هذا الكافر .

الثالث : أن إبراهيم وفَّى أى أتم القيام بالتكاليف التى كلفه ربه بها .

الرابع : أن فى تلك الصحف ، أنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

الخامس : أن فيها أيضاً أنه ليس للإنسان إلا ما سعى .

السادس : أن سعيه سوف يُرى .

السابع : أنه يجزاه الجزاء الأوفى ، أى الأكمل الأتم .

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة فى غير هذا الموضع

أما الأول منها ، وهو عدم علمهم الغيب ، فقد ذكره تعالى فى مواضع كثيرة كقوله تعالى : (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) . وقوله : (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) . وقوله : (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) . وقوله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) الآية . وقوله تعالى : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد قدمناها مراراً .

والثانى : الذى هو أن لإبراهيم وموسى صحفاً لم يكن هذا المتولى المعطى

قليلا الكدى عالما بها ، ذكره تعالى فى قوله : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) .

والثالث : منها وهو إبراهيم وفى تكاليفه ، فقد ذكره تعالى فى قوله : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) ، وقد قدمنا أن الأصح فى الكلمات التى ابتلى بها أنها التكاليف .

وأما الرابع منها : وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، فقد ذكره تعالى فى آيات من كتابه كقوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون) وقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا ، والجواب عما يرد عليها من الإشكال ، فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة فى ذلك فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) .

وأما الخامس منها : وهو أنه ليس للإنسان إلا ماسعى ، فقد جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) الآية . وقوله : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) الآية وقوله : (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) يدل على أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعيه بنفسه ، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعى غيره بنفى ولا إثبات ، لأن قوله : وأليس للإنسان إلا ماسعى .

قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه ، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكا له ولا مستحقاً له .

وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعى غيره وهى قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) .

وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وبين قوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) الآية . فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى سورة النجم ، وقلنا فيه ما نصه : والجواب من ثلاثة أوجه :

الأول : أن الآية إنما دلت على نفى ملك الإنسان لغير سعيه . ولم تدل على نفى انتفاعه بسعى غيره ، لأنه لم يقل : وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى ، وإنما قال وأن ليس للإنسان ، وبين الأمرين فرق ظاهر ، لأن سعى الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير ، وإن شاء أبقاه لنفسه .

وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه .

الثانى : أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر فى رفع درجاتهم ، إذ لو كانوا كفاراً لما حصل لهم ذلك . فإيمان العبد وطاعته سعى منه فى انتفاعه بعمل غيره من المسلمين ، كما وقع فى الصلاة فى الجماعة ، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلاته منفرداً ، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلى بإيمانه وصلاته فى الجماعة ، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى : (واتبعتهم ذريتهم بإيمان) .

الثالث : أن السعى الذى حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما

هو نص قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ولكن من سعى الآباء فهو سعى للآباء أقر الله عيونهم بسببه ، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا فى الجنة برؤيتهم .

فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها ، لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد ، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم ، كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين ، والخلق الذين ينشؤهم للجنة - والعلم عند الله تعالى . اهـ منه .

والأمر السادس والسابع : وهما أن عمله سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، فقد جاءا موضحين فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) الآية .

وقوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

وقوله تعالى : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : فهو يرى: أى يعلم ذلك الغيب ، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شىء فى مقابلة تحمل الذنوب عمن أعطى لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب ، فيعلم به أن الذى ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك ، ولم ينبأ بما فى الصحف الأولى ، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى أى لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى .

وقد قدمنا تفسيره موضحاً فى سورة بنى إسرائيل ، وأنه لا يملك الإنسان ولا يستحق إلا سعى نفسه ، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب غيره ، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة .

وقال أبو حيان فى البحر : أفرأيت بمعنى أخبرنى ، والمفعول الأول هو الموصول وصلته . والمفعول الثانى هو جملة أعنده علم الغيب فهو يرى .

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين أى النوعين الذكر والأنثى من نطفة ، وهى نطفة المنى إذا تمنى أى تصب وتراق فى الرحم ، على أصح القولين .

ويدل قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) وقوله تعالى : (ألم يك نطفة من منى يمنى) .

والعرب تقول : أمنى الرجل ومنى إذا أراق المنى وصبه .

وقال بعض العلماء : من نطفة إذا تمنى أى تقدر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل ، من قول العرب : منى المانى إذا قدر . ومن هذا المعنى قول أبى قلابة الهذلى ، وقيل سويد بن عامر المصطلقى :

لا تأمن الموت فى حل وفى حرم إن المنايا توافى كل إنسان
واسلك سبيلك فيها غير محتشم حتى تلاقى ما يمنى لك المانى

وقد قدمنا الكلام على النطفة مستوفىً من جهات فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (خلق الإنسان من نطفة) الآية . وفى سورة الحج فى الكلام

على قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث) ، وفى كل من الموضعين زيادة ليست فى الآخر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين ، أعنى الذكر والأنثى من النطفة جاء موضحاً فى غير هذا الموضع ، وأنه يستدل به على أمرين : هما قدرة الله على البعث ، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه ، وقد جمع الأمرين قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدا ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فذكر دلالة ذلك على البعث فى قوله : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) ، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء ، منكراً على من ظن ذلك بقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدا) أى مهملا من التكليف والجزاء .

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا) .

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وأحلنا عليها مراراً كثيرة .

قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴾

وقد قدمنا الآيات الموضحة لما أهلك به عاداً ، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود فى سورة فصلت فى قوله تعالى فى الكلام فى شأن عاد : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا الآية) . وقوله فى شأن ثمود : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) الآية :

قوله تعالى ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾

قوله : وقوم نوح معطوف على قوله : (وأنه أهلك عاداً الأولى) أى وأهلك قوم نوح ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم ، ولكنه بين ذلك فى مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى : (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم) الآية .

وقوله تعالى :(فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) .

وقوله تعالى : (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) .

وقوله تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) .

وقوله تعالى : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى ، أى أشد ظلما وطغيانا من غيرهم ، قد بينه تعالى فى آيات أخر كقوله تعالى : (قال نوح رب إننى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) .

وقوله تعالى : (قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كبارا ـ إلى قوله ـ وقد أضلوا كثيراً) .

وقوله تعالى : (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) .

وقوله : (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) .

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) لأن قوماً لم يتأثروا بدعوة نبى كريم ناصح فى هذا الزمن الطويل ، لاشك أنهم أظلم الناس وأطغاهم .

قوله تعالى ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾

المؤتفكة ، مفتعلة من الإفك ، وهو القلب والصرف ، والمراد بها قرى قوم لوط بدليل قوله فى غير هذا الموضع : والمؤتفكات . بالجمع ؛ فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مراراً ، وأكثرنا من أمثلته فى القرآن وفى كلام العرب وأحلنا عليه مراراً ، وإنما قيل لها : مؤتفكة ، لأن جبريل أفكها فأتفكت ، ومعنى أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلا أعلاها أسفلها ، وجعل عاليها أسفلها ، هو ائتفاكها وإفكها .

وقد أوضح تعالى هذا المعنى فى سورة هود فى قوله تعالى : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة) الآية .

وقوله تعالى فى سورة الحجر : (فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) .

وقد بينا قصة قوم لوط فى هود والحجر ، وقوله فى هذه الآية الكريمة : أهوى . تقول العرب : هوى الشىء إذا انحدر من عال إلى أسفل . وأهواه : غيره إذا ألقاه من العلو الى السفل ، لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها أى ألقاها تهوى الى الأرض ، منقلبة أعلاها أسفلها .

قوله تعالى ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾

قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (أتى أمر الله) ، وفى سورة المؤمن فى قوله تعالى : (وأنذرهم يوم الآزفة) الآية .

قوله تعالى ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات التى فيها إطلاق اسم الحديث على القرآن فى سورة الطور . فى الكلام على قوله تعالى : (فليأتوا بحديث مثله) الآية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى (أتى أمر الله) وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ وإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام ، فى الكلام على قوله تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) الآية.

قوله تعالى « يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ. »

قد قدمنا الآيات الموضحه له فى سورة يس فى الكلام على قوله تعالى (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) وفى سورة ق فى الكلام على قوله تعالى (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) .

قوله تعالى ﴿ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان ، فى الكلام على قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وفى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) .

قوله تعالى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

قرأ هذا الحرف ابن عامر ، ففتحنا بتشديد التاء للتكثير ، وباقى السبعة بتخفيفها .

وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلا : إن قومه غلبوه سائلا ربه أن ينتصر له منهم ، وأن الله انتصر له منهم ، فأهلكهم بالغرق ، لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر أى متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى فجر الأرض عيونا .

وقوله : عيونا ، تمييز محول عن المفعول ، والأصل فجرنا عيون الأرض . والتفجير : إخراج الماء منها بكثرة ، وأل ، فى قوله : النقى الماء للجنس، ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر ، أى قدره الله وقضاه .

وقيل : إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر ، والأول أظهر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه جل وعلا، أن ينتصر له، من قومه فينتقم منهم ، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعاً بالغرق فى هذا الماء المتلقى من السماء والأرض ، جاء موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى فى الأنبياء : (ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) .

وقوله تعالى فى الصافات (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ـ إلى قوله ـ ثم أغرقنا الآخرين) .

وقد بين جل وعلا أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكا مستأصلا، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا : فانتصر وذلك كقوله تعالى (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك

ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذى آمن ، وذلك فى قوله تعالى (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) ، وقد قال تعالى (وما آمن معه إلا قليل) .

وقوله تعالى(عيونا) قرأه ابن كثير وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وعاصم ، فى رواية شعبة وحمزة والكسائى : عيونا بكسر العين لمجانسة الياء .

وقرأه نافع وأبو وعمرو وابن عامر فى رواية هشام وعاصم فى رواية حفص عيونا بضم العين على الأصل .

قوله تعالى ﴿ وَحَمَلْنَهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾

لم يبين هنا ذات الألواح والدسر ، ولكنه بين فى مواضع أخر أن المراد وحملناه على سفينة ذات ألواح ، أى من الخشب ودسر : أى مسامير تربط بعض الخشب ببعض ، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب ،وعلى هذا القول أكثر المفسرين .

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة : الدسور الخيوط التى تشد بها ألواح السفينة .

وقال بعض العلماء : الدستور جؤجؤ السفينة أى صدرها ومقدمها الذى تدسر به الماء أى تدفعه وتمخره به ، قالوا : هو من الدسر وهو الدفع .

فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة . قوله تعالى (إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية) أى السفينة كما أوضحناه فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى (ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام) .

وقوله تعالى : فأنجيناه وأصحاب السفينة)وقوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾

الضمير فى قوله تعالى : تركناها ، قال بعض العلماء إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التى فعل بقوم نوح .

والمعنى ، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل ، لئلا نفعل بهم مثل مافعلنا بقوم نوح . وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) وقوله تعالى (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) .

وقال بعض العلماء : الضمير فى تركناها عائد إلى السفينة ، وكون سفينة نوح آية بينه الله تعالى فى آيات من كتابه كقوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين)وقوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

قد قدمنا إيضاحه فى سورة القتال فى كلامنا الطويل على قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر ، في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى : (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في أيام نحسات) .

قوله تعالى ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ الآية

وقوله تعالى ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ الآية

قد قدمنا الآيات الموضحة لهما في الكلام على قوله تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ، وقوله تعالى : (أؤلقى الذكر عليه من بيننا بل هم في شك من ذكرى) الآية .

قوله تعالى ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾

قوله : مرسلوا الناقة : أي مخرجوها من الهضبة ، فتنة لهم أي ابتلاء واختباراً ، وهو مفعول من أجله ، لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقة من صخرة ، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه ، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح ، وفتنة لهم أي ابتلاء واختبارا ، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها ، وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح من أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه .

والمفسرون يقولون : إنهم قالوا له : إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقة وبراء عشراء اتبعناك .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختبارا ، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه ، التي هي الناقة بسوء أهلكهم ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الأعراف :

(قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) ، وقوله تعالى فى سورة هود عن صالح (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) ، وقوله تعالى فى الشعراء : (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) .

وقد بين تعالى : أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل فى آيات من كتابه كقوله تعالى فى الأعراف : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم - إلى قوله - فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ، وقوله تعالى : (فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب) ، وقوله (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم) الآية .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) .

قوله تعالى ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾

قوله تعالى (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) . أى أخبر يا صالح ثمود أن الماء - وهو ماء البئر التى كانت تشرب منها الناقة - قسمة بينهم ، فيوم للناقة ويوم لثمود ، فقوله : بينهم : أى بين الناقة وثمود ، وغلب العقلاء على الناقة . كل شرب محتضر أى يحضره صاحبه ، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آية أخرى وهى قوله تعالى فى الشعراء (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) وشرب الناقة

هو الذى حذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له فى قوله تعالى : (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) .

قوله تعالى ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾

قوله : فتعاطا ، قال أبو حيان فى البحر : فتعاطى هو مطاوع عاطا ، وكأن هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضا ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده . انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول : تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله ، وعاطاه إذا تناوله ، ومنه قول حسان رضى الله عنه :

كملتاهما حلب العصير فعاطنى بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله : فعقر أى تعاطى عقر الناقة فعقرها ، ففعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا ، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم ، وعبر عنه فى الشمس بأنه أشقاهم وذلك فى قوله (إذا انبعث أشقاها) .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف فى الآية ، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة ، لأنه قال : فتعاطى فعقر ، بالإفراد مع أنه أسند عقر الناقة فى آيات أخر إلى ثمود كلهم كقوله فى سورة الأعراف : (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم) الآية ، وقوله تعالى فى هود (فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) وقوله فى الشعراء : (فعقروها فأصبحوا نادمين) ، وقوله فى الشمس : (فكذبوه فعقروها) .

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة ، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه ، أصالة عن نفسه ونيابة عن غيره . ومعلوم أن المتمالئين على العقر كلهم عاقرون ، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر

للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع، لأنهم متمالئون كما دل عليه ترتيب تعاطى العقر بالفاء فى قوله: فتعاطا فعقر على ندائهم صاحبهم لينوب عنهم فى مباشرة العقر فى قوله تعالى: فنادوا صاحبهم أى نادوه ليعقرها.

وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربى مشهور، وهو كثير فى القرآن وفى كلام العرب

وقد قدمنا فى سورة الحجرات أن منه قراءة حمزة فى قوله تعالى: (فإن قتلوكم فاقتلوهم) بصيغة المجرد فى الفعلين، لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد فى إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع:

فإن تقتلونا عند حرة واقم فإنا على الإسلام أول من قتل

أى فإن تقتلوا بعضنا، وأن منه أيضاً: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) لأن هذا فى بعضهم دون بعض. بدليل قوله تعالى: (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم).

وقد قدمنا فى الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية فى ذلك قول الشاعر:

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

وقوله تعالى: فعقر: أى قتلها. والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح

ومنه قول امرىء القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يامرأ القيس فانزل

ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقرى الضيف قول جرير:

تعدون عقر الذيب أفضل مجدكم بنى ضوطرا لولا الكمى المقنعا

قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة فصلت ، فى الكلام على قوله تعالى (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾

قوله : إنا أرسلنا عليهم حاصباً : قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) ، وقوله : (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحا شافياً بكثرة .

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه فى سورة هود وسورة الحجر فى الكلام على القصة المذكورة فى السورتين .

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ . كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور :

الأول : أن آل فرعون جاءتهم النذر .

الثانى : أنهم كذبوا بآيات الله .

الثالث . أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة فى آيات أخر من كتاب الله ، أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر ، فقد أوضحه تعالى فى آيات كثيرة من كتابه .

اعلم أولا أن قوله (جاء آل فرعون النذر) ، قيل : هو جمع نذير وهو الرسول . وقيل هو مصدر بمعنى الإنذار فعلى أنه مصدر .

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذى جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون ، وعلى أنه جمع نذير أى منذر ، فالمراد به موسى وهارون ، وقد جاء فى آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى فى طه (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك) .

ثم بين تعالى إنذارهما له فى قوله : (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ونحوها من الآيات ، وفى هذه الآية سؤال معروف ، وهو أن الله تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون ، كما قال تعالى : (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) وهنا جمع النذر فى قوله (ولقد جاء آل فرعون النذر) ، وللعلماء عن هذا أجوبة. أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو المقرر فى أصول مالك بن أنس رحمه الله ، وعقده صاحب مراقى السعود بقوله :

أقل معنى الجمع فى المشتهر لاثنان فى رأى الإمام الحبر

قالوا ، ومنه قوله تعالى : (فقد صغت قلوبكما) ولهما قلبان فقط وقوله : (فإن كان له إخوة فلأمه السدس) والمراد بالإخوة اثنان فصاعدا كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافا لابن عباس ، وقوله (وأطراف النهار) وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشرى وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : التحقيق فى الجواب ، أن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع المرسلين ، ومن كذب نذيرا واحدا فقد كذب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهى مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . وقوله تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) .

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم فى قوله تعالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) الآية ، وأشار إلى ذلك فى قوله . (لا نفرق بين أحد من رسله) . وقوله (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) . وقوله تعالى : (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) الآية .

وقد أوضح تعالى فى سورة الشعراء أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل ، وذلك فى قوله : (كذبت قوم نوح المرسلين) ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحا وحده ، حيث فرد ذلك بقوله : (إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ـ إلى قوله ـ قال رب إن قومى كذبون) وقوله تعالى : (كذبت عاد المرسلين) ، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده ، حيث فرده بقوله : ﴿ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) ونحو ذلك . فى قوله تعالى فى قصة صالح وقومه ، ولوط وقومه ، وشعيب وأصحاب الأيكة ، كما هو معلوم ، وهو واضح لاخفاء فيه ، ويزيده إيضاحا قوله ﷺ « إنا معاشر

الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » يعنى أنهم كلهم متفقون فى الأصول وإن اختلفت شرائعهم فى بعض الفروع .

وأما الأمر الثانى : وهو كون فرعون وقومه كذبوا بآيات الله ، فقد جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) ، وقوله تعالى : (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) . وقوله تعالى : (فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى) . وقوله تعالى : (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) .

وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى (أخذهم أخذ عزيز مقتدر) ، فقد جاء موضحا فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ـ إلى قوله ـ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم) وقوله تعالى : (فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) وقوله تعالى : (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : (أخذ عزيز مقتدر) يوضحه قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

وقد روى الشيخان فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم تلى قوله تعالى

وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى) الآية » ، والعزيز الغالب ، والمقتدر : شديد القدرة عظيمها .

قوله تعالى ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزخرف، فى الكلام على قوله تعالى ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشا ﴾ ، وفى صدر سورة الروم ، وغير ذلك من المواضع .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الطور فى الكلام على قوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الزخرف فى بعض المناقشات التى ذكرناها فى الكلام على قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) .

قوله تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ .

الصحيح فى معنى الآية أن كل شىء فعله الناس مكتوب عليهم فى الزبر ، التى هى صحف الأعمال ، وكل صغير وكبير مستطر ، أى مكتوب عليهم لا يترك منه شىء .

وهذا المعنى جاء موضحا فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى (: ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا

ما عملوا حاضرا) وقوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) .

والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب . والمستطر معناه المسطور ، أى المكتوب ، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ .

أى فى جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك فى قوله ﴿ تجرى من تحتها الأنهار) ، وقوله تعالى (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى) .

وقد ذكرنا كثيرا من أمثلة إطلاق المفرد ، وإرادة الجمع كما هنا فى القرآن العظيم ، مع تنكير المفرد وتعريفه وإضافته ، وأكثرنا أيضا من الشواهد العربية على ذلك فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى (ثم نخرجكم طفلا) ، وفى غير ذلك من المواضع . والعلم عند الله تعالى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾

قال بعض أهل العلم : نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن جل وعلا، كما ذكره الله عنهم فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) كما تقدم فى الفرقان .

وقد قدمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات فى أول سورة الفاتحة .

وقوله تعالى ﴿ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴾

أى علم نبيه صلى الله عليه وسلم القرآن فتلقته أمته عنه ، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار فى قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم فى قوله : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) ، وقوله تعالى (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى يرويه محمد عن غيره .

وقوله تعالى (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) .

فقوله تعالى هنا (الرحمن علم القرآن) أى ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر ، بل الرحمن جل وعلا هو الذى علمه إياه ، والآيات الدالة على هذا كثيرة جدا، كقوله تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض) ، وقوله تعالى (ألم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ، وقوله تعالى (حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيراً) وقوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب

فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقوله تعالى (وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) . وقوله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقوله تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) وقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) وقوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) . وقوله تعالى (وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم .

وقوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) .

وتعليمه جل وعلا هذا القرآن العظيم ، قد بين فى مواضع أخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا — إلى قوله تعالى — ذلك هو الفضل الكبير) .

وقد علم الله تعالى الناس أن يحمدوه على هذه النعمة العظمى التى هى إنزال القرآن ، وذلك فى قوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) ، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه جل وعلا فى آيات من كتابه كقوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) وقوله (إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) وقد بينا الآيات الموضحة لذلك فى الكهف والزخرف .

(علم القرآن) حذف فيه أحد المفعولين ، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثانى ، كما ظنه الفخر الرازى ، وقد رده عليه أبو حيان ، والصواب

هو ما ذكره ، من أن المحذوف الأول ، وتقديره : علم النبي القرآن وقيل جبريل ، وقيل الإنسان .

قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

اعلم أولا أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة ، كما أشار تعالى لذلك بقوله ، فى أول النحل : (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) ، وقوله : فى آخر يس (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) .

فالإنسان بالأمس نطفة واليوم هو فى غاية البيان وشدة الخصام يجادل فى ربه وينكر قدرته على البعث ، فالمنافاة العظيمة التى بين النطفة وبين الإبانة فى الخصام ، مع أن الله خلقه من نطفة وجعله خصيما مبينا آية من آياته جل وعلا دالة على أنه المعبود وحده ، وأن البعث من القبور حق .

وقوله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة (خلق الإنسان) لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان ، ولكنه بينها فى آيات أخر كقوله تعالى فى الفلاح (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة .

وقد بينا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام فى جميع أطواره قبل ولادته فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى (يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) الآية ، وبينا هناك معنى النطفة والعلقة والمضغة فى اللغة .

وقوله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة (علمه البيان) التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما فى الضمير .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحا فى قوله تعالى (فإذا هو خصيم مبين) فى سورة النحل ويس ، وقوله (مبين) على أنه اسم فاعل أبان المتعدية ، والمفعول محذوف للتعميم ، أى مبين كل ما يريد بيانه ، وإظهاره بلسانه مما فى ضميره ، وذلك لأنه ربه علمه البيان ، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة ، وأن المعنى فإذا هو خصيم مبين أى بين الخصومة ظاهرها ، فكذلك أيضاً ، لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله علمه البيان.

وقد امتن الله جلا وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التى هى اللسان والشفتان ، وذلك فى قوله تعالى (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين)

قوله تعالى ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾

الحسبان : مصدر زيدت فيه الألف والنون ، كما زيدت فى الطغيان والرجحان والكفران ، فمعنى بحسبان أى بحساب وتقدير من العزيز العليم وذلك من آيات الله ونعمه أيضاً على بنى آدم ، لأنهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام ، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتى تعتد بالشهور ، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق نفصل الآيات لقوم يعلمون) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة بنى إسرائيل فى الكلام على

قوله تعالى : (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾

اختلف العلماء فى المراد بالنجم فى هذه الآية ، فقال بعض العلماء : النجم هو مالا ساق له من النبات كالبقول ، والشجر هو ماله ساق ، وقال بعض أهل العلم : المراد بالنجم نجوم السماء .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذى يظهر لى صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء ، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا فى سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر ، ولم يذكر فى آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه . ونعنى بآية الحج قوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر) الآية .

فدلت هذه الآية أن الساجد من الشجر فى آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر فى سورة الحج ، وخير مايفسر به القرآن القرآن ، وعلى هذا الذى اخترناه ، فالمراد بالنجم النجوم ، وقد قدمنا الكلام عليه فى أول سورة النجم وأول سورة الحج ، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجم قول الراعى :

فباتت تعد النجم فى مستحيرة سريع بأيدى الآكلين جمودها

وقول عمرو بن أبى ربيعة المخزومى :

أبرزها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصا والتراب

وقوله فى هذه الآية الكريمة : يسجدان ، قد قدمنا الكلام عليه مستوفًى فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾

قوله : والسماء رفعها قد بينا الآيات الموضحة له فى سورة قٓ فى الكلام على قوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) الآية .

وقوله : ووضع الميزان ، قد قدمنا الكلام عليه فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى: (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها) ، وذكرنا بعضه فى سورة شورى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ . وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية أنه وضع الأرض للأنام وهو الخلق ، لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم ، القابل لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار وزرع الحبوب والثمار ، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع . من أعظم الآيات وأكبر الآلاء التى هى النعم ، ولذا قال تعالى بعده : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه جل وعلا على خلقه بوضع الأرض لهم بما فيها من المنافع ، وجعلها آية لهم ، دالة على كمال قدرة ربهم واستحقاقه للعبادة وحده، جاء موضحا فى آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين)الآية ، وقوله تعالى : (وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) الآية .

وقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم) ، وقوله تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) وقوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض فراشاً) الآية .

وقوله تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا) الآية .

وقوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فيها فاكهة) أى فواكه كثيرة ، وقد قدمنا أن هذا أسلوب عربى معروف ، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب .

وقوله : (والنخل ذات الأكمام) ذات أى صاحبة ، والأكمام جمع كم بكسر الكاف ، وهو مايظهر من النخلة فى ابتداء إثمارها ، شبه اللسان ثم ينفخ عن النور ، وقيل : هو ليفها ، واختار ابن جرير شموله للأمرين .

وقوله : (والحب) كالقمح ونحوه .

وقوله : (ذو العصف) ، قال أكثر العلماء : العصف ورق الزرع ،ومنه قوله تعالى (فجعلهم كعصف مأكول) وقيل العصف : التبن .

وقوله (والريحان) : اختلف العلماء فى معناه ، فقال بعض أهل العلم :هو كل ما طاب ريحه من النبت وصار يشم لتمتع بريحه . وقال بعض العلماء الريحان : الرزق ، ومنه قول النجم بن توالب العكلى :

فروح الإله وريحانه ورحمته وسماء درر
غمام ينزل رزق العباد فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون الريحان بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائى ،وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل للأمرين المذكورين .

وإيضاح ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم : والحب ذو العصف والريحان بضم الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وهو عطف على فاكهة أى فيها فاكهة ، وفيها الحب إلخ ، وقرأ ابن عامر :

والحب ذا العصف والريحان ، بفتح الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث ، وفى رسم المصحف الشامى ذا العصف بألف بعد الذال ، مكان الواو ، والمعنى على قراءته : وخلق الحب ذا العصف والريحان ، وعلى هاتين القراءتين، فالريحان محتمل لكلا المعنيين المذكورين .

وقراءة حمزة والكسائى بضم الباء فى الحب وضم الذال فى ذو العصف وكسر نون الريحان عطفا على العصف ، وعلى هذا فالريحان لا يحتمل المشموم

لأن الحب الذى هو القمح ونحوه صاحب عصف وهو الورق أو التبن وليس صاحب مشموم طيب ريح .

فيتعين على هذه القراءة أن المراد بالعصف ما تأكله الأنعام من ورق وتبن ، والمراد بالريحان ما يأكله الناس من نفس الحب ، فالآية على هذا المعنى كقوله (متاعا لكم ولأنعامكم) وقوله تعالى (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) . وقوله تعالى (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم) وقوله تعالى (لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون) الآية .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فيها فاكهة) ، ماذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التى هى أنواع ، جاء موضحاً فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى فى سورة الفلاح (لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) وقوله تعالى (وفاكهة وأبا) إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره هنا من الامتنان بالحب جاء موضحا فى آيات أخر ، كقوله تعالى : (فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) ، وقوله تعالى (فأنبتنا فيها حبا وعنبا) وقوله تعالى : (وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) ، وقوله تعالى (نخرج منها حبا متراكبا) الآية . وقوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى) إلى غير ذلك من الآيات .

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنخل ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى . (والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد) ، وقوله تعالى (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان ، على أنه الرزق كما فى قراءة حمزة والكسائى ، جاء موضحا فى آيات كثيرة أيضا كقوله تعالى : (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا) وقوله تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض) الآية ، وقوله تعالى : (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) . وقوله تعالى : (وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات) الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

مسألة

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) أن الأصل فيما على الأرض الإباحة ، حتى يرد دليل خاص بالمنع ، لأن الله امتن على الأنام بأنه وضع لهم الأرض ، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه فى آية الرحمن هذه ، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما فى الأرض جميعا فى قوله : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) .

ومعلوم أنه جل وعلا لا يمتن بحرام إذ لا منة فى شىء محرم ، واستدلوا لذلك أيضا بحصر المحرمات فى أشياء معينة فى آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا أو لحم خنزير) الآية ، وقوله تعالى : (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية . وقوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم) الآية .

وفى هذه المسألة قولان آخران .

أحدهما : أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة ،

واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله جل وعلا ،والأصل فى ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه ، وفى هذا مناقشات معروفة فى الأصول ،ليس هذا محل بسطها .

القول الثانى : هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل ، فتحصل أن فى المسألة ثلاث مذاهب : المنع ، والإباحة ، والوقف .

قال مقيده عفا الله عنه وغفرله : الذى يظهر لى صوابه فى هذه المسألة هو التفصيل ، لأن الأعيان التى خلقها الله فى الأرض للناس بها ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها .
الثانية : أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة .

الثالثة : أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى ، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر ، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله :(هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) . وقوله (والأرض وضعها للأنام) الآية .

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهى على التحريم لقوله ﷺ «لاضرر ولاضرار » .

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات :
الأولى : أن يكون النفع أرجح من الضرر .
والثانية : عكس هذا .

والثالثة : أن يتساوى الأمران .

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساويا له فالمنع لحديث « لاضرر ولا ضرار » ، ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز ، لأن المقرر فى الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة ، كما أشار له فى مراقى السعود بقوله :

* وألغ إن يك الفساد أبعدا *

أو رجح الإصلاح كالأسارا تفدى بما ينفع للنصارا

وانظر تدلى دولى العنب فى كل مشرق وكل مغرب

ومراده : تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة ، أو البعيدة ممثلا له بمثالين:

الأول منهما : أن تخليص أسارى المسلمين من أيدى العدو بالفداء مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة ، التى هى انتفاع العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى .

الثانى : أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب ، مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر من العنب ، فلم يقل أحد بإزالة العنب من الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه ، لأن الانتفاع بالعنب والزبيب مصلحة راجحة على تلك المفسدة ، وهذا التفصيل الذى اخترنا ، قد أشار له صاحب مراقى السعود بقوله :

والحكم مابه يجىء الشرع وأصل كل ما يضر المنع

تنبيـــــــه

اعلم أن علماء الأصول يقولون : إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شيء إلا بدليل من الشرع ، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلى ، وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية ، وهى استصحاب العدم الأصلى حتى يرد دليل ناقل عنه .

ونحن نقول : إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلى قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة فى الإباحة ، ومن ذلك أن الله لما أنزل تشديده فى تحريم الربا فى قوله تعالى (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله) الآية ، وكانت وقت نزولها عندهم أموال مكتسبة من الربا ، اكتسبوها قبل نزول التحريم، بين الله تعالى لهم أن مافعلوه من الربا ، على البراءة الأصلية قبل نزول التحريم لا حرج عليهم فيه ، إذ لا تحريم إلا ببيان ،وذلك فى قوله تعالى: (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف) وقوله : ماسلف أى مامضى قبل نزول التحريم ، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف) وقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف) والأظهر أن الاستثناء فيهما فى قوله : إلا ماقد سلف . منقطع أى لكن ماسلف من ذلك قبل نزول التحريم ،فهو عفو، لأنه على البراءة الأصلية .

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون) لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما استغفر لعمه أبى طالب بعد موته على الشرك ، واستغفر المسلمون لموتاهم المشركين عاتبهم الله فى قوله (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) الآية . ندموا على الاستغفار لهم ، فبين الله لهم أن استغفارهم لهم لا مؤاخذة به ، لأنه وقع قبل بيان منعه ، وهذا صريح فيما ذكرنا .

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به فى الأصول أيضاً فى الكلام على قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وبينا هناك كلام أهل العلم فى ذلك ، وأوضحنا ماجاء فى ذلك من الآيات القرآنية .. والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾

الصلصال : الطين اليابس الذى تسمع له صلصلة ، أى صوت إذا قرع بشىء ، وقيل الصلصال المنتن ، والفخار الطين المطبوخ ، وهذه الآية بين الله فيها طورا من أطوار التراب الذى خلق منه آدم ، فبين فى آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) وقوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب). وقوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . وقوله تعالى (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة) وقوله تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) .

وقد بينا فى قوله تعالى (فإنا خلقناكم من تراب) وقوله (منها خلقناكم) أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها ، لأنه أصلهم وهم فروعه ، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً ، ولذا قال (أأسجد لمن خلقت طينا) وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) . وقال (إنا خلقناهم من طين لازب). وقال تعالى (إنى خالق بشرا من طين) ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنونا ، أى طينا أسود متغير الريح ، كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون)

الآية . قال تعالى (إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون) وقال عن إبليس (قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون) والمسنون قيل المتغير وقيل المصور وقيل الأملس ، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالا . كما قال هنا (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) وقال (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) .

فالآيات يصدق بعضها بعضاً ، ويتبين فيها أطوار ذلك التراب كما لا يخفى .

قوله (والجان) أى وخلق الجان وهو أبو الجن ، وقيل هو إبليس . وقيل : هو الواحد من الجن .

وعليه فالألف واللام للجنس ، والمارج : اللهب الذى لا دخان فيه ، وقوله من نار : بيان لمارج . أى من لهب صاف كائن من النار .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار ، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى فى الحجر (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقوله تعالى (قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

وقد أوضحنا الكلام على هذا فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾

قد أوضحنا الكلام عليه فى أول الصافات فى الكلام على قوله تعالى (رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق) .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى

(وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ .

قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو يخرج بضم الياء وفتح الراء مبنيا للمفعول ، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج وقرأه باقى السبعة : يخرج بفتح الياء وضم الراء مبنيا للفاعل ، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج .

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا : إن المراد بقوله فى هذه الآية يخرج منهما أى من مجموعها الصادق بالبحر الملح ، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه ، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب .

وهذا القول الذى قالوه فى هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لاشك فى بطلانه ، لأن الله صرح بنقيضه فى سورة فاطر ، ولاشك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل ، وذلك فى قوله تعالى (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها) فالتنوين فى قوله : من كل تنوين عوض أى من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وهى اللؤلؤ والمرجان ، وهذا مما لا نزاع فيه[1] .

---

(١) هذا الاستنتاج الذى توصل إليه فضيلة الوالد رحمه الله ، يعتبر فتحا من الله لأنه توصل إليه استنتاجاً ، فجاء الواقع يشهد بذلك ، وإن لم يطلع عليه رحمه الله. مما يلزم التعليق والتنبية عليه .

وذلك أنه قد ثبت وجود اللؤلؤ فى الماء العذب كما ذهب إليه رحمه الله ، كما جاء =

وقد أوضحنا هذا فى سورة الأنعام فى الكلام على قوله تعالى (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) الآية و اللؤلؤ الدر ، والمرجان الخرز الأحمر . وقال بعضهم : المرجان صغار الدر واللؤلؤ كباره .

قوله تعالى : ﴿ وله الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى(ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام) .

= فى دائرة معارف الشعب المصرية عدد ٧٣ صحيفة٥٣٧ تكلمت عن اللؤلؤ إلى أن جاء فيها مانصه :

وأنواع المحار جميعها قد تنتج اللؤلؤ ولكنه يوجد غالباً فى أنواع معينة منها. فلقد عثر مثلا على لآلىء رائعة الجمال فى محار المياه العذبة الذى يعيش فى بريطانيا وخاصة أنهار ويلز واسكتلندا ...

وأشهر لؤلؤة منها عثر عليها فى نهر كونواى فى القرن السابع عشر ، وأهداها أحد نبلاء الانجليز إلى الملكة كاترين زوجة شارل الثانى . ومازالت محفوظة ضمن مجوهرات التاج البريطانى فى برج لندن . ولا يزال الأهالى يقتنون المحار عند مصب هذا النهر ... الخ .

فكان إثبات الشيخ رحمه الله وجزمه باستخراج اللؤلؤ من الماء العذب مغايراً لما عليه جميع المفسرين إثباتاً مؤيداً بنور الله ، شهد له الواقع وصدقه الحس ، وفى ذلك تأييد لكل مجتهد وجد مستنداً صريحاً لما ذهب إليه ، ولما فهمه من كتاب الله . وإن غاير أقوال الآخرين ، مادام له مستند ظاهر كهذه المسألة .

وهذا مصداق ماجاء عن على رضى الله عنه وما نطق به من مشكاة النبوة حينما سئل : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم آل البيت بشىء من الوحى ؟فقال: لا . إلا بما فى هذه الصحيفة أو فهما فى كتاب الله ، يعطيه من شاء من عباده .

وهذا هو الفهم الصحيح المستند إلى نص صريح ، يعطيه الله تعالى له ، رحمه الله رحمة واسعة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام ، جاء موضحا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى . (كل شىء هالك إلا وجهه) ، وقوله تعالى : (وتوكل على الحى الذى لايموت) . وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلى وصف بها نفسه، فعلينا أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية فى سورة الأعراف ، وفى سورة القتال . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) وتكلمنا أيضا هناك على غيرها من الآيات التى يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾

ذكر جلا وعلا فى هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة ،

وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان ، وقوله : وردة : أى حمراء كلون الورد ، وقوله كالدهان : فيه قولان معروفان للعلماء .

الأول منهما : أن الدهان هو الجلد الأحمر ، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر فى لونه .

والثانى . أن الدهان هو مايدهن به ، وعليه ، فالدهان ، قيل : هو جمع دهن ، وقيل : هو مفرد ، لأن العرب تسمى مايدهن به دهانا ، وهو مفرد ، ومنه قول امرىء القيس :

كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهنى بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر ، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبهها بحمرة الورد . وحمرة الأديم الأحمر .

قال بعض أهل العلم : إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة . وقال بعض أهل العلم : أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها ومادونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته ، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها .

وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به ، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها ، والثانى أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن .

أما على القول الأول ، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية ، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر .

وأما على القول الثانى الذى هو أنها تذوب وتصير مائعة ، فقد أوضحه الله فى غير هذا الموضع وذلك فى قوله تعالى فى المعارج(إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا يوم تكون السماء كالمهل) ، والمهل شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا : إنه دردى الزيت وهو عكره ، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما .

وقد أوضح تعالى فى الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك فى قوله تعالى : (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) .

والقول بأن الوردة تشبيه بالفرس الكميت وهو الأحمر لأن حمرته تتلون باختلاف الفصول ، فتشتد حمرتها فى فصل ، وتميل إلى الصفرة فى فصل، وإلى الغبرة فى فصل .

وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية ، وقول من قال : إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد فى كتاب الله ، وذلك فى قوله تعالى :(يوم تمور السماء مورا) الآية ، ولكنه لا يخلو عندى من بعد .

وما ذكره تعالى فى هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة ، جاء موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى : (إذا السماء انشقت) وقوله تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء) وقوله : (ويوم تشقق السماء بالغمام) الآية . وقوله : (إذا السماء انفطرت) ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة ق فى الكلام على قوله تعالى : (ومالها من فروج) .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أنه يوم القيامة لا يسأل إنسا ولا جانا عن ذنبه ، وبين هذا المعنى فى قوله تعالى فى القصص : (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) .

وقد ذكر جل وعلا فى آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم ، وذلك فى قوله تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) ، وقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) .

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات ، التى قد يظن غير العالم أن بينها اختلافا ، اعلم أولا أن للسؤال المنفى فى قوله هنا (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، وقوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) أخص من السؤال المثبت فى قوله (فو ربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) ، لأن هذه فيها تعميم السؤال فى كل عمل ، والآيتان قبلها ليس فيهما نفى السؤال إلا عن الذنوب خاصة ، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء .

الأول منها : وهو الذى دل عليه القرآن ، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا ، هو أن السؤال نوعان : أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب ، والثانى هو سؤال الاستخبار والاستعلام .

فالسؤال المنفى فى بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام ، لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى : (أحصاه الله ونسوه) .

وعليه فالمعنى لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، سؤال استخبار واستعلام لأن الله أعلم بذنبه منه .

والسؤال المثبت فى الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع ،سواء كان عن ذنب أو غير ذنب ، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى :(فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى:(وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لا تناصرون، بل هم اليوم مستسلمون) وقوله تعالى(يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسحر هذا) الآية ، قوله (ألم يأتكم رسل منكم) .

أما سؤال الموءودة فى قوله : (وإذا الموءودة سئلت) فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب ، لأنها سئلت عن أى ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبها ، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه ، لأنها هى تقول لا ذنب لى، فيرجع اللوم على من قتلها ظلما .

وكذلك سؤال الرسل ، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته ، وباقى أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن، وموضوع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن ، وقد بينا بقيتها فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب فى أول سورة الأعراف .

وقد قدمنا طرفا من هذا فى هذا الكتاب المبارك فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) .

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ .

قوله بسيماهم : أى بعلامتهم المميزة لهم ، وقد دل القرآن على أنها هى سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى :(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه

فأما الذين اسودت وجوههم) الآية ، وقال تعالى : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) ، وقال تعالى : (وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ، وقال تعالى (وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة) ، لأن معنى قوله ترهقها قترة أى يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود ، وقال تعالى فى زرقة عيونهم : (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) ولا شىء أقبح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون ، ولذا لما أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوإ الأوصاف وأقبحها ، فوصفها بسواد الوجوه وزرقة العيون حيث قال :

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره ، كما فى قوله : (عليها غبرة ترهقها قترة) فإن ذلك يزيده قبحاً على قبح .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) ، وقد قدمنا تفسيره والآيات الموضحة له فى سورة الطور فى الكلام على قوله تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً) .

قوله تعالى : ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ .

أما قوله : (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون) فقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الطور أيضا فى الكلام على قوله تعالى : (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) .

وأما قوله تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) فقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الحج فى الكلام على قوله : (يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم) الآية .

قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ .

وقد بينا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، أن الآية قد يكون فيها وجهان صحيحان كلاهما يشهد له قرآن ، فنذكر ذلك كله مبينين أنه كله حق، وذكرنا لذلك أمثلة متعددة فى هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك هذه الآية الكريمة .

وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء، كلاهما يشهد له قرآن .

أحدهما : أن المراد بقوله: مقام ربه : أى قيامه بين يدى ربه ، فالمقام اسم مصدر بمعنى القيام ، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف ، وإنما أضيف إلى الرب لوقوعه بين يديه ، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) ، فإن قوله : ونهى النفس عن الهوى : قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدى ربه ، فنهى نفسه عن هواها .

والوجه الثانى : أن فاعل المصدر الميمى الذى هو المقام ، هو الله تعالى: أى خاف هذا العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ، وقوله تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ، وقوله تعالى : (ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا فى سورة الأحقاف فى الكلام على قوله تعالى فى شأن الجن : (ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم) الآية ، أن قوله: ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن فى

قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان)، نص قرآنى على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾

قد بينا فى سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى: (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق، والحلية بالذهب والفضة، وبينا أن جميع ذلك يحرم على ذكور هذه الأمة فى دار الدنيا.

قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ﴾.

قد قدمنا الكلام عليه مستوفى فى سورة الصافات فى الكلام على قوله تعالى: (وعندهم قاصرات الطرف عين).

قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى الْخِيَامِ﴾

قد قدمنا معنى القصر فى الخيام، وقصر الطرف على الأزواج فى سورة الصافات فى الكلام على قوله تعالى: (وعندهم قاصرات الطرف عين)، وقدمنا الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب فى سورة البقرة والصافات. وغير ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ .

الذى يظهر لى صوابه أن إذا هنا هى الظرفية المضمنة معنى الشرط ، وأن قوله الآتى : (إذا رجت الأرض رجاً) بدل من قوله : (إذا وقعت الواقعة) وأن جواب إذا هو قوله : فأصحاب الميمنة ، وهذا هو اختيار أبى حيان خلافاً لمن زعم أنها مسلوبة معنى الشرط هنا ، وأنها منصوبة بأذكر مقدرة أو أنها مبتدأ ، وخلافاً لمن زعم أنها منصوبة بليس المذكورة بعدها .

والمعروف عند جمهور النحويين أن إذا ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه ، وعليه فالمعنى : إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة .

وقوله فى هذه الآية الكريمة : (إذا وقعت الواقعة) أى قامت القيامة ، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والآزفة والقارعة .

وقد بين جل وعلا أن الواقعة هى القيامة فى قوله : (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (ليس لوقعتها كاذبة) فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق ، وبعضها يشهد له قرآن .

الوجه الأول : أن قوله كاذبة مصدر جاء بصفة اسم الفاعل ، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة ، والعاقبة بمعنى العقبى ، ومنه قوله تعالى

عند جماعات من العلماء (لاتسمع فيها لاغية) قالوا معناه لاتسمع فيها لغواً ، وعلى هذا القول ، فالمعنى ليس لقيام القيامة كذب ولاتخلف بل هو أمر واقع يقيناً لامحالة .

ومن هذا المعنى ، قولهم : حمل الفارس على قرنه فما كذب ، أى ما تأخر ولاتخلف ولاجبن .

ومنه قول زهير :

ليث يعثر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) الآية ، وقوله تعالى : (وأن الساعة آتية لاريب فيها) ، وقوله تعالى : (ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه) ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة شورى فى الكلام على قوله تعالى : (وتنذر يوم الجمع لاريب فيه) .

الوجه الثانى : أن اللام فى قوله : لوقعتها ظرفية ، وكاذبة اسم فاعل صفة لمحذوف أى ليس فى وقعة الواقعة نفس كاذبة بل جميع الناس يوم القيامة صادقون بالاعتراف بالقيامة مصدقون بها ليس فيهم نفس كاذبة بإنكارها ولا مكذبة بها .

وهذا المعنى تشهد له فى الجملة آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) ، وقوله تعالى : (ولايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة النمل فى الكلام على قوله تعالى : (بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) ، وباقى الأوجه قد يدل على معناه قرآن ولكنه لايخلو من بعد عندى ، ولذا لم أذكره ، وأقربها عندى الأول .

قوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

خبر مبتدأ محذوف أى هى خافضة رافعة ، ومفعول كل من الوصفين محذوف.

قال بعض العلماء : تقديره هى خافضة أقواماً فى دركات النار ، رافعة أقواماً إلى الدرجات العلى إلى الجنة ، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ، وقوله تعالى (ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) وقوله تعالى : (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

وقال بعض العلماء : تقديره خافضة أقواماً كانوا مرتفعين فى الدنيا رافعة أقواماً كانوا منخفضين فى الدنيا ، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى ، كقوله تعالى : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون — إلى قوله — فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون) إلى غير ذلك من الآيات .

وقال بعض العلماء : تقديره ، خافضة بعض الأجرام التى كانت مرتفعة كالنجوم التى تسقط وتتناثر يوم القيامة ، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة ، كما قال تعالى : (وإذا الكواكب انتثرت) وقال تعالى : (وإذا النجوم انكدرت) .

رافعة : أى رافعة بعض الأجرام التى كانت منخفضة كالجبال التى ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) ، فقوله : (وترى الأرض بارزة) ، لأنها لم يبق على

ظهرها شيء من الجبال ، وقال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

وقد قدمنا أن التحقيق الذى دل عليه القرآن ، أن ذلك يوم القيامة ، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذى هو المزن .

وقد صرح تعالى بأن الجبال تحمل هى والأرض أيضاً يوم القيامة. (وذلك فى قوله تعالى: (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال) الآية.

وعلى هذا القول ، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة ، وأنه يختل فيه نظام العالم ، وعلى القولين الأولين ، فالمراد الترغيب والترهيب ، ليخاف الناس فى الدنيا من أسباب الخفض فى الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا فى أسباب الرفع فيطيعوه أيضاً ، وقد قدمنا مراراً أن الصواب فى مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنْبَثًّا ﴾

قد قدمنا أن الأظهر عندنا أن قوله : إذا رجت . بدل من قوله : إذا وقعت الواقعة ، والرج : التحريك الشديد ، ومادلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكا شديداً جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى أول سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ، وقوله تعالى : (وبست الجبال بساً) فى معناه لأهل العلم أوجه متقاربة ، لايكذب بعضها بعضاً وكلها حق ، وكلها يشهد له قرآن .

وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون

فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن ، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية .

قال أكثر المفسرين (وبست الجبال بسا) أى فتت تفتيتاً حتى صارت كالبسيسة ، وهى دقيق ملتوت بسمن ، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقاً عنده فخاف أن يعجل عنه ، فأمر صاحبيه أن يلتاه ليأكلوه دقيقاً ملتوتاً ، وهو البسيسة .

لا تخبزا خبزاً وبسابسا ولا تطيلا بمناخ حبسا

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى : (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) ، فقوله : (كثيباً مهيلا) أى رملا متهايلا ، ومنه قول امرىء القيس :

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت على وآلت حلفة لم تحلل

ومشابهة الدقيق الملبوس بالرمل المتهايل واضحة ، فقوله : (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) مطابق فى المعنى لتفسير (وبست الجبال بساً) بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما ترى .

وما دلت عليه هذه الآيات من أنها تسلب عنها قوة الحجرية وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذى هو كلين الدقيق ، والرمل المتهايل يشهد له فى الجملة تشبيهها فى بعض الآيات بالصوف المنفوش الذى هو العهن ، كقوله تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، وقوله تعالى : (يوم تكون السماء كالمهل (وتكون الجبال كالعهن) وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه الصوف المصبوغ خاصة ؛ ومنه قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

كأن فتاة العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم : الجبال منها جدد بيض وحمر ومختلف ألوانها وغرابيب سود ،

فإذا بست وفتت يوم القيامة وطيرت فى الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح فى الهوى ، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباء منبثا بالفاء على قوله : (وبست الجبال بساً) لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها : (منبثا) أى متفرقا ، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لكون البس بمعنى التفتيت والطحن .

الوجه الثانى : أن معنى قوله : (وبست الجبال بسا) أى سيرت بين السماء والأرض ، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب : بست الإبل أبسها ، بضم الباء وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها ، ومنه حديث : « يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام ، والعراق يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (ويوم نسير الجبال) الآية ، وقوله (وتسير الجبال سيرا) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة النمل فى الكلام على قوله: (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب) .

الوجه الثالث : أن معنى قوله : (وبست الجبال بسا) نزعت من أماكنها وقلعت ، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة ، وأطوارها ، بالآيات القرآنية ، وفى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً) ، وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فكانت هباء منبثا) كقوله تعالى: (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، والهباء إذا انبث ، أى تفرق ، واضمحل وصار لا شىء ، والسراب قد قال الله تعالى فيه : (حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) .

قوله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾

أى صرتم أزواجاً ثلاثة ، والعرب تطلق كان بمعنى صار ، ومنه (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) أى فتصيرا من الظالمين .

ومنه قول الشاعر :

بتيهاء قفر والمطى كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

وقوله : أزواجاً : أى أصنافاً ثلاثة ، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة بقوله: (فأصحاب الميمنة ، ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم) أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين ، كما أوضحه تعالى بقوله : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود) الآيات ، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما أوضحه تعالى : بقوله (وأصحاب الشمال فى سموم وحميم) الآيات .

قال بعض العلماء : قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم .

وقيل : لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة .

وقيل : لأنهم عن يمين أبيهم آدم ، كما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ليلة الإسراء .

وقيل سموا أصحاب اليمين ، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين ، أى مباركون على أنفسهم ، لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة ، واليمن البركة .

وسمى الآخرون أصحاب الشمال ، وقيل : لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم.

وقيل : لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار ، والعرب تسمى الشمال شؤماً ، كما تسمى اليمين يميناً ، ومن هنا قيل لهم أصحاب المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم : فعصوا الله فأدخلهم النار ، والمشائيم ضد الميامين ، ومنه قول الشاعر :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بين غرابها

وبين أجل وعلا أن السابقين هم المقربون ، وذلك فى قوله: (والسابقون السابقون أولئك المقربون) ، وهذه الأزواج الثلاثة المذكورة هى وجزاؤها فى أول هذه السورة الكريمة جاءت هى وجزاؤها أيضا فى آخرها ، وذلك فى قوله : (فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم ، وتصلية جحيم) .

والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال .

وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشأمة فى البلد فى قوله تعالى: (فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة ـ إلى قوله تعالى ـ أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة).

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ما أصحاب الميمنة ، وقوله : ما أصحاب المشأمة ، استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء فى السعادة ، وشأن هؤلاء فى الشقاوة ، والجملة فيهما مبتدأ وخبر ، وهى خبر المبتدأ قبله ، وهو أصحاب الميمنة فى الأول وأصحاب المشأمة فى الثانى .

وهذا الأسلوب بكثر فى القرآن نحو الحاقة ما الحاقة ، والقارعة ما القارعة. والرابط فى جملة الخبر فى جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ فى جملة الخبر كما لا يخفى ، وقوله : والسابقون لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله ، ولكنه ذكر فى مقابلة تكرير لفظ السابقين .

والأظهر فى إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب فى تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثانى عن الأول ، بعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذى لا يحتاج إلى تعريف . ومنه قول أبى النجم :

أنا أبو النجم وشعرى شعرى لله درى ما أجن صدرى

فقوله : وشعرى شعرى يعنى شعرى هو الذى بلغك خبره ، وانتهى إليك وصفه .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾

وقوله : ثلة : خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير ، هم ثلة ، والثلة الجماعة من الناس ، وأصلها القطعة من الشيء وهى الثل ، وهو الكسر .

وقال الزمخشرى : والثلة من الثل ، وهو الكسر ، كما أن الأمة من الأمّ وهو الشبح ، كأنها جماعة كسرت من الناس ، وقطعت منهم . اهـ . منه .

واعلم أن الثلة تشمل الجماعة الكثيرة ، ومنه قول الشاعر :

فجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزبد

لأن قوله : تيار من السيل : يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه بالثلة.

وقد اختلف أهل العلم فى المراد بهذه الثلة من الأولين ، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا ، كما اختلفوا فى الثلتين المذكورتين فى قوله : (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) . فقال بعض أهل العلم : كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة ، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة .

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير فى قوله صلى الله عليه وسلم « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » الحديث . والذين قالوا : هم كلهم من هذه الأمة ، قالوا : إنما المراد بالقليل ، وثلة من الآخرين ، وهم من بعد ذلك إلى قيام الساعة .

وقال بعض العلماء : المراد بالأولين فى الموضعين الأمم الماضية قبل هذه الأمة ، والمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة .

قال مقيده عفا الله عنه،وغفر له : ظاهر القرآن فى هذا المقام : أن الأولين فى الموضعين من الأمم الماضية ، والآخرين فيهما من هذه الأمة ، وأن قوله تعالى : (ثلة من الأولين،وقليل من الآخرين) فى السابقين خاصة ، وأن قوله: (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) فى أصحاب اليمين خاصة .

وإنما قلنا : إن هذا هو ظاهر القرآن فى الأمور الثلاثة ، التى هى شمول الآيات لجميع الأمم ، وكون قليل من الآخرين فى خصوص السابقين ، وكون ثلة من الآخرين فى خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات .

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة ، لأن قوله :(إذا وقعت الواقعة ـ إلى قوله ـ فكانت هباء منبثا) لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة ، وأن الجميع مستوون فى الأهوال والحساب والجزاء .

فدل ذلك على أن قوله : (وكنتم أزواجاً ثلاثة) عام فى جميع أهل المحشر ، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة ، ومنهم من هو من هذه الأمة .

وعلى هذا ، فظاهر القرآن ، أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة ، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة ،لأنه عبر فى السابقين من هذه الأمة بقوله: (وقليل من الآخرين) وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة (وثلة من الآخرين) .

ولاغرابة فى هذا ، لأن الأمم الماضية أمم كثيرة . وفيها أنبياء كثيرة ورسل ، فلا مانع من أن يجتمع من سابقيها من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من سابقى هذه الأمة وحدها .

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم ، لأن الثلة تتناول العدد الكثير ، وقد يكون أحد العددين الكثيرين أكثر من الآخر ، مع أنهما كلاهما كثير .

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير ، لا ينافي ماجاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة .

وأما كون قوله (وقليل من الآخرين) دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين ، فلأن الله قال (والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم) ثم قال تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) .

وأما كون قوله : وثلة من الآخرين في خصوص أصحاب اليمين ، فلأن الله تعالى قال (فجعلناهن أبكارا ، عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين) ، والمعنى هم أي أصحاب اليمين : ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وهذا واضح كما ترى .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ . مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾

السرر جمع سرير ، وقد بين تعالى : أن سررهم مرفوعة في قوله : في الغاشية (وسرر مرفوعة) وقوله تعالى (موضونة) منسوجة بالذهب ، وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت ، وكل نسج أحكم ودوخل بعضه في بعض ، تسميه العرب وضنا ، وتسمى المنسوج به موضونا ووضينا ، ومنه الدرع الموضونة إذا أحكم نسجها ودوخل بعض حلقاتها في بعض .

ومنه قول الأعشى :

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحى عيرا فعيرا

وقوله أيضاً :

وبيضاء كالنهى موضونة لها قونس فوق جيب البدن

ومن هذا القبيل تسمية البطان الذى ينسج من السيور ، مع إدخال بعضها فى بعض وضينا .

ومنه قول الراجز :

إليك تعدو قلقا وضينها معترضا فى بطنها جنينها

* مخالفا دين النصارى دينها *

وهذه السرر المزينة ، هى المعبر عنها بالأرائك فى قوله (متكئين فيها على الأرائك) وقوله (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) وقوله فى هذه الآية الكريمة (متكئين) حال من الضمير فى قوله (على سرر) والتقدير: استقروا على سرر فى حال كونهم متكئين عليها .

وما ذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أى ينظر بعضهم إلى وجه بعض ، كلهم يقابل الآخر بوجهه ، جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى فى الحجر (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) وقوله فى الصافات (أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين) .

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الطور فى الكلام على قوله تعالى (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) .

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الطور فى الكلام على قوله تعالى (يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم) وفى المائدة فى الكلام على قوله تعالى (إنما الخمر والميسر) الآية .

قوله تعالى : ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الطور ، فى الكلام على قوله تعالى (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) .

قوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة البقرة فى الكلام على قوله تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة) الآية ، وفى الصافات فى الكلام على قوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف عين) وفى غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾

قد قدمنا الكلام عليه بإيضاح فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهده من القرآن وكلام العرب ، وبينا كلام أهل العلم فى حكمه شرعاً .

قوله تعالى : ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ .

أما قوله (وظل ممدود) فقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (وندخلهم ظلا ظليلا) وأما قوله (وماء مسكوب) فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى (فيها أنهار من ماء غير آسن) وقوله (إن المتقين فى جنات وعيون) وقوله (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء) الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثرة ، والمفسرون يقولون : إن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود ، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا ، كما قال تعالى (عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) وأما قوله (وفاكهة كثيرة) الآية : فقد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الطور فى الكلام على قوله تعالى (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً . فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ .

الضمير فى أنشأناهن . قال بعض أهل العلم : هو راجع إلى مذكور ، وقال بعض العلماء . هو راجع إلى غير مذكور ، إلا أنه دل عليه المقام .

فمن قال إنه راجع إلى مذكور ، قال هو راجع إلى قوله (فرش مرفوعة) قال : لأن المراد بالفرش النساء ، والعرب تسمى المرأة لباسا وإزارا وفراشا ونعلا ، وعلى هذا فالمراد بالرفع فى قوله (مرفوعة) رفع المنزلة والمكانة .

ومن قال : إنه راجع إلى غير مذكور ، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن ؛ لأنهن يتكئن عليها مع أزواجهن .

وقال بعض العلماء : المراد بهن الحور العين ، واستدل من قال ذلك بقوله (إنا أنشأناهن إنشاء) لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع .

وقالت جماعة من أهل العلم : أن المراد بهن بنات آدم التى كن فى الدنيا عجائز شمطا رمصا ، وجاءت فى ذلك آثار مرفوعة عنه صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا القول : فمعنى أنشأناهن إنشاء أى خلقناهن خلقاً جديدا .

وقوله تعالى (فجعلناهن) أى فصيرناهن أبكارا ، وهو جمع بكر ، وهو ضد الثيب .

وقوله (عربا) قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم عربا بضم العين والراء ، وقرأه حمزة وشعبة عربا بسكون الراء ، وهى لغة تميم ، ومعنى القراءتين واحد ، وهو جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ، وهذا هو قول الجمهور . وهو الصواب إن شاء الله .

ومنه قول لبيد :

وفى الخباء عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى : (أترابا) جمع ترب بكسر التاء ، والترب اللدة . وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه فى وقت واحد ، ومعناه فى الآية : أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز ، ولكنهن كلهن على سن واحدة فى غاية الشباب .

وبعض العلماء يقول : إنهن ينشأن مستويات فى السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة ، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكون الأتراب بمعنى المستويات فى السن مشهور فى كلام العرب

ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التى تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة ، جاءت موضحة فى آيات أخر .

أما كونهن يوم القيامة أبكاراً ، فقد أوضحه فى سورة الرحمن فى قوله تعالى : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان)فى الموضعين لأن قوله : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) نص فى عدم زوال بكارتهن ، وأما كونهن عربا أى متحببات إلى أزواجهن ، فقد دل عليه قوله فى الصافات : (وعندهم قاصرات الطرف عين) لأن معناه أنهن قاصرات العيون على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهن لهم واقتناعهن بهم ، كما قدمنا إيضاحه ، ولاشك أن المرأة التى لاتنظر إلى غير زوجها متحببة إليه حسنة التبعل معه .

وقوله فى ص : (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) ، وقوله فى الرحمن : (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان) ، وأما كونهن أترابا فقد بينه تعالى فى قوله فى آية ص هذه ، (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) ، وفى سورة النبا فى قوله تعالى : (إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (لأصحاب اليمين) يتعلق بقوله : (إنا أنشأناهن) ، وقوله (فجعلناهن) أى : أنشأناهن وصيرناهن أبكارا لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ . فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ .

قد قدمنا معنى أصحاب الشمال فى هذه السورة الكريمة، وأوضحنا معنى

السموم فى الآيات القرآنية التى يذكر فيها فى سورة الطور ، فى الكلام على قوله تعالى (فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم) .

وقد قدمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى(وندخلهم ظلا ظليلا) وبينا هناك أن صفات ظل أهل النار هى المذكورة فى قوله هنا (وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) وقوله فى المرسلات (انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لاظليل ولا يغنى من اللهب) .

وقوله : (من يحموم)أى من دخان أسود شديد السواد،ووزن اليحموم يفعول ، وأصله من الحمم وهو الفحم ، وقيل : من الحم ، وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الطور فى الكلام على قوله تعالى:(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا) الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ .

لما ذكر جل وعلا ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب ، بين بعض أسبابه ، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك فى دار الدنيا مترفين أى متنعمين ، وقد قدمنا أن القرآن دل على أن الإترف والتنعم والسرور فى الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة ،لأن صاحبه معرض عن الله لايؤمن به ولا برسله ، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، وقوله تعالى :(فسوف يدعو ثبورا ويصلى

سعيراً إنه كان فى أهله مسروراً)، وقد أوضحنا هذا فى الكلام على آية الطور المذكورة آنفا .

ومادلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول النار،لأن قوله تعالى لما ذكر أنهم فى سموم وحميم وظل من يحموم ، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا (أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما) لآية جاء موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا . أإنا لفى خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا فى سورة الفرقان فى الكلام على قوله تعالى : (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا)، وماذكره جل وعلا فى هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين فى قوله (أوآباؤنا الأولون) وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين فى قوله ، (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) جاء موضحاًفى غير هذا الموضع ، فبينا فيه أن البعث الذى أنكروا ، سيتحقق فى حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك فى قوله تعالى فى الصافات (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون، أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون ، فإنما هى زجرة واحـــدة فإذا هم ينظرون) . وقوله : (أو آباؤنا الأولون) ، قرأه عامة القراء السبعة ، غير ابن عامر وقالون عن نافع : أو آباؤنا بفتح الواو على الاستفهام والعطف،وقد قدمنا مراراً أن همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء وثم نحو أو آباؤنا ، أفأمن أهل القرى ، أثم إذا ماوقع ، أن فى ذلك وجهين لعلماء العربية والمفسرين الأول ، منهما أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ماقبلها ، وهمزة

الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف ، ولكنها قدمت عليه لفظاً لامعنى لأن الأصل فى الاستفهام التصدير به كما هو معلوم فى محله .

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم أنفسهم بأداة الإنكار التى هى الهمزة ، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين ، بأداة الإنكار التى هى الهمزة المقدمة عن محلها لفظا لارتبة ، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية ، واختاره أبو حيان فى البحر المحيط وابن هشام فى مغنى اللبيب ، وهو الذى صرنا نميل إليه أخيرا بعد أن كنا نميل إلى غيره .

الوجه الثانى : هو أن همزة الاستفهام فى محلها الأصلى ، وأنها متعلقة بجملة محذوفة ، والجملة المصدرة بالاستفهام معطوفة على المحذوفة بحرف العطف الذى بعد الهمزة ، وهذا الوجه يميل إليه الزمخشرى فى أكثر المواضع من كشافه ، وربما مال إلى غيره .

وعلى هذا القول ، فالتقدير: أمبعوثون نحن وآباؤنا الأولون ؟ وماذكره الزمخشرى هنا من أن قوله: وآباؤنا، معطوف على واو الرفع فى قوله : لمبعوثون . وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل من غير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لايصح ، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما .

وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك فى الخلاصة فى قوله :

وحذف متبوع بداهنا استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح

وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر أوآباؤنا بسكون الواو ، والذى يظهر لى على قراءتهما أو بمعنى الواو العاطفة ، وأن قوله : آباؤنا ، معطوف على محل المنصوب الذى هو اسم إن ، لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد

ذكر خبرها جائز بلا نزاع ، لأن اسمها وإن كان منصوبا فأصله الرفع لأنه مبتدأ فى الأصل، كما قال ابن مالك فى الخلاصة :

وجائز رفعك معطوفا على منصوب إنّ بعد أن تستكملا

وإنما قلنا إن أو بمعنى الواو ، لأن إتيانها بمعنى الواو معروف فى القرآن وفى كلام العرب، فمنه فى القرآن: (فالملقيات ذكراً، عذراً أو نذراً)لأن الذكر الملقى للعذر ، والنذر معا لا لأحدهما ، لأن المعنى أنها ألقت الذكر إعذاراً وإنذارا ، وقوله تعالى : (ولاتطع منهم آثما أو كفورا) أى ولا كفورا ، وهو كثير فى كلام العرب ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب :

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم مابين ملجم مهرة أو سافع

فالمعنى مابين الملجم مهره وسافع : أى آخذ بناصيته ليلجمه ، وقول نابغة ذبيان :

قالت ألاليت ماهذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما زعمت ستاو ستين لم تنقص ولم تزد

فقوله : أو نصفه بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى البيتين المذكورين، لأن مرادها أنها تمنت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه معه لهامع حمامتها التى منها،ليكون الجميع مائة حمامة ، فوجدوه ستاً وستين ونصفها ثلاث وثلاثون، فيكون المجموع تسعاً وتسعين ، والمروى فى ذلك عنها أنها قالت :

ليت الحمام ليه إلى حمامتيه

ونصفه قديه تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير :

قد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وقوله تعالى : (أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون) جمع عامة القراء على إثبات همزة الاستفهام فى قوله : أإذا متنا، وأثبتها أيضاً عامة السبعة غير نافع والكسائى فى قوله : أإنا ، وقرأه نافع والكسائى إنا لمبعوثون ، بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ، كما عقده صاحب الدرر اللوامع فى أصل مقرأ الامام نافع بقوله :

فصل واستفهام إن تكررا فصير الثانى منه خبرا

واعكسه فى النمل وفوق الروم الخ . . . . .

والقراءات فى الهمزتين فى أإذا وأإنا معروفة ، فنافع يسهل الهمزة الثانية بين بين . ورواية قالون عنه هى إدخال ألف بين الهمزتين الأولى المحققة والثانية المسهلة .

ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبى عمرو ، فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان ويدخلان ، ورواية ورش عن نافع هى تسهيل الأخيرة منهما بين بين من غير إدخال ألف . وهذه هى قراءة ابن كثير وورش فابن كثير وورش يسهلان ولا يدخلان .

وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين ، وبينهما ألف الأدخال .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين من غير ألف الإدخال ، هذه هى القراءات الصحيحة ، فى مثل أإذا وأإنا ، ونحو ذلك فى القرآن .

تنبيه

اعلم وفقنى الله وإياك أن ما جرى فى الأقطار الافريقية من إبدال الأخيرة

من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها فى القرآن هاء خالصة من أشنع المنكر وأعظم الباطل ، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم وتعد لحدود الله ، ولا يعذر فيه إلا الجاهل الذى لا يدرى ، الذى يظن أن القراءة بالهاء الخالصة صحيحة ، وإنما قلنا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينزل عليه به جبريل ألبتة ، ولم يرو عن صحابى ولم يقرأ به أحد من القراء ، ولا يجوز بحال من الأحوال ، فالتجرؤ على الله بزيادة حرف فى كتابه ، وهو هذه الهاء التى لم ينزل بها الملك من السماء ألبتة ، هو كما ترى ، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا يسوغ التجرؤ على الله بإدخال حرف فى كتابه . لم يأذن بإدخاله الله ولا رسوله .

ودعوى أن العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها ، لأن جريان العمل بالباطل باطل ، ولا أسوة فى الباطل بإجماع المسلمين ، وإنما الأسوة فى الحق ، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا خلاف فيه .

وقوله تعالى : (متنا) ، وقرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم متنا بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم مِتنا بكسر الميم ، وقد قدمنا مسوغ كسر الميم لغة فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (ياليتنى مت قبل هذا) .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين فى الآية المتقدمة ، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم خبراً مؤكداً بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله : (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) ، وقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة) وقوله تعالى : (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) الآية، وقوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس) وقوله تعالى : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين) ، وقوله تعالى : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) .

وقد قدمنا هذا موضحاً فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ .

قد قدمنا إيضاح هذا وتفسيره فى سورة الصافات فى الكلام على قوله تعالى : (ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) .

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

النزل بضمتين: هو رزق الضيف الذى يقدم له عند نزوله اكراماً له ، ومنه قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا)، وربما استعملت العرب النزول فى ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا : فى عذابهم المذكور فى قولهم : (لآكلون من شجر من زقوم - إلى قوله - شرب الهيم هذا نزلهم) أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم ورزقهم المقدم

لهم عند نزولهم فى دارهم التى هى النار ، كقوله تعالى للكافر الحقير الذليل : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله فى آخر هذه السورة الكريمة :(فنزل من حميم وتصلية جحيم) ، وقوله تعالى فى آخر الكهف : (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) ، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبى السعد الضبى :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقوله : (يوم الدين) أى يوم الجزاء كما تقدم مراراً .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ .

لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين ، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين ،وذكر جزاء منكرى البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم ، أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال : نحن خلقناكم هذا الخلق الأول فلولا تصدقون . أى فهل لاتصدقون بالبعث الذى هو الخلق الثانى ، لأن إعادة الخلق لايمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لايخفى .

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثانى ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة جداً كقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ، وقوله : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ، وقوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) وقوله تعالى : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) ، وقوله تعالى :(فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) ، والآيات

بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك فى سورة البقرة والنحل والحج والجاثية ، وغير ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيرا .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (فلولا تصدقون) ، لولا حرف تحضيض ، ومعناه الطلب بحث وشدة ، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع الذى هو خلقه لهم أولا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ .

قد قدمنا قريباً كلام أهل العلم فى همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف ، وذكرناه قبل هذا مراراً ، وقوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون) يعنى أفرأيتم ما تصبونه من المنى فى أرحام النساء ، فلفظة ما موصولة ، والجملة الفعلية صلة الموصول ، والعائد إلى الصفة محذوف ، لأنه منصوب بفعل ، والتقدير : أفرأيتم ما تمنونه ، والعرب تقول : أمنى النطفة بصيغة الرباعى ، يمنيها بضم حرف المضارعة ، إذا أراقها فى رحم المرأة ، ومنه قوله تعالى : (من نطفة إذا تمنى) ومنى يمنى بصيغة الثلاثى لغة صحيحة . إلا أن القراءة بها شاذة .

وممن قرأ تمنون بفتح التاء مضارع فى الثلاثى المجرد ، أبو السمال وابن السميقع ، وقوله تعالى : (أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) استفهام تقرير ، فإنهم لابد أن يقولوا : أنتم الخالقون ، فيقال لهم : إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التى تمنى فى الرحم ، فكيف تكذبون بقدرتنا على خلقه مرة أخرى ، وأنتم تعلمون أن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من الابتداء ، والضمير المنصوب فى تخلقونه عائد إلى الموصول أى تخلقون ما تمنونه من النطف علقا ، ثم مضغا إلى آخر أطواره .

وهذا الذى تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره ، وعلى أنه المعبود وحده ، ببيان أطوار خلق الإنسان ، جاء موضحاً فى آيات آخر ، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفىً بالآيات القرآنية ، وبينا مايتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية فى سورة الحج فى الكلام على قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) الآية .

وذكرنا أطوار خلق الإنسان فى سورة الرحمن أيضاً فى الكلام على قوله تعالى : (خلق الإنسان . علمه البيان) وفى غير ذلك من المواضع .

وبينا الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلا فى الحج .

تنبيـــــه

هذا البرهان الدال على البعث الذى هو خلق الإنسان من نطفة منى تمنى ، يجب على كل إنسان النظر فيه ، لأن الله جل وعلا وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى منى الإنسان ، والأصل فى صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه ، وذلك فى قوله تعالى : (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق) الآية ، وقد قدمنا شرحها فى أول سورة النحل ، وقرأ هذا الحرف نافع ، أفرأيتم بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين .

والراوية المشهورة التى بها الأداء عن ورش عنه إبدال الهمزة ألفاً وإشباعها لسكون الياء بعدها .

وقرأه الكسائى : أفرأيتم بحذف الهمزة ، وقرأه باقى السبعة بتحقيق الهمزة .

وقوله تعالى : (أأنتم) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر فى إحدى الروايتين بتسهيل الهمزة الثانية ، والرواية المشهورة

التى بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفا مشبعا مدها لسكون النون بعدها ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائى وهشام عن ابن عامر فى الرواية الأخرى بتحقيق الهمزتين ، وقالون ، وأبو عمرو وهشام بألف الإدخال بين الهمزتين والباقون بدونها .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير ، قدرنا بتشديد الدال ، وقرأه ابن كثير بتخفيفها ، وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير ، ويكون كل ذلك صحيحاً ، وكله يشهد له قرآن ، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة .

وإيضاح ذلك أن قوله (قدرنا) وجهين من التفسير وفيما تتعلق به (على أن نبدل) وجهان أيضاً ، فقال بعض العلماء : وهو اختيار ابن جرير أن قوله (قدرنا بينكم الموت) أى قدرنا لموتكم آجالا مختلفة وأعماراً متفاوتة فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شابا ، ومنكم من يموت شيخا .

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى (ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر)وقوله تعالى (ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) وقوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) وقوله تعالى (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وقوله (وما نحن

بمسبوقين) أى مانحن بمغلوبين ، والعرب تقول: سبقه على كذا أى غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه أى وما نحن بمغلوبين على ماقدرنا من آجالكم وحددناه من أعماركم فلا يقدر أحد أن يقدم أجلا أخرناه ولا يؤخر أجلا قدمناه .

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون) وقوله تعالى (إن أجل الله إذاجاء لايؤخر) الآية ، وقوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا) إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى هذا القول ، فقوله تعالى : (على أن نبدل أمثالكم) ليس متعلقا بمسبوقين بل بقوله تعالى : (نحن قدرنا بينكم الموت) والمعنى : نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أى نبدل من الذين ماتوا أمثالا لهم نوجدهم .

وعلى هذا ، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذى ماتوا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (إن يشأ يذهبكم، ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) إلى غير ذلك من الآيات .

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير ، وقراءة قدرنا بالتشديد مناسبة لهذا الوجه ، وكذلك لفظة بينكم .

الوجه الثانى : أن قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أى كتبنا الموت وقدرناه على جميع الخلق ، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: (كل شىء هالك إلا وجهه) ، وقوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت) ، وقوله تعالى : (وتوكل على الحى الذى لايموت) ، وعلى هذا القول فقوله : (على أن

نبدل) : متعلق بمسبوقين أى ما نحن بمغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين على أن نبدل أمثالكم إن أهلكنا كم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم ، ولا يوجد أحد يغلبنا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلا منكم .

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) وقوله تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء) ، وقوله تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وماذلك على الله بعزيز) . وقوله تعالى : (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، وقد قدمنا هذا فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس) الآية . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وننشئكم فيما لاتعلمون) ، فيه للعلماء أقوال متقاربة.

وقال بعضهم : ننشئكم بعد إهلاككم فيما لاتعلمونه من الصور والهيئات، كأن ننشئكم قردة وخنازير ، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم .

وقال بعضهم : ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات ، فنغير صفاتكم ونجعل المؤمنين ببياض الوجوه ، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون . إلى غير ذلك من الأقوال .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة برهانا قاطعا ثانيا على البعث وامتنانا عظيما على الخلق بخلق أرزاقهم لهم ، فقوله تعالى : (أفرأيتم ما تحرثون) ، يعنى أفرأيتم البذر الذى تجعلونه فى الأرض بعد حرثها أى تحريكها وتسويتها أأنتم

تزرعونه ، أى تجعلونه زرعاً ، ثم تنمونه إلى أن يصير مدركا صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له ، ولاشك أن الجواب الذى لاجواب غيره هو أن يقال : أنت ياربنا هو الزارع المنبت ، ونحن لاقدرة لنا على ذلك ، فيقال لهم : كل عاقل يعلم أن من أنبت هـذا السنبل من هـذا البذر الذى تعفن فى باطن الأرض قادر على أن يبعثـكم بعد موتـكم ، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث ، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله : (ومن آياته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى) ، وقوله تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) ، وقوله تعالى : (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) .

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة ، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث فى مواضع كثيرة فى سورة البقرة والنحل والجاثية ، وغير ذلك من المواضع ، وأحلنا عليها مراراً .

تنبيـــه

اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر فى هذا البرهان الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، لأن الله جل وعلا وجه فى كتابه صيغة أمر صريحة عامة فى كل مايصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر فى هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان ، لأعظم النعم على الخلق ، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره ، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم ، وذلك قوله تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً

وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم) .

والمعنى : انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذى تأكله ولا غنى لك عنه ، من هو الذى خلق الماء الذى صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء ؟ أى إبرازه من أصل العدم إلى الوجود . ثم هب أن الماء خلق ، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذى يسقى به الأرض من غير هدم ولاغرق ؟ ثم هب أن الماء نزل فى الأرض من هو الذى يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع ؟ ثم هب أن الزرع طلع ، فمن هو الذى يقدر على إخراج السنبل منه ؟ ثم هب أن السنبل خرج منه ، فمن هو الذى يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل ؟ (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)، والمعنى : انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل ، وانظروا إلى ينعه ، أى انظروا اليه بعد أن صار يانعاً مدركا صالحاً للأكل، تعلموا أن الذى رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شىء منعم عليكم عظيم الإنعام ، ولذا قال : (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، فاللازم أن يتأمل الإنسان وينظر فى طعامه ويتدبر قوله تعالى : (أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض) أى عن النبات شقاً إلى آخر ما بيناه . وقوله تعالى فى هذه الآيه الكريمة : (لو نشاء لجعلناه حطاما) يعنى لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً ، أى فتاتاً وهشيما ، ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بكم ، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزاء الشرط ، وتقديره كما ذكرنا ، وقوله : (فظلتم تفكهون) .

قال بعض العلماء : المعنى فظلتم تعجبون من تحطيم زرعكم .

وقال بعض العلماء : تفكهون بمعنى تندمون على ماخسرتم من الإنفاق عليه كقوله تعالى : (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) .

وقال بعض العلماء : تندمون على معصية الله التى كانت سبباً لتحطيم زرعكم ، والأول من الوجهين فى سبب الندم هو الأظهر .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذى يشربونه ، وذلك يض .. آياته الدالة على عظمته و .. قدرته وشدة حاجة خلقه ليه ، والمعنى : ا فرأيتم الماء الذى تشربون الذى لاغنى لكم عنه لحظة ولو أعدمناه لهلكتم جميعاً فى أقرب وقت : (أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) ؟ .

والجواب الذى لاجواب غيره هو أنت يار بنا هو منزله من المزن ، ونحن لاقدرة لنا على ذلك . فيقال لهم : إذا كنتم فى هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكراً لنعمة هذا الماء ، كما أشار له هنا بقوله : (فلولا تشكرون) جاء فى آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) ، وقوله تعالى : (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) ، وقوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى

كثيرا) . وقوله تعالى : (وأسقيناكم ماء فراتاً) إلى غير ذلك من الآيات . وقوله هنا : (لو نشاء جعلناه أجاجاً) أى لو نشاء جعله أجاجاً لفعلنا ، ولكن جعلناه عذباً فراتاً سائغاً شرابه ، وقد قدمنا فى سورة الفرقان أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديدتين .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى . لو شاء لجعل الماء غير صالح للشراب ، جاء معناه فى آيات أخر كقوله تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) وقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) لأن الذهاب بالماء وجعله غورا لم يصل إليه وجعله جاجا ، كل ذلك فى المعنى سواء بجامع عدم تأتى شرب الماء ، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلى خالقهم كما ترى . وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (أأنتم أنزلتموه من المزن) يدل على أن جميع الماء الساكن فى الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك ، أن أصله كله نازل من المزن ، وأن الله أسكنه فى الأرض وخزنه فيها لخلقه .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) وقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض) وقد قدمنا هذا فى سورة الحجر فى الكلام على قوله تعالى (فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) وفى سورة سبإ فى الكلام على قوله تعالى (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) الآية وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فلولا تشكرون) فلولا بمعنى هلا ، وهى حرف تحضيض ، وهو الطلب بحث وحض . والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض .

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده .

فشكر العبد لربه ، ينحصر معناه فى استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى ، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضى من خلقها وهكذا فى جميع الجوارح ، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان ، وشكر العبد لربه جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى هنا (فلولا تشكرون) وقوله تعالى (واشكروا لى ولا تكفرون) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل ، ومنه قوله تعالى (فمن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) وقوله تعالى (إن ربنا لغفور شكور) إلى غير ذلك من الآيات .

تنبيه لغوى

اعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة ، وإلى المنعم أخرى ، فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على) الآية ، وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذى هو اللام كقولك : نحمد الله ونشكره ، ولم تأت فى القرآن معداة إلا باللام ، كقوله (واشكروا لى ولا تكفرون) وقوله (أن اشكر لى ولوالديك) وقوله (واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون) وقوله (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) إلى غير ذلك من الآيات .

وهذه هى اللغة الفصحى ، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن ، ومن ذلك قول أبى نخيلة :

شكرتك إن الشكر حبل من اتقى وما كل من أوليته نعمة يقضى

وقول جميل بن معمر :

خليلى عوجا اليوم حتى تسلما ... على عذبة الأنياب طيبة النشر
فإنكما إن عجتما لى ساعة ... شكرتكما حتى أغيب فى قبرى

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام، وعدم اقترانه بها كلاهما سائغ، لأنه تعالى قال (لو نشاء لجعلناه حطاما) باللام ثم قال (لو نشاء جعلناه أجاجاً) بدونها .

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾

قوله تعالى : (التى تورون) أى توقدونها من قولهم : أورى النار إذا قدحها وأوقدها ، والمعنى : أفرأيتم النار التى توقدونها من الشجر أأنتم أنشأتم شجرتها التى توقد منها ، أى أوجدتموها من العدم

والجواب الذى لا جواب غيره : أنت ياربنا هو الذى أنشأت شجرتها ، ونحن لا قدرة لنا بذلك فيقال : كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة النار وأخرجها منها قادر على كل شىء ؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون خلق النار من أدلة البعث ، وجاء موضحاً فى يس فى قوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم،الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) فقوله فى آخر يس (توقدون) هو معنى قوله فى الواقعة (تورون) وقوله فى آية يس (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا) بعد قوله(يحييها الذى أنشأها أول مرة)دليل واضح على أن خلق النار من أدلة البعث . وقوله هنا (أأنتم أنشأتم شجرتها)أى الشجرة التى توقد منها كالمرخ والعفار،ومن أمثال العرب فى كل شجر نار،واستنجد

للمرخ والعفار ، لأن المرخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً فى استخراج النار منهما ، يأخذون قضيباً من المرخ ويحكمون به عوداً من العفار فتخرج من بينهما النار . ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب .

وقوله :(نحن جعلناها تذكرة) أى نذكر الناس بها فى دار الدنيا إذا أحسوا شدة حرارتها . نار الآخرة التى هى أشد منها حراً لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : أن حرارة نار الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة . فهى تفوقها بتسع وستين ضعفا كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا .

وقوله تعالى (ومتاعا للمقوين) أى منفعة للنازلين بالقواء من الأرض ، وهو الخلاء والفلاة التى ليس بها أحد ، وهم المسافرون ، لأنهم ينتفعون بالنار انتفاعا عظيما فى الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد .

وقد تقرر فى الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ واردا للامتنان . وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للمقوين ، لأنه جىء به للامتنان أى وهى متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران ، وكل شىء خلا من الناس يقال له أقوى ، فالرجل إذا كان فى الخلا قيل له : أقوى . والدار إذا خلت من أهلها قيل لها أقوت .

ومنه قول نابغة ذبيان :

يادار ميـــة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقول عنترة :

حيت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقيل للمقوين : أى للجائعين ، وقيل غير ذلك ، والذى عليه الجمهور هو ما ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى أول سورة النجم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

أخبر الله تعالى فى هذه الآية الكريمة ، وأكد إخباره بأن هذا القرآن العظيم هو حق اليقين ، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم .

وهذا الذى تضمنته هذه الآية ذكره الله جل وعلا فى آخر سورة الحاقة فى قوله فى وصفه للقرآن (وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) ، والحق هو اليقين .

وقد قدمنا أن إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربى ، وذكرنا كثرة وروده فى القرآن وفى كلام العرب ، ومنه فى القرآن قوله تعالى (ولدار الآخرة) والدار هى الآخرة وقوله (ومكر السيىء) ، والمكر هو السىء بدليل قوله بعده : (ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله) .

وقوله : (من حبل الوريد) ، والحبل هو الوريد ، وقوله : (شهر رمضان والشهر هو رمضان .

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرىء القيس .

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل

والبكر هى المقانات .

وقول عنترة :

ومشك سابغة هتكت فروجها بالسيف عن حامى الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع نفسها بدليل قوله : هتكت فروجها ، يعنى الدرع ، وإن كان أصل المشك لغة السير الذى تشد به الدرع، لأن السير لا تمكن إرادته فى بيت عنترة هذا خلافا لما ظنه صاحب تاج العروس ، بل مراد عنترة بالمشك الدرع ، وأضافه إلى السابغة التى هى الدرع كما ذكرنا ، وإلى هذا يشير ما ذكروه فى باب العلم : وعقده فى الخلاصة بقوله :

وإن يكونا مفردين فأضف حتما وإلا أتبع الذى ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، وقد بينا فى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن قوله فى الخلاصة:

ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما ما ورد

أن الذى يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربى ، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف فى المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك فى القرآن والعربية .

ويدل له تصريحهم بلزوم إضافه الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز ، لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى، فكونه أسلوبا أظهر .

وقوله (فسبح باسم ربك العظيم) التسبيح : أصله الإبعاد عن السوء ، وتسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ، وذلك التنزيه واجب له فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، والظاهر أن الباء فى قوله (باسم ربك) داخلة على المفعول ، وقد قدمنا فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى (وهزى إليك بجذع النخلة) أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول

الذى يتعدى إليه الفعل بنفسه ، كقوله وهزى إليك بجذع النخلة) والمعنى : وهزى جذع النخلة .

وقوله : (ومن يرد فيه بإلحاد) أى إلحاداً إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة ، وعليه ، فالمعنى : سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله فى الأعلى (سبح اسم ربك الأعلى) .

وقال القرطبي : الاسم هنا بمعنى المسمى ، أى سبح ربك ، وإطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف فى كلام العرب ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

ولا يلزم فى نظرى أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله ألحدفيها قوم ونزهها آخرون عن كل مالا يليق ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، وفى ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة ، وذلك فى قوله (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقوله تعالى (أياً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى) .

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين فى الاسم والمسمى ، هل الاسم هو المسمى أو لا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية ، والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

قد قدمنا مراراً أن التسبيح هو تنزيه الله عن كل مالا يليق بكماله وجلاله، وأصله فى اللغة الإبعاد عن السوء ، من قولهم سبح . إذا صار بعيداً ، ومنه قيل للفرس : سابح ، لأنه إذا جرى يبعد بسرعة ، ومن ذلك قول عنترة فى معلقته:

إذ لا أزال على رحالة سابح نهد تعاوره الكماة مكلم

وقول عباس بن مرداس السلمى :

لا يغرسون فسيل النخل حولهم ولا تخاور فى مشتاهم البقر

إلا سوابح كالعقبان مقربة فى دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذى هو سبح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى : (وتسبحوه بكرة وأصيلا) ، وقوله تعالى (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) ، وقد يتعدى باللام كقوله هنا : سبح لله ، وعلى هذا فسبحه وسبح له لغتان كنصحه ونصح له . وشكره وشكر له ، وذكر بعضهم فى الآية وجهاً آخر ، وهو أن المعنى : سبح ما فى السماوات والأرض ، أى أحدث التسبيح لأجل الله أى ابتغاء وجهه تعالى . ذكره الزمخشرى وأبو حيان ، وقيل : سبح لله أى صلى له .

وقد قدمنا أن التسبيح يطلق على الصلاة ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن أهل السماوات والأرض يسبحون لله ، أى ينزهونه عما لا يليق ، بينه

الله جل وعلا فى آيات أخر من كتابه كقوله تعالى فى سورة الحشر (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) وقوله فى الصف (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) أيضاً، وقوله فى الجمعة (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) ، وقوله فى التغابن (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) .

وزاد فى سورة بنى إسرائيل أن السموات السبع والأرض يسبحن لله مع ما فيهما من الخلق وأن تسبيح السموات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أى لا نفهمه ، وذلك فى قوله تعالى : (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفى قوله تعالى . (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) ونحو ذلك تسبيح حقيقى يعلمه الله ونحن لا نعلمه .

والآية الكريمة فيها الرد الصريح ، على من زعم من أهل العلم ، أن تسبيح الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها ، لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها يفهمها كل العقلاء ، كما صرح الله تعالى بذلك فى قوله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ـ إلى قوله ـ لآيات لقوم يعقلون) وأمثال ذلك من الآيات كثيرة فى القرآن .

وقد قدمنا إيضاح هذا فى سورة الرعد فى الكلام على قوله تعالى : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) وفى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى : (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) الآية ، وفى سورة الأحزاب فى الكلام على قوله تعالى : (إنا عرضنا

الأمانة على السموات الأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) وفى غير ذلك من المواضع .

وقد عبر تعالى هنا فى أول الحديد بصيغة الماضى فى قوله : (سبح لله)، وكذلك هو فى الحشر ، والصف ، وعبر فى الجمعة والتغابن ، وغيرهما بقوله : يسبح ، بصيغة المضارع .

قال بعض أهل العلم : إنما عبر بالماضى تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله ، هو شأن أهل السموات وأهل الأرض ، ودأبهم فى الماضى والمستقبل ذكر معناه الزمخشرى وأبو حيان .

وقوله : (وهو العزيز الحكيم) قد قدمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز ، هو الغالب الذى لا يغلبه شىء ، وأن العزة هى الغلبة ، ومنه قوله : (ولله العزة ولرسوله) وقوله : وعزنى فى الخطاب : أى غلبنى فى الخصام ، ومن أمثال العرب من عز بز ، يعنون من غلب استلب ، ومنه قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يحتشى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

والحكيم ، هو من يضع الأمور فى مواضعها ، ويوقعها فى مواقعها .

وقوله : (ما فى السموات والأرض) . غلب فيه غير العاقل وقد قدمنا فى غير هذا الموضع ، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل . فى نحو ما فى السموات وما فى الأرض لكثرته . وتارة يغلب العاقل لأهميته ، وقد جمع المثال للأمرين قوله تعالى فى البقرة : (بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون) . فغلب غير العاقل فى قوله : ما فى السموات ، وغلب العاقل فى قوله : قانتون .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ .

قوله (فى ستة أيام) . قد قدمنا إيضاحه فى سورة فصلت فى الكلام على قوله تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين — إلى قوله تعالى — فقضاهن سبع سموات فى يومين) ، وفى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى :(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) .

وقوله تعالى : (ثم استوى على العرش) قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة فى سورة الأعراف فى الكلام على قوله تعالى (ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار) الآية . وذكرنا طرفا صالحاً من ذلك فى سورة القتال فى كلامنا الطويل على قوله تعالى :(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها).

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه فى أول سورة سبأ فى الكلام على قوله تعالى:(يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) .

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾

قد قدمنا إيضاحه وبينا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة والمعية الخاصة ، مع بيان معنى المعية فى آخر سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أنه هو الذى ينزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم آيات بينات ، أى واضحات ، وهى هذا القرآن العظيم، ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات ، أى من ظلمات الكفر والمعاصى إلى نور التوحيد والهدى ، وهذا المعنى الذى تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً فى قوله تعالى فى الطلاق : (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ، رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص ،وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله فى الحـ ليخرجكم من الظلمات) أى بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله : (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات) ، الآية .

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة ، ولكن التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله ، كما دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله جل وعلا يقول : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين من الظلمات إلى النور ، جاء موضحاً فى آيات من كتاب الله كقوله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)وقوله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقوله تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) وقوله تعالى: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك

هم المفلحون) وقوله تعالى : (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من عبادنا) الآية.

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة مريم فى الكلام على قوله تعالى : (وإنا نحن نرث الأرض ومن عليها) الآية .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن المؤمنين يوم القيامة ، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، وهو جمع يمين ، وأنهم يقال لهم : « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا ، جاء موضحاً فى آيات أخر، أما سعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فقد بينه تعالى فى سورة التحريم ، وزاد فيها بيان دعائهم الذى يدعون به فى ذلك الوقت وذلك فى قوله تعالى: (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا) الاية .

وأما تبشيرهم بالجنات ، فقد جاء موضحاً فى مواضع أخر ، وبين الله فيها أن الملائكة تبشرهم وأن ربهم أيضاً يبشرهم كقوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم) وقوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم

الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون — إلى قوله — نزلا من غفور رحيم) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾

الضمير المرفوع فى ينادونهم راجع إلى المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة: أن المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، قالوا لهم : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقيل لهم جواباً لذلك : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين : ألم نكن معكم ، أى فى دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم فى الغزوات وندين بدينكم ؟ قالوا : بلى ، أى كنتم معنا فى دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم .

وقد قدمنا مراراً معانى الفتنة وإطلاقاتها فى القرآن ، وبينا أن من معانى إطلاقاتها فى القرآن الضلال كالكفر والمعاصى، وهو المراد هنا ، أى فتنتم أنفسكم: أى أضللتموها بالنفاق الذى هو كفر باطن ، ومن هذا المعنى قوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أى لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه ، وقوله: (وتربصتم) التربص : الانتظار ، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر أى انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى: فى منافقى الأعراب المذكورين فى قوله :(وممن حولكم من الأعراب منافقون)، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء) وقوله تعالى : (وارتبتم) أى شككتم فى دين الإسلام ، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى فى قوله عنهم : (إنما يستأذنك

الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون)

وقوله تعالى : (وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله) الأمانى جمع أمنية، وهى ما يمنون به أنفسهم من الباطل ، كزعمهم أنهم مصلحون فى نفاقهم ، وأن المؤمنين حقاً سفهاء فى صدقهم ، أى فى إيمانهم ، كما بين تعالى ذلك فى قوله : (وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون) الآية ، وقوله تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء) الآية،وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون الأمانى المذكورة من الغرور الذى اغتروا به جاء موضحاً فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به — إلى قوله — ولا يظلمون نقيرا) .

وقوله : (حتى جاء أمر الله) ، الأظهر أنه الموت لأنه ينقطع به العمل

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : (وغركم بالله الغرور) هو الشيطان وعبر عنه بصيغة المبالغة ، التى هى الفعول لكثرة غروره لبنى آدم ، كما قال تعالى (ومايعدهم الشيطان إلا غرورا) .

وماذكره جل وعلا وفى هذه الآية الكريمة ، من أن الشيطان الكثير بالغرور غرهم بالله ، جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى فى آخر السجدة : (إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) ، وقوله فى أول فاطر (ياأيها الناس إن وعد الله حق فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقوله تعالى فى آية السجدة وآية فاطر المذكورتين (إن وعد الله حق) .

وترتيبه على ذلك النهى عن أن يغرهم بالله الغرور ، دليل واضح على أن

مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق ، وأنه غير واقع ،والغرور بالضم الخديعة .

قوله تعالى:﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى : (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به)وفى غيرذلك من المواضع .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

قد قدمنا مراراً أن كل فعل مضارع فى القرآن مجزوم بلم ، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان .

الأول منهما : هو أن تقلب مضارعته ماضوية ، ونفيه إثباتاً ، فيكون بمعنى الماضى المثبت ، لأن لم حرف قلب تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى المضى ، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفى،فيتسلط النفى الكامن فيها على النفى الصريح فى لم فينفيه . ونفى النفى إثبات ، فيرجع المعنى إلى الماضى المثبت . وعليه فالمعنى ، ألم يأن للذين : أى آن للذين آمنوا .

والوجه الثانى : أن الاستفهام فى جميع ذلك للتقرير ، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول : بلى . وقوله : يأن : هو مضارع أنى يأنى إذا جاء إناه أى وقته ، ومنه قول كعب بن مالك رضى الله عنه :

ولقد أنى لك أن تناهى طائعاً أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله : أنى لك أن تناهى طائعا ، أى جاء الإناه الذى هو الوقت الذى تتناهى فيه طائعاً ، أى حضر وقت تناهيك ، ويقال فى العربية : آن يئين كباع يبيع ، وأنى يأنى كرمى يرمى ، وقد جمع اللغتين قول الشاعر :

ألمايئن لى أن تجلى عمايتى وأقصر عن ليلى بلى قدأنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنه حان للمؤمنين ، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى جاء الحين والأوان لذلك ، لكثرة ماتردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه .

وقوله تعالى : (أن تخشع قلوبهم) المصدر المنسبك من أن وصلتها فى محل رفع فاعل بأن ، والخشوع أصله فى اللغة السكون والطمأنينة والانخفاض ، ومنه قول نابغة ذبيان :

رماد ككحل العين لأيا أبينه ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

فقوله : خاشع أى منخفض مطمئن ، والخشوع فى الشرع خشية من الله تداخل القلوب ، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون ، كما هو شأن الخائف .

وقوله : لذكر الله ، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله ، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى خافت عند ذكر الله ، فالوجل المذكور فى آية الأنفال هذه ، والخشية المذكورة هنا معناها واحد .

وقال بعض العلماء : المراد بذكر الله القرآن ، وعليه فقوله :(ومانزل من الحق) من عطف الشىء على نفسه مع اختلاف اللفظين ، كقوله تعالى :(سبح

اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى) ، كما أوضحناه مراراً .

وعلى هذا القول ، فالآية كقوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، فالاقشعرار المذكور ، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث ، يفسر معنى الخشوع لذكر الله ، وما نزل من الحق هنا كما ذكر ، وقوله تعالى : (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) قد قدمنا فى سورة البقرة فى الكلام على قوله : (ثم قست قلوبكم) بعض أسباب قسوة قلوبهم ، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا فى آية الحديد هذه ، وغير ذلك فى بعض الآيات الأخر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين من أهل الكتاب جاء موضحاً فى آيات أخر كقوله تعالى : (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) وقوله تعالى : (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون) إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة الزمر فى الكلام على قوله تعالى : (ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما) ، وبينا هناك الآية الدالة على سبب اصفراره .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة ، أن كل ماأصاب من المصائب فى الأرض كالقحط والجدب والجوائح فى الزراعة والثمار وفى الأنفس، من الأمراض والموت كله مكتوب فى كتاب قبل خلق الناس ، وقبل وجود المصائب ، فقوله : (من قبل أن نبرأها) ، الضمير فيه عائد على الخليقة المفهومة فى ضمن قوله : (وفى أنفسكم) أو إلى المصيبة ، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله .

وقوله تعالى : (إن ذلك على الله يسير) أى سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لايصيب الناس شىء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) وقوله تعالى : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) ، لأن قوله : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع) قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له جل وعلا قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع ، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم ، لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها ، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة ، ونقص الأنفس فى قوله : والأنفس، مما أصاب من مصيبة فى الأنفس ، وقوله فى آية الحديد هذه (لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) أى بينا لكم أن الأشياء مقدرة مكتوبة قبل وجود الخلق ، وأن ما كتب واقع لامحالة لأجل ألاتحزنوا على شىء فاتكم ، لأن فواته لكم مقدر ، ومالاطمع فيه قل الأسى عليه ، ولاتفرحوا بما آتاكم ، لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لابد أن يأتيكم قل فرحكم به ، وقوله :

تأسوا ، مضارع أسى بكسر السين يأسى بفتحها أسى بفتحتين على القياس ، بمعنى حزن ومنه قوله تعالى : (فلا تأس على القوم الكافرين) وقوله : من مصيبة مجرور فى محل رفع لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيدة لتوكيد النفى ، وما نافية .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى سورة شورى فى الكلام على قوله : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) ، وقدمناهناك كلام أهل العلم فى معناه.

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ .

بين الله جل وعلا فى هذه الآية الكريمة والتى قبلها ، أن إقامة دين الإسلام تنبنى على أمرين : أحدهما هو ماذكره بقوله(وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) لأن فى ذلك إقامة البراهين على الحق وبين الحجة وإيضاح الأمر والنهى والثواب والعقاب ، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح ، فإن الله تبارك وتعالى أنزل الحديد أى خلقه لبنى آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين ، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام ، وعلى هذا فقوله هنا : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) توضحه آيات كثيرة ، كقوله تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) ، وقوله تعالى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) ، والآيات فى مثل ذلك كثيرة معلومة ، وقوله : (ومنافع للناس) ، لايخفى مافى الحديد من المنافع للناس ، وقد أشار الله إلى ذلك فى قوله : (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع) لأن مما يوقد عليه فى النار ابتغاء المتاع الحديد .

قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

قدقدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الزخرف فى الكلام على قوله تعالى: (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون . بل متعت هؤلاء) الآية .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد فى المؤمنين من هذه الأمة ، وأن سياقها واضح فى ذلك ، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل الكتاب فقد غلط ، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين) الآية.

وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إيتاء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله : (يؤتكم كفلين من رحمته) ، وزادهم بقوله: (ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

ماتضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحا فى آيات كثيرة كقوله تعالى (وإن يردك بخير فلا راد لفضله).

وقد قدمنا الآيات الموضحة له فى أول سورة فاطر فى الكلام على قوله تعالى :(وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إلى قوله ـ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾

قد قدمنا الكلام عليه موضحا فى سورة الأحزاب فى الكلام على قوله تعالى : (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) وبينا هناك كلام أهل العلم ، وأدلتهم ومناقشتها فى مسائل الظهار ، ومسائل أحكام الكفارة بالعتق ، والصيام ، والإطعام ، وأوجه القراءة فى الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ـ إلى قوله ـ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قد قدمنا الكلام عليه فى آخر سورة النحل فى الكلام على قوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة ، والمعية العامة ، والآيات القرآنية الدالة على كل واحدة منهما .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوى بالخير ، والنجوى بالإثم

والعدوان فى سورة النساء فى الكلام على قوله تعالى (لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس).

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾

قال بعض أهل العلم : معنى لم تر إلى الذين تولوا : ألم ينته علمك إلى الذين تولوا .

وقد قدمنا الرد على من قال : إن لفظة ألم تر لاتعدى إلا بحرف الجر الذى هو إلى ، ولاتتعدى بنفسها إلى المفعول ، وبينا أن ذلك وإن كان هو الذى فى القرآن فى جميع المواضع فإن تعديتها إلى المفعول بنفسها صحيحة .

ومن شواهد ذلك قول امرىء القيس :

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم ، وهم اليهود والكفار . وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولى ، وقد صرح الله بالنهى عن ذلك فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم) .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين ، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود ، جاء موضحا فى غير هذا الموضع كقوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم- إلى قوله تعالى - مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) .

قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة والأيمان جمع يمين ، وهى الحلف ، والجنة هى الترس الذى يتقى به المقاتل وقع السلاح ، والمعنى أنهم جعلوا الإيمان الكاذبة، وهى حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون فى باطن الأمر، ترسا لهم يتقون به الشر الذى ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم ، وقوله تعالى (فصدوا عن سبيل الله) الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف أى فصدوا غيرهم ممن أطاعهم لأن صدودهم فى أنفسهم دل عليه قوله (اتخذوا أيمانهم جنة) والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد ، كما أوضحناه مرارا .

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة لتكون لهم جنة ، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاءا موضحين فى آيات أخر من كتاب الله ، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله جلا وعلا فى آيات كثيرة ، كقوله تعالى فى هذه السورة (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) ، وقوله تعالى (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه) الآية ، وقوله تعالى : (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم) الآية. وقوله تعالى (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) وقوله تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون) .

وأما صدهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بينه الله فى آيات من كتابه

كقوله تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا) ، وقوله تعالى:(ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذاضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا) ، وقوله تعالى : (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ماقتلوا) ، وقوله تعالى : (وإن منكم لمن ليبطئن) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (فلهم عذاب مهين) ، أى لأجل نفاقهم ، كما قال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) الآية .

قوله تعالى : ﴿ لَّنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ الآية .

قد قدمنا الآيات الموضحة له فى سورة الكهف فى الكلام على قوله تعالى: (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ـ إلى قوله ـ خيرا منهما منقلبا) .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ﴾ .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله إلى الشيطان، ذكره تعالى فى غير هذا الموضع كقوله تعالى : (وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) وقوله تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) ، وفى معناه قول فتى موسى : وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ .

ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن الذين يحادون الله ورسوله داخلون فى جملة الأذلين، لا يوجد أحد أذل منهم وقوله: (يحادون الله ورسوله) أى يعادون ويخالفون ويشاقون ، وأصله مخالفة حدود الله التى حدها .

وقوله : (فى الأذلين) أى الذين هم أعظم الناس ذلا. والذل : الصغار والهوان والحقارة .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الذين يحادون الله ورسوله هم أذل خلق الله ، بينه جل وعلا فى غير هذا الموضع ، وذلك بذكره أنواع عقوبتهم المفضية إلى الذل والخزى والهوان ، كقوله تعالى: (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم) وقوله تعالى: (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم)، وقوله تعالى (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) وقوله تعالى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) إلى غير ذلك من ايات .

قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رسل الله غالبون لكل من غالبهم ، والغلبة نوعان : غلبة بالحجة والبيان ، وهى ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان ، وهى ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به .

وقد دلت هذه الآية الكريمة ، وأمثالها من الآية كقوله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون)

أنه لن يقتل نبي فى جهاد قط ، لأن المقتول ليس بغالب،لأن القتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى فى قوله : (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب)الآية. وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا) الآية . وقد نفى عن المنصور كونه مغلوبا نفياً باتاً فى قوله تعالى : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) .

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء فى القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى : (أو كلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) وقوله تعالى : (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم) ليسوا مقتولين فى جهاد ، وأن نائب الفاعل فى قوله تعالى : (وكأين من نبي قتل معه ربيون) ، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ربيون لاضمير النبى .

وقد أوضحنا هذا غاية الايضاح بالآيات القرآنية فى سورة آل عمران فى الكلام على قوله تعالى: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير) وذكرنا بعضه فى الصافات فى الكلام على قوله تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) .

قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر ، والمراد بها الإنشاء،وهذا النهى البليغ ، والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله ، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد ، من إيراده بلفظ الإنشاء ، كما هو معلوم فى محله ،ومعنى قوله: يوادون من حاد الله ورسوله : أى يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله .

وماتضمنته هذه الآية الكريمة من النهى والزجر العظيم عن موالاة

أعداء الله جاء موضحا فى آيات أخر كقوله تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) . وقوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، وقوله تعالى : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) . وقوله تعالى : (وليجدوا فيكم غلظة) الآية . وقوله تعالى : (يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولو كانوا آباءهم) زعم بعضهم أنها نزلت فى أبى عبيدة بن الجراح قائلا : إنه قتل أباه كافرا يوم بدر أو يوم أحد ، وقيل : نزلت فى ابن عبد الله بن عبد الله بن أبى المنافق المشهور ، وزعم من قال : إن عبد الله استأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه عبد الله بن أبى فنهاه ، وقيل : نزلت فى أبى بكر ، وزعم من قال إن أباه أبا قحافة سب النبى صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط .

وقوله : (أو أبناءهم) ، زعم بعضهم أنها نزلت فى أبى بكر حين طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن يوم بدر .

وقوله : (أو إخوانهم) زعم بعضهم أنها نزلت فى مصعب بن عمير قالوا : قتل أخاه عبيد بن عمير . وقال بعضهم : مر بأخيه يوم بدر يأسره رجل من المسلمين ، فقال : شد عليه الأسر ، علم أن أمه ملية وستفديه .

وقوله : (أو عشيرتهم) قال بعضهم : نزلت فى عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ، لما

قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، فى المبارزة يوم بدر ، وهم بنو عمهم ، لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . وعبد شمس أخو هاشم كما لا يخفى ، وقوله تعالى: (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) أى ثبته فى قلوبهم بتوفيقه .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان فى قلوبهم جاء موضحاً فى قوله تعالى : (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة) .

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع الجزء السابع من الكتاب النفيس « أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن » ، لمؤلفه الأستاذ الجليل ، والعالم النحرير « محمد الأمين الشنقيطى » .

وكان الفراغ من طبعه فى شهر شوال من سنة ١٣٩٦ ويليه بمشيئة الله الجزء الثامن وأوله « سورة الحشر » .

وذلك بمطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر . وهى تفخر إذ تقدم هذا الكتاب النفيس وأمثاله من كتب التفسير والسنة المحمدية ، وكتب السلف الصالح ، وستظل بمشيئة الله وعونه حارسة على الكتاب العربى ، باذلة جهدها فى نشر الثقافة الدينية ؛ حارسه لها من التبديل والتحريف ، والله المسئول أن يحقق المأمول .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم ؟

مدير المؤسسة

محمود على صبح المدنى

فهرس

الجزء السابع من أضواء البيان ، فى إيضاح القرآن بالقرآن

الصفحة	الموضوع
٥	سورة ص والقرآن ذى الذكر .
	بيان القراءات الشاذة فى ص ، وقراءة الجمهور .
٧	قول بعض العلماء : إن ص مفتاح بعض أسماء الله تعالى .
٧	مبحث نحوى فى قوله تعالى : (والقرآن ذى الذكر) مع بيان ما فيه من الشواهد العربية .
٨	قوله تعالى : (ذى الذكر) ، وبيان تفسيرها .
٨	تنبيه فى بيان اختلاف العلماء فى تعيين الشىء الذى أقسم الله عليه فى قوله : (والقرآن ذى الذكر) . وهل هو مذكور ، أو محذوف ، مع بيان ما يظهر رجحانه من ذلك بالأدلة .
١٢	قوله تعالى (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) وبيان أن سبب أخذ العزة بالإثم للكفار هو أمرهم بتقوى الله ، وأن استكبارهم ذلك سبب دخولهم النار ، مع بيان معنى العزة الحقيقية ، وأن الله خص بها المؤمنين دون الكافرين.
١٣	بيان معنى الشقاق من قوله (فى عزة وشقاق) .
١٤	قوله تعالى (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) الآية وبيان معنى كم وإعرابها ، وبيان ما يطلق عليه القرن ، وبيان ثلاث مسائل الأولى وهى كونه أهلك كثيراً من الأمم ، وبيان ذلك بالقرآن .
١٦	المسألة الثانية : وهى نداء الكفار إذا أحسوا بأوائل العذاب وذلك النداء إما بالاعتراف بالظلم ، أو نداؤهم بالإيمان ، والآيات الموضحة لهم .

الصفحة	الموضوع
١٧	المسألة الثالثة : وهى معنى قوله (ولات حين مناص) مع بيان أشهر أقوال النحويين فيها ، وبيان معنى النصوص أيضا ، وبيان أصوب الأقوال فى لات والقراءات فيها ، والآيات الموضحة لمعناها .
١٩	قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) والآيات الموضحة لذلك .
٢٢	قوله تعالى (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم)والإحالة على ذلك فى سورة الفرقان .
٢٢	قوله تعالى (أأنزل عليه الذكر من بيننا) الآية ، والآيات الموضحة لذلك ، مع بيان رد الله عليهم ذلك الإنكار .
٢٣	قوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما) الآية والإحالة على البيان السابق .
٢٣	قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ـ إلى قوله :ـ فحق عقاب) والإحالة على البيان السابق .
٢٣	قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) والإحالة المتعددة على ذلك .
٢٤	بيان معنى القط فى الآية .
٢٤	قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه ـ إلى قوله ـ: أواب) والإحالة على ذلك .
٢٤	قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك) الآية . والإحالة على ذلك .
٢٤	بطلان ما يذكره كثير من المفسرين عن نبي الله داود مما لا يليق بمنصب النبوة ، وكله راجع إلى الإسرائيليات ، وما جاء منه مرفوعاً لم يصح منه شيء .
٢٥	قوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية . بيان معنى الآية إجمالا .

الصفحة	الموضوع
٢٥	قد تقرر فى الأصول فى مسالك الايماء والتنبيه أن الفاء من حروف التعليل.
٢٥	وقوع الأمر من الله على أنبيائه والمراد به أممهم ليشرع لهم الأحكام والآيات الموضحه لذلك . والإحالة عليه فى سورة بنى إسرائيل .
٢٧	قوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) والاحالة على ذلك .
٢٧	قوله تعالى (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) . ويتضمن البحث تنزيه الله نفسه وتنزيه عباده الصالحين له عن كونه خلق السماوات والأرض عبثا . والآيات الموضحه لذلك .
٢٩	بحث نحوى ، وبلاغى فى تقسيم الفعل إلى حقيقى، وصناعى والأمثلة لذلك.
٣٠	(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار) والآية الموضحة لذلك . مع بيان مذاهب أهل اللغة العربية فى أم المنقطعة .
٣١	قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) الآيات الموضحة لذلك .
٣٢	بيان حكمة الإنذار بهذا القرآن الكريم والآيات الموضحة لذلك .
٣٣	من حكم إنزال هذا القرآن تبيينه صلى الله عليه وسلم للناس ما أنزل إليهم به ، وتثبيت المؤمنين ، وحكمه صلى الله عليه وسلم به . وإخراج الناس من الظلمات إلى النور به، والتذكرة لمن يخشى به وغير ذلك من الحكم .
٣٤	قوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان) الآية ، والآيات الموضحة لذلك .
٣٤	قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا) الآية . والاحالة على ذلك .
٣٥	قوله تعالى (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) والإحالة على ذلك .

الصفحة	الموضوع
٣٥	قوله تعالى (والشياطين كل بناء وغواص) والاحالة على ذلك .
٣٥	قوله تعالى (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ـ إلى قوله ـ لأولى الألباب) والاحالة على ذلك .
٣٦	قوله تعالى (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق) الآية، والآية الموضحة لذلك.
٣٦	قوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) والإحالة على ذلك .
٣٦	قوله تعالى (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) والآيات الموضحة لذلك .
٣٧	قوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) والإحالة على ذلك .
٣٧	قوله تعالى (قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) والاحالة على ذلك .
٣٧	قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) والاحالة على ذلك .
٣٧	قوله تعالى (ولتعلمن نبأه بعد حين) والآيات الموضحة لذلك مع بيان المراد بالحين وكلام العلماء فيه .
٤١	سورة الزمر .
٤١	قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) والآيات الموضحة لذلك ، وقد تضمن الإيضاح أن الله جل وعلا إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك بعض أسمائه الحسنى المتضمنة صفاته العليا .
٤٢	قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص) والآيات الموضحة لذلك المتضمنة الإخلاص في العبادة ، وقد تقدم الكلام على العمل الصالح .
٤٣	قوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) والآيات الموضحة لذلك ، وقد تقدم البحث فى سورة المائدة عند قوله (وابتغوا إليه الوسيلة) .

الصفحة	الموضوع
٤٤	قوله تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الواحد القهار) والاحالة على ذلك .
٤٤	قوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) والآيات الموضحة ذلك .
٤٥	قوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) والاحالة على ذلك .
٤٥	قوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق) والاحالة على ذلك .
٤٥	قوله تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) والآيات الموضحة لذلك مع بيان الاحالة عليه أيضا .
٤٥	قوله تعالى(ولاتزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم) الآية والاحالة على ذلك .
٤٦	قوله تعالى (وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه – إلى قوله – ليضل عن سبيله) والاحالة على ذلك .
٤٦	قوله تعالى (قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) والاحالة على ذلك .
٤٦	قوله تعالى (وأرض الله واسعة) والآيات الموضحة لذلك .
٤٧	قوله تعالى (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) الآية والاحالة على ذلك .
٤٧	قوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل)الآية . والاحالة على ذلك .
٤٧	قوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله) الآية والاحالة على ذلك .
٤٧	قوله تعالى (والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقد تضمن البحث

الصفحة	الموضوع
	معنى القول فى الآية وأن الأظهر من الأقوال فيه أنه ما جاء عن النبى صلى عليه وسلم والآيات الموضحة لذلك .
٤٧	بيان أن القرآن فيه الأحسن والحسن والآيات الموضحة لذلك والاحالة عليه.
٤٧	بيان أمثلة من الترغيب فى الأخذ بالأحسن وأفضليته ، مع جواز الأخذ بالحسن .
٥٠	بيان الأقوال فى قوله تعالى : (فيتبعون أحسنه).
٥٠	(أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) .
٦٤	قوله تعالى (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) والآيات الموضحة لذلك .
٦٥	بيان القراءات فى قوله تعالى : (وفتحت أبوابها) .
٦٥	قوله تعالى (وقال لهم خزنتها - إلى قوله - على الكافرين والإحالة على إيضاحه فى سورة بنى إسرائيل .
٦٥	قوله تعالى (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) والاحالة على إيضاحه فى سورة النحل .
٦٥	قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده - إلى - حيث نشاء) وحمد أهل الجنة ربهم وتنويههم بصدق وعده لهم . والآيات الموضحة لذلك .
٦٧	سورة غافر . وتسمى سورة المؤمن .
٦٩	قوله تعالى (غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذى الطول) وحصر مطامع العقلاء فى جلب النفع ، ودفع الضر . والآيات الموضحة لذلك .
٦٩	قوله تعالى (مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) والآيات الموضحة لذلك.
٧٠	بيان الذين يجادلون فى الله لهم أتباع يتبعون رؤساءهم المضلين لهم من شياطين الانس والجن . والاحالة على إيضاح ذلك فى سورة الحج .
٧٠	قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) وبيان إنعام على الكفار واستدراجهم بتلك النعم . وإيضاح هذا المعنى فى آيات كثيرة .
٧١	قوله تعالى (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب

الصفحه	الموضوع
	النار) الآية . وبيان القرآن فى كلمة : والإحالة على إيضاح ما يماثل ذلك فى سورة يس .
٧١	قوله تعالى (ربنا وادخلهم جنات عدن ـ إلى ـ وذريتهم) الآية والآيات الموضحة لها.
٧٢	قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) الآية والتحقيق الذى لا ينبغى العدول عنه فى الإماتتين والإحياءتين فى هذه الآية :وأدلة ذلك من القرآن.
٧٣	قوله تعالى (فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) الآية . والآيات الموضحة لذلك مع بيان أن الاعتراف بالذنب فى ذلك الوقت لا ينفع .
٧٣	الإحالة على إيضاح (فهل إلى خروج من سبيل) فى سورة الأعراف .
٧٣	قوله تعالى (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) الآية والإحالة على إيضاحه فى الصافات .
٧٤	قوله تعالى (فالحكم لله العلى الكبير) الآية والإحالة على إيضاحه فى الكهف
٧٤	قوله تعالى (هو الذى يريكم آياته) الآية ، والآيات الموضحة لذلك .
٧٤	بيان الآيات . وأن المراد من بيانها أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد حق.
٧٥	بيان أن من آياته التى يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها تسخير الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها . ودليل ذلك من القرآن .
٧٥	بيان من الآيات المعجزات وأنها علامة على صدق الرسل ودليل ذلك من القرآن.
٧٥	قوله تعالى (وينزل لكم من السماء رزقا) الآية وإطلاق الرزق على المطر لأنه سببه ، وأن ذلك أسلوب عربى معروف .
٧٦	إيضاح أن هذا الأسلوب نطقت به العرب ونطق به القرآن، وتسميته بالمجاز المرسل لا داعى له ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه ، كما أوضح ذلك فى رسالة : منع جواز المجاز . فى المنزل للتعبد والاعجاز .
٧٦	إيضاح إطلاق الرزق على المطر فى آيات كثيرة من القرآن . وبيان ذلك كله.
٧٧	بيان أن الرزق المذكور شامل لما يأكله الناس وماتأكله الأنعام . وإيضاح ذلك بالقرآن .
٧٨	قوله تعالى(وما يتذكر إلا من ينيب) والآيات الموضحة لها . وبيان معنى

الصفحة	الموضوع
	الانابة وأن المنيبين هم أصحاب العقول السليمة ، ودليل ذلك من القرآن .
٧٨	بيان أن غير المنيب لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات بل يعرض عنها أشد الاعراض وأدلة ذلك من القرآن
٧٨	قوله تعالى (فادعو الله مخلصين له الدين) الآية والاحالة على بيانه السابق في سورة الزمر .
٧٨	قوله تعالى (يلقى الروح من أمره - إلى - يوم هم بارزون) الآية والاحالة على بيانه السابق فى أول سورة النحـ .
	بيان يوم بروزهم المذكور فى قوله (يوم هم بارزون) والآيات الدالة عليه بكثرة .
٧٩	قوله تعالى (وأنذرهم يوم ارفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) الآية مع بيان الإنذار . والاحالة على بيانه السابق وأنواعه فى الأعراف .
٧٩	إعراب يوم الآزفة . وبيان معناه .
٨٠	بيان قرب قيام الساعة وأدلة ذلك من القرآن والتحويل عليه فى أول سورة النحل .
٨٠	زيادة إعراب وإيضاح لقوله (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) .
٨١	أوجه من التفسير فى لدى الحناجر . وأدلتها من القرآن .
٨١	معنى كاظمين : مكروبين ، ومعنى ، كظم فى لغة العرب وأدلته منها .
٨٢	وصف القلوب بالكظم الذى هو صفة أصحابها . ونظير ذلك من القرآن .
٨٢	قوله تعالى (ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) الآية . والاحالة عليه فى البقرة والأعراف .
٨٢	قوله تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) اية والاحالة على مايماثله فى سورة هود .
٨٢	قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا - إلى - فقالوا ساحر كذاب) الآية والآية الموضحة لها فى والاحالة على أمثالها مراراً .
٨٣	قوله تعالى (وقال موسى - إلى - قوله بيوم الحساب) مع بيان سبب عياذ موسى من فرعون . ومن كل متكبر والآيات الموضحة لذلك .

الصفحة	الموضوع
٨٤	قوله تعالى (وقال رجل مؤمن آل فرعون - إلى - ربى الله) الآية، والآيات الموضحة لذلك .
٨٤	بيان عادة المشركين فى القتل والتنكيل بالمسلمين ولا ذنب لهم إلا الايمان بالله وقولهم ربنا الله . والآيات الموضحة لذلك .
٨٥	التحقيق فى الرجل المؤمن المذكور فى هذه الآية أنه من جماعة فرعون . والخلاف بين العلماء من اسمه . وأنه لا دليل على شىء من ذلك .
٨٥	إعراب المصدر المسبك من : أن يقول ربى الله .
٨٥	تفسير البخارى لهذه الآية بواقعة وقعت للرسول من عقبة بن أبى معيط، ودفع أبى بكر له عن رسول الله وقوله له : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟
٨٥	قوله تعالى (قال فرعون ما أرى بكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) الآية.
٨٦	بيان كذب فرعون فى قوله لقومه ما أرى كم إلخ . مع بيان معرفته بالحقيقة لموسى وأدلة ذلك من القرآن .
٨٧	بيان غرض فرعون بهذا الكلام التدليس والتمويه وإيضاح ذلك من القرآن .
٨٧	قوله تعالى (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) الآية ودلالتها على عدم مضاعفة السيئات . والاشكال الوارد عليها مع الآيات الدالة على مضاعفة السيئات كقوله (إذا لأذقناك) الآية وقوله (يضاعف لها العذاب ضعفين) والاحالة على الجواب عن هذا الاشكال فى سورة النمل .
٨٧	قوله تعالى (ومن عمل صالحا - إلى - بغير حساب) الآية والاحالة على إيضاحها وإيضاح ما يماثلها فى سورة النحل .
٨٨	قوله تعالى (وتدعوننى إلى النار - إلى - به علم) الآية والآيات الموضحة لها .
٨٨	قوله تعالى (فستذكرون ما أقول لكم - إلى - وحاق بآل فرعون سوء العذاب) الآية والآيات الموضحة لها . وتحقيق أن الكلام لمؤمن آل فرعون وليس لموسى .
٨٩	إيضاح أن الكفار ستنكشف لهم حقائق ما كانوا يكذبون به .

الصفحة	الموضوع
٨٩	بيان أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه سبب الحفظ والوقاية من كل سوء ، والدليل على ذلك من القرآن مع الاحالة على ذكر الآيات الدالة على ذلك فى سورة بنى إسرائيل .
٩٠	— إيضاح معنى (قوله وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، والآيات الموضحة لها ، وبيان مصير مؤمن آل فرعون ، ومصير آل فرعون .
٩١	بيان أن حاق به لايقال إلا فى الشر والمكروه . وأدلة ذلك من شواهد اللغة العربية . مع بيان وزن السيئة بالميزان الصرفى والإحالة عليه سابقاً .
٩١	قوله تعالى (وإذا يتحاجون فى النار — إلى قوله — قد حكم بين العباد) الآية والآيات الموضحة لها . مع الاحالة على مثلها كثيرا .
٩٢	قوله تعالى (وقال الذين فى النار — إلى قوله — يوما من العذاب) الآية والآيات الموضحة لها مع بيان أن أهل النار لايموتون فيها ولا يخفف عنهم من عذابها وأدلة ذلك من القرآن .
٩٣	قوله تعالى (قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) الآية ، والاحالة على ذكر الآيات التى بمعناه فى سورة بنى إسرائيل .
٩٣	قوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) الآية والاحالة على إيضاح معناه فى سورة آل عمران .
٩٤	قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الهدى — إلى أولى الألباب) الآية والآيات الموضحة لها مع بيان معنى الهدى الذى أوتيه موسى . وأنه التوراة وأدلة ذلك .
٩٥	قوله تعالى (إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) الآية والاحالة على إيضاحه فى سورة الأعراف .
٩٥	قوله تعالى (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) الآية . . والاحالة على البراهين التى هذه الآية منها وإيضاحها فى سورة البقرة .

الصفحة	الموضوع
٩٥	قوله تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) الآية والاحالة على تفسيرها .
٩٥	قوله تعالى (إن الساعة لآتية لاريب فيها ولـكن أكثر الناس لايؤمنون) الآية . مع الاحالة على إيضاحها فى سورة الفرقان .
٩٦	قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى ـ إلى ـ داخرين) الآية مع أوجه تفسيرها عند العلماء مع بيان أن دعاء الله من أنواع عبادته .
٩٦	الاحالة على الجمع بين قوله (وإذا سألك عبادى عنى) الآية مع آية (فيكشف ما تدعون إليه) .
٩٦	قوله تعالى (الله الذى جعل لـكم الليل ـ إلى قوله ـ لا يشكرون) الآية مع الإحالة على إيضاحه فى سورة الفرقان .
٩٦	قوله تعالى (هو الذى خلق لـكم ـ إلى قوله ـ ولعلـكم تعقلون) .
٩٦ ـ ٩٧	مع الإحالة على إيضاحه فى سورة الحج .
٩٦ ـ ٩٧	قوله تعالى (فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) الآية مع الإحالة على إيضاحه فى سورد النحل .
٩٦ ـ ٩٧	قوله تعالى (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتـكبرين) الآية مع بيان عدد أبواب جهنم .
٩٦ ـ ٩٧	قوله (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) الآية والآيات الموضحة لذلك .
٩٨	قوله تعالى (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) الآية والآيات الموضحة لها . مع بيان الحق المراد فى الآية . وبيان المبطل .
٩٩	قوله تعالى (الله الذى جعل لـكم الأنعام ـ إلى قوله ـ تحملون) الآية وبيان معانى جعل فى اللغة العربية وأن ثلاثة منها فى القرآن والرابع ليس فى القرآن وهو جعل بمعنى شرع . وأدلة ذلك من اللغة .
٩٩	الإحالة على إيضاح معنى الإنعام والامتنان بها فى سورة آل عمران .
١٠٠	قوله تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فلينظروا كيف كان عاقبة الذين من

الصفحة الموضوع

قبلهم) الآية مع الإحالة على إيضاح ذلك فى سورة الروم وغيرها .

١٠١ قوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم ـ إلى ـ الكافرون) الآية والإحالة على إيضاحه فى سورة يونس

١٠٣ سورة فصلت .

١٠٥ قوله تعالى (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) الآية والإحالة عليه فى أول سورة الزمر .

١٠٥ قوله تعالى (كتاب فصلت آياته) الآية ، والآيات الموضحة لهامع بيان التفصيل والكتاب والمراد بهما . وشواهد ذلك من القرآن الكريم .

١٠٦ قوله تعالى (قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) الآية والاحالة على إيضاحها السابق فى سورة الزمر .

١٠٦ إيضاح خصوصه بقوم يعلمون . لأنهم المنتفعون به . والآيات الموضحةلذلك مع الإحالة على إيضاح ذلك سابقاً فى سورة فاطر .

١٠٧ والاحالة على إيضاح قوله (فأعرض أكثرهم) فى سورة يس .

١٠٨ قوله تعالى (وقالوا قلوبنا فى أكنة ـ إلى قوله ـ حجاب) الآية والآيات الموضحة لها .

١٠٨ إشكال بين قوله تعالى (فى قلوبنا أكنة) :وقوله (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) إلخ . وقوله(ومنهم من يستمع إليك) والآيات التى بمثل ذلك .

١٠٩ التحقيق فى الجواب عن هذا الاشكال .

١١٠ رد الله على اليهود دعواهم بل التى هى للاضراب الابطالى فى قوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) .

١١٠ بيان أن الطبع والأكنة معناهما واحد .

١١١ ذكر محاولة الفخر الرازى الجواب عن الاشكال المذكور .

١١٢ كلام صاحب الكشاف على قوله تعالى (ومن بيننا وبينك حجاب) واستحسان الفخر الرازى له .

١١٢ رد ابن المنير لهذا الكلام وبيان أن الحق معه .

الصفحة	الموضوع
١١٢	قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) الآية.
١١٤	قوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) الآية .
	استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ووجه دلالة الآية على ذلك ظاهر والاحالة عليه .
١١٥	قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) الآية والآيات الموضحة له .
١١٦	بيان معنى الأجر والممنون والمجذوذ والاستشهاد من اللغة العربية على ذلك، والتحقيق أن الممنون والمجذوذ معناها واحد .
١١٦	(وجعل فيها رواسى من فوقها) الآية وبيان ماتضمنته الآية، وأن الظاهر فيه أن تتمة أربعة أيام الصادقة بيومين والآيات الموضحة لذلك والاحالة عليه
١١٨	(وألقى فى الأرض رواسى) الآية وقوله (وقدر فيها أقواتها) الآية والاحالة عليه
١١٨	معنى التقدير والأقوات والاستشهاد عليه من اللغة العربية .
١١٩	قد جمع عبدالله بن عمر رضى الله عنه بين آية فصلت وآية النازعات ويرد على جمعه إشكال قد ألهمنا الله رفعه وهو مرفوع من وجهين .
١٢٠	(وزينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية والاحالة عليه وبيان معنى المصابيح .
١٢١	قوله تعالى (وحفظا) الآية والاحالة عليه .
١٢١	قالوا (لو شاء ربنا) الآية والاحالة عليه .
١٢١	(فأرسلنا عليهم ريحاً) الآية لعلماء التفسير فى معنى الصرصر وجهان صحيحان كلاهما تشهد له اللغة ، وذكر الآيات الموضحة لعدد الأيام والليالى التى أرسل عليهم فيها الريح .
١٢٣	بيان أوجه القراءات فى قوله (نحسات) وأقول العلماء فيه ذكر الأحاديث التى اغتر بها بعض العلماء على شؤم بعض الأيام وبيان الراجح .
١٢٥	قوله تعالى (وأما ثمود فهديناهم) الآية بيان معنى الهدى فى القرآن والاستدلال عليه منه .
١٢٦	معنى : فاستحبوا العمى . والاحالة عليه .

الصفحة	الموضوع
١٢٦	بيان أن لفظة استحبوا فى القرآن الكريم كثيراً ما تتعدى على .
١٢٦	إتيان الهدى فى القرآن بمعناه العام لا ينافى أنه يطلق فى بعض المواضع على الهدى الخاص والآيات الموضحة له .
١٢٦	إزالة الاشكال فى كونه جل وعلا أثبت الهدى لنبينا صلى الله عليه وسلم فى آية ونفاه عنه فى أخرى .
١٢٧	(فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) الآية والآية الموضحة لمعنى الصاعقة وأقوال العلماء فيها وبيان الراجح .
١٣٠	معنى الفاء فى قوله (فاخذتهم الصاعقة) .
١٣٠	حكم النعت بالمصدر والاستشهاد عليه من اللغة
١٣٠	إعراب بما كانوا يكسبون .
١٣٠	(ونجينا الذين آمنوا) الآية والآيات الموضحة له .
١٣٠	(ويوم يحشر أعداء الله) الآية والآيات الموضحة له . وبيان أوجه القراءة فى يحشر .
١٣٠	قوله تعالى (فهم يوزعون) الآية قد بينا معنى الوزع وشواهده من اللغة العربية .
١٣٢	(حتى إذا ماجاءوها) الآية والاحالة عليه بعد بيان الوجه الراجح .
١٣٢	قوله تعالى (وذلكم ظنكم الذى ظننتم) الآية والاحالة عليه .
١٣٣	(وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) الآية والاحالة عليه مع شواهد من اللغة العربية .
١٣٣	قوله تعالى : (وقيضنا لهم قرناء) الآية وبيان أن عبارة المفسرين فيه على التحقيق يرجع بعضها إلى بعض فى المعنى .
١٣٤	(فزينوا لهم) الآية والآيات الموضحة لما تضمنته هذه الآية .
١٣٦	قولة تعالى (وحق عليهم القول) الآية والاحالة عليه .
١٣٦	(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن) الآية والاحالة عليه .
١٣٦	(إن الذين قالوا ربنا الله) الآية والاحالة عليه .

الصفحة	الموضوع
١٣٧	قولة تعالى(ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه)الآية والإحالة عليه.
١٣٧	(ومن آياته الليل والنهار) الآية والاحالة عليه .
١٣٧	(ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر) الآية والاحالة عليه .
١٣٧	(فإن استكبروا فالذين عندربك) الآية وقد بينامعنى الاستكبار والأمرين الذين دلت عليهما هذه الآية وأن كلا منهما جاء موضحاً فى آية أخرى.
١٣٨	(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) والاحالة عليه .
١٣٩	(أفمن يلقى فى النار خير) الآية والاحالة عليه .
١٣٩	(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) الآية والاحالة عليه .
١٢٩	(من عمل صالحاً فلنفسه) الآية والاحالة عليه .
١٤٢	(ومار بك بظلام للعبيد) الآية والآيات الموضحة له وفى لفظة ظلام إشكال معروف والجواب عنه من أربعة أوجه والاستدلال على كل وجه والاستشهاد عليه من اللغة العربية .
١٤٣	(وما تحمل من أنثى) الآية والاحالة عليه .
١٤٣	(وظنوا مالهم من محيص) الآية قد أوضحنا معنى الظن فى القرآن والاستدلال عليه من اللغة العربية وأنه هنا بمعنى اليقين .
١٤٤	(ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء) الآية والاحالة عليه .
١٤٥	(وإذا أنعمنا على الانسان) الآية والاحالة عليه .
١٤٥	(سنريهم آياتنا فى الآفاق) الآية والاحالة عليه .
١٤٥	(ألا أنهم فى مرية من لقاء ربهم) الآية والاحالة عليه مع بيان لفظه مرية.

سورة الشورى

١٤٩	(حم عسق) الآية والاحالة عليه .
١٤٩	(كذلك يوحى إليك)الآية وبيان ماتضمنته هذه السورة من المعانى أوحى إليك مثله فى غيرها من السور .
١٤٩	قول الزمخشرى فى التشبيه فى قوله (كذلك نوحى إليك) والتحقيق فى ذلك:
١٤٩	قوله(وإلى الذين من قبلك) الآية والاحالة عليه .

الصفحة	الموضوع
١٥٠	معنى العزيز الحكيم والاحالة عليه .
١٥٠	بيان أوجه القراءة فى قوله (نوحى إليك) وإعرابها والاحالة عليه مع شواهده العربية .
١٥٠	قوله (العلى العظيم) والآيات الموضحة له .
١٥١	(تكاد السموات يتفطرن) وبيان معنى الآية على كلا القراءتين، وأقوال العلماء فيه ودليل كل قول .
١٥٤	(ألا إن الله هو الغفور الرحيم) الاحالة على ما تضمنته الآية .
١٥٦	قوله تعالى : (والذين اتخذوا من دونه أولياء) الآية قد أوضحنا ماتضمنته الآية من اتخاذهم الأولياء دونه جل وعلا ، وأنه أنكر عليهم ذلك ووبخهم
١٥٦	بيان أنواع أولئك الأولياء والاستدلال على كل نوع
١٥٦	قوله (وما أنت عليهم بوكيل) الآية والآيات الموضحة له .
١٥٨	قوله (وكذلك أوحينا إليك) الآية والاحالة عليه .
١٥٨	قوله تعالى : (ولتنذر أم القرى ومن حولها) الآية والآيات الموضحة له والاحالة عليه .
١٥٩	قوله تعالى (وتنذر يوم الجمع) الآية قد تضمنت الآية الكريمة أمرين كلاهما جاء موضحا فى آيات أخر .
١٦٠	تسمية يوم القيامة يوم الجمع والآيات الموضحة له .
١٦١	قوله تعالى : (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وبيان إنقسام الخلق إلى شقى وسعيد والآيات الموضحة لذلك .
١٦١	وجه الجمع بين قوله (ولذلك خلقهم) وقوله (وما خلقت الجن والإنس) والاحالة فى الذاريات وفى كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب .
١٦١	الاحالة على معنى السعير بشواهده العربية .

الصفحة	الموضوع
١٦٢	قوله تعالى (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) والآيات الموضحة لها وبيان أن مرد الحكم إلى الله وحده والإحالة على مزيد البيان فى ذلك .
١٦٣	بيان أن اتباع غير تشريع الله كفر والآيات الموضحة لذلك .
١٦٣	مسألة فى صفات من يستحق أن يكون له الحكم . وصفات من لايستحق أن يكون له من مشرعى القوانين الوضعية .
١٦٩	مناظرة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان وحكم الله فيها .
١٧٠	استدلال بعض علماء العربية لحذف اللام الموطئة للقسم بقوله تعالى (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) ومناقشة ذلك .
١٧٠	أوجه القراءة فى قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم) بالفاء وبحذفها ومقارنتها بالآية السابقة من الناحية العربية .
١٧٠	مثال دخول الفاء فى خبر الموصول وبيان كثرته فى القرآن .
١٧٢	بيان مصير من كان يعبد الشيطان فى الدنيا وفى الآخرة والآيات الموضحة لذلك .
١٧٢	بيان كون الشيطان عالما من بنى آدم .
١٧٢	بيان توضيح النبى صلى الله عليه وسلم لما سأله عدى بن حاتم .
١٧٣	قوله تعالى (فاطر السموات والأرض) الآية والإحالة فى تفسيرها .
١٧٣	قوله تعالى (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) والآيات الموضحة لها .
١٧٤	قوله تعالى (يذرؤكم فيه) والتحقيق فى مرجع الضمير فى(فيه) ، وما يوضح ذلك من الآيات .
١٧٥	الجواب عن إفراد الضمير المجرور فى (فيه) مع أنه عائد إلى الذكور والإناث وأمثلة ذلك من العربية .
١٨٦	قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الإحالة عليها .

الصفحة	الموضوع
١٧٦	قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) الآية والآيات الموضحة لها .
١٧٨	حكمة تضييق الرزق على بعض الخلق .
١٧٨	قوله تعالى (شرع لكم من الدين) الآية والإحالة عليها .
١٧٨	قوله تعالى (ولا تتفرقوا فيه) والآيات الموضحة لها
١٧٩	بيان أن بعض الناس لم يجتنب النهى عن التفرق فى الدين .
١٨٠	قوله تعالى (كبر على المشركين ماتدعوهم إليه) والآيات الموضحة لها .
١٨١	وجوب الحذر من طاعة الذين يكرهون ما أنزل الله ولو فى بعض الأمر .
١٨٢	قوله تعالى (الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) والآيات الموضحة لها .
١٨٣	قوله تعالى (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) والإحالة على معناها .
١٨٣	قوله تعالى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) والآيات الموضحة لها .
١٨٤	المراد بالميزان فى هذه الآية وغيرها وتوضيح ذلك .
١٨٥	الجواب على إشكال الفرق بين الكتاب والميزان .
١٨٧	قوله تعالى (وما يدريك لعل الساعة قريب) والاحالة على معناها فى عدة مواضع .
١٨٧	قوله تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) والمسائل المشتملة عليها والآيات الموضحة لها .
١٨٨	قوله تعالى (ألا إن الذين يمارون فى الساعة) الآية والإحالة عليها .
١٨٩	قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) والآية الموضحة لها .
١٨٩	أقوال أهل العلم فى قوله تعالى (إلا المودة فى القربى) .
١٩٢	التحقيق فى معناها .

الصفحة	الموضوع
١٩٢	قوله تعالى (ومن تقترف حسنة نزد له فيها حسنا) والآيات الموضحة لها .
١٩٢	(وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) والآيات الموضحة لذلك مع الاحالة على معنى التوبة وأركانها وإزالة بعض الإشكال .
١٩٣	(ولـكن ينزل بقدر ما يشاء) والآيات الموضحة لذلك .
١٩٣	(وما أنتم بمعجزين فى الأرض) والاحالة على ذلك .
١٩٤	(ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام) معنى الجوارى والسفن والأعلام وقول مجاهد والخليل فى الأعلام وبعض الشواهد على ذلك ، والآيات الموضحة للآية ، والقراءات التى فى الجوارى .
١٩٥	(والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش) القراءات فى كبائر الاثم ، وبيان إعراب (الذين) ومعنى الفواحش فى اللغة العربية وقول طرفة فى معلقته و لآيات الموضحة لمعنى الآية .
١٩٦	أظهر الأقوال فى اللمم أن المراد صغائر الذنوب والحديث الدال على ذلك و أقوال العلماء فى الاستثناء فى قوله إلا اللمم ، والاحالة على معنى الاستثناء المنقطع .
١٩٧	عدم حد الـكبائر (الاثم) فى عدد معين مع تعيين بعضها فى الحديث فيما يدخل تحت الـكبيرة من المعاصى .
١٩٩	اختلاف العلماء فيما يدخل تحت الـكبيرة وما لا يدخل واختيار ابن عباس لعددها ، بيان التحقيق فى ذلك . والأظهر فى ضابط الـكبيرة .
٢٠٠	(وجزاء سيئة سيئة مثلها) والاحالة على البيان السابق .
	(ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل) والاحالة على البيان السابق
	(وترى الظالمين لما رأوا العذاب) والاحالة على البيان السابق .
	(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) والاحالة على البيان السابق .

الصفحة	الموضوع
٢٠١	(ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) معنى الآية والآيات والأحاديث الموضحة لذلك ، وشمول الإيمان للقول والعمل مع الاعتقاد .
٢٠٢	مرجع الضمير فى جعلناه ، دلالة القرآن على أنه هو الذى يكشف ظلمات الجهل .
٢٠٣	(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) معنى الصراط المستقيم والاحالة على البيان السابق ووجه الجمع بين الآيتين أعنى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) مع قوله (إنك لاتهدى من أحببت) (ألا إلى الله تصير الأمور) والآيات الموضحة لصيرورة الأمور لله .

سورة الزخرف

٢٠٧	(حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا) والإحالة على البيان السابق .
٢٠٧	(فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين) بيان مرجع الضمير فى منهم وإعراب أشد وبطشا فى الآية ، والآيات التى بمعنى الآية مع الإحالة على بيان سابق فيها .
٢٠٩	(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) والإحالة على البيان السابق .
٢٠٩	(الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون) القراءات فى مهدا والآيات التى بمعنى الآية مع الإحالة على بيان سابق .
٢١٠	(والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون) والاحالات على البيانات السابقة وأقوال العلماء فى (بقدر) فى الآية .
٢١١	(والذى خلق الأزواج كلها) بيان الأزواج وشمولها والآيات التى توضح ذلك والإحالة على بيان سابق .

الصفحة	الموضوع
٢١٢	(وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ـ إلى قوله ـ عليه) والإحالة على البيان السابق ومرجع الضمير فى ظهوره وعليه .
٢١٢	(وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقربين) معنى الآية الاجمالى والاحالة على البيان السابق فى سبحان ومرجع الإشارة فى « هذا » ولماذا جمع الظهور .
٢١٣	ومعنى (الذى سخر لنا هذا) ومعنى (مقرنين) وبعض الشواهد العربية على ذلك .
٢١٤	والآيات المبينة للآية .
٢١٤	قوله تعالى (وجعلوا له من عباده جزءاً) أقوال العلماء فى الجزء . وبيان الراجح منها لا فى اية والشواهد على ذلك ، والقراءات فى (جزءا).
٢١٧	(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) ـــ معنى أم فى الآية والآيات الموضحة لذلك والإحالات على البيانات السابقة فى الآية
٢١٨	(وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن ـ إلى قوله ـ ويسألون) القراءات فى (عباد الرحمن) وفى قوله (أشهدوا خلقهم) وبيان المسائل الأربع التى ذكرها الله جل وعلا فى هذه الآية . الأولى : افتراء الكفار على الملائكة زاعمين أنهم بنات الله الثانية : أنه وبخهم وأنكر عليهم ذلك . الثالثة : أن شهادتهم الكاذبة ستكتب عليهم . الرابعة : أنهم يسألون عنها يوم القيامة والآيات الموضحة لهذه الآية وما تضمنته .
٢٢٠	(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) بيان إشكال فى الآية وهو بعينه الواقع فى الأنعام والنحل وحمله ورد شبه الكفار فى ذلك .
٢٢٦	(أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون) والآيات الموضحة لها مع بيان أم ، هنا .

الصفحة	الموضوع
٢٢٧	(وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير) الآيات ، والإحالة على البيان السابق مع ذكر بعض البيان وبيان القراءات فى حرف . قل أولو.
٢٢٩	(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه) الآية ، والآيات الموضحة لها .
٢٣٠	(وجعلها كلمة باقية فى عقبه) الآيات ، والآيات الموضحة لها ، مع بيان مرجع الضمير فى قوله : جعلها ، وبيان أن بعض عقب إبراهيم لم تكن كلمة التوحيد باقية فيه ، وبيان الأمرين اللذين تسبب فيهما إبراهيم بجعل الكلمة باقية فى عقبه ، والآيات الدالة على ذلك .
٢٣٤	مسألة ظاهر القرآن الكريم يدل على امتداد معنى العقب ، والذرية ، والبنين ، والآيات الدالة على ذلك .
	وذكر الأحد عشر لفظاً التى يذكرها الفقهاء فى الوقف والصدقة هل يدخل فيها أولاد البنات أولا ؟ مع ذكر ما دل القرآن على دخوله ، وما دل على عدم دخوله ، وما ذكر فى القرآن منها ، وما لم يذكر ، وما دلت السنة على دخوله كذلك .
٢٣٧	تنبيه : فيه اعتراض يرد على القول بدخول أولاد البنات لفظ البنين ، والجواب عنه مع الاستدلال بالكتاب والسنة وشواهد اللغة العربية على المعنى المراد .
٢٤١	(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) الآيات ، والآيات الموضحة لها مع تعيين الرجلين اللذين اقترح المشركون إنزال القرآن عليهما فى القريتين ، والإحالة على الآيات الدالة على إطلاق الرحمة والعلم على النبوة ، وعلى معانى إطلاق الرحمة فى القرآن .
٢٤٦	مسألة : دلالة القرآن على أن تفاوت الناس فى الأرزاق سنة من سنن الله الكونية القدرية وبذلك تعلم بطلان دعوى الملاحدة ابتزازهم أموال الناس بدعوى المساواة بينهم .
٢٤٧	(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) الآيات ، والآيات الموضحة لها مع

الصفحة	الموضوع
	تفسيرها وبيان أوجه القراءات فيها ، والإحالة على بيان بعضمنها، وذكر خلاف النحويين فى إعراب بعض مفرداتها .
٢٥٢	(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) الآيات ، والإحالة على البيان السابق .
٢٥٣	(ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٢٥٣	(أفانت تسمع الصم أو تهدى العمى) الآية ، والإحالة على البيان السابق:
٢٥٣	(فاستمسك بالذى أوحى إليك) الآية ، والآيات الموضحة لها .
٢٥٤	(وسئل من أرسلنا من قبلك) الآية ، والآيات الموضحة لها .
٢٥٥	(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه) الآية ، والإحالة على بيانها .
٢٥٥	(وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) والآيات المبينة لها .
٢٥٥	(وقالوا يا أيه الساحر) الآيات ، والآيات الموضحة لها مع بيان ما يحتاج إلى البيان .
٢٥٥	(ولا يكاد يبين) والإحالة على البيان السابق .
٢٥٦	(فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) الآية والإحالة على بيانها .
٢٥٦	(فلما آسفونا انتقمنا منهم) والآية الدالة على المراد بالأسف هنا مع بيان ما يحتاج إلى البيان منها .
٢٥٦	(فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) والإحالة على بيانها .
٢٥٦	(ولما ضرب ابن مريم مثلا) الآية . والآيات المبينة لها ، وبيان سبب نزولها ، وبيان معناها على كلا القراءتين ، مع توجيه صيغة الجمع فى قوله (ما ضربوه) وذكر شواهد اللغة العربية فى ذلك .
٢٦٢	(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) والآيات المبينة لها مع بيان ما يحتاج إلى بيانه .

الصفحة	الموضوع
٢٦٣	(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) والآية المبينة لها مع الإحالة على بعض البيان ، وترجيح أن مرجع الضمير فى قوله تعالى : (وإنه لعلم)هو عيسى عليه السلام مع ذكر بحث طويل يوضح ذلك .
٢٧٥	(ولا يصدنكم الشيطان) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٢٧٦	(فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ، والآيات الموضحة للظلم هنا .
٢٧٦	(هل ينظرون إلا الساعة) الآية ، والآيات المبينة لها مع بيان وإعراب ما يحتاج إلى ذلك وذكر بعض الشواهد العربية الدالة على ذلك .
٢٧٧	(ياعباد لا خوف عليكم اليوم) ، الآية ، والآيات المبينة لها مع ذكر معنى استعمال الخوف أو الحزن فى اللغة العربية وتحقيق القول فى الإيمان والإسلام وإيضاح ذلك .
٢٨٠	(ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) ، والآيات المبينة لها ، وتحقيق القول فى أن لفظة ، زوجة ، ليست لحنا .
٢٨١	(يطاف عليهم بصحاف من ذهب) والإحالة على البيان السابق .
٢٨١	(وفيها ما تشتهيه الأنفس) الآية ، والآيات المبينة لها مع بعض الإحالة على بيان سابق .
٢٨٤	(وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) ، والآيات الموضحة لها مع وجه الجمع بين هذه الآية وبين حديث « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » الحديث .
٢٨٥	(ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) ، الآية ، والآيات الموضحة لها مع استظهار أن هذا الذى طلبوه من مالك هو أن يدعو الله لهم بالموت والاستدلال عليه ، مع الإحالة على دفع إيهام الاضطراب ، فى سورة الأنعام عند قوله تعالى (قال النار مثواكم خالدين فيها) الآية .
٢٨٧	(لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) والإحالة على البيان السابق .

الصفحة	الموضوع
٢٨٧	(بلى ورسلنا لديهم يكتبون) . والإحالة على البيان السابق .
٢٨٧	(قل إن كان للرحمن ولد . الآية) والآيات المبينة لها مع ذكر أقوال العلماء في : إن هنا هل هي شرطية أو نافية ، وبيان ما هو الراجح فيها ، والاستدلال لذلك ، مع ذكر بحث منطقي يتعلق بالموضوع ، والرد على الزمخشري في قوله البشع في هذه الآية .
٣٠٥	تنبيه : فيه الرد على من زعم أن القول بأن : إن ، في الآية المذكورة نافية يلزمه إيهام المحذور الذي لا يجوز في حق الله .
٣٠٨	تنبيه : يتضمن الفرق بين لو ، وإن ، الشرطيتين ، ودلالة القرآن على أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إليه الخطاب من الله والمراد به التشريع لأمته ، والاستدلال على ذلك .
٣٠٩	(سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) والآيات الموضحة لها مع الإحالة على معنى لفظة ، سبحان ، وإعرابها .
٣١٠	(فذرهم يخوضوا ويلعبوا) الآية والإحالة على بيانها .
٣١٠	(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) والإحالة على إيضاحها .
٣١١	(وعنده علم الساعة) والإحالة على البيان السابق .
٣١١	(ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) والإحالة على البيان السابق
٣١١	(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) الآية ، والإحالة على بيانها .
٣١١	(وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) والآيات المبينة لها وإعرابها والاستشهاد على ذلك بشواهد اللغة العربية ، وبيان أوجه القراءات فيها .
٣١٣	(فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) والآيات الموضحة لها . مع بيان القراءات في هذا الحرف ، وبيان القول في هذه الآية وما في معناها هل هي منسوخة أولا والتوفيق بين القولين .
	(سورة الدخان)
٣١٩	(إنا أنزلناه في ليلة مباركة) والآيات الموضحة لها مع الرد على من يدعي أن ليلة القدر ليلة النصف من شعبان .

الصفحة	الموضوع
٣٢٠	(فيها يفرق كل أمر حكيم) الآية ، وتفسيرها ، والإحالة على بعض البيان فيها ، مع ذكر أوجه الإعراب فى قوله : أمرا ، وبيان الجيد منها .
٣٢٢	(إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) والإحالة على البيان السابق .
٣٢٣	(ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) والإحالة على إيضاحها .
٣٢٣	(وجاءهم رسول كريم ، أن أدوا إلى عباد الله) ، والآيات المبينة لها مع إعراب وبيان ما يحتاج إلى ذلك .
٣٢٤	(وإنى عذت بربى وربكم) الآية . والإحالة على بيانها .
٣٢٤	(كذلك وأورثناها قوما آخرين) والآية الموضحة لها مع الإحالة على بعض البيان .
٣٢٤	(ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين) الآيتان ، والآيات الموضحة لهما .
٣٢٥	(ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) والإحالة على البيان السابق .
٣٢٦	(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) والإحالة على بيانها .
	(سورة الجاثية)
٣٢٩	(إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) الآيات ، والبراهين الستة من براهين التوحيد الدالة على عظمته تعالى المذكورة فى هذه الآيات ، والآيات المبينة لها .
٣٣٤	تذييه : البراهين الثلاثة الدالة على البعث ، والآيات المبينة لها .
٣٣٧	(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) والآيات المبينة لها ، مع بيان معنى إطلاق تلك فى هذه الآية والمراد بها القرب ، والاستدلال عليها بالشواهد العربية مع الإحالة على دفع ايهام الاضطراب ، وبيان معنى اطلاقات لفظ الآية فى القرآن ، واللغة العربية : والاستدلال عليها بالشواهد العربية .
٣٤٠	(فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) الآيات ، والآيات الموضحة لها مع الإحالة على بيان سابق ، وأن البشارة ربما أطلقت على [illegible] والإحالة

الصفحة الموضوع

على بيان ذلك بشواهده العربية ، مع بيان أوجه القراءة فى هذا الحرف ، وبيان إعراب بعض المفردات .

٣٤٣ (وإذا علم من آياتنا شيئا) الآية ، والآيات المبينة لها ، وبيان أوجه القراءة فيها ، وبيان الفرق بين عذاب الكافرين ، وعذاب عصاة المسلمين .

٣٤٤ (من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا) الآية ، والآيات المبينة لها وتحقيق أن معنى أمام هنا وراء ، والإحالة على الشواهد العربية الموضحة لذلك واللغات التى فى مادة « غنى » والشواهد العربية الدالة على ذلك .

(هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم) الآية ، والآيات المبينة لها مع بيان معنى إطلاق الهدى فى القرآن ، وإطلاق الفعيل وصفا بمعنى المفعل وأمثلة لذلك من القرآن واللغة العربية وبيان القراءة فى هذا الحرف .

٣٥٠ (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره) الآية . والإحالة على البيان السابق .

٣٥١ (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) والإحالة على بيانها .

٣٥١ (وفضلناهم على العالمين) والآية والحديث الدالان على تفضيل أمته ﷺ على جميع الأمم ، وبيان عدم المعارضة بينهما وبين الآيات الدالة على تفضيل بنى إسرائيل .

٣٥٣ (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) والإحالة على إيضاحها .

٣٥٣ (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) والآيات المبينة لها ، مع بيان أنه ﷺ يخاطب والمراد به التشريع لأمته والإحالة على ذلك .

٣٥٤ (وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) والآيات الموضحة لها ، مع بيان أن الظلم هنا بمعنى الشرك وأمثلة لذلك من القرآن .

٣٥٥ (والله ولى المتقين) والآيات الدالة على أن الله ولى المؤمنين ، وأن المؤمنين أولياؤه تعالى .

٣٥٦ (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) والآيات الموضحة لها

الصفحة — الموضوع

مع الإحاله على بعض بيانها ، وإيضاح إشكال عربي يرد على الإخبار بلفظة ، (بصائر) عن المبتدأ (هذا) .

٣٥٧ (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الآية والإحالة على البيان السابق .

٣٥٨ (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) والإحالة على إيضاحها .

٣٥٨ (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) والإحالة على بيانها .

٣٥٨ (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) والآيات المبينة لها ، مع الإحالة على بعض البيان .

٣٥٩ (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) والإحالة على البيان السابق .

٣٥٩ (كل أمة تدعى إلى كتابها) الآية . والإحالة على بيانها .

٣٥٩ (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) الآية ، والإحالة على إيضاحها .

٣٥٩ (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) والإحالة على بيانها .

٣٥٩ (فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) والإحالة على البيان السابق .

٣٦٠ (فلله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين) والآيات الموضحة لها .

٣٦٠ (وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) والآيات والحديث الموضحان لها .

(سورة الأحقاف)

٣٦٥ (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) والإحالة على بيانها وعلى بيان الحروف المقطعة .

٣٦٥ (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) الآية ، والآيات المبينة لها مع بحث يتضمن الآيات الدالة على صحة معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً ، وبيان الفرق بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها .

٣٧١ (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) والآيات الموضحة لها مع بيان معنى الإنذار والإعراض ، وإعراب ، ما ، من قوله : (عما أنذروا) .

صفحة	الموضوع
٣٧٢	(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض الآية ، والآيات الموضحة لها ، والاحالة على بعض البيان .
٣٧٣	(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) الآيات ، والإحالة على البيان السابق .
٣٧٤	(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم) الآية ، والإحالة على بيانها .
٣٧٤	(أم يقولون افتراه قل إن افتريته) الآية . والآيات المبينة لها مع بيان أم، فى قوله : (أم يقولون) .
٣٧٦	(قل ما كنت بدعا من الرسل) والآيات المبينة لها .
٣٧٧	(وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) والآيات الموضحة لها ، وبيان أن التحقيق فى هذه الآية ، أنه ﷺ ما يدرى ما يفعل به ولا بهم فى دار الدنيا ، وتوجيه ذلك والاستدلال عليه .
٢٧٩	(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به) والآية المبينة لها ، وذكر الخلاف فى جواب الشرط وبيان الظاهر فيه .
٢٨٠	(وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله) وتحقيق أن المثل فى الآية هو القرآن لا شىء آخر يماثله ، والآيات الدالة على ذلك ، مع بيان أن الشاهد هو عبد الله بن سلام وبه قال الجمهور .
٣٨١	(وقال الذين كفروا للذين آمنوا) الآية . والآيات الموضحة لها
٣٨٣	(وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا) والإحالة على بيانها .
٣٨٣	(لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) والإحالة على السابق وبيان أنواع الإنذار .
٣٨٣	(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) الآية ، والإحالة على بيانها .
٣٨٤	(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) . والإحالة على بيانها مع القراءة

الصفحة	الموضوع
	فى هذا الحرف ، والأقوال فى إعراب (إحسانا) .
٣٨٤	(حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) والآية المبينة لها ،وبيان أوجه القراءة فيها ، وإعراب (كرهاً) .
٣٨٥	(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا)والآيات الموضحة لأمد الحمل بدلالة الإشارة.
٣٨٦	(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنه والإحالة على بيانها .
٣٨٦	(والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى)الآية ، والإحالة على بيان بعضها ، وبيان أن لفظ (الذى) هنا وإن كان مفرداً فمعناها الجمع ، وذلك كثير فى القرآن ، وفى لغة العرب لاستدلال عليه، ورد قول من قال إنها نازلة فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما مع بيان أوجه القراءة فى هذا الحرف .
٣٩٠	(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا الآية ،والآيات والأحاديث المبينة أنها خاصة بالكفار ، خلافاً لمن قال إنه ينبغى التقشف خوفاً من الدخول فى عمومها، وبيان أن القلب الذى قال به بعض العلماء فى قوله تعالى : (ويوم يعرض الذين كفروا) ، وإن كان وارداً فى القرآن لايجوز فى القرآن إلا بدليل ، وبيان أوجه القراءة فيها .
٣٩٦	(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) والآيات المبينة لأخى عاد فى هذه الآية .
٣٩٦	(ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) والآيات الموضحة لها.
٣٩٧	(قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) ، الآية والآية المبينة لها .
٣٩٨	(وأبلغكم ما أرسلت به) الآية والآية الموضحة لها .
٣٩٨	(بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) والإحالة على البيان السابق.
٢٩٨	(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) . وبيان الوجه الراجح من الأوجه الثلاثة التى قال بها المفسرون فى لفظة : إن ، فى هذه الآية ، والآيات التى تشهد لذلك ، والإحالة على البيان السابق .

الصفحة	الموضوع
٤٠٠	(فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) الآية ، والإحالة على البيان السابق .
٤٠٠	(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) ، الآية ، والآيات المبينة لها .
٤٠١	(ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به) . الآية ، والآيات المبينة لمفهومها ، والآية الدالة على أن مؤمنى الجن يدخلون الجنة ، والرد على من قال : إنهم لايدخلون الجنة .
٤٠٧	(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن) الآية والإحالة على بيانها .
٤٠٨	(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) والاحالة على تعيين أولى العزم ، والآيتان الدالتان على أنهم ليسوا جميع الرسل خلافا لمن قال بذلك .
٤٠٨	(ولاتستعجل لهم) ، والآيات الموضحة لذلك .
٤٠٩	(كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) ، والإحالة على البيان السابق .
٤١٠	(بلاغ) والآيتان الدالتان على تفسيرها ، وبيان الصواب فى إعرابها ومعناها.
	(سورة محمد)
٤١٣	(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) الآية ، والآيات الموضحة لها ، والصواب فى : صد ، هل متعدية أو لازمة ، والإحالة على معنى الضلال فى القرآن واللغة العربية .
٤١٧	(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب). الآية ، والآيات الموضحة لها . وهل هى منسوخة أو لا ، والآيات الدالة على ثبوت الملك بالرق ، وسببه ، والإحالة على حكمة الملك بالرق ، وإزالة الإشكال فى ملك الرقيق ، والرد على من يدعى نفى الرق فى الإسلام مستدلا بهذه الآية .
٤٢٢	(ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم) الآية ، والآيات المبينة لها ، وبيان صفات الذين وعدوا بالنصر ، وأن غيرهم ليس له وعد من الله بالنصر ، وبيان نصر المؤمنين لله .

الصفحة	الموضوع
٤٢٣	(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الآية والإحالة على بيانها .
٤٢٤	(وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) الآية،والآيات الموضحة لها، وبيان أوجه القراءة فى (كأين)والإحالة على معناهاومافيها من اللغات مع الشواهد العربية .
٤٢٥	(مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن) والإحالة على بيانها وذكر بعض الآيات ، والشواهد العربية الموضحة لها .
٤٢٦	(ولهم فيها من كل الثمرات) والآية المبينة لها .
٤٢٦	(وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) والإحالة على بيانها .
٤٢٦	(هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) والاحالة على البيان السابق .
٤٢٦	(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم والآيات الدالة على معناها ، والإحالة على إيضاحها .
٤٢٧	(فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآية ، والآيات المبينة لها .
٤٢٨	(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) والآيات المبينة لها والآيات الدالة على ذم المعرض عن كتاب الله .
٤٣٠	المسألة الأولى : ادعاء متأخرى الأصوليين أنه لايجوز العمل بالكتاب والسنة إلا للمجتهدين وبيان عدم استناد دعواهم إلى دليل ومناقشتها ، وردها ، وبيان الشىء الذى يتوقف عليه العمل بالدليل ، والإجماع على منع العمل بالدليل مع الجهل .
٤٣٤	تنبيه مهم : المقدمتان اللتان بنى عليهما الاستغناء عن كتاب الله وسنةرسوله صلى الله عليه وسلم ، واستبدالهما بالمذاهب المدونة ، ومناقشتهما ، وردهما .
٤٣٧	مناقشة الصاوى ، والرد عليه فى قوله : إنه لايجوز تقليد ماعدا المذاهب الأربعة ولو وافق قول الصحابة ؟ والحديث الصحيح ، والآية،وأن الأخذ بظواهر الكتاب ، والسنة من أصول الكفر .

الصفحة	الموضوع
٤٤٣	زعم كثير من النظار أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها غير لائقة بالله، لأنها تستلزم التشبيه ومناقشتهم فى ذلك وسوق الأدلة على بطلان زعمهم هذا.
٤٥٦	نصوص من كتب أبى الحسن الأشعرى يصرح فيها بأنه يقول فى آيات الصفات وأحاديثها ما يقوله أئمة السلف وأن تأويل الاستواء بالاستيلاء، واليدين بالنعمة، ومافى معناها من الصفات. هو مذهب المعتزلة ومن ضاهاهم، ومناقشة ذلك. وإثبات ماهو الحق.
٤٦٣	تنبيه مهم: زوال ما قد يتوهم من الإشكال بين صيغة الجمع فى قوله تعالى: (مما عملت أيدينا) وبين صيغة التثنية فى قوله تعالى: (لما خلقت بيدى، بل يداه مبسوطتان).
٤٦٩	رجوع بعض أئمة أهل الكلام المشهورين عن عقيدتهم إلى عقيدة السلف.
٤٧٧	المسألة الثانية: شروط الاجتهاد عند متأخرى الأصوليين، وبيان أنها لاتستند إلى دليل يجب الرجوع إليه، وأن نصوص الكتاب والسنة واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بهما من غير تخصيص المجتهد من غيره.
٤٨٥	المسألة الثالثة: التقليد لغة واصطلاحا، والمذهب لغة واصطلاحا عند الفقهاء، وأن التقليد لايكون إلا فى المسائل الاجتهادية.
٤٨٧	أقسام التقليد، ما يصح منها وما لايصح، وما خالف فيه المتأخرون المتقدمين من القرون الثلاثة المفضلة، والاستدلال على هذه الأقسام، ومناقشتها، وبيان ماهو الحق.
٥٠٠	حصر مايمكن أن يستدل به المقلدون من الأدلة والحجج.
٥٠٧	مناقشة حجج المقلدين وأدلتهم، والرد عليها بما يكفى المنصف فى بحث طويل جداً.
٥٢٩	استدلال المقلدين على تقليدهم بقبول قول القائف، والخارص، وتقليد الأعمى فى القبلة .. إلخ. ظاهر السقوط.
٥٢٩	استدلال العلماء على قبول قول القائف بسرور النبى صلى الله عليه وسلم من قول المدلجى فى أسامة وزيد.

الصفحة	الموضوع
٥٣٠	الاكتفاء بقول الذابح ، والبائع ليس بتقليد أعمى وإنما هو عمل بالدليل لحديث عائشة رضى الله عنها .
٥٣١	وأما استدلالهم على التقليد بأن الله لو كلف الناس كلهم الاجتهاد ، ضاعت مصالح العباد فهو ظاهر السقوط .
٥٣٣	تنبيهات تتعلق بهذه المسألة .
٥٣٣	التنبيه الأول : اغترار المقلدين بقضيتين ظنوهما صادقتين وهما بعيدتان من الصدق .
٥٣٣	القضية الأولى : ظنهم أن الامام الذى قلدوه لابد أن يكون قد اطلع على جميع معانى الكتاب والسنة .
٥٣٧	القضية الثانية : ظن المقلدين أن لهم مثل ما لإمامهم من العذر فى الخطأ .
٥٣٩	التنبيه الثانى : اتفاق الائمة الأربعة رحمهم الله على منع التقليد الأعمى .
٥٤٢	التنبيه الثالث : دلالة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد بإجماعه من أهل العلم على أنه لايجوز لأحد من المقلدين للائمة التقليد الأعمى أن يقول : هذا حلال وهـذا حرام ، وإنما يقول : هذا الحكم قاله الإمام الذى قلدته أو أفتى به .
٥٤٧	التنبيه الرابع : الفرق بين الاتباع والتقليد وأن محل الاتباع لايجوز التقليد فيه بحال .
٥٤٨	الآيات الدالة على تسمية العمل بالوحى اتباعاً لاتقليداً .
٥٤٩	شروط المجتهد عند الأصوليين لايمكن جعلها فى التبع ، والشرط الذى يصح اشتراطه فى الاتباع .
٥٥٠	التنبيه الخامس : قول المقلدين إن العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على آراء الرجال من التكليف بما لايطاق والرد عليهم .
٥٥١	الجاهل بالكتاب والسنة لايجوز له العمل بهما باجتهاده ، والواجب عليه تعلمهما وعدم الإعراض عنهما والعمل بما علم منهما علماً صحيحاً .

الصفحة	الموضوع
٥٥٢	بطلان دعوى الذى يقول إن تعلم الكتاب والسنة غير مقدور عليه والآيات الدالة على أن ذلك قول الكفار ، والرد عليه بالقرآن ، وبيان قسمى المقلدين .
٥٥٣	التنبيه السادس : اتفاق العلماء على أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً خاصة ، والآيات الدالة على ذلك ، وأن المضطر للتقليد معذور .
٥٥٥	التنبيه السابع : فى بيان موقف جميع المسلمين المنصفين من الأئمة الأربعة وغيرهم وحقيقة القول فيهم رحمهم الله .
٥٥٦	التنبيه الثامن : فى ذكر طرف من المسائل التى قال بعض العلماء أن الأئمة خالفوا فيها السنة ، وبيان أن الصواب قد يكون مع الأئمة فيها ، أو أن السنة لم تبلغهم فيها ، أو بلغتهم وقدموا عليها ظاهر القرآن لتواتره فهو أرجح فى ظنهم .
٥٥٧	الزيادة على النص هل تكون نسخاً أو لا ، وذكر التفصيل فى ذلك ، وجواز نسخ المتواتر بالآحاد .
٥٦٢	المسائل الثلاث التى حلف عبد الحميد الصائغ المالكى بالمشى إلى مكة أنه لايفتى فيها بقول مالك وبيان الراجح فيها .
٥٨٦	التنبيه التاسع : الواجب على المقلدين أن يتنبهوا للفرق بين أقوال إمامهم وما أخرجه كبراء أصحابه على قواعده وبين ما ألحقه المتأخرون من الاستحسانات وأمثلة لذلك .
٥٨٠	التنبيه العاشر : فى بيان بطلان دعوى متأخرى الأصوليين من انقراض الاجتهاد وسد بابه ومنع تقليد غير الأئمة الأربعة إلى مجىء المهدى المنتظر وبيان تناقض دعواهم هذه ، وذكر مايؤيده الدليل من ذلك .
٥٨٢	التنبيه الحادى عشر : اعلم أن ماعليه المسلمون اليوم من التفرق وتشكيك الكفار لهم فى دينهم وتحكيم القوانين الوضعية سببه الإعراض عن كتاب

الصفحة	الموضوع
	الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة .
٥٨٤	(إن الذين ارتدوا على أدبارهم) والآيات الموضحة لها .
٥٨٩	مسألة : الواجب على المسلمين الحذر التام مما تضمنته آيات سورة محمد هذه من الوعيد الشديد.
٥٩٠	(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم) . الآية ، والآيات الموضحة لها . مع إزالة الإشكال الذى قد يتوهم فى قوله تعالى : (حتى نعلم المجاهدين) الآية .
٥٩٣	(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) ، الآية ، والآيات الموضحة لها .
٥٩٥	(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) ، الآية والإحالة على بيانها .
٥٩٥	(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) الآية ، والآيات الموضحة لها .
٥٩٦	(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) الآية ، والآيات الموضحة لها مع بيان عدم التعارض بينها وبين (وإن جنحوا للسلم) الآية .
٥٩٩	(وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) والآيات الموضحة لها .
٥٩٩	(ولا يسألكم أموالكم) والإحالة على بيانها .
٦٠٠	(والله الغنى وأنتم الفقراء) والإحالة على إيضاحها .
٦٠٠	(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) الآية ، والإحالة على بيانها .
	سورة الفتح
٦٠٣	(إنا فتحنا لك فتحا مبينا) تحقيق المراد بالفتح فى هذه الآية والاستدلال عليه مع الإحالة على بيان معنى اللام فى قوله (ليغفر لك الله) .
٦٠٤	(ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) والآيات المبينة لها .
٦٠٤	(ولله جنود السموات والأرض) والإحالة على بيانها .

الصفحة	الموضوع
٦٠٤	(ليدخل المؤمنين والمؤمنات) الآيات ، وإيضاح معناها وبيان معلق اللام في قوله (ليدخل)
٦٠٥	(وغضب الله عليهم) الآية ، والآيات الموضحة لها .
٦٠٥	(إنا أرسلناك شاهداً) الآية ، والآيات الدالة على شهادته عليه الصلاة والسلام على أمته خاصة ، وكونه بشيراً ونذيراً لجميع الناس .
٦٠٦	(قل فمن يملك لكم من الله شيئاً) الآية ، والآيات الموضحة لها .
٦٠٧	(فأنزل الله سكينته على رسوله) الآية ، والآيات الموضحة لها مع بيان موضع إنزال السكينة .
٦٠٨	(هو الذى أرسل رسوله بالهدى) الآية والآيتان الموضحة لها .
٦٠٨	(محمد رسول الله والذين معه) الآية ، والاحالة على توضيحها .
٦٠٨	(ومثلهم فى الإنجيل) ، والآيات الموضحة لها مع بيان مافيها من القراءات وتوضيحها بالشواهد العربية .
	(سورة الحجرات)
٦١٣	(يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) الآية . والإحالة على إيضاحها مع ذكر أوجه التفسير وبيان الأصح منها .
٦١٤	(يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) الآية. والآيات الموضحة لها مع ذكر سبب نزولها وبيان بعض الفرق بينه صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء عليهم السلام فى القرآن .
٦١٧	مسألتان . الأولى : فى أن عدم احترام النبي صلى الله عليه وسلم المتعمد بالاستخفاف والاستهزاء ردة عن الإسلام وكفر بالله ، مع الدليل على ذلك
٦١٨	المسألة الثانية : فى بيان الفرق بين حقوق الله تعالى وبين حقوق عباده والآيات القرآنية الدالة على ذلك الفرق ومايكون عند السلام عليه صلى الله عليه وسلم .
٦٢٦	تنبيه : يجب على كل المسلمين صرف مايشمله معنى العبادة لله وحده دون ماسواه
٦٢٦	(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ) الآية ، والآية الموضحة لها وسبب نزولها وبيان ما فيها من القراءات ومآخذ الأصوليين منها .

الصفحة	الموضوع
٦٢٨	(ولكن الله حبب إليكم الإيمان) الآية والآيات الموضحة لها .
٦٢٨	(إنما المؤمنون إخوة) الآية والإحالة على بيانها .
٦٢٩	(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) الآية والآيات الموضحة لها .
٦٣٠	(ولا تلمزوا أنفسكم) والآيات الموضحة لها مع بعض الإحالة على بيانها .
٦٣٠	(يأيها الناس إنا خلقناكم) الآية، والآيات المبينة لكيفية خلقه للذكر والأنثى.
٦٣١	مسألة ، دلالة القرآن الكريم على أن المرأة الأولى خلقت من الرجل ، وذكر الفوارق التى دل القرآن عليها ، مع الإحالة على بعض مواضع أخرى. والرد على الكفرة وأتباعهم القائلين بتسوية الرجل بالمرأة .
٦٣٤	(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) والإحالة على إيضاحها مع ذكر الطبقات التى تنقسم الناس إليها من شعب وفخذ وقبيلة وغير ذلك . والمذكور منها فى القرآن .
٦٣٦	(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا)، الآية. ذكر قول المفسرين فيها واستظهار ماهو الظاهر منها مع ذكر الآيات الموضحة لذلك . والفرق بين الإيمان والإسلام .
٦٣٩	(قل أتعلمون الله بدينكم) الآية ، والآية الموضحة لها .
٦٤٠	(إن الله يعلم غيب السموات والأرض) والإحالة على توضيحها .

الصفحة	الموضوع
٦٤٣	سورة ق
٦٤٣	بيان أن المقسم عليه محذوف وظهور كونه كالمقسم عليه المحذوف فى قوله (ص والقرآن) وتقدم الكلام على ذلك فى سورة ص .
٦٤٣	(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) الآية ، وبيان أن من المقسم عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق وأن رسالته حق ، وأن من المقسم عليه تكذيب الكفار فى إنكارهم البعث .
٦٤٤	(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) والآيات الموضحة لذلك وبيان أن الهمزة فى قوله (أفلم ينظروا) تتعلق بمحذوف وأن الفاء عاطفة عليه .
٦٤٥	(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) الآية والآيات الموضحة لذلك وبيان معنى الزوج البهيج وإعراب قوله تبصرة .
٦٤٦	(وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) وبيان الإحالة على الكلام عليها فى أول البقرة وأول النحل وأول الجاثية .
٦٤٦	(كل كذب الرسل فحق وعيد) والآيات الموضحة لذلك وبيان عدم صحة ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح أن يخلف وعيده . واستدلالهم على ذلك بقول الشاعر : وإنى وإن أوعدته . البيت . وبيان أن ذلك فى وعيد عصاة المسلمين خاصة .
٦٤٧	(أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) والآيات الوضحة لذلك
٦٤٨	(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) والإحالة على توضيح ذلك.
٦٤٨	(إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال) الآية وبيان إعراب (إذ) وبيان تقدير مفعول يتلقى المحذوف ومعنى التلقى والاظهر فى معنى القعيد .
٦٤٩	بيان حذف قوله قعيد بعد قوله عن اليمين لدلالة مابعده عليه . وبيان ذلك من شواهد اللغة العربية .

الصفحة الموضوع

٦٥١ تنبيه : اعلم أن العلماء اختلفوا فى عمل العبد الجائز الذى لا ثواب ولاعقاب عليه . هل تكتبه الحفظة أولا ؟ إلخ .

٦٥٢ (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) والإحالة على بيان معناها.

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) وبيان اختلاف العلماء فى معنى الاستفهام والراجح من ذلك وبيان حقيقة كلام النار والإحالة على توضيح ذلك .

٦٥٣ (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) والآيات الموضحة لذلك وبيان إعراب غير.

٦٥٤ (لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد) وبيان المراد بالمزيد هنا . والإحالة على معنى الآية .

٦٥٤ (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً) وتقدم الإحالة على معناها،

٦٥٤ (ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) والآيات الموضحة لذلك سابقا .

٦٥٤ (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) . والآيات الموضحة لذلك .

٦٥٥ (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) والإحالة على معناها .

٦٥٥ (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) والآيات الموضحة لذلك

٦٥٦ (وما أنت عليهم بجبار) والإحالة على توضيحها سابقا .

٦٥٦ (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) والإحالة على توضيحها سابقا .

٦٥٩ سورة الذاريات

٦٥٩ (والذاريات ذروا ـ إلى قوله ـ لواقع) والتحقيق فى معنى الذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات وشواهد ما ذكر من القرآن ولغة العرب والاختلاف

الصفحة	الموضوع
	فى ما من قوله : إنما توعدون . هل هى موصولة أو مصدرية والآيات الموضحة لمعنى الآية .
٦٦٣	(والسماء ذات الحبك ـ إلى قوله ـ من أفك) ، وبيان ما يوضح ذلك واختلاف العلماء فى معنى الحبك وما يشهد لأقوالهم من لغة العرب والقرآن.
٦٦٥	(إن المتقين فى جنات وعيون) والآيات الموضحة لذلك ودلالتها بالإيماء والتنبيه على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله .
٦٦٦	(وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وبيان الإحالة على معناها فى أول سورة الجاثية .
٦٦٦	(وفى السماء رزقكم وما توعدون) وبيان اختلاف العلماء فى المراد بكون رزق الناس فى السماء وإيضاح قول كل طائفة بما يشهد لقولها من القرآن. والإحالة على الآيات المبينة لها فى سورة المؤمن والمراد بما يوعدون .
٦٦٨	(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) والإحالة على إيضاحها .
٦٦٨	(وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) والإحالة على إيضاحها .
٦٦٨	(وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) والإحالة على بيانها .
٦٦٨	(فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) والإحالة على بيانها .
٦٦٩	(والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) والإحالة على بيانها .
٦٦٩	تنبيه قوله (والسماء بنيناها بأيد) ليس هذا من باب آيات الصفات وفيه معنى اليد وتصريفها ووزنها بالميزان الصرفى
٦٦٩	(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) والإحالة على ما يوضح ذلك .
٦٧٠	(فتول عنهم فما أنت بملوم) والآيات الموضحة لذلك .
٦٧٠	(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) والآيات الموضحة لذلك .

الصفحة	الموضوع
٦٧١	(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) واختلاف العلماء فى المراد بقوله: إلا ليعبدون وإيضاح معنى ذلك إلخ والآيات الموضحة لذلك .
٦٧٤	تنبيه. اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله السماوات والأرض وأهلهما وما بينهما يظن غير المتأمل أن بينها اختلافا والواقع خلاف ذلك إلخ .
٦٧٦	الإحالة على معنى قوله تعالى : (إلا ليعبدون) فى دفع إيهام الاضطراب فى سورة هود عند قوله تعالى : (ولذلك خلقهم) .
٦٧٧	(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) والإحالة على بيان معناها.
٦٧٨	(فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون) ومعنى الذنوب وسبب إطلاقه على الدلو والآيات الموضحة لذلك .
٦٧٩	(فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) والآيات الموضحة لذلك وبيان معنى الويل .
٦٨٣	سورة الطور
٦٨٣	(والطور وكتاب مسطور فى رق منشور ـ إلى قوله ـ من دافع) والآيات الموضحة لذلك وبيان معنى البحر المسجور وشواهد ذلك من العربية .
٦٨٤	(يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التى كنتم بها تكذبون) والآيات الموضحة لمعناها ومعنى الدع لغة .
٦٨٦	(اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) والآية الموضحة لذلك .
٦٨٦	(كل امرىء بما كسب رهين) والآية الموضحة لها وبيان أن التخصيص بيان .
٦٨٦	(وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) والآيات المبينة لها .
٦٨٧	(يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم) والآيات المبينة لهذا المعنى. وبيان معنى التنازع وبيان أن الكأس مؤنثة .

الصفحة	الموضوع
٦٨٨	(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) والآيات الموضحة لذلك .
٦٨٩	(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) والآيات الموضحة لذلك وبيان أن إن المشددة من حروف التعليل .
٦٩٢	(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) والآيات المبينة لذلك ومعنى ريب المنون .
٦٩٣	(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) والإحالة على بيان معناها .
٦٩٤	(أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) والإحالة على بيان معناها .
٦٩٤	(أم لهم سلم يستمعون فيه) الآية وبيان الإحالة على ما يوضح معناها .
٦٩٤	(أم له البنات ولكم البنون) وبيان الإحالة على معناها .
٦٩٤	(أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) وبيان الإحالة على مايوضحها .
٦٩٤	(وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) وبيان الإحالة على إيضاح ذلك .
٦٩٥	(يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا) الآيات المبينة لذلك .
٦٩٥	(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون) والآيات الموضحة لمعناها .
٦٩٩	سورة النجم
٦٩٩	(والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) والآيات المبينة لذلك . واختلاف العلماء فى معنى النجم المذكور فى الآية .
٧٠٠	الأظهر فى المراد بالنجم والمراد بمواقع النجوم .
٧٠٢	(علمه شديد القوى) والآيات المبينة لذلك. وبيان أن القرآن كلام الله بألفاظه ومعانيه .

الصفحة	الموضوع
٧٠٣	(مازاغ البصر وما طغى) وبيان الإحالة على ما يوضحها .
٧٠٤	(ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى) والإحالة على إيضاحها .
٧٠٤	(فلله الآخرة والأولى) والآيات الموضحة لها .
٧٠٤	(وكم من ملك فى السماوات لاتغنى شفاعتهم شيئا) الآية والإحالة على بيانها
٧٠٤	(إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) الآية والإحالة على بيانها .
٧٠٥	(ولله ما فى السماوات ومافى الأرض ليجزى الذين أساؤا بما عملوا) الآية والإحالة على بيانها .
٧٠٥	(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) والإحالة على بيانها .
٧٠٥	(إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم) والإحالة على بيانها .
٧٠٥	(أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى ـ إلى قوله ـ الجزاء الأوفى) والآيات الوضحة لذلك واختلاف العلماء فى هذا الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى من هو ؟ وتضمن هذه الآية الكريمة سبعة أمور وبيانها بالقرآن.
٧٠٩	الجمع بين قوله تعالى : (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) وبين قوله (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) .
٧١١	(وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) والآيات الموضحة لذلك.
٧١٢	(وأن عليه النشأة الأخرى) والإحالة على بيانها .
٧١٢	(وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى) والإحالة على الآيات الموضحة لها.
٧١٣	(وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) والآيات المبينة لمعناها .
٧١٤	(والمؤتفكة أهوى) والآيات الموضحة لذلك ومعنى المؤتفكة . .
٧١٤	(أزفت الآزفة) والإحالة على بيانها .
٧١٤	(أفمن هذا الحديث تعجبون) والإحالة على بيان معناها .

الصفحة	الموضوع
٧١٧	سورة القمر
٧١٧	(اقتربت الساعة) والإحالة على بيانها
٧١٧	(وإن يروا آية يعرضوا) والإحالة على بيانها .
٧١٧	(يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع) والإحالة على بيانها .
٧١٧	(يقول الكافرون هذا يوم عسر) والإحالة على بيانها .
٧١٧	(فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) الآية والآيات الموضحة لذلك وإعراب قوله عيوناً وبيان من يقرأ فتحنا بالتشديد من التسعة . وبيان من يقرأ عيوناً بكسر العين .
٧١٩	(وحملنه على ذات ألواح ودسر) والآيات المبينة لمعناها .
٧٢٠	(ولقد تركناها أية فهل من مدكر) والآيات المبينة لذلك .
٧٢٠	(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) والإحالة على إيضاحها .
٧٢٠	(إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) والإحالة على بيانها .
٧٢١	(فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه . أءلقى الذكر عليه من بيننا) والإحالة على بيان معانيهما .
٧٢١	(إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) والآيات الموضحة لها وإعراب فتنة .
٧٢٢	(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) والآيات الموضحة لها .
٧٢٣	(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) وبيان أن هذه الآية تزيل إشكالا معروفاً حيث إن الله أسند العقر تارة لواحد وأسنده تارة إلى ثمود كلهم فى آيات متعددة إلى آخر الكلام .
٧٢٥	(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) والإحالة على بيانها .
٧٢٥	(إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر) والإحالة على بيانها .
٧٢٥	(ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) والآيات الموضحة لذلك وأجوبة العلماء عن جمعه للنذر هنا مع أن آل فرعون جاءهم موسى وهارون من النذر وإيضاح ذلك .

الصفحة	الموضوع
٧٢٩	(أكفاركم خير من أولئكم) والإحالة على بيانها .
٧٢٩	(يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) والإحالة على بيانها.
٧٢٩	(إنا كل شىء خلقناه بقدر) والإحالة على بيانها .
٧٢٩	(وكل شىء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر) والآيات الموضحة لذلك .
٧٣٠	(إن المتقين فى جنات ونهر ... ضح ذلك .
٧٣٣	سورة الرحمن
٧٣٣	(الرحمن علم القرآن) والآيات المبينة لمعناها .
٧٣٤	التحقيق أن المحذوف من مفعولى علم القرآن هو الأول لا الثانى كما ظنه الفخر الرازى .
٧٣٥	(خلق الإنسان علمه البيان) والآيات المبينة لذلك والتحقيق فى معنى البيان .
٧٣٦	(والشمس والقمر بحسبان) والآيات الموضحة لبيانها وبيان الإحالة على بعضها .
٧٣٧	(والنجم والشجر يسجدان) والإحالة على بيانها والتحقيق فى المراد بالنجم هنا وشواهد ذلك من العربية .
٧٣٨	(والسماء رفعها ووضع الميزان) والإحالة على إيضاحها .
٧٣٨	(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) والإحالة على بيانها .
٧٣٨	(والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان) والآيات المبينة لها . وبيان معنى العصف والريحان . وما فيهما من القرآن .
٧٤٢	مسألة أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية وأمثالها من الآيات أن الأصل فيما على الأرض الإباحة حتى يرد دليل خاص بالمنع .
٧٤٥	تنبيه : اعلم أن علماء الأصول يقولون إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شىء إلا بدليل من الشرع ويقولون إن الدليل على ذلك عقلى وهو البراءة الأصلية،

الصفحة	الموضوع
	ونحن نقول إنه دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلى قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة فى الإباحة إلخ .
٧٤٦	(خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار) والآيات الموضحة لها والاختلاف فى المراد بالجان .
٧٤٧	(رب المشرقين ورب المغربين) والإحالة على ما يوضحها .
٧٤٧	(مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) والإحالة على إيضاحها .
٧٤٨	(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وبطلان قول من قال إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الملح دون العذب والإحالة على إيضاح ذلك .
٧٤٩	(وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) والإحالة على إيضاحه .
٧٥٠	(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) والآيات الموضحة لذلك .
٧٥٠	(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم) الآية والإحالة على إيضاحها .
٧٥٠	(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) واختلاف العلماء على قولين فى معنى الدهان وحقيقة الفرق بينهما والآيات الموضحة لذلك .
٧٥٣	(فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) والآيات المبينة لذلك والجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى (فوربك لنسالنهم أجمعين عما كانوا يعملون) والإحالة على طرف من ذلك .
٧٥٤	(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) والآيات الموضحة لمعناها والإحالة على بعضها .
٧٥٥	(هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها و بين حميم آن) والإحالة على بعضها .
٧٥٦	(ولمن خاف مقام ربه جنتان) والآيات الموضحة لذلك. وبيان أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة .

صفحة	الموضوع
٧٥٧	(متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) والإحالة على إيضاحها .
٧٥٧	(فيهن قاصرات الطرف) والإحالة على بيانها .
٧٦١	سورة الواقعة
٧٦١	(إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة) والآيات الموضحة لذلك والصواب فى إعراب إذا من قوله (إذا وقعت) وكذلك إذا من قوله (إذا رجت الأرض)وذكر الأوجه الواردة فى تفسير ليس لوقعتها كاذبة وأن كلها حق.
٧٦٣	(خافضة رافعة) والآيات الموضحة لمعناها واختلاف العلماء فى معنى .
٧٦٤	التحقيق أن سير الجبال المذكور فى قوله تعالى : (ويوم نسير الجبال) يوم القيامة .
٧٦٤	(إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) والآيات الموضحة لمعناها والإحالة على بعضها والوقوف على معنى بست وشواهد ذلك من العربية .
٧٦٧	(وكنتم أزواجاً ثلاثة) والآيات الموضحة لمعناها وبيان أن كنتم : بمعنى صرتم . وشاهده من لغة العرب واختلاف العلماء فى معنى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال .
٧٦٩	(ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) واختلاف العلماء فى المراد بالأولين والآخرين واختلافهم أيضاً فى المراد بهما فى ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) .
٧٧٠	قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: ظاهر القرآن فى هذا المقام أن الأولين فى الموضعين من الأمم الماضية والآخرين فيهما من هذه الأمة . إلخ .
٧٧١	قوله تعالى : (على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين) والآيات الموضحة لذلك مع بيان معنى الوضون ، والشواهد المبينة لذلك .
٧٧٢	قوله تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون) والإحالة على ذلك .

الصفحة	الموضوع
٧٧٣	قوله تعالى (وكأس من معين لايصدعون عنها ولا ينزفون) والإحالة على ذلك .
٧٧٣	قوله تعالى (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون) والإحالة على ذلك.
٧٧٣	قوله تعالى (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) والآيات الموضحة لذلك.
٧٧٣	قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) والإحالة على ذلك .
٧٧٣	قوله تعالى (وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة) والآيات الموضحة لذلك .
٧٧٤	قوله تعالى (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن إبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين) والآيات الموضحة لذلك ، وبيان الخلاف فى مرجع الضمير فى قوله : أنشأناهن ، مع بيان القرآن فى قوله : عربا ، وبيان الشواهد المبينة لها .
٧٧٦	قوله تعالى (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم) والإحالة على ذلك .
٧٧٧	قوله تعالى (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم) والإحالة على ذلك .
٧٧٧	قوله تعالى (كانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) والآيات الموضحة لذلك ، مع بيان القرآن فى قوله أو آباؤنا ، وبيان الأوجه التى فى همزة الاستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف ورجوعنا عن تقديم بعض الأوجه فيها وصرنا إلى غيره ، والشواهد العربية فى ذلك ، وبيان القرآن فيها .
٧٨١	تنبيه مهم جدا فى منع القراءة بالهاء الخالصة فى الهمزة الثانية من قوله (أئذا متنا) وأمثالها فى القرآن وانتشار هذه القراءة الباطلة فى الأكثر من الأقطار الافريقية .

الصفحة	الموضوع
٧٨٢	قوله تعالى : (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) والآيات الموضحة لها ، والإحالة عليها أيضاً
٧٨٣	قوله تعالى : (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم) الآية والإحالة على توضيحها
٧٨٣	قوله تعالى : هذا نزلهم يوم الدين ، والآيات الموضحة لها
٧٨٤	قوله تعالى : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ، والآيات الموضحة لذلك مع الإحالة عليه أيضاً
٧٨٥	قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) والآيات الموضحة لها ، وبيان القرآن فيها
٧٨٦	تنبيه : يجب على كل إنسان النظر فى هذا البرهان القاطع الدال على البعث ، الذى هو خلق الإنسان من نطفة فى قوله : فلينظر الإنسان مما خلق
٧٨٧	قوله تعالى: (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين) الآية ، والآيات الموضحة لها وبيان أوجه التفسير فى قوله : قدرنا وأن كل واحد منها يشهد له قرآن وبيان القرآن فى الآية
٧٨٩	قوله تعالى : (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما) الآية ، والآيات الموضحة لذلك مع الإحالة على هذا البيان
١٩٠	تنبيه مهم فى أنه يجب على كل إنسان النظر فى هذا البرهان القاطع الذى دل عليه الأمر فى قوله : فلينظر الإنسان إلى طعامه وما يحويه من قدرته تعالى ومنته على خلقه ، وقدرته على بعثهم
٧٩٢	قوله تعالى : (أفرأيتم الماء الذى تشربون ـ إلى قوله ـ فلولا تشكرون) والآيات الموضحة لها ، مع بيان شدة حاجة المخلوق إلى خالقه وأن الماء الذى فى الأرض أصله نازل من المزن
٧٩٤	بيان أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده
٧٩٤	تنبيه لغوى على أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة وإلى المنعم أخرى ،

الصفحة	الموضوع
	ومايشهد لذلك من القرآن ومن لغة العرب . وبيان جواز اقتران جواب لو باللام وعدمه كله سائغ
٧٩٥	قوله تعالى : (أفرأيتم النار التى تورون ـ إلى قوله :ـ ومتاعاً للمقوين) ، والآيات الموضحة لها ، وقدرة الله على البعث ، وأن أكثر الأشجار فى فى استخراج النار منه هو شجر المرخ والعفار ، وأن فى كل شجر ناراً إلا شجر العناب
٧٩٦	قد تقرر فى الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ واردا للامتنان ، وذلك فى قوله : (متاعاً للمقوين) ، أى وغير المقوين وبيان معنى المقوين ، وما يشهد له من كلام العرب
٧٩٧	قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، والإحالة على توضيحها
٧٩٧	قوله تعالى : (إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) ، والآيات الموضحة لها ، مع بيان جواز إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، وأنه أسلوب عربى وشواهد ذلك من كلام العرب ، وبيان معنى التسبيح ، وجواز دخول الباء على المفعول فى قوله : (باسم ربك
٨٠٣	سورة الحديد
٨٠٣	قوله تعالى : (سبح لله مافى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ، والآيات الموضحة لها ، مع بيان معنى التسبيح فى اللغة والشواهد البينة لذلك
٨٠٤	الرد على من زعم من أهل العلم أن تسبيح الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها
٨٠٥	قوله تعالى : (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) والإحالة على ذلك فى عدة مواضع
٨٠٦	قوله تعالى : (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) والإحالة على ذلك

الصفحة	الموضوع
٨٠٦	قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) والإحالة على ذلك
٨٠٧	قوله تعالى : (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) ، والآيات الموضحة لذلك
٨٠٨	قوله تعالى : (ولله ميراث السماوات والأرض) ؛ والإحالة على ذلك
٨٠٨	قوله تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الآية والآيات الموضحة لذلك
٨٠٩	قوله تعالى : (ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) الآية ، والآيات الموضحة لذلك
٨١١	قوله تعالى: (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) والإحالة على ذلك
٨١١	قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) الآية والآيات الموضحة لذلك . مع بيان وجهى التفسير فى قوله : ألم يأن ونحوه من كل فعل مضارع مجزوم بلم وتقدمته همزة الاستفهام
٨١٣	قوله تعالى : (كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما) والإحالة على ذلك
٨١٣	قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) والآيات الموضحة لذلك
٨١٥	قوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) الآية والإحالة على ذلك
٨١٥	قوله تعالى: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والآيات الموضحة لذلك . مع بيان أن إقامة دين الإسلام تبنى على أمرين إلخ
٨١٧	قوله تعالى : (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) والإحالة على ذلك
٨١٦	قوله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) الآية ، والآيات الموضحة لذلك ، وأنها فى شأن المؤمنين ، لا فى أول الكتاب خلافا لمن زعم ذلك

الصفحة	الموضوع
٨١٦	قوله تعالى : (وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) والآية الموضحة لذلك . مع الإحالة على ذلك أيضاً
٨١٩	سورة المجادلة
٨١٩	قوله تعالى : (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم -إلى قوله- فإطعام ستين مسكينا) ، والإحالة على ذلك
٨١٩	قوله تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات ومافى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم - إلى قوله - إن الله بكل شىء عليم) . والإحالة على دلك
٨١٩	قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) الآية والإحالة على ذلك
٨٢٠	(ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم)الآية والآيات الموضحة لذلك ، مع الرد على من قال إن لفظة : ألم تر لا تتعدى إلا بحرف الجر ولا تتعدى بنفسها ، والإحالة على ذلك
٨٢١	قوله تعالى : (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين) والآيات الموضحة لذلك
٨٢٢	قوله تعالى : (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) الآية والإحالة على ذلك
٨٢٧	(استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) والآيات الموضحة لذلك
٨٢٢	قوله تعالى : (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) ، والآيات الموضحة لذلك
٨٢٣	قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) والآيات الموضحة لذلك
٨٢٤	قوله تعالى: (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم) الآية ، والآيات الموضحة لذلك مع أسباب النزول.

قد انتهى ما كتبه فضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي قبل وفاته رحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل له المثوبة وأعلى له المنزلة ونفعه بعد موته بما ورث من علمه ونفع بعلمه طلابه وضاعف له بنفعهم ثوابه إنه سميع مجيب .

لقد كان رحمه الله حريصاً كل الحرص على إنجاز هذا الجزء وتقديمه لطلاب العلم كما كان حريصاً على إتمام الكتاب لإكمال منهجه فيه والاستفادة به . ولكن إرادة الله نافذة وقدرته غالبة فانتقل الشيخ إلى رحمة الله تعالى وجوار ربه .

فقام أبناؤه وخاصة طلابه بالعمل على إنجاز هذا الجزء المبارك وتقديمه لطلاب العلم على النحو الذى كانوا يعملونه معه رحمه الله . وهم جادون فى إكمال الكتاب على ما ييسره الله لهم .

فرحم الله المؤلف بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنته .

وشكر الله لأبنائه وطلابه وكل من ساهم فى هذا العمل من بعده إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

استدراك

ص	سطر	الخطا	الصواب
٥	١٠	لـكنها	كاها
٦	١٠	قوله من قال	وقول من قال
١٠	١٨	يعنى ى لا	يعنى أى لا
١٢	٧	الرجع هو	الرجع الذى هو
١٤	٨	وصيغة الجميع	وصيغة الجمع
١٩	١٥	مائل	مائيل
٢٠	١٧	شجر مثلـكم	بشر مثلـكم
٢٣	١٤	الموضحة فى مواضع	الموضحة له فى مواضع
٣١	١٨	واتقوا الله لعلـكم	واتقوا الله لعلـكم
٣٣	١٤	إنا إنزلنا	إنا أنزلنا
٣٥	٣	وما روى عنه عن السلف	وماروى عنه من السلف
٣٦	٣	وأوب إذ نادى	وأيوب إذ نادى
٤٤	٧	هو الواحد	هو الله الواحد
٤٦	٨	الإنسان ضر	الانسان الضر
٤٨	١٨	من ذكر وأنثى	من ذكر أو أنثى
٥٠	٨	عمرو ن نفيل	عمرو بن نفيل
٥١	٣	وإلغاء فاء الجزاء	والفاء فاء الجزاء
٥٣	١٠	شرح صدره	شرح الله صدره
٥٤	١	وهى مال مؤكدة	وهى حال مؤكدة
٥٤	٢١	أمثلة دلك	أمثلة ذلك
٥٥	١٤	الموضحة فى سورة	الموضحة له فى سورة
٦١	٦	الآية قد تقدم	قد تقدم
٧٠	٤	من تولاه فإنه	من تولاه فأنه
٧٠	٩	الدين استجابوا	الذين استجابوا
٧١	٣	إن لله اعليم	أن الله عليم
٧١	٦	إن الذين	قل إن الذين
٧٧	٦	أن تتركون أنعامكم	أى تتركون أنعامكم
٧٧	١٦	من السماء رزقا	من السماء رزقا) إلا من ينيب
٧٩	١٨	عن يوم القيامة	من يوم القيامة

ص	سطر	الخطا	الصواب
٨٠	٢٢	التفسير . جهان	التفسير وجهان
٨١	٦	وإذا زاغت	وإذ زاغت
٨١	١٧	ورب أسراب	ورب أسراب
٨٢	١	حجيج	حجيج
٨٢	١٨	القلوب لدى الحناجر	القلوب على المعنى والتقدير إذ القلوب لدى الحناجر
٨٤	٣	بأيتنا	بآيتنا
٨٦	١١	أن ترحمون	أن ترجمون
٨٦	١٥	فيه آيات	فيه فى آيات
٨٦	٢٠	مبصرة قال هذا	مبصرة قالوا هذا
٨٨	١٨	فقال نبى الله	فقول نبى الله
٨٩	٣	بأل فرعون	بآل فرعون
٩١	١	أن الكفار قد تنكشف	أن الكفار تنكشف
٩١	٢	حاق به الخبر	حاق به الخير
٩١	١٣	الأجوف هو يأتى العين	الأجوف الذى هو ياءى العين
٩٣	٩	وقوله تعالى	قوله تعالى
٩٤	٣	وسيجنبها الأشقى	ويتجنبها الأشقى
٩٤	١٦	ولقد أتينا	ولقد آتينا
٩٤	١٧	وأنزلنا التوراة	إنا أنزلنا التوراة
٩٥	١٦	أسلموا اللذين هادوا	أسلموا اللذين هادوا
٩٥	١٩	وقد قدمنا	قد قدمنا
٩٧	٣	إن الساعة لأتية	إن الساعة لآتية
٩٧	٢٠	وقد قدمنا إيضاح لقوله فى سورة	قد قدمنا إيضاح كقوله فى سورة
٩٩	٨	أو الخبر	والخبر
٩٩	١٨	ثوبى فأنهض	ثوبى فأنهض
١٠٦	٢٢	إنما تنذر الذين	إنا تنذر الذين
١٠٨	١٢	من أن يسمعون من	من أن يسمعوا من

ص	سطر	الخطا	الصواب
١٠٩	١١	الهدى سبب أنهم	الهدى بسبب أنهم
١١٠	١٣	لايفقهون من براهين	لايفقهون أى لايفهمون من براهين
١١١	١٤	يؤل معناها	يؤل معناهما
١١١	٤	أما الذين في قلوبهم	وأما الذين فى قلوبهم
١١١	١٦	قد حاول الفخر	وقد حاول الفخر
١١١	١٧	في معرض الذم فقال	فى معرض الذم ، وذكر أيضا مايقرب منه فى معرض الذم فقال
١١٣	١٤	يوحى إلى إنما	يوحى إلى أنما
١١٨	١	قوله تعالى وقدر فيها	قوله تعالى (وبارك فيها) أى أكثر فيها البركات والبركة الخير وقوله تعالى (وقدر فيها
١١٨	١٧	والانفصال ثم آية	والانفصال وكذلك آية
١٢٠	٦	مافيها كأنه	ما فيها كان كل ما فيها كأنه
١٢٠	١٨	وهو خلاف في التحقيق	وهو خلاف التحقيق
١٢١	١٤	الصرف فعال	الصرف فعفل
١٢٣	١	يكون الحاء	بسكون الحاء
١٢٤	٤ـ٥	فى نحس مستمر	فى يوم نحس مستمر
١٢٤	٨	أقض باليمين	اقض باليمين
١٢٦	١٠	سنوكها	سلوكها
١٢٧	١٥	العذاب الهوان	العذاب الهون
١٢٨	٦	وعادوا وثمودا	وعادا وثمودا
١٣٣	١٠	قوله : قيضناء	قوله : قيضنا
١٤٠	٧	فيها صيغة	فيها صيغة
١٤١	٢٠	قد استعمل	قد تستعمل
١٤٢	١	دع المكاره	دع المكارم
١٤٢	٥	ذولبن وتمر	ذولبن وذو تمر
١٤٢	١٧	وقد قدمنا إيضاح	وقد قدمنا إيضاحه
١٤٢	١٩	(إليه يرد علم الساعة)	(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ)
١٤٣	٢	وماتحمل	وماتَحْمِلُ
١٤٣	١٨	بل أدارك	بل ادارك
١٤٤	١٢	بان تغتروا	بأن تغتروا
١٥٠	٤	وكان الله عزيز حكيما	وكان الله عزيزا حكيما
١٥٢	٦	هيبة وإجلال	هيبة وإجلالا
١٥٢	١٠	مناسبة لما قبله	مناسبته لماقبله
١٥٤	٤	وضفوف الملائكة	وصفوف الملائكة
١٥٤	٥	ومالم يعلم	ومالا يعلم
١٥٤	٩	مؤثرة	مؤثرة
١٥٤	١٣	افترائهم	افتراؤهم
١٥٤	٢٠	ليسوا بها كافرين	ليسوا بها بكافرين
١٥٨	١٠	خصص	خص
١٥٨	١٩	عن وجهين	من وجهين
١٦٥	٧	فن يسكفر	فن يكفر
١٦٧	٧	فحكم الجاهلية	أفحكم الجاهلية
١٧١	٤	كائن ووقع	كائن وواقع
١٧٢	١	متبعو	متبعوا
١٧٢	٤	أصلوها اليوم	اصلوها اليوم
١٧٤	١٠	وقوله تعالى أيضا	وقوله تعالى فيه أيضاً
١٧٩	٥	إن هذه أمتكم	وإن هذه أمتكم
١٧٩	٨	إن هذه أمتكم	وإن هذه أمتكم
١٧٩	١٩	إلى اثنين وسبعين	إلى اثنتين وسبعين
١٨٠	٨	من عبد نوح	من عهد نوح
١٨١	١٨	أن يحذر ؛ يحذر	أن يحذر ثم يحذر
١٨٢	٤	اجتباءه	اجتباءه
١٨٣	٩	قال بعض أهل العلم	وقال بعض أهل العلم
١٨٥	٥	مختلفين	مختلفتين
١٨٥	١٠	ليث الكئيبه	ليث الكتيبة
١٨٨	١٤	إلى غير من الآيات	إلى غيرذلك من الآيات
١٩٠	٩	وأحرى قرابة النبى	وأحرى قرابة قرابةالنبى
١٩١	٢١	قال قائله	قال قاتله
١٩٧	١	على هذا الفول	على هذا القول
١٩٨	١٤	عليهم وأعدلهم	عليهم ولعنهم وأعد لهم
١٩٩	١٤	إنما دل نفى	إنما دل على نفى
٢٠٣	٦	فى العمل به كقوله	فى العمل به لقوله
٢٠٨	١	كذبوا نبين	كذبوا نبينا

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠٨	١١	أهلك من أهم أقوى	أهلك من هم أقوى
٢٠٨	١٦	أولم يروا	ألم يروا
٢٠٩	٧	ما كان به يستهزءون	ما كانوا به يستهزءون
٢٠٩	١٨	التى هو أقوم	التى هى أقوم
٢١١	٩	يكثر الماء حدا	يكثر الماء جدا
٢١٣	٣	ما تركبونه	ما تركبون
٢١٣	١٣	فتبجرها	فتجرها
٢١٤	١٤	فإذا أوجبت	فإذا وجبت
٢١٨	٢٠	بكون النون	بسكون النون
٢٢٠	٥	تعالى وإن عليكم	تعالى فى مواضع من كتابه كقوله تعالى وإن عليكم
٢٢٢	١٩	رده عليهم إن شاء الله	رده عليهم إن شاء الله قريبا
٢٢٣	١	فأومح	فأوضح
٢٢٣	١٦	وتأبيدهم	وتأبيدهم
٢٢٥	٤	اه	؟
٢٢٥	١٠	ولا مجيور غير مستقل به	ولا يجور وغير مستقل به
٢٢٦	٩	لأنك أنزه من أن تدبر	لأنك أنزه وأجل من أن تدبر
٢٢٧	١٣	وانضلال أو لو جئتكم	والضلال ولو جئتكم
٢٢٩	١٤	ذكر جل وعلا هذه الآية	ذكر جل وعلا فى هذه الآية
٢٣٠	١	وحهث وجهى الذى	وجهت وجهى للذى
٢٣٥	٣	الدالة من خول	الدالة على دخول
٢٣٧	١	ومن رواية	وفى رواية
٢٣٧	٢	قرين وكلمة نحوها	قرين أو كلمة نحوها
٢٣٧	٣	كنانة الأول	كنانة والأول
٢٣٨	١٧	وما كان محمدا	ما كان محمد
٢٣٩	٥	فلا تعررك	فلا يغررك
٢٤٠	٢٩	إطلاق المولى	إطلاق الموالى
٢٤٠	٢٢	ولا تظهرن	لا تظهرن

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢٤٢	٤	عن افتراضهم	اقتراحهم
٢٤٢	١٩	فوجدوا عبدا	فوجدا عبدا
٢٤٦	١٦	المتمعون	المتمتعون
٢٤٧	١٥	ابن كثير وأبو عمر	ابن كثير وأبو عمرو
٢٤٩	١	فى آية الأعراف (قل هى	فى آية الأعراف هذه (قل هى
٢٥٢	١	فالنصب للمنجز	فالنصب للمتجز
٢٥٢	٥	يخف ليس	يخف لبس
»	١٨	جاءنا	جاآنا
٢٥٤	١٦	رسولا اعيدوا الله	رسولا أن اعبدوا الله
٢٥٥	١٢	فلمنا كشفنا	فلما كشفنا
٢٥٥	١٩	قوله تعالى (ولا يكاديبين	قوله تعالى عن فرعون (ولا يكاد يبين
٢٥٦	٢٥	قوأ هذا الحرف	قرأ هذا الحرف
٢٥٨	٦	فمعنى قوله ماضربوه	فمعنى قوله تعالى ما ضربوه
»	١٤	فيها بلفظ	فيها بلفظة
»	١٧	أن الذين سيقت لهم	إن الذين سيقت
٢٥٩	٣	أن أساليب	أن من أساليب
٢٦١	١	آلهتنا خير	أآلهتنا خير
»	٤	نفضل معبوداتهم	تفضيل معبوداتهم
»	٨	فكيف نزعم	فكيف تزعم
»	١٦	وقال تعالى فى هذه الآية	وقوله تعالى فى هذه الآية
»	١٦	خاصمون أى لد	خصمون أى لد
٢٦٢	١	وقد علمت لما ذكرنا	وقد علمت مما ذكرنا
»	١٢	من تراب) سماعهم	من تراب) وسماعهم
٢٦٣	٢	وإذ نخالق	وإذ تخلق
٢٦٢	١١	علم لساعة	علم للساعة
٢٦٤	١	وأطلق المسبب	فأطلق المسبب
٢٦٤	٢	٢ وأيد سببه	وأريد سببه
»	١٠	إذ ما حذفا	إذا ما حذفا

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢٦٥	٦	تعالى قال : وقولهم تعالى قال :(وقولهم	(إنا قتلنا إنا قتلنا
٢٦٨	١٤	يعرف الاستعمال	بعرف الاستعمال
٢٧١	٧	دلالة تعالى قوله	دلالة قوله تعالى
٢٧٢	١٦	جلا وملا	جل وعلا
٢٧٥	٢٠	أفتخذونه	أفتتخذونه
٢٧٩	١٩	كما حرره	كما حرروه
٢٨١	٢١	أن تلتذ به عين	أى تلتذ به الأعين
٢٨٢	١	شر الناظرين)أسند	شر الناظرين) وأسند
٢٨٣	١٤	فى غلال	فى ظلال
٢٨٤	١	لؤلؤ منثورا	لؤلؤا منثورا
٢٨٥	٣	اللازم في قوله	اللام فى قوله
٢٨٦	٢١	ونوضح هنا	ونوضح هناك
٢٨٧	٦	وقد قدمنا	قد قدمنا
»	١٥	العابدين لله لذلك الولد	العابدين لذلك الولد
»	١٧	أن يكون له ولدا	أن يكون له ولد
٢٨٨	١٦	ستة أشهرا	ستة أشهر
»	٢١	أن يكون لله ولدا	أن يكون لله ولد
٢٨٩	٣	إلى القول أن إن نافية	إلى القول بأن إن نافية
»	٩	(وإن كانت الاصيحة	(إن كانت إلا صيحة
»	١١	ما كان لله ولدا	ما كان لله ولد
»	١٤	عن ذلك علو كبير	عن ذلك علوا كبيرا
»	١٥	لأنه جار اللغة العربية جار على اللغة العربية	
»	١٦	ليتهام النية	ليتهام البتة
٢٩٠	٥	وأخير ما يفسر	وخير ما يفسر
»	١١	وأنه قوله تعالى	وأن قوله تعالى
»	١٦	محذورة ولايجوز	محذورة لا يجوز
٢٩٢	٣	أن مدار الصدق الكذب	أن مدار الصدق والكذب
٢٩٢	١٧	عند ذلك علوا كبير	عن ذلك علوا كبيرا

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢٩٣	١٠	مثل هذا كان المعلق	مثل هذا لو كان المعلق
٢٩٤	١١	غلط فأحش	غلط فاحش
٢٩٥	١٨	الشرطية واللزومية	الشرطية اللزومية
٢٩٦	٢	ولم يرع	ولم يدع
٢٩٦	١٥	لمعنى اقتضاء الربط	لمعنى اقتضاه الربط
٢٩٧	٢٠	ومساوىء نقيضه	ومساوى نقيضه
٢٩٨	١٦	بعض أهل العالم	بعض أهل العلم
٣٠٠	١٣	فأنا أولى من يقول	فأنا أول من يقول
٣٠٢	٦	علق الحال	علق المحال
٣٠٢	٧	الذى مثل به الزمخشرى	الذى مثل له به الزمخشرى
٣٠٣	١	تخالق الله لـكفر	تخلق الله للـكفر
»	٨	بمعنى إن كان(للرحمن ولد)	بمعنى (إن كان للرحمن ولد)
٣٠٥	١٤	يعد ذلك	بعد ذلك
٣٠٥	١٧	الزمن فى الماضى فى نحو	الزمن الماضى فى نحو
٣٠٦	٣	مثلة فى الآيات	مثله فى الآيات
٣٠٦	٦	فإن المحزور	فإن المحذور
٣٠٦	٢٠	فى كون أن فى الآية	فى كون إن فى الآية
٣٠٩	٧	تعالى فى سياق الآيات	تعالى بعده فى سياق الآيات
٣١٠	٣	نزهه نفسه	نزه نفسه
٣١٠	٣	وتعالى قوله	وقوله تعالى
٣١٠	١٣	ولد وله مافى السماوات	ولد له مافى السماوات
٣١٢	٥	كمبتغى	كمبتغى
٣١٩	٣	ماسالف	ما خالف
٣٢٠	١٦	مكائيل	ميكائيل
٣٢١	٣	النصر	النضر
٣٢٣	١	الموضحة فى سورة	الموضحة له فى سورة
٣٢٣	٧	الواضحة لإبطاله	الموضحة لإبطاله
٣٢٤	١	أن سلموا إلى	أى سلموا إلى
٣٢٤	١٠	معنى مقول	معنى القول
٣٢٥	١٤	فى هذا الموضع	فى غير هذا الموضع

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٣٢٥	٢٠	يصب من رءوسهم	يصب من فوق رءوسهم
٣٢٩	١٥	البراهين ، وإنما	البراهين ، إنما
٣٣١	٥	من السماء ماء	من السماء من ماء
٣٣٢	١٧	هلى هذا	على هذا
٣٣٣	١٠	أن ذلكم لآيات	إن فى ذلكم لآيات
٣٣٣	١٢	وآية لهم ق الأرض	وآية لهم الأرض
٣٣٤	٣	النظيم ، والاستدلال	العظيم الاستدلال بها
٣٣٥	١٠	رميم قال يحييها	رميم قل يحييها
٣٤٣	١	أبى عمرو ويؤمنون	أبى عمرو يؤمنون
٣٤٣	٩	قريبا أى من صفاته	قريبا أن من صفاته
٣٤٤	٣	الهمزة واوٌ	الهمزة واوا
٣٤٥	٩	شركاء الله	شركاء لله
٣٤٦	٢	شيئا أولئك	شيئا وأولئك
٢٥١	٦	وقد قدمنا	قد قدمنا
٣٥١	١٠	هذ المعنى	هذا المعنى
٣٥٣	١	موجودة ، وفى ذلك	موجودة ، فى ذلك
٣٥٣	٣	صرح الله هى بأنها	صرح الله بأنها هى خير
٣٥٤	١٥	وضع الشىء غير	وضع الشىء فى غير موضعه
٣٥٨	٣	أفرءيت	أفرأيت
٣٦٥	٣	على سورة الحروف	على الحروف
٣٧٢	١٧	صفات المعبودِ الأخرى	المعبودات الأخرى
٣٧٣	٢١	لهم أعداء) الآية	لهم أعداء) الآية
٣٧٥	١	بمعناها	بمعناهما
٣٧٦	٢	بالقتل وتقول	بالقتل لو تقول
٣٧٦	١٢	إنى إن أخاف	إنى أخاف
٣٧٧	٣	واستنكارهم	استنكاركم
٣٧٩	١٢	فأخزنى لك	فأحزنى ذلك
٣٧٩	١٧	وجدتموه	وجدتموه
٣٧٩	٢٠	واء شكبرتم	واستكبرتم
٣٧٩	١٧	كونهم ظالين بينه	كونهم ضاين ظالمين بينه

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٣٨٢	١	فسارع لهم	نسارع لهم
٣٨٤	١٠	فتعدى الاثنين	فيتعدى لاثنين
٣٨٤	١٢	إيضاء	ايصاء
٣٨٧	٢١	صيغة	صيغه
٣٨٨	١١	وقول هديل	وقول عديل
٣٨٨	٢٠	فأمر	فالأمر
٣٨٩	٢٠	أف كلما	أف لكا
٣٩٠	٧	تحوزن	تجزون
٣٩٣	٧	يذكرون هنا آثار	يذكرون هنا آثارا
٣٩٥	٣	والآية	والآيات
٣٩٥	٢٢	الياء فى قوله	الباء فى قوله
٣٩٦	١٦	أنه هو عليه وعلى نبينا	أنه هو دعليه وعلى نبينا
٣٩٨	١	(ما أرسلت به إليكم)	(ما أرسلت به)
٢٩٨	٩	الموضحة فى سورة	الموضحة له فى سورة
٣٩٨	١٩	النجائب وتخفقوا	النجائب تخفقوا
٣٩٩	١٥	وأولادا كذبوا الرسل	وأولادا فلما كذبوا الرسل
٣٩٩	٢١	فيهم أيضا	فيها أيضا
٤٠٠		قربانا بل ضلوا	قربانا آلهة بل ضلوا
٤٠٠	١٠	وقد قدمنا	قد قدمنا
٤٠١	١٣	منطوق	منطوق
»	١٧	فى آيات آخر	فى آيات أخر
٤٠٤	١	مفهوم الشروط	مفهوم الشرط
»	١١	إنما هو فعل الشرط	إنما هو فى فعل الشرط
»	١٦	شروطات	مشروطات
٤٠٥	٨	بالغرض	بالفرض
»	٩	مسندا لامسند إليهما	سندان ، لامسند إليهما
»	١٠	مالم يرد لفظه	مالم يرد مجرد لفظه
٤٠٧	٨	مفاهم	مفاهيم
٤٠٩	٢٢	قد أفلح المؤمنين	قد أفلح المؤمنون
٤١٠	٨	وكلمة	وكلمه
٤١٨	٥	قد أمر	وقد أمر
»	١١	إذا سبق	إذا سيق
»	١٧	يروى منه هذا	يروى عنه هذا

ص	سطر	الخطا	الصواب
٤٢١	١٠	من الكفار قوله (فضرب	من الكفار لأن قوله (فضرب
٤٢٥	١١	وعيون) قوله تزروا	وعيون) وقوله تذروا
٤٢٥	١٩		
٤٢٦	١	نعلم	تعلم
»	٣	بعضها فى الجودة	بعضها بعضا فى الجودة
»	٣	مبدأ	مبتدأ
»	١٨	الذى الذى يقبل	الذى يقبل
٤٢٧	٣	آيات كثير	آيات كثيرة
٤٢٨	١٦	من عند الله	من عند غير الله
٤٢٢	٦	التى يضبطها	التى لا يضبطها
٤٢٣	١٢	العصر الأولى	العصر الأول
»	١٦	يجعلكم	يجعل لكم
»	٢٠	عمل بعض	عمل ببعض
»	٢١	راده الله	زاده الله
٤٣٥	٥	يقوك سورة	يقول فى سورة
»	٨	لتبشر به وتنذر	لتبشر به المتقين وتنذر
»	١٩	يهدى به الله اتبع	يهدى به الله من
٤٣٧	٢١	عن المذاهب ضال	المذاهب الأربعة ضال
٤٤٢	١	أن الباطل ينى	أن الباطل لا ينى
»	١٦	وينوا لنا ما هم	وبينوا لنا من هم
٤٤٣	٦	الأخذ بظواهرها	الأخذ بظواهرها
٤٤٥	٧	رما قدروا الله	وما قدروا الله
٤٤٦	١	وقد حرك	وقد جرك
»	١٥	مستند منك	مستند منك
		منك ولا من	ولا من

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٤٤٧	٩	وهكذا يجحدون	وهكذا يجحدون
»	١٦	له نفسه	به نفسه
٤٤٨	٢	(الله على كل شىء قدير)	(والله على كل شىء قدير)
»	٤	يشتق منه فقد آمن	يشتق منه وهذا لا يشتق منه فقد آمن
٤٥٢	٣٠	على الذين رجزا	على الذين ظلموا رجزا
٤٥٣	٢	من الحظ	من الحط
٤٥٤	١	هى المنزعة	هى المنزهة
٤٥٤	٣	يغالب على عرشه حتى غلبه الله العرش	يغالب الله على عرشه على حتى غلبه على العرش
٤٥٦	١٩	وأن محمد عبده	وأن محمدا عبده
٤٥٦	٢٠	والنار حق والساعة	وأن النار حق الساعة
٤٥٧	١٥	من فى السموات	من فى السماء
٤٥٧	٢٠	الابانة المذكوره	الابانة المذكور
٤٥٨	١١		وعلى الأفراد، لأنه والأفراد، لأنه
٤٥٩	٢	وأرقام البراهين	وأقام البراهين
٤٥٩	٥	رحمه لله	رحمه الله
٤٥٩	١٣	أنما يزعمه	أن ما يزعمه
٤٦٠	٥	إن الله يدين	إن لله يدين
٤٦٠	١٠	بقوله : يد	بقوله : يدى
٤٦١	١٥	له مجال	له بحال
٤٦٢	٢٠	كما شأن	كما هو شأن
٤٦٧	٢٠	المقالات المذكورة	المقالات المذكور
»	١٠	الله الكلام فى	الله فى

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٤٦٩	١٥	تلقاها عمرابة	تلقاها عرابة
٤٧٣	٣	المستغلون	المشتغلون
٤٧٤	٥	أربع	أربعة
٤٧٥	٥	أخلاق اللذات	أقسام اللذات
٤٧٥	١٦	اكابر الدين	آكابر الدين
٤٧٧	٤	على باب الاجتهاد	على الاجتهاد
٤٧٨	٥	عارفا فأدلة	عارفا بأدلة
٤٧٨	١٧	إنما	وإنما
٤٨١	٩	حتى يحكم النبي	حتى يحكموا النبي
٤٨٥	١	بخصوص	لخصوص
٤٨٥	١٧	من كتاب الله	من كتابه
٤٨٦	١٦	يخالف مضا	يخالف نصا
٤٨٧	١	مس أدلة	فى أدلة
٤٨٨	١٢	أنواع التقليد	نوع التقليد
٤٨٩	٢	ولن يستطع ذلك	ولن يستطيع ذلك
٤٨٩	٣	أهل العلم فساد	أهل العلم فى فساد
٤٨٩	٦	أبو عمر وبن عبد البر	أبو عمر بن عبد البر
٤٩٠	١٦	عائيا	عائيا
٤٩١	١	بين التقليديين	بين التقليدين
٤٩٥	٤	منها إلا أعلاها	منها إلى أعلاها
٤٩٨	٨	رحمه بعد	رحمه الله بعد
٥٠٠	١٦	مائة جلد	جلد مائة
٥٠٠	١٨	عمر قلد	عمر قد قلد
٥٠١	١٧	وطاعتهم وتقليدهم	وطاعتهم تقليدهم
٥٠٣	٤	ما أنذرهم	ما أنذروهم
٥٠٤	١٨	الجديد تقليدا	الجديد قلته تقليدا
٥٠٥	٩	جميع معرفة	جميع خلقه معرفة
٥٠٧	٢٠	كل من يعرف	كل منهم يعرف
٥٠٩	١٤	مالم يعلم	ما لا يعلم
٥٠٩	١٧	بحصوص	بخصوص
٥١١	٨	أن النبي	إن النبي
٥١١	١٦	مستأجرة	مستأجره
٥١٢	١٥	صوابا ما امرنا	صوابا مأمونا
٥١٢	٢١	يستحييوا	يستحيوا
٥١٤	٦	وتردون	وتدون
٥١٤	١١	وترون	وتدون
٥١٤	١٥	ورأيناأنك تبع	ورأينا لرأيك تبع
٥١٤	١٦	رضى الله لم يقلد	رضى الله عنه
٥١٥	١١	وعمر كأن	وعمر كان
٥٢٣	١٩	لا تفارقهم	لا تفاقهم
٥٢٤	٣	يستدلون بها	يستدلون بما
٥٣٠	١٦	مجمول	محمول
٥٣٣	٨	يلته	يفته
٥٣٥	١٥	دين	دية
٥٣٧	٨	إصايته	وإصابته
٥٤٤	١٠	لايتجزؤن	لا يتجزؤن
٥٤٤	١٧	أنهـه	أنه عنـه
٥٤٤	٢١	أحـد	أحـداً
٥٤٥	٩	إنما	إن ما
٥٤٥	١٥	يستحيو	يستحبون
٥٤٦	١٢	فحملتم	فجعلتم
٥٥٧	٦	ذلك	وذلك
٥٥٨	٦	إذلا تناقص	إذلا تناقض
٥٥٩	٣	نجبر	خير
٥٦٢	١	رحمه بأنه	رحمه الله بأنه
٥٦٩	١٧	المتسامين	المتساومين
٥٦٩	١٧	الذين	اللذين

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٥٧٥	٣	فاقدروا له ثلاثين	فاقدروا له متفق عليه ولمسلم فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين
٥٧٥	١٣	افتقد	افتقدت
٥٧٨	١٧	وحده	واحدة
٥٧٩	١٨	وعظمائه	عظائمه
٥٨٧	٢٠	وقوله تعا هذه	وقوله تعالى فى هذه
٥٨٨	١٠	آخر فى كتاب الله	أخر من كتاب الله
٥٩٣	٤	المراز	المراد
٥٩٤	٢	ما قبله	مما قبله
٥٩٤	٩	وسيحبطن	سيحبط
٥٩٦	١٥	الكبرى	البكرى
٥٩٨	١٦	يوم	ليوم
٥٩٩	٨	أموالكم	أموالكم
٦٠٠	٨	يذهبكم ويأت	يذهبكم أيها الناس
٦٠٥	١٥	ثلاث	بثلاث
٦٠٨	٤	فأنزل سكينته	فأنزل الله
٦٠٩	١٣	ويزيدون	يزدادون
٦١٣	١١	عن ذلك تصدروا	حتى تصدروا
٦١٥	٣	وأشار عمر	وأشار عليه عمر
٦٥١	١٨	مهينا	مبينا
٦١٨	١٠	الدى	الذى
٦٢٣	١٠	ينفع البر	ينفع فى البر
٦٢٣	١٨	يفتقدون	يعتقدون
٦٢٤	١٣	إذ رأى	إذا رأى
٦١٦	١	وسلم بالتجائهم	وسلم وأصحابه
٦٣٤	١١	لا تحتاج	التى تحتاج
٦٣٦	٢٠	سمى	مسمى

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٦٣٧	١٥-١٥	فى القلب	عن القلب
٦٣٩	١٧	بكل مافى السموات	وعالم بكل مافى
٤٦-	٧	الآية	الآيات
٦٤٧	٣	الوعبد	الوعيد
٦٥٠	٢	مللكا	أى ملكا
٦٥٩	١٠	(فالحاملات) وقرأ	(فالحاملات وقرأ)
٦٦١	٩	من تنكير المفرد	مع تنكير المفرد
٦٦١	١٢	لهذا هوشدة	لهذا التوكيد هوشدة
٦٦٦	٢	هو العلة على الأصح	هو العلة الشرعية على الأصح
٦٦٦	١١	وهو أنزل من السماء	وهو نازل من السماء
٦٧٠	٢٠	المذكر به ، لأن المذكر ، لأن	
٦٧٢	١٤	طوعا أو كرها	طوعا وكرها
٦٧٥	٤	قادر على على كل شىء	قادر على كل شىء
٦٨٧	٥	التى النفى للجنس	التى لنفى الجنس
٦٨	١٤	ولاهم عنها مترفون	ولاهم عنها ينزفون
٦٩٠	١٠	للسلامة فى الآخرة	للسلامة منه فى الآخرة
٦٩٤	١٩	ساقطا يقولون	ساقطا يقولوا
٦٩٥	١٥	لما دل على ذلك	كما دل على ذلك
٧٠١	١١	وإنه لقسم ولو تعلمون	وإنه لقسم لو تعلمون
٧٠١	١٧-	بل هو عالم متبع له	بل هو عالم بالحق متبع له
٧٠٢	٢١	المراد شديد القوى	المراد بشديد القوى
٧٠٣	١٦	فقرينته	فقرينة
٧٠٣	١٩	أرسله الله وأمره	أرسله الله به وأمر

ملاحظات الجزء السابع من اضواء البيان

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٢٣	١٣	وقالو ربنا عجل لنا قطنا	وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ـ توضح العـــين
٥٣	١٤	قما له من هاد	فما له من هـاد ـ زيادة نقطـة فوق الفاء تطمس
٦٣٦	١٢	قالت الاغراب	قالت الاعراب ـ زيادة نقطة فوق العين تطمس
٧٠٣	٢٢	مازاغ النصر وماطغى	مازاغ البصر وماطغي ـ نقلت الباء الى نون تصحيح
٨٢٢	١٨	ان الذين يحاذون الله ورسوله	ان الذين يحـادون الله ورسـوله زيادة نقطة فوق الدال تطمس